حزب الله.. وسقط القناع

أحمد فهمي

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـــرس

الصفحة

الموضوع

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الصفحة

الموضوع

الموضوع | الصفحة

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

العقيدة، التاريخ، والسياسة، إنه الثلاثي المتكرر، ونموذج التفسير والفهم الذي نحتاج إليه في مواجهة الأزمات والصراعات التي تواجه أمتنا الإسلامية.

حروب وأزمات بالوكالة، ومشروعات متنافسة، تفرض على المسلمين حتمية الاختيار بينها وفق ثنائية العالم الأحادي: معنا أو ضدنا، والتي لا تترك مجالاً للتفكير أو الفهم، وكأن مصائر الشعوب والدول تحولت إلى مسابقة ساذجة معلومة الجواب: [نعم] أو [لا]!

وتعمل آلة الإعلام والأبحاث والدراسات على ترسيخ هذا المفهوم الثنائي لدى الشعوب، وهو مفهوم ثقافي استعماري لا يليق بأمة الإسلام أن تستسلم له، بل واجب عليها أن تبحث عن الخيار الثالث، وهو الخيار الذي ينبني على ثلاثية: العقيدة، التاريخ، والسياسة، فينطلق من قواعد الإسلام، ويستحضر تجارب التاريخ، ويستوعب حقائق السياسة وأوهامها.

وتسعى وحدة الدراسات والأبحاث في مجلة البيان إلى تقديم رُؤى جديدة للصراعات الدائرة على الأرض العربية بين مشروعات أجنبية عنها، ونعني بها: الصراعات الدائرة في: لبنان، العراق، وما يستجد بعد ذلك من دول تنتقل إليها حلبة الصراع والتنافس.

هذه الرُّؤى مستقلة في طرحها ومنطلقة من ثوابت الإسلام وتجارب الماضي والحاضر، نهدف من خلالها إلى تبصير أبناء الأمة بما يحاط ضدهم فوق أرضهم،

وفق منهجية علمية موضوعية تتجاوز الانفعالات والعواطف المؤقتة، لتطرح الحقائق والمعلومات، وتبين العواقب والمآلات.

وتبدأ هذه السلسلة من لبنان، حيث «فتنة» حزب الله التي تمددت لتشمل قطاعات كبيرة من الأمة أذهلتها مصطلحات «المقاومة» و «الاحتلال» و «العمليات الفدائية» عن تلمُّس الحقيقة ومعرفة الأهداف والنوايا.

ونسأل الله ـ تعالى ـ أن يبصرنا بالصواب والحق، ويجلي الغمة وينصر الأمة.

مجلة البيان

١٤٢٨هـ

المقدمة

يقول قائد الثورة الإيرانية روح الله[(١)] الموسوي الخميني: «إننا لم نقم بالثورة من أجل تغيير سعر البطيخ»[(٢)]، وهذا القول يتخذه الرئيس الإيراني أحمدي نجاد شعاراً له؛ فهو يكثر من ترداده.

وعلى الجانب الآخر من المحور الشيعي الصفوي، يقول حسن نصر الله رداً على سؤال عن طموح الحزب: «الطموح أبعد من القصر الجمهوري في بعبدا إذاً؟»؛ فقال نصر الله: «ليس هو الطموح.. الفكر، العقيدة، الرسالة»[(٣)].

إنها ليست ثورة «البطيخ» ولكنها ثورة «الرسالة، والعقيدة»، ويعني ذلك: أن الذين يتناولون سيرة ومسيرة حزب الله اللبناني لن يجدوا في السياسة أو الطموح مدخلاً مناسباً لتفسير أداء الحزب وقراءة مستقبله، ومستقبلنا معه.

لا يليق من الناحيتين المنهجية والواقعية أن نتناول حزباً - ودولة - يحكمهما خريجو الحوزات الدينية عبر قم والنجف وجنوب لبنان، من منظار تعطلت به «عدسة» العقيدة، ومن ثم تعطلت الحقيقة، فهل يستقيم منهجاً - وواقعاً - عند طرح تلك الرسالة والعقيدة بين يدي التحليل السياسي أن يقال: جنّبوها، جنّبوها، فالقوم في حرب، والحرب ضد عدو مشترك.

أما وقد جنّبها كثيرون في حرب «السلاح»، فقد وقعوا في مأزق «حرب الشوارع»، والتفتوا يبحثون عن موطئ عقل في مناهج التحليل والتفسير السياسية، فلم يجدوا ما يفسر لهم: نقضَ الكلام والعهود والمواثيق، أو يكشف تأثير «المال الحلال» الإيراني على القرار السياسي، أو لماذا يتحالف حزب الله مع من

(١) روح الله هو اسمه الحقيقي وليس لقباً علمياً.
(٢) إيران، ثلاثة خيارات مستقبلية، مختارات إيرانية، العدد ٧٢، يوليو ٢٠٠٦م.
(٣) حوار مع طلال سلمان رئيس تحرير صحيفة السفير الموالية لحزب الله، نقلاً من كتاب «هكذا تكلم نصر الله»، إعداد: محمد جهاد بزي، ص ٣٥.

قاتل السوريين من قبل وتلقّى «المال الحرام» من صدام حسين، أعني: ميشيل عون، ولن يجدوا ما يفسر القولين والمذهبين والرأيين اللذين يتبنّاهما حزب الله في جميع الأزمات والإشكاليات، كما لن يعثروا على تفسير لتأثير «ولاية الفقيه» في قرار حزب سياسي، دون أن يرجعوا إلى معنى هذه الولاية عند من يعتقدها.

لقد نجحت سياسة حزب الله عبر عقود في ترسيخ «دور المقاومة» لدى الرأي العام العربي، وهو ما مثّل حاجزاً يحول دون تفهم الحقائق التي تتراكم في سياق مخالف لما يرسمه الحزب ويروج له، إن اعتبار الدماء دليل صدق بالمطلق، هو أول ثغرة ينفذ منها المبطلون، ولن تجد أحداً يدمج الدماء في ثقافته وخطابه كما يفعل حزب الله، ولكن «استراتيجية الدماء» مزيّتها أنها كما تحمل التضليل تحمل التحليل أيضاً، وهاكم التفسير:

إن حركة أمل قتلت من حزب الله أكثر مما قتل اليهود، وقتل حزب الله من أمل أكثر مما قتلت أمل من حزب الله، وقتلى الصراع بين حزب الله وإسرائيل طيلة ٢٤ عاماً على الجانبين لا يبلغ نصف قتلى الصراع بين أمل وحزب الله في خمس سنوات، وما يقرب من نصف عدد القتلى الذين يعتبرهم حزب الله من «شهداء» المقاومة هم من الفلسطينيين الذين اضطروا أن يطأطئوا قرارهم للحزب في لبنان، حتى يرفعوا سلاحهم في فلسطين[1].

إن التاريخ ليس بقعة ماء سريعة الجفاف، بل هو بحر متلاطم الأمواج لا يتلاشى، ومع حزب الله لا يمكن التغافل أبداً عن استحضار التاريخ؛ لسببين: أن الحزب وإن تهرَّب من تاريخه فهو لم يتبرأ منه بل يتفاخر ببعضه حيناً، والثاني: أن الحزب يعتمد خطاباً سريع العطب، يرتكز على اللحظة الحاضرة مهملاً اللحظة الماضية، يبدأ دوماً من الصفر وينتهي إلى الصفر، ومن يتماشى مع منهجية كهذه

---

(١) قتلى حزب الله حسب إفادة نائب الأمين العام نعيم قاسم ١٢٨٣ طيلة فترة الصراع (قناة العربية برنامج بالعربي، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م) وقتلى حرب أمل / حزب الله ٢٥٠٠ والجرحى ٥٠٠٠ (الإسلاميون في مجتمع تعددي.. حزب الله في لبنان نموذجاً، د. مسعود إلهي، ص ١٨٠). ويقول فلسطينيون: إن ما يقرب من نصف قتلى حزب الله في صراعه مع إسرائيل هم من الفلسطينيين (محمد أسعد بيوض التميمي، مفكرة الإسلام، ٢٠/ ٩/ ٢٠٠٦م).

ويجلس على مقعد الحكماء ويقول «دعنا لا ننبش الماضي»، نقول له: إن الماضي عند حزب الله يبدأ من «أمس»، ومن لا «ينبش» في أمسه كيف له أن يفهم يومه أو يتوقع غده؟

إن أهم صفة في الأحزاب التي كوَّنتها ورعتها إيران الخميني، هي تعدد الأوجه والمراحل المتناقضة، التي يتم التبادل بينها بدون تقديم أحياناً وبطريقة تصدم القريبين منها والبعيدين، فلا دوام لدى هذه الأحزاب لحلف أو تحالف أو لتقريب مذهبي أو ديني، أو لعدو أو صديق، فقط إيران هي الراعي الثابت والدائم، وفقط أهل السُّنة هم العدو الثابت والدائم.

هذه الدراسة تسعى إلى تقديم «تقدير موقف سياسي» لحزب الله، من خلال النظر إليه عقدياً وتاريخياً، مع التأكيد على أن تاريخ حزب الله لا يبدأ من لبنان أو من عام تأسيسه، حزب الله له بدايات ثلاث تمددت عبر ثلاث دول، تجمعت لتشكل حزباً شيعياً متفرداً في بنائه ونظامه.

إن حزب الله ليس حزباً، وليس منظمة، وليس مقاومة.. إنه «إيران».. إيران بكل ما تحمله الكلمة من معنى، هكذا أراده صانعوه، وهكذا سار بناؤه وأداؤه، نعم؛ قد يكون البون شاسعاً، وقد تكون المقارنة ظالمة، ولكن في عالم السياسة فإن للنوايا اعتباراً أكيداً، ومن ثم يصبح اسم «إيران الصغرى» هو اسمه الحقيقي، بعيداً عن التقيّة والنسبة الإلهية.

وتهدف هذه الدراسة إلى إثبات هذه الحقيقة؛ من خلال تفكيك العلاقة بين إيران وحزب الله، عن طريق تحليل الثقافة الصفوية التي ورثتها ثورة الخميني عن الدولة الصفوية الأولى فجدّدتها وطوّرتها، هذه الثقافة التي أكسبت حزب الله القدرة على أن يسير بالقصور الذاتي مدة طويلة في نفس الاتجاه حتى لو توقفت إيران عن توجيهه.

إن تبعية حزب الله لإيران ليست تبعية قرار أو دين فقط، بل هي تبعية ثقافة مشتركة تجعل الطرفين يصدران عن معين واحد في اتجاه واحد دون اتفاق.

إن إناء حزب الله - الذي ينضح بما فيه - تمَّ ملؤه في إيران، ولن يخرج الحزب عن خط إيران ولو أراد؛ لأنه عندها سوف يصبح حزباً آخر أو سيكسر إناءه.

هذه الثقافة الصفوية المشتركة بين إيران وحزب الله - في جانبها السياسي - يمكن تحليلها إلى عدد من المكونات، ومن خلال هذه المكونات سنقوم في هذه الدراسة - إن شاء الله - ببناء نموذج تحليلي يقدم تفسيراً منهجياً لخطاب الحزب وأدائه السياسي، كما يقدم تصوراً مستقبلياً لمسارات الحزب المتوقعة خلال الفترة القادمة.

وعلى ضوء هذه الثقافة الصفوية يمكن أن نكتشف مسار الحزب داخل لبنان، فهو يمارس سلطته من خلال زعامة تسيطر على القرار داخل الحزب، والحزب يسعى إلى الاستيلاء على القرار داخل الطائفة، ومن ثم يسعى إلى الاستيلاء على القرار داخل الدولة، فنحن - إذاً - أمام: زعيم يتحرك داخل حزب، وحزب يتحرك داخل الطائفة، وطائفة تتحرك داخل الدولة، ودولة تتحرك في اتجاه الهلال الإيراني.

وقد جاء الباب الأول مكوناً من ثلاثة فصول، ترسم البعد العقدي والتاريخي والسياسي لحزب الله انطلاقاً من قاعدته في إيران.

والباب الثاني: يبين مكونات الثقافة الصفوية السياسية التي اكتسبها الحزب من إيران الثورة والزعامة والتاريخ والعقيدة، ثم يقدم نموذجاً وتحليلاً لأداء الحزب على ضوء هذه المكونات.

والباب الثالث: يوضح لنا مسيرة الحزب الذاتية، ثم داخل الطائفة، ثم داخل الدولة، ثم خارج الدولة.

والهدف من كل هذا تقديم تصورٍ منهجي موثقٍ عن حزب الله يكشف ما خفي واندثر وتوارى خلف أسوار التقيّة وأستارها، ويزيل الغمامة عن أعين المتعاطفين، ويجلي الحقيقة لبصائر المرتابين، ويقيم الحجة على المُصرّين.

وقد سلكت في هذه الدراسة منهجاً تحليلياً مقارناً، مع التوثيق التام لكل ما ورد من معلومات وأقوال وتصريحات، مع الاعتماد - قدرَ الإمكان - في نسبة

التصريحات والأقوال إلى الكتب المتعاطفة مع حزب الله أو المؤيدة له أو التي كتبها أبناء طائفته، وكذلك الدوريات ومواقع الإنترنت التي تمثل الحزب أو تواليه.

وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذا العمل موفَّقاً خالصاً، وأن يمتعنا بنعمة التمييز بين الحق والضلال، والباطل والأبطال، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

أحمد فهمي
afahmee@hotmail.com

الباب الأول

إيـــــران

الفصل الأول : الشيعة الثلاثة عشرية .

الفصل الثاني : لبنان وإيران. ثأر من السُّنّة .

الفصل الثالث : لعبة الشطرنج الإيرانية .

الفصل الأول: الشيعة الثلاثة عشرية

تمهيد:

يعالج هذا الباب «إيران» أهم الروافد التي ساهمت في تشكيل حزب الله دينياً وسياسياً، وهي روافد تاريخية وعقدية، تبدأ من نظرية «ولاية الفقيه» التي يدين بها الحزب، كما نشير إلى السياق التاريخي التبادلي بين إيران ولبنان، وكيف أن النهضة الشيعية كانت سجالاً بينهما، وأن الإنجاز الإيراني قديماً وحديثاً لم يكن ليكون دون الدعم اللبناني، ونبين نقاط البدايات الثلاث التي نتجت عنها الثورة الإيرانية ومن ثم حزب الله، وكيف أن مؤسسي الحزب تشرَّبوا الثورة من مصادرها الثلاثة فجاء حزبهم خليطاً من أفكار ومسارات تلاقت حيناً وتصارعت حيناً.

تاريخ «ولاية الفقيه»:

اشترط علماء الشيعة في الإمام أن يكون: أولاً: من نسل الحسين رضي الله عنه، وثانياً: أن يكون النسب عمودياً بمعنى أن الإمام القادم لا بد أن يكون ولداً للإمام الحالي، وهكذا، فلا يصلح للإمامة إلا من كان والده إماماً، ولا تنتقل الإمامة أفقياً، أي: من أخ إلى أخ، وهذا الشرط طبعاً من بعد الحسن - رضي الله عنه - إذ انتقلت الإمامة إلى أخيه الحسين - رضي الله عنه - ونسله من بعده.

وقد سار الأمر على هذا المنوال حتى الإمام الحادي عشر وهو الحسن العسكري ابن علي الهادي، والذي مات من غير عَقِبٍ، فأحدث خللاً كبيراً في المعتقد، وحاول البعض سدَّ الخلل بادِّعاء ولدٍ للحسن العسكري من جارية اختلف في اسمها، نرجس أو سوسن أو صقيل، وتجمد ميراث الحسن سبع سنين، ثم حكم به لأخيه جعفر بعد أن ثبت كذب ادّعاء الولد وثارت فتنة بين الشيعة[١]، وتساءل الناس: إذا كان الإمام قد ترك ولداً، فلماذا لم نرَ هذا الولد وأين هو؟ ولما صح أن الإمام الحسن لم يكن له عَقِبٌ، فقد أخذ الناس يشكّون في شرعية الإمام الحادي عشر ويحاولون أن يتخذوا أخاه جعفر بمثابة الإمام الحق، بمعنى: أنه كان هناك خطأ

---

(١) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ج ١٣ ص ١٢١.

منذ البداية في تحديد من هو الإمام الحادي عشر ، والصحيح أنه جعفر بن علي وليس الحسن بن علي العسكري ؛ لأن الإمام لا يموت دون أن يترك ولداً ، وأدّى الخلاف إلى انقسام الشيعة الإمامية إلى أربع عشرة فرقة(١) .

وتنامى الادِّعاء بأن الحسن له ولد عمره مختلف فيه ، وقيل : إنه ابن سبع سنين ، وأنه دخل السرداب ، وأنكر بعضهم قصة السرداب ، وقال : إنه موجود بين الناس ولكنه لا يُعلم ، يقول حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله اللبناني : «الروايات الشيعية تقول بأن المهدي وُلد ، وهو حي يرزق وهو غائب ، طبعاً نحن لا نقول إنه مختبئ بالسرداب ، وباقٍ بالسرداب ، وسيخرج من السرداب ، هذا ليس صحيحاً ، نحن نعتقد أن الإمام هو موجود في المدن وفي القرى وفي بلاد المسلمين وفي موسم الحج وفي موقف عرفة ويتحمَّل كثيراً من المسؤوليات»(٢) .

ويقول المحققون من علماء السُّنّة إن الحسن العسكري مات من غير ولد ، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : «وممن قال إن الحسن العسكري لم يعقب : محمد بن جرير الطبري ، ويحيى بن صاعد ، وناهيكَ بهما معرفة وثقة»(٣) .

ولم تستطع الطوائف الشيعية المنشقّة البقاء والاستمرار ، فانحلت مع توالي الأيام ، وكانت الفرقة الرئيسة هي ما اصطلح على تسميتها بالإثني عشرية ، وهي تؤمن بوجود ابن للإمام الحادي عشر الحسن بن علي العسكري(٤) .

وقال علماء الشيعة : إن ابن الحسن العسكري اسمه محمد وهو المهدي المنتظر ، وأنه سيبقى مختفياً عن الأنظار ، وعلى أتباعه أن ينتظروا ظهوره بعد غيبته ، يقول الذهبي : «فوددنا ذلك – والله – وهم في انتظاره من أربع مئة وسبعين سنة ، ومن أحالك على غائب لم ينصفك ، فكيف بمن أحال على مستحيل ؟»(٥) .

---

(١) المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية ، جواد علي ، ص ٦٧ .
(٢) في درس ألقاه في الليلة التاسعة من محرم عام ١٤٢٤هـ ، هكذا تكلم نصر الله ، محمد حسين بزي ، ص ١٧٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء ، للإمام الذهبي ، ج ١٣ ص ١٢٢ .
(٤) المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية ، جواد علي ، ص ٦٧ .
(٥) سير أعلام النبلاء ، للإمام الذهبي ، ج ١٣ ص ١٢٠ .

وأطلق علماء الطائفة عدة أسماء على محمد بن العسكري، منها: المهدي، القائم، صاحب الزمان، الإمام الغائب، ودخل الشيعة فيما أطلق عليه عصر الغيبة الصغرى، حيث كان هناك أربعة سفراء[١] يزعمون أنهم وسطاء بين المهدي وأتباعه، وأولهم كان في الأصل على اتصال مع الإمام الحادي عشر ولكن عندما مات السفير الرابع عام ٣٢٩هـ لم يجد من ينوب عنه، فغاب السفير أيضاً، وبذلك دخلت الطائفة في عصر الغيبة الكبرى حيث لا وساطة مع المهدي.

واللافت في شأن هؤلاء السفراء أن توليتهم المنصب لم تمر دون اختلافات، إذ كان يعني منصب السفير أنه ينوب عن المهدي في تصريف الأمور، وأهم ذلك جمع الأموال، وكان يُجبى إلى السفير من القرى والعائلات الشيعية أموال هائلة، دون أن تكون عليه رقابة من أحد في مصارفها، ولذلك حاول كثيرون أن يدعوا هذا المنصب، حتى أن الحلاج الزنديق المعروف ادَّعى أنه نائب للمهدي[٢]، وكان المهدي غائباً - حسب معتقدات الطائفة - يرسل إلى السفير قبل موته بعدة أيام ويعين خليفته القادم، ولكنه أرسل إلى السفير الرابع رسالة جاء فيها: «لا توصي إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى»[٣]، ولكن على الرغم من ذلك فقد تناقلت الكتب الشيعية أخباراً عن رسائل من المهدي ولقاءات مزعومة تمت بينه وبين بعض العلماء، وتحدثت بعض المصادر عن سفير آخر بعد الرابع[٤].

بعد انتهاء فترة السفارة وبدء الغيبة الكبرى، تولى العلماء قيادة الطائفة الشيعية[٥]،

---

(١) أو وكلاء على خلاف في التسمية، انظر: جواد علي ص ٩٨.

(٢) السابق ص ١٣٧.

(٣) السابق ص ٢٤٠.

(٤) السابق ص ٢٥٩.

(٥) استند الفقهاء إلى حديث منسوب لمن يعتبرونه «المهدي» من طريق أحد الوكلاء الأربعة يقول: «أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليكم» (الشيخ الصدوق في إكمال الدين وإتمام النعمة، ج ١ باب ٤٥ ص ٤٨٤)، وقد تطورت العلاقة بين الفقهاء ومقلديهم حتى ظهرت فكرة «المراجع» فأصبح تحكم الفقهاء شبه تام في حياة الأتباع، حتى أن الخميني يقول «يبطل العامي في غير الضروريات إذا صدر عن غير تقليد». انظر: حدائق الأحزان، ص ٣٧.

وتركزت أعمالهم على الأمور الدينية وتراجعوا عن الأعمال السياسية، وحتى صلاة الجمعة والخمس اعتبروها من مهمة الإمام أو نائبه ومن ثم يجب أن تسقط أو يعاد النظر فيها في زمن الغيبة الكبرى(١).

تطور «ولاية الفقيه»:

يمكن ملاحظة أربع مراحل لتطور نظرية «ولاية الفقيه» منذ ظهورها في زمن الغيبة الكبرى في محاولة لتلافي الآثار السلبية لعقيدة «الانتظار» عند الشيعة:

أولاً:

على المستوى النظري قد يُفاجأ كثيرون أن المصدر الأول للفكرة كان جبل عامل في لبنان، الذي كان يمر بفترة «نهضة» علمية شيعية في القرن الثامن الهجري، وكان من رموز الشيعة وقتها في جبل عامل محمد بن مكي الجزيني (المتوفّى عام ٧٨٦هـ) وقد ذكر في كتابه «اللمعة الدمشقية» أن كل فقيه اجتمعت فيه أوصاف محددة هو نائب عام عن الإمام، وحكم بجمع الخمس لأول مرة في زمن الغيبة الكبرى(٢)، وكان منطلقه في ذلك محاولة تحسين ظروف عصر الانتظار عند الشيعة.

ثانياً:

على المستوى العملي جاء تأسيس الدولة الصفوية عام ١٥٠١م ليمثل حدثاً محورياً للطائفة الشيعية، فقد أعلنت الدولة تشيّعها رسمياً، وأصبح علماء الشيعة في مواجهة مأزق جديد، هل يؤيدون دولة شيعية، أم يرفضون التعدي على صلاحيات المهدي المنتظر؟

يقول الباحث الإيراني مهدي فرهاد: «فقهاء جبل عامل، ورثوا عن أساتذتهم تقليداً يقول: إنهم حراس الشريعة ونواب الإمام المعصوم، إضافة إلى واجبات

---

(١) المهدي المنتظر، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

(٢) انظر: كتاب «جبل عامل بين شهيدين» لمؤلفه جعفر المهاجر، إصدار المعهد الفرنسي للشرق الأدنى في دمشق عام ٢٠٠٥م، نقلاً عن مقال: جذور ولاية الفقيه بين إيران ولبنان، د. محمد الأرناؤوط أستاذ التاريخ الحديث في جامعة آل البيت، موقع منتدى القرآن (شيعي).

العلماء الأخرى»(١)، وعلى ضوء ذلك انقسم علماء الجبل اللبنانيون إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: يؤيد الدولة الصفوية ويتعاون معها انطلاقاً من قناعته بنيابة الفقيه، ومن هؤلاء المحقق الشيعي المعروف بـ«الكركي» الذي اعتبره الشاه إسماعيل الصفوي بمثابة الحاكم الفعلي وهو نائب له، والقسم الثاني: اعترضوا على الدولة الصفوية من الناحية العلمية وتعاونوا معها عملياً، لكنهم اعتبروا الحاكم الصفوي «غاصباً لحق الإمام الغائب في الحكم، إلا أن هذا الغصب لا يصدر عن سوء نية لذا يمكن غضّ الطرف عنه»(٢)، والقسم الثالث: اعتبروا الدولة شراً تنبغي مواجهته وبعضهم دعا إلى زوالها.

ثالثاً:

في القرن الثالث عشر الهجري ألّف أحمد بن محمد نراقي كاشاني العالم الشيعي كتاب «عوائد الأيام في بيان قواعد الأحكام» وذكر فيه صراحة مصطلح ««ولاية الفقيه»» لأول مرة في التاريخ الشيعي، ودعا إلى تولي الفقهاء زمام أمور الشيعة بصورة تامة بما فيها الحكم والإدارة، بل إنه قال صراحة: «كل ما كان للرسول والإمام يؤول إلى الفقيه أيضاً إلا ما أخرجه الدليل من إجماع أو نص» أي: أن الفقهاء يستحقون منصب «الإمامة الكبرى»(٣).

رابعاً:

تلقف «آية الله»(٤) روح الله الموسوي الخميني عالم الدين الشيعي ـ الذي كان

(١) هجرة علماء الشيعة في جبل عامل إلى إيران، مهدي فرهاد منفرد، دار النشر الإيرانية أمير كبير، وانظر عرضاً للكتاب كتبه سالم مشكور، في صحيفة النهار اللبنانية ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠١م.

(٢) السابق.

(٣) حدائق الأحزان، إيران وولاية الفقيه، د. مصطفى اللباد، دار الشروق، ص ٩٣.

(٤) «آية الله» لقب علمي شيعي، والعلماء حسب التقسيم الإثني عشري لهم عدة ألقاب تعبر عن مراتبهم، أولها: «حجة الإسلام والمسلمين» ويصنف من المجتهدين، ويجب أن يكون قد أنهى مراحل التعليم الحوزوي الثلاث، وهي: المقدمات، السطوح، والبحث الخارجي، وبذلك يصبح مجتهداً، والمرتبة التالية: «آية الله»، ثم «آية الله العظمى»، وينتقل علماء الشيعة بين هذه المراتب من خلال أبحاث ورسائل علمية يتم إقرارها من مجتمع الحوزة العلمي ولكن دون ضوابط دقيقة، حيث يتم الانتقال اعتسافاً أو محاباة في بعض الأحيان، كما حدث مع الخميني وخامنئي، ويصبح «آية الله» مرجعاً للتقليد حسب انتشار تلامذته وأتباعه ومقلديه.

منفياً من قِبَل الشاه إلى مدينة النجف بالعراق ـ فكرةَ «ولاية الفقيه»، وأعاد صياغتها ونشر أفكاره في محاضرات ألقاها تباعاً ثم جمعها في كتاب «الحكومة الإسلامية».

وقال الخميني مسوغاً نظريته الانقلابية الجديدة في التاريخ الشيعي: «لقد مرَّ على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام، وقد تمر ألوف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر، في هذه المدة المديدة هل تبقى أحكام الإسلام معطلة؟» ويقول أيضاً: «هل حُدد عمر الشريعة بمائتي عام مثلاً؟ هل ينبغي أن يخسر الإسلام بعد الغيبة الصغرى كل شيء؟».

ولم يقتصر الاجتهاد «الانقلابي» للخميني على صياغة النظرية فقط، بل تعدى إلى توسيع صفة «القداسة» لتشمل الجمهورية التي يؤسسها الولي الفقيه، كما يقول «آية الله» مشكيني الرئيس السابق لمجلس الخبراء الإيراني: «الجمهورية الإسلامية هي استمرار لله على الأرض، وبالتالي فإن أي عصيان لقواعدها يرقى إلى التمرد على الله»[(١)]، ولذلك يقول الخميني: «وقد فوّض الله الحكومة الإسلامية[(٢)] من أمر الإدارة والرعاية والسياسة للناس، ما كان يملكه الرسول وأمير المؤمنين من أمر الحكم والقضاء والفصل في المنازعات وتعيين الولاة والعمال وجباية الخراج وتعمير البلاد»[(٣)].

وعلى هذا النحو فقد جاء في المادة ٥٧ من الدستور الذي أعدَّه الخميني بعد الثورة الإيرانية أن «السلطات الحاكمة في جمهورية إيران الإسلامية هي السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية، وتمارس صلاحيتها بإشراف ولي الأمر المطلق وإمام الأمة، وذلك وفقاً للمواد اللاحقة في هذا الدستور» واصطلح على تسمية الولي الفقيه بـ«المرشد»[(٤)].

(١) انظر: مقال أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م، والكاتب رئيس تحرير صحيفة (كيهان الإيرانية) قبل الثورة.

(٢) المقصود بكلمة «الحكومة» في اللفظ الفارسي: ما يماثل «الدولة» في اللفظ العربي، انظر: المرجع السابق ص ٩٧.

(٣) إيران بين التاج والعمامة، أحمد مهابة، كتاب الحرية، ص ٢٣٧.

(٤) التحول العاصف في إيران، خالد محمد البسيوني، دار الأحمدي للنشر، ص ٢٠١.

ولذلك لم يكن مستغرباً أن يصف رئيس تحرير صحيفة الشرق الإيرانية المحافظة الخميني بأنه: «آية الله الإمام السيد الحاج روح الله الخميني، رجل كان ظهوره نهاية لتاريخ طوله ٤٠٠ سنة»[١]، ويقصد أن الخميني أعاد صياغة العلاقة بين الفقهاء والسلطة على نحو يتجاوز الصورة القائمة منذ عهد الصفويين، فلم يعد الفقهاء مجرد أعوان بل أصبحوا هم الحكّام، وكان الخميني واضحاً في كلامه عندما قال: ««ولاية الفقيه» هي هدية الله تبارك وتعالى إلى المسلمين»[٢].

الإمام الثالث عشر:

تعجب المتابعون لمشاهد جنازة الخميني الذي توفي عام ١٩٨٩م، فقد تهتكت الجثة بفعل عوام الناس الذين دفعهم الحزن إلى تناوش جثة الخميني حتى تكشفت، ومن المثير أن هناك رواية في كتب الحديث الشيعية منسوبة للإمام أبو جعفر الباقر، يقول فيها: «واللهِ لا يخرج أحدٌ منا قبل خروج القائم إلا كان مثله كمثل فرخ طار من وكره قبل أن يستوي جناحاه فأخذه الصبيان فعبثوا به»!!، وهناك آثار أخرى تحمل نفس المعنى، منها: ما رُوي في «الصحيفة السجادية» عن أبي عبد الله قال: «ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلماً أو ينعش حقاً إلا اصطلته البلية وكان قيامه زيادة في مكروهنا وشيعتنا»، وفي مستدرك الوسائل (٢ / ٢٤٨) عن أبي جعفر: «كل راية ترفع قبل راية القائم فصاحبها طاغوت»[٣].

هذا التوافق العجيب بين هذه الآثار وما حدث لجثمان الخميني كان حرياً أن يلفت انتباه أنصار ««ولاية الفقيه»» إلى فساد نظريتهم حتى بالمقياس الشيعي، ولكنهم أعرضوا عن هذه الآثار التي لا أصل لها من الصحة في اعتقاد أهل السُّنّة.

ولا يعتبر أنصار ««ولاية الفقيه»» أن الولي الفقيه خارج على الأئمة، بل هو نائب لهم اقتضت الحاجة ظهوره لحفظ الدين من الضياع، ولكن المشكلة التي

---

(١) محمد قوجاني، رئيس تحرير صحيفة الشرق الإيراني، مقال: موقع الإمام الخميني وولاية الفقيه في المذهب الشيعي، نشر في صحيفة القبس ٩/ ٦/ ٢٠٠٦م.

(٢) حدائق الأحزان، ص ٨٨.

(٣) هذه الروايات وغيرها مروية في كتب: الكافي للكليني، ووسائل الشيعة للحر العاملي، مستدرك الوسائل .. إلخ.

واجهت الخميني أن هذا الضياع تسبب فيه الأئمة أنفسهم عندما غاب آخرهم - الثاني عشر - عن الأنظار، ولو كانت النظرية صحيحة - حسب المعتقد الشيعي - لما ترك «القائم» أمر الناس هملاً بلا نائب لما يقرب من ألف ومائة عام.

وفي محاولة للتغطية على هذه المشكلة فقد بالغ الخميني وأنصاره في تقديس مكانة الولي الفقيه إلى الدرجة التي جعلته في مكانة تقارب مكانة الأئمة والأنبياء، بحيث أن الناقد البصير يطرح تساؤلاً حول: ما إذا كان الولي الفقيه هو بمثابة نائب للإمام، أم أنه الإمام الثالث عشر؟

وحتى نوضح هذا المعنى، نتناول أولاً بعض مواصفات التقديس للولي الفقيه حسب أنصار الخميني:

يقول مرشد الجمهورية الإيرانية الحالي «آية الله» علي خامنئي أن الولي الفقيه ينبغي أن: «يكون عاماً أميناً وصورة مصغرة للإمام عالم الإسلام وأن يكون قرآناً ناطقاً، ومثل هذا الشخص يسمى في ديننا بالولي»(١).

ويقول حسن نصر الله: «الفقيه هو ولي الأمر زمن الغيبة، وحدود مسؤوليته أكبر وأخطر من كل الناس.. نحن ملزمون باتباع الولي الفقيه، ولا يجوز مخالفته، فـ«ولاية الفقيه» كولاية النبي ﷺ، والإمام المعصوم (ع) وولاية النبي والإمام المعصوم واجبة، لذلك فإن «ولاية الفقيه» واجبة، والذي يرد على الولي الفقيه حكمه، فإنه يرد على الله وعلى أهل البيت (ع)»(٢).

وفيما يتعلق باختيار الولي الفقيه، فإن أنصار الخميني يعتبرون أنه لا يعين من قِبَل الناس ولا ينتخب، وحتى مجلس الخبراء الجهة المعنية باختيار الولي الفقيه لا يسمى عملها اختياراً، ولكنه «اكتشاف»، يقول «آية الله» محمد مصباح يزدي(٣):

---

(١) حدائق الأحزان، ص ١٣٠.

(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢٢.

(٣) ينتمي إلى الفئة المتوسطة من رجال الدين في قم من حيث مكانته العلمية، وهو مرجع التقليد للرئيس الإيراني أحمدي نجاد، وينتمي يزدي في الأساس إلى جماعة الحجتية، التي كانت تتبنى موقفاً معارضاً للخميني في بادئ الأمر، وله رؤية خاصة فيما يتعلق بولاية الفقيه تتعارض مع صورتها الحالية التي يمثلها المرشد علي خامنئي.

«مجلس الخبراء لا يعين الولي الفقيه، ولكنه فقط يعرفه ويقدمه للشعب، فإن هذا الفقيه منتخب من قِبَل إمام الزمان عليه السلام»(١).

ويرى تيار حزب الله الإيراني أن الشعب ليس له دور في اختيار الولي الفقيه؛ لأنه معين من قِبَل الله كما يزعمون، ويقول أنصار الحزب: إن مجلس الخبراء لا يعينون الولي الفقيه، بل يكتشفونه بالخبرة والإحاطة، ثم يعرفون الناس به، ويقول حسين الله كرم - وهو من زعماء حزب الله الإيراني -: إن الولي الفقيه بإمكانه أن يبطل بعض قواعد الإسلام من أجل المحافظة عليه(٢)، وتعتبر صحيفة الرسالة المحافظة أن الولي الفقيه يتمتع بعصمة عن الزلل والانحراف(٣).

وكتب تيار الزعامة الدينية في إيران في نشرته المعبرة عن التيار: «إن «ولاية الفقيه» حبل متين وإلهي في المجتمع الإسلامي، وهي تستمد شرعيتها ليس من الشعب بل من الاتصال بالولاية الكلية الإلهية»(٤)، ويقول علي أكبر ناطق نوري العضو البارز في التيار: «الزعامة الدينية بمثابة ورث الأنبياء والمعصومين... في الواقع وظيفة الأنبياء ومسؤوليتهم»(٥).

ومن أجل ذلك يقول الباحث المتخصص في الشؤون الإيرانية، د. مصطفى اللباد: إنه «في حالة إيران يتمتع المرشد بصلاحيات الأئمة المعصومين عند المسلمين الشيعة وهي صلاحيات تستعصي على الحصر»(٦)، ويقول الكاتب الشيعي المعارض للثورة الإيرانية أحمد الكاتب: «نظرية «ولاية الفقيه» تلغي الدور السياسي للأمة، فالأمة تتعامل مع فقيه منصّب من قِبَل الإمام المهدي ونائب عنه، كما أن الإمام

---

(١) من محاضرة ألقاها في ندوة عقدت في طهران تحت عنوان: ولاية الفقيه ومجلس الخبراء، ونشرت في موقعه الشخصي بتاريخ ١٨/ ٣/ ٢٠٠٦م، مختارات إيرانية العدد ٧٢ يوليو ٢٠٠٦م.

(٢) التيارات السياسية في إيران، تأليف حجت مرتجي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص ١٧١.

(٣) السابق، ص ٧٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٣.

(٦) حدائق الأحزان، ص ٣١٠.

المهدي منصبٌ من قِبَل الله تعالى ، وبالتالي فإنه أصبح في وضع مقدّس لا يحق للأمة أن تعارضه»(١).

وهكذا يصبح الولي الفقيه، أو المرشد الإيراني: يتمتع بصلاحيات الأئمة بل والنبي ﷺ - يجعله البعض معصوماً - يحمل بعض معنى الاختفاء والغياب فهو يُكتشف ولا يُعين، وطاعته واجبة على جميع المكلفين داخل إيران وخارجها.

ولو أضفنا إلى ذلك أن الخميني نصَّ في الدستور الإيراني أن قيادة الولي الفقيه مستمرة إلى قرب الساعة؛ لأن الولي الفقيه سيسلم السلطة السياسية إلى المهدي عند ظهوره في آخر الزمان(٢) ومن ثم صار احتفاظ المرشد بالسلطة تكليفاً إلهياً غير مقيد بمدة زمنية حسب أنصار الخميني.

ولو تناولنا القضية من وجهة نظر أهل السُّنّة، الذين لا يعتقدون بالغيبة أو الانتظار أو الرجعة، فإنه بالنسبة لهم سيظل الولي الفقيه هو قائد الثورة ما بقي نظامه، فلن تحدث أبداً عملية تسليم أو تسلم للمهدي المنتظر.

ولذلك تماهت الفواصل بين صلاحيات نائب الإمام والإمام نفسه، يقول الخميني: «يملك هذا الحاكم الفقيه الجامع للشرائط من أمر الإدارة والرعاية السياسية للناس كل ما يملكه الرسول وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب»(٣)، بل إن الولي الفقيه في العصر الحالي يمتلك صلاحيات لم يحظَ بها أي إمام من الأئمة الإثني عشر، بخلاف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أي: أن الولي الفقيه لو نظرنا للأمر من وجهة عملية وباعتبار الصلاحيات الممنوحة، فسيكون بمثابة

---

(١) تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورىٰ إلىٰ ولاية الفقيه، أحمد الكاتب.

(٢) فيما يتعلق بتسليم السلطات، لعله من المهم ملاحظة بعض المصطلحات الرمزية ذات الدلالة التي يستخدمها حسن نصر الله في خطابه، مثل قوله: إنه لن يسلم سلاح الحزب إلا إلىٰ الدولة العادلة، والدولة العادلة هي دولة ولاية الفقيه - نائب المهدي - حسب تعبير الخميني نفسه في كتابه الحكومة الإسلامية، أي: أن نصر الله لو تُرِك الأمر إليه فلن يسلم السلاح إلا لدولة ولاية الفقيه؛ لأنها الدولة الوحيدة المستحقة لوصف «العادلة»، في حين يوحي لمستمعيه أنه يقصد الدولة اللبنانية. (انظر: موقع قناة العالم الإيرانية، برنامج مع الحدث، ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٦م).

(٣) حدائق الأحزان، ص ٩٨.

الإمام الثالث عشر، خاصة مع ادّعاء متقلدي منصب الولي الفقيه الانتماء إلى أهل البيت، كما هو حادث مع الخميني ثم خامنئي.

وبعبارة أدق: يصبح الولي الفقيه، مستحقاً لمنصب «الإمامة الثالثة عشر»، فلم يبق لـ «صاحب الزمان» بهذه الحالة إلا القيام بأمور يسيرة أبقاها له الخميني، مثل: البدء بالجهاد[1] والرجعة، ويقصد بها بعث كل الأئمة وبعض أصحابهم من القبور جسدياً، وكذلك بعض أعدائهم - من الصحابة وأهل السُّنّة - من أجل معاقبتهم بإراقة دمائهم[2]، ومن الواضح أن أنصار الخميني لم يتركوا حتى هذه الأخيرة للمهدي المنتظر، فقد بدأت عملية الانتقام من أهل السُّنّة منذ فترة طويلة.

ويؤيد هذا التوجه أن إيران تحتفل بأعياد خاصة وتعطي لها مكانة مميزة، ومن بينها: ذكرى ميلاد ووفاة أغلب الأئمة، أي: أن أي إمام من الأئمة الإثني عشر مهما بلغت مكانته له عيدان أو مناسبتان، بينما الخميني يرتبط به شخصياً ثلاث مناسبات: ذكرى التظاهرات ضد اعتقاله من قِبَل الشاه، ذكرى نفيه خارج إيران من قِبَل الشاه، وذكرى ميلاده، هذا بخلاف ذكرى قيام الثورة وإعلان الجمهورية[3].

إذاً؛ نحن أمام معتقد جديد في الإمامة، يجعل أنصاره يتوجهون بعيداً عن طائفة الشيعة الإثني عشرية الأصلية، والتي تعارض أكثريتها - من الناحية العلمية وليس العملية - نظرية «ولاية الفقيه».

ويقول الصحفي الإيراني أمير طاهري: إن ٩٠٪ من رجال الدين الشيعة منذ القرن السادس عشر يتمسكون بـ «المبدأ الشيعي الكلاسيكي»، ويعتبر المعاصرون منهم أن «ولاية الفقيه» الخمينية بدعة في المذهب الشيعي[4]، وهي لا شك بدعة عقدي؛ لأنها تمس الإمامة بوصفها أحد أركان الإيمان عند الشيعة، وكان العالم

---

(١) وهي قضية نسبية، إذ كل حرب يمكن ببساطة اعتبارها حرباً دفاعية، وأمريكا نفسها كل حروبها الهجومية تعتبرها دفاعاً استباقياً.

(٢) المهدي المنتظر، جواد علي، ص ٩٢.

(٣) الفقه السياسي في إيران وأبعاده، د. محمد السعيد عبد المؤمن، ص ١٤١ إلى ١٤٧.

(٤) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

الشيعي البارز ميرزا حسين نائيني - المتوفَّى عام ١٩٣٦م - يرفض استبداد رجال الدين بالحكم ويعتبر الحكم المطلق بمثابة الكفر وادعاء من البشر لصفات الله وحقه في حكم العباد(١).

ويؤكد «آية الله» محمد حسين كاظميني بروجردي - من أبرز رجال الدين المعارضين لثورة الخميني - أن «ولاية الفقيه» نوع من الشرك(٢)، ويقول صبحي الطفيلي الأمين العام الأسبق لحزب الله اللبناني بعد انقلاب إيران عليه، إن: «"ولاية الفقيه" ليس عليها دليل شرعي لا من القرآن ولا من السُّنة وهي فكرة ظهرت متأخرة يعني في القرون الأخيرة في الوسط الشيعي، وهي أقرب إلى البدعة منها إلى الاجتهاد»(٣).

يقول طاهري: «من المستحيل عملياً معرفة ما الذي تعتقده الأغلبية من رجال الدين في إيران الذين يقدر عددهم بـ ٣٩٩ ألفاً، غير أن أمراً واحداً مؤكداً: ما من رجل دين شيعي بارز واحد اليوم مستعد للمصادقة على المبدأ الخميني علناً وصراحة»(٤).

«ولاية الفقيه» عكس الاتجاه:

السياق الطبيعي للاستدلال الشرعي على مستجدات الحياة، يفترض أن يتخذ المسار التالي: نشأة الواقعة - البحث في الأدلة الشرعية - استنباط الحكم، ولكن بالنسبة للإمامية، فإن تتابع الأزمات والمآزق بدءاً بانقطاع نسل الأئمة، وترسخ عقائد الغيبة والانتظار والرجعة، وتعطّل أحكام شرعية كثيرة؛ منها: الجمعات والجماعات واختلافهم حول الشؤون السياسية وإقامة الدول، كل ذلك أحدث تأثيراً سلبياً على المسار الطبيعي للتعاطي مع وقائع الأحداث من الناحية الشرعية، فأصبح مسار الاستدلال الشرعي على النسق التالي: نشأة الواقعة - استنباط الحكم - تأول الأدلة الشرعية.

(١) حدائق الأحزان، ص ٩٩.
(٢) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٣) فضائية الجزيرة، برنامج (زيارة خاصة) ج ٢.
(٤) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

فقد انقطع نسل الإمام الحادي عشر دون سابق إنذار أو معرفة[١]، فتم اتخاذ الحكم بتكلّف عَقبٍ له، ثم صاروا إلى تكلّف الأدلة بعد اعتساف الأحكام الخاصة بالغيبة التي لم تسم صغرى إلا بعد أن تبين أن هناك أخرى كبرى، فقد انقطع سفراء المهدي دون سابق إنذار أو معرفة أيضاً، فتم تكلّف أحكام مغايرة للغيبة الكبرى، ثم تكلّفوا الأدلة على تعطيل الشرائع والشعائر حتى خروج المهدي، ثم اشتكوا من طول فترة الانتظار، فصاروا إلى تكلّف نيابة الفقيه، ثم «ولاية الفقيه»، وتقاسموا أو توارثوا مهام المهدي رغم أنه لم يزل حياً في معتقدهم، وتكلّفوا لذلك الأدلة من مصادر التشريع التي اتسعت على نحو غير مسبوق، وليُطرح تساؤل حول: ما إذا كان باب الاجتهاد مفتوحاً أم مخلوعاً؟!

وعلى هذا النحو أتت نظرية «ولاية الفقيه»، متكلّفة، متأولة، تحل إشكالاً بإشكال جديد، وكانت النتيجة أنها قُوبلت بعاصفة من المعارضة، توارت حيناً وسط أمواج البشر المتلاطمة التي هتفت للخميني لدى وصوله إلى طهران، وتشجعت حيناً آخر عندما اكتشف الناس أن الولي الفقيه يقود الناس إلى هزيمة عسكرية نكراء أمام العراق.

ولم يلبث أن تبين حجم المعارضة الهائل للنظرية داخل مدينة قم نفسها التي خرج منها الخميني، فلم يؤيده من المراجع المعتبرين وقت قيام الثورة سوى تلميذه «آية الله» حسين منتظري، ولم يكن قد نال رتبة « آية الله العظمى» وقتها، فكان يُعدّ من الفئة المتوسطة من علماء الدين، وكان أغلب أنصار الخميني ممن يحملون رتبة «حجة الإسلام» مثل: علي أكبر هاشمي رفسنجاني، وعلي خامنئي، بينما في المقابل كان مراجع قم الكبار، الذين يحملون رتبة «آية الله العظمى»، مثل: كلبايكاني وشريعتمداري ومرعشي نجفي، يعارضون مبدأ «ولاية الفقيه»، وإن كانوا

(١) يدعي بعض علماء الإمامية أنه كانت هناك أحاديث تخبر عن اختفاء ولد الحسن العسكري، ومنهم المرجع اللبناني محمد حسين فضل الله، انظر: فتاوىٰ فضل الله، فتوىٰ رقم ١١١٤. وهذه الفتاوىٰ ضمن مجموعة من الحوارات التي جمعت ونشرت في مجلة الموسم الفصلية التي تصدر في لبنان، وتواريخ الأسئلة متفاوتة، أغلبها في الثمانينيات، ونشرت المجلة الحوارات في العددين ٢١ و ٢٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، وأشرف علىٰ جمع الأسئلة وترتيبها وعرضها علىٰ فضل الله للمراجعة حسن المسقطي وعلا حسن، وتم نشرها علىٰ الإنترنت في الرابط التالي: http//www.angelfire.com/ms2/fa/28hewar.htm

يؤيدون الثورة في المجمل [١]، واعتبر بعض هؤلاء أن إشراف الفقهاء على القضاء وبعض شؤون الدولة يُعدّ كافياً ولا حاجة لمباشرة الحكم، وحاول شريعتمداري أن يبدو ليبرالياً في مواجهة نظرية الخميني، فقال: إن «المبدأ الذي نسعى إليه هو أن يحكم الشعب نفسه، وهذه هي الجمهورية الإسلامية؛ لأنه لا يجوز أن يحكم فرد واحد أو طبقة واحدة، فالشعب له أن ينتخب ممثليه بالاقتراع الحر»[٢].

وقطعاً ليست هذه صورة الدولة في الفقه الشيعي، الذي لا يعترف بأي دولة لا يقيمها المهدي، والمهدي عندهم هو الإمام الثاني عشر، ولا خيار للشعب في تعيينه فهو معين من قِبَل الله ـ تعالى ـ حسب زعمهم، وبذلك يتبين أن معارضة الخميني لم تكن كلها دينية وإن بدت كذلك، فقد كان مراجع قم يخافون على نفوذهم أن يُسلب من قِبَله هو وأنصاره، خاصة وأن الخميني قد أثار ريبتهم عندما قال: إن «الحكومة الإسلامية هي واجب كفائي على الفقهاء بحيث إذا أقامها أحدهم وجب على الآخرين إطاعته»[٣]، فقوله هذا يستلزم تجاوز مراجع قم من ناحية، ووجوب طاعتهم الخميني من ناحية أخرى.

أما خارج إيران فلم تكن المعارضة يسيرة، فالمرجع الشيعي الأعلى في العراق أبو قاسم الخوئي - وهو إيراني - رفض «ولاية الفقيه»، وألّف رسالة في الرد عليها أسماها «أساس الحكومة الإسلامية»، وفي لبنان المهد الأول للنظرية، سجّل عالم الدين الشيعي محمد مهدي شمس الدين رئيس المجلس الشيعي الأعلى اعتراضه على «ولاية الفقيه»، وقال بولاية الأمة على نفسها وأن الفقيه ولايته منحصرة في الفتيا والقضاء[٤]، كما ذكر أنه في زمن الغيبة، فإن الناس يختارون حكّامهم ويحددون صلاحياتهم[٥]، وانضمَّ إلى المعارضين العالم الديني اللبناني البارز محمد جواد مغنية، والذي ألف كتاباً بعنوان «الخميني والدولة الإسلامية» انتقد فيه تمدد «ولاية الفقيه»[٦].

(١) حدائق الأحزان، ص ١٥٤.
(٢) التحول العاصف، ص ١٦٩.
(٣) حدائق الأحزان، ص ١٣٧.
(٤) التحول العاصف، ص ١٦٩.
(٥) حوار مع إبراهيم مهدي شمس الدين، مجلة المجلة ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٦) التحول العاصف، ص ١٧٠.

ورغم أن «ولاية الفقيه» لم تكن لتنشأ بدون حرية الاجتهاد الواسعة في الفقه الشيعي، إلا أن النظرية بمجرد تحولها إلى دستور لإيران، أُغلق باب الاجتهاد تماماً في كل ما يتعلق بولاية الفقيه، وهذا ليس بالأمر المعهود في الفقه الشيعي، ويمكن ملاحظة ثلاثة أسباب لهذا الجمود بخصوص النظرية:

أولها: أنها قد أصبحت أساساً للحكم، ومن ثم لا يناسب أن تطرح للنقاش والبحث؛ حتى لا يهتز أساس الحكم والنظام.

وثانيها: أن النظرية تم إثباتها بجهد فقهي متكلف للغاية، مما جعلها أشبه بعرش يتأرجح على قمة مدبّبة، أي دفعة في أي اتجاه ستطرحه أرضاً، يقول د. مصطفى اللباد: «الصعوبة التي استعصت على التذليل تمثلت في نقل ولاية الأئمة لصالح الفقهاء، وتعود تلك الصعوبة إلى عدم وجود نص قرآني أو حديث نبوي يمكن تأويله»(١). ويقول صبحي الطفيلي: «حينما لا يكون لها - «ولاية الفقيه» - أساس فقهي لا من القرآن ولا من غيره، فكيف يمكن أن تسميه اجتهاداً»(٢)، ويؤكد المرجع اللبناني محمد حسين فضل الله أنه «لا توجد أدلة علمية فقهية على الولاية العامة للفقيه، وأن الأصل هو أن لا ولاية عامة للفقيه، وحتى السيد الخميني يقول: إن «ولاية الفقيه» هي من الأمور الاعتبارية العقلائية، والأمور الاعتبارية العقلائية هي كما وردت في هامش نفس الصفحة من وضع الناس (العقلاء) لأجل إدارة أمور حياتهم»(٣).

وثالثها: أن مؤيدي النظرية أنفسهم بصفة عامة لا يتفقون على رؤية واحدة لتطبيقها، ومن ثم كان لا بد من اعتماد رؤية الخميني وحدها، وقد أحصى د. مصطفى اللباد في كتابه «حدائق الأحزان» ثمانية اجتهادات مختلفة تنظم العلاقة بين الدولة والفقهاء في إطار الولاية، وهي:

١- «ولاية الفقيه» في ظل الملكية الدستورية.

---

(١) حدائق الأحزان، ص ٨٦.

(٢) فضائية الجزيرة، برنامج (زيارة خاصة)، ج ٢.

(٣) حوار مع صحيفة الوطن السعودية، ديسمبر ٢٠٠٣م، نقلاً عن موقع مجلة الحوار المتمدن، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٣م.

٢- الولاية العامة لعامة الفقهاء.

٣- الولاية المسماة عن طريق مجلس المراجع.

٤- «ولاية الفقيه» المطلقة، لمؤسسها الخميني.

٥- «ولاية الفقيه» المقيدة بالانتخاب الشعبي، وهي آخر ما استقر عليه تلميذ الخميني المبعد حسين منتظري.

٦- الدولة المؤسسية تحت إشراف ورعاية الفقهاء.

٧- خلافة الناس تحت إشراف «آية الله العظمى»، وصاحب هذا التوجه محمد باقر الصدر.

٨- الدولة الإسلامية المنتخبة من الناس، وهو اجتهاد جواد مغنية ومهدي شمس الدين من لبنان[١].

لكن أنصار «ولاية الفقيه» بعد أن أحكموا غلق باب الاجتهاد حول النظرية، اضطروا هم أنفسهم أن يفتحوه من جديد بعد عشرة أعوام؛ لكي يعيدوا صياغة بعض بنودها لأجل نقل الولاية من الخميني إلى المرشد الثاني علي خامنئي، وتركزت الاجتهادات الجديدة في مواصفات الولي الفقيه؛ هل يشترط أن يكون الأعلم؟ وهل ينبغي أن يكون مرجعاً فقهياً بارزاً؟ وكانت المشكلة أن علي خامنئي - المرشح من نخبة الحكم وقتها - توقفت رتبته العلمية عند «حجة الإسلام» وهي لا تتيح لصاحبها أن يكون مرجعاً، رغم أنها تسمح له بالاجتهاد، ووصل الأمر إلى درجة أن «آية الله» آذري قمي ـ أحد كبار علماء الحوزة في قم وعضو مجلس الخبراء ـ احتج على انتخاب خامنئي، وقال: «أعارض بصراحة وأرفض المرجعية العليا للسيد علي خامنئي؛ لأن الله ورسوله يرفضانه»[٢].

وسريعاً بدأت ماكينة «الاجتهاد» في العمل، وصرَّح الخميني نفسه قبل موته:

---

(١) حدائق الأحزان، ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) صنع القرار في إيران، والعلاقات العربية الإيرانية، د. نيفين عبد المنعم مسعد، مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٨٥. ويلاحظ هنا أن علماء قم غالباً ما يكررون نسبة أقوالهم إلى الله تعالى دون حرج رغم كونها خلافية في مذهبهم.

«يجب أن ننتخب شخصاً يدافع عن وجودنا الإسلامي في عالم السياسة والمكر، وأنا منذ البداية كنت معتقداً وأصرّ على عدم اشتراط المرجعية، ويكفي المجتهد العادل الذي يؤيده الخبراء المحترمون في أنحاء البلاد، ولكن الإخوان كانوا يصرون على شرط المرجعية ولهذا قبلت»(١)، وبهذه الفتوى يكون الخميني قد سدد ضربة قاصمة لمبنى النظرية، حيث فصل ما بين المرجعية العلمية والزعامة السياسية، وصاغ أنصار الولي الفقيه الأزمة في صورة أحجية فلسفية تؤيد مذهبهم، فقالوا: إنه يوجد خمسة خيارات: المرجع الكفء، المجتهد الكفء، المرجع غير الكفء، المجتهد غير الكفء، والمؤمن العادل الكفء، فإذا لم يعثر على المرجع الكفء، يكون المجتهد الكفء كافياً لأداء المهمة(٢).

ورغم أن خامنئي تمت ترقيته تعسفياً إلى مرتبة «آية الله العظمى» واعتبرته جمعية مدرسي قم الدينية أحد المراجع السبعة الكبار الذين يجوز تقليدهم، إلا أن القضية بقيت على حالها، واعتبر منصب المرشد سياسياً بالدرجة الأولى(٣).

تداعيات «ولاية الفقيه»:

لعبت نظرية «ولاية الفقيه» دوراً كبيراً في تشكيل أداء أنصارها وأداء دولتها على السواء، وقد ظهر تأثير النظرية في عدة مجالات، ونذكر أبرز ما يتعلق بدراستنا وهي:(٤)

أولاً: عودة الدولة الصفوية:

تأسست الدولة الصفوية في إيران عام ١٥٠١م، وسقطت عام ١٧٣٢م، ومنذ سقوطها لم تقم دولة دينية للشيعة الإثني عشرية في إيران أو غيرها، وتتابع على حكم إيران بعدها: الأسرة القاجارية، وحكمت من ١٧٩٦م - ١٩٢٥م، وأسرة

(١) جزء من رسالة بعث بها إلى «آية الله» مشكيني رئيس مجلس الخبراء وقتها، انظر: حدائق الأحزان، ص ٢٤٤.
(٢) السابق، ص ٢٢٩.
(٣) السابق، ص ٢٣٧.
(٤) هذه النقاط الخمس تُعدّ من ضمن مكونات النموذج التحليلي لتفسير أداء حزب الله، وسيتم عرض النموذج كاملاً ـ إن شاء الله ـ بعد اكتمال عناصره في الباب الثاني، الفصل الثاني.

بهلوي، وحكمت من ١٩٢٥م - ١٩٧٩م.

ثانياً: الخطاب المتعصب المحتكر للحق:

تعتبر «ولاية الفقيه» بمثابة خيط رفيع يتطلب الحفاظ عليه يقظة دائمة وحذراً مستمراً، وقد أورث ذلك أنصار النظرية توتراً وتعصباً زائدَيْن، ومن جهة أخرى فإن مضمون النظرية نفسها - الذي يلغي الآخر تماما سواء كان شيعيا أم سُنّياً، ويتعامل معه وفق ثنائية: المعارض عدو، والموافق حليف - يزيد من هذا التعصب إلى حدٍّ كبير.

يقول أحمد الكاتب: «فالأمة تتعامل مع فقيه منصّب من قِبَل الإمام المهدي ونائبٍ عنه، كما أن الإمام المهدي منصّبٌ من قبل الله تعالى، وبالتالي فإنه أصبح في وضع مقدس لا يحق للأمة أن تعارضه»(١)، وعلى المستوى الشيعي فإنه لا مجال للتحلل من أَسْر النظرية، وحتى لو كان الشيعي يقلد مرجعاً آخر خلاف المرشد خامنئي، يقول نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله اللبناني: «فالارتباط بالولاية تكليف والتزام يشمل جميع المكلفين، حتى عندما يعودون إلى مرجع آخر في التقليد؛ لأن الآمرية في المسيرة الإسلامية العامة للولي الفقيه المتصدي»(٢).

وبذلك فإن سلطان النظرية وسطوتها يتجاوزان إيران إلى غيرها من الدول، يقول خامنئي: «لا بد أن تكون حكومة المستقبل في العراق حكومة إسلامية وشيعية، وسيكون مبدأ «ولاية الفقيه» هو مبدأ مستقبل العراق، فقائد الأمة الإسلامية هو الإمام الخميني»(٣).

وتتعامل السلطات الإيرانية بحدة بالغة مع المعارضين للنظرية، وعلى سبيل المثال: أمر المرشد علي خامنئي عزل وزيري الداخلية والتعليم في وزارة محمد خاتمي الثانية؛ لأنهما لم يستجيبا لأوامره بإدخال مادة ««ولاية الفقيه»» ضمن الدروس الدينية(٤)، كما حُكِم على الكاتب محسن كديجر لمدة عام ونصف العام

---

(١) تطور الفكر السياسي الشيعي، أحمد الكاتب، ص ٤٣٢.

(٢) من كتاب «حزب الله النشأة والرؤيا»، تأليف: نعيم قاسم، انظر: موقع مفكرة الإسلام، مقال: من يملك القرار في حزب الله.

(٣) الطائفية والسياسة في العالم العربي، تأليف د. فرهاد إبراهيم، مكتبة مدبولي، ص ٤٠٩.

(٤) الشرق الأوسط، ١٥/ ٤/ ٢٠٠٤م.

في ١٩٩٩م، بسبب نشره كتاباً بعنوان «نظريات الحكم في الفقه الشيعي، بحوث في «ولاية الفقيه»، وكانت التهمة: بث الاضطراب في صفوف الرأي العام؛ لأنه أشار إلى وجود نظريات سياسية أخرى في الفقه الشيعي بخلاف «ولاية الفقيه»[١].

ثالثاً: تصدير الثورة:

«ولاية الفقيه» وتصدير الثورة وجهان لعملة واحدة، بمعنى: أن النظرية لن تستقيم بدون تصدير للثورة، وتصدير الثورة مبرره الوحيد هو «ولاية الفقيه»، ولذلك فإن مصطلح تصدير الثورة يقدم دلالات تمويهية نوعاً ما، فهو ليس من قبيل نشر الفكر الثوري كما في الشيوعية أو القومية الناصرية، وإن كانت ثورة الخميني تبنَّت الشعار الشيوعي الذي رفعه تروتسكي من قبل «الثورة المستمرة»[٢] ولكن المصطلح في حقيقته مرادف لمصطلح «الفتح» في المفهوم الإسلامي، أي: إعادة فتح بلاد الإسلام وإخضاعها «لزوماً وليس اختياراً» لحكم الولي الفقيه، هذا هو معنى «ولاية الفقيه» ولازمها، وإنما ألجأهم ضعف الإمكانات إلى الاستعاضة عن الفتح بمعناه المباشر إلى مصطلح تصدير الثورة.

وفي إحدى خطب الجمعة ـ والتي يُكلَّف بها الخطيب مباشرة من المرشد خامنئي ـ خطب «آية الله» مصباح يزدي – مرجع التقليد للرئيس نجاد – وهو متّكئ على مدفع رشاش بجانبه، فقال إن: «الشيعة يعتقدون أن دار الإسلام كلها يجب أن تنضوي تحت قيادة وزعامة إمام معصوم واحد»، وتعالى هتاف آلاف الحاضرين: الله أكبر.. خامنئي رهبر.. وارث بيجمبر[٣]، وأكمل يزدي خطبته متسائلاً: «إذا كان هناك بلد إسلامي واحد يحكمه نظام الولي الفقيه، هل يجب على المسلمين الذين يعيشون في بلدان غير إسلامية إطاعة أوامره أم لا؟» ثم يقدم الإجابة قائلاً: «طاعة الولي الفقيه واجبة أيضاً حتى على المسلمين المقيمين في دول غير إسلامية، سواء بايعوا أم لم يبايعوا؛ لأن البيعة حسب نظرية «ولاية الفقيه» المطلقة لا دور لها في

---

(١) مقال: جذور ولاية الفقيه بين إيران ولبنان، د. محمد الأرناؤوط أستاذ التاريخ الحديث في جامعة آل البيت، موقع منتدى القرآن ـ شيعي ـ.
(٢) صالح القلاب، الشرق الأوسط، ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٤م.
(٣) كلمات فارسية معناها: الله أكبر.. خامنئي قائد.. وارث الرسول.

شرعية الولي الفقيه»[١].

ويحاول أنصار الولاية إضفاء صبغة سلمية على مبدأ تصدير الثورة، يقول إبراهيم أمين السيد ـ أول ناطق باسم حزب الله اللبناني ورئيس المجلس السياسي ـ: «تصدير الثورة لا يعني تسلط النظام الإيراني على شعوب الشرق الأوسط، وإنما المفروض أن تعيش المنطقة الإسلام من جديد، فيكون الإسلام هو المسيطر على هذه الشعوب»[٢].

رابعاً: تطهير الثورة:

رافق الثورة منذ بدايتها حملات تصفية واسعة النطاق للمخالفين والمعارضين الحاليين والمحتملين، وتأسست محكمة الثورة التي تزعمها أحد رجال الدين، وهو «آية الله» صادق خلخالي، بأمر من الخميني نفسه، وقد أصدر خلخالي أحكاماً بالإعدام على الآلاف من الناس، ولكنه اعترف بعد موت الخميني – وفيما يشبه السخرية – باحتمال أن يكون بين المحكومين بالإعدام بعض الأبرياء ممن سيكافئهم الله بمنحهم غرفة أكثر سعة من الغرف العادية في الجنة، وحوريات أكثر جمالاً من حوريات الجنة[٣].

ومع تتابع الهزائم والقرارات الخاطئة، ثم بعد موت الخميني، تزايدت المعارضة لنظام «ولاية الفقيه» وتنوعت أشكالها، ومن ثم فقد زاد مستوى قمع النظام لها، وممن صدرت ضدهم أحكام بالإعدام في السنوات الأخيرة، «حجة الإسلام» محمد الحسيني الميلاني، حفيد المرجع الإيراني البارز «آية الله» الميلاني، وكان سبب الحكم التآمر ضد «ولاية الفقيه» وجمع السلاح لمحاربة النظام، ويتزعم ميلاني جمعية المهدوية في مشهد، وأصدرت الحكمَ بحقه محكمة رجال الدين، وهي الجهة المعنية بمعاقبة رجال الدين المعارضين لـ«ولاية الفقيه»، وقد أصدرت المحكمة حكماً آخر بإعدام «حجة الإسلام» حسن يوسف آشكوري، بتهمة الردة ومحاربة «إمام الزمان»

---

(١) حدائق الأحزان، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، حزب الله نموذجاً، تأليف د. مسعود إلهي، الدار العربية للعلوم، ص ٣١٦.

(٣) التحول العاصف، ص ٤٥٣.

بسبب مشاركته في مؤتمر في برلين عاصمة ألمانيا، وانتقاده مبدأ «ولاية الفقيه»[(١)].

خامساً: تفتيت المجتمع الشيعي:

يخبر النبي ﷺ أن خير القرون قرنه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم[(٢)]، وهذا الحديث يرسخ قاعدة اجتماعية سننية هامة، وهي أن الأجيال الأولى للدعوات الدينية عادة ما تكون أقوى الأجيال، ومن ثم يبدأ الضعف ينخر في مجتمع الدعوة مع تتابع السنين، وإن كان حديث النبي ﷺ ينطبق على دعوة الحق، وهي الأَوْلى بالثبات والقوة، فإنه من باب أَوْلى أن تنطبق القاعدة على دعوات الباطل، وقد كان، وتحول المجتمع الشيعي الإيراني المتحمس للخميني ونظرياته ومبادئه إلى أجيال ممزقة فسيفسائية فاقدة للهوية.

وفيما يتعلق بالمجال الديني، فقد بدأ طلاب الجامعات منذ أواخر التسعينيات في التظاهر علانية مطالبين بتحديد صلاحيات المرشد وخضوعه للانتخاب المباشر، ويبلغ عدد الطلاب في جامعة طهران وحدها ما يقارب المليون ونصف المليون طالب، ونادى الطلاب بإلغاء إسلام «طالبان» ووضع حدٍّ لمؤسسات حركة طالبان الإيرانية، وقد تدخلت قوات حزب الله الإيراني وفرّقت المظاهرات بالقوة، وخرجت مظاهرات مضادة مؤيدة للمرشد خامنئي نظَّمها طلبة المعاهد الدينية[(٣)].

وفي مقابل هؤلاء برزت ظاهرة أخرى تتمثل في توجه أعداد كبيرة من الشباب الإيراني نحو الصوفية، التي ترفض بدورها «ولاية الفقيه»، مما اضطر أحد المراجع الكبار في قم «آية الله» فاضل ألنكراني لإصدار فتوى يحرم فيها المشاركة في أعمال الفرق الصوفية[(٤)].

سادساً: تأسيس حزب الله اللبناني:

خارج إيران؛ يعتبر تأسيس حزب الله في لبنان أهم إنجازات وتداعيات نظرية

---

(١) الشرق الأوسط، ١٥/ ٥/ ٢٠٠١م.

(٢) أخرجاه في الصحيحين بلفظ «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وهو من رواية عبد الله بن مسعود وأبي هريرة وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) صنع القرار في إيران، ص ١٦٩.

(٤) صباح الموسوي، مدير مركز النهضة الأحوازية، موقع مفكرة الإسلام، ١٤/ ٩/ ٢٠٠٦م.

«ولاية الفقيه»، يقول حسن حمادة أحد رجال الدين ومدير مؤسسة الشهيد التابعة لحزب الله: «نهج الإمام الخميني ونظرية ونظام «ولاية الفقيه» هما وجهان لعملة واحدة.. وكان قيام حزب الله في لبنان أحد ثمار هذه النظرية»[١].

فقد نجحت الثورة إلى حدٍّ كبير في استنساخ تجربتها ونقلها كما هي إلى لبنان، وقد تأسس الحزب على اعتناق مبدأ «ولاية الفقيه»، الذي يتغلغل في ثنايا خطاب حسن نصر الله الأمين العام للحزب، وكثير من رموزه، يقول حسن نصر الله في أول خطاب له بعد توليه مسؤولية الحزب عام ١٩٩٢م: «سيبقى ولي الأمر آية الله الخامنئي قائدنا وإمامنا وسيدنا وقدوتنا في الجهاد والصبر والعزيمة... وسيبقى هذا العصر، عصر انتصار المستضعفين على المستكبرين، عصر الخميني الكبير، ولو كره الكافرون والطواغيت»[٢]، ويقول إبراهيم أمين السيد: «نحن لا نستمد صنع القرار السياسي لدينا إلا من الفقيه، والفقيه لا تُعرِّفه الجغرافيا، بل يعرفه القانون الإسلامي، فنحن في لبنان لا نعتبر أنفسنا منفصلين عن الثورة في إيران.. نحن نعتبر أنفسنا - وندعو الله أن نصبح - جزءاً من الجيش الذي يرغب الإمام في تشكيله من أجل تحرير القدس الشريف»[٣].

وحتى لا يعتقد البعض أن هذه الحماسة اقتصرت على المرحلة الثورية في الثمانينيات، فإن قادة حزب الله لا يدخرون وسعاً في التأكيد مراراً على تبعيتهم الكاملة ل«ولاية الفقيه»، يقول نعيم قاسم في كتاب «حزب الله النشأة والرؤيا» والذي يمثل الرؤية الرسمية للحزب، وقد نشر لأول مرة عام ١٩٩٤م: «وفيما يتعلق بولاية الأمر، نحن نلتزم بولاية المرجعية الرشيدة التي يجسدها الولي الفقيه، الذي تتوافر فيه مجموع الشرائط والمواصفات»[٤]، وفي العام ١٩٩٧م كتب حسن نصر الله إلى خامنئي يرد على خطابه لتعزيته في مقتل ابنه هادي في عملية عسكرية، فقال: «سماحة ولي أمر المسلمين آية الله العظمى الإمام القائد السيد

(١) حزب الله حقائق وأبعاد، فضيل أبو النصر، الشركة العالمية للكتاب، ص ٥٣.
(٢) هكذا تكلم نصر الله، ص ٦٩ - ٧٠.
(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢١.
(٤) السابق، ص ٣١٩.

الخامنئي (دام ظله الشريف).. إنني أجدّد لكم بيعتي وبيعة كل المجاهدين على متابعة طريق الجهاد والمقاومة والدفاع عن الأمة والكرامة والمقدسات حتى النصر أو الشهادة»(١).

وإن كانت الحياة السياسية تحمل اعتبارات وتأويلات خاصة، وتتطلب خطاباً معيناً، فإن الحياة الاجتماعية والعائلية تقدم دلالة أوضح على مصداقية تمسك الشخص بمعتقده والتزامه بما يظهر ويعلن، ونذكر نموذجاً من بيت حسن نصر الله، وهو ابنه هادي الذي قتل في العام ١٩٩٧م ولما يبلغ العشرين من عمره، فقد كتب هادي نصر الله في وصيته ما يكشف عن طبيعة التربية التي تلقاها، وقال في مقدمتها: «السلام على القائم الحجة المنتظر، السلام على روح الإمام الخميني المقدس، السلام على الإمام القائد السيد علي الخامنئي العظيم، السلام على قيادة حزب الله»، ثم أوصى والده بالدعاء لحزب الله قائلاً: «فهم بحاجة لدعائك ودعاء ولي أمر المسلمين القائد الخامنئي»، ثم أوصى إخوته بوالدهم قائلاً: «وَيْحكم من إغضابه فإن له عند الإمام القائد السيد علي الخامنئي والإمام الحجة المنتظر (عج) مكانة عظيمة وشأناً من الشأن ودرجة عالية جداً»، ثم أوصى زملاءه في المقاومة بالقول: «وأوصيكم بسماع كلام القادة، قادة أمة حزب الله، والعمل به وطاعة كلام وتكليف سماحة الإمام الخامنئي وسماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله»، وكانت قاعة العزاء المخصصة بالنساء مزينة بلافتات تبارك لـ«صاحب الزمان» وصور للخميني(٢).

هذا ما ربَّى حسن نصر الله ابنه وأهل بيته عليه، وهو يقدم أبلغ دلالة على أن زعيم حزب الله ينطلق في تحركاته وسكناته ويستلهم في أدائه وخطابه، تكليفات الولي الفقيه، المرشد علي خامنئي، وتوجيهات ووصايا المرشد الأول الخميني.

(١) هكذا تكلم نصر الله، ج ١ ص ٢٣١.
(٢) السابق، ج ١ ص ٢١٥-٢١٦-٢١٧-٢١٩.

الفصل الثاني: لبنان وإيران. ثأر من السُّنة

قصة البداية:

تشابكت الأحداث بين لبنان وإيران في عدة منعطفات تاريخية، أبرزها: تأسيس الدولة الصفوية في العام ١٥٠١م، وتأسيس جمهورية إيران الإسلامية في ١٩٧٩م، ولعبت الطائفة الشيعية في لبنان دوراً محورياً في كلا الحدثين يصل إلى مستوى المشاركة الفعلية في التأسيس، ولن يمكن استيعاب أهمية حزب الله اللبناني لإيران دون إدراك أهمية لبنان بالنسبة لإيران؛ فحزب الله لم يتأسس فقط لتحقيق مصالح سياسية أو باعتباره أداة ضغط وتحريك، ولكن كان هدفه بالأساس حماية وتأمين الطائفة الشيعية في لبنان، وحماية الواقع اللبناني «المفتوح» كي يظل كما هو دون تغيير.

وأول رصد للتبادل الديني ـ الثوري ـ ما بين شيعة الشرق الإيراني وشيعة الغرب اللبناني حدث في زمن أحد أبرز علماء الشيعة عموماً، وهو محمد بن مكي العاملي الجزيني من جبل عامل في لبنان (٧٣٤ - ٧٨٦ هـ) والملقب بـ«الشهيد الأول»؛ فقد أرسل أحد حكام خراسان من الشيعة واسمه علي مؤيد إلى الجزيني يطلب منه القدوم لتعميق التشيع في بلاده، ولكن الجزيني كان يقود حركة نشطة لتثوير الشيعة في جبل عامل في مواجهة حكم المماليك في ذلك الوقت، ولم يكن بإمكانه تركها والسفر إلى خراسان، واكتفى بإرسال كتابه «اللمعة الدمشقية» ـ الذي طرح فيه فكرة نيابة الفقيه عن المهدي لأول مرة ـ ليكون دليلاً للفقهاء الشيعة في خراسان(١).

وبعد مائتي عام تقريباً تكررت الدعوة ولكن من قِبَل الصفويين هذه المرة. وإذا كان شيعة جبل عامل في لبنان هم أصحاب «براءة الاختراع» لمبدأ ولاية الفقيه، فإن الأجيال التالية ساهمت عملياً في تطبيق المبدأ من خلال الدولة الصفوية التي

---

(١) سالم شكور، عرض لكتاب: هجرة علماء الشيعة في جبل عامل إلى إيران، صحيفة النهار اللبنانية ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠١م.

استدعتهم على عجل لإنقاذ وضع الأقلية الشيعية في إيران، فكان من أبرز هؤلاء العالم المعروف بـ (المحقق العاملي الكركي)، الذي هاجر من جبل عامل إلى العراق ثم إلى إيران تلبية لدعوة من الشاه إسماعيل الصفوي الأول عام ١٥٠٤م، وأصبح بعد وفاة الأخير نائباً عاماً للإمام المهدي، وصاحب صلاحيات مطلقة، اقتصادية وسياسية ودينية في الدولة الشيعية الجديدة، إلى درجة أن الشاه طهماسب كان يعتبر نفسه نائباً له أيضاً، وأطلق بعض الكُتّاب على الكركي لقب «مخترع الشيعة» بسبب دوره الكبير في نشر التشيع في إيران حتى تحول السُّنة إلى أقلية تحت القهر والتعذيب[١].

وبذلك يكون شيعة جبل عامل قد ثأروا لمواجهة المماليك والعثمانيين لتحركاتهم في لبنان، من السُّنة في إيران، ويكون التحالف الصفوي الإيراني اللبناني دافعه الأساس بالنسبة للطرفين هو مواجهة السُّنة سواء كانوا في إيران أو في لبنان.

ولعب فقهاء لبنان الشيعة تلامذة مكي الجزيني دوراً كبيراً في نشر الثقافة السياسية لدى أقرانهم في إيران، وقد بلغ عدد العلماء المهاجرين ما يقرب من ٩٧ عالماً شيعياً، عاد منهم إلى لبنان ٧ فقط، وأصبحت استمالة علماء جبل عامل للتوجه إلى إيران من السياسات الأساسية للحكومة هناك وحتى سقوط الحكم الصفوي[٢]، وقد كان رجال الدين من جبل عامل يتميزون بأنهم «ما حلوا في قطر من الأقطار إلا وتعلموا لغة أهله بأقرب وقت، وتكلموا بلهجتهم بحيث لا يمتازون عنهم ولا يظنهم السامع غرباء بل يخالهم من أهل تلك البلاد»[٣]، وهذا ما يسَّر اندماجهم في الوسط الصفوي ومن ثم سهولة تأثيرهم فيه.

وهذا الدور اللبناني العاملي في تشيع إيران يؤكده حسن نصر الله، الذي سئل عن تبعية حزبه لإيران، فقال بوضوح: «إذا كان من يقول: إن الفكر إيراني، أقول له: إن هذه مغالطة! لأن الفكر في إيران هو الفكر الإسلامي الذي أخذه المسلمون

---

(١) هجرة علماء الشيعة في جبل عامل إلى إيران، عرض سالم مشكور، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) خطط جبل عامل، محسن الأمين، ص ٧٣، نقلاً عن موقع تبنين منارة جبل عامل:
http://www.tibneen.com.

إلى إيران، وحتى هذا الفكر خاص بعلماء جبل عامل اللبنانيين هم الذين كان لهم التأثير الكبير في إيران على المستوى الحضاري والديني في القرون السابقة، أين هو الاستيراد؟»[١].

وليس هذا الرأي هو المعتمد لدى شيعة لبنان؛ فهناك من يؤكد أنهم أصبحوا يستوردون الفكر من إيران بعد أن كانوا يصدرونه، يقول محمد الحاج حسن منسق التيار الشيعي الوطني الحر في لبنان: «نريد حماية فكرنا الشيعي الذي كنا نصدره للعالم كله، اليوم عطلنا التصدير وشغلنا الاستيراد، هناك عاصفة فارسية تريد تدمير كل المفاهيم والأعراف العربية التي تربَّينا ونشأنا عليها»[٢].

عموماً؛ هذا الاستحضار للتراث الشيعي العاملي من قِبَل نصر الله، يعطي إفادة واضحة عن تواصل ثقافة الثأر التاريخي لدى حزب الله، فلا يمكن استحضار الفكر العاملي، دون تاريخه وصراعه مع السنة، وحسن نصر الله ينتمي إلى بلدة البازورية قرب صور، وهي ضمن نطاق جبل عامل حسب التحديد الذي ذكره المؤرخ وعالم الدين الشيعي محسن الأمين[٣]، ولذلك لا يغيب عن ذهن نصر الله تاريخ الثأر القديم.

وجدير بالذكر أن التراث الشيعي يذكر ثلاثة من العلماء موصوفين بالشهادة على الترتيب، فـ«الشهيد الأول» هو الجزيني العاملي كما مرَّ سابقاً، و«الشهيد الثاني» هو زين الدين بن علي الجبعي العاملي أيضاً (٩١١- ٩٦٦ هـ) وقد قتله العثمانيون، و«الشهيد الثالث» هو محمد باقر الصدر، المرجع الشيعي العراقي الذي أعدمه صدام حسين، وهو من أصل لبناني كما سيأتي لاحقاً، وتحديداً من جبل عامل.

نحن إذاً أمام ثأر متراكم تبدو آثاره واضحة، ولا يمكن إغفاله كخلفية محركة لحزب الله، ومؤثرة في تفاعلاته المحلية والإقليمية، وهو ما يدفعنا إلى تتبع تاريخي للروافد الفكرية التي ساهمت في تشكيل وبناء ثقافة حزب الله الصفوية،

(١) مجلة المشاهد السياسي، العدد ١٤٧، ٣/ ١/ ١٩٩٩م.
(٢) حوار مع المستقبل، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) خطط جبل عامل، محسن الأمين ص ٧٢.

والصفويون لا ينسون تاريخهم.. وإن نسيناه.

ويمكن رصد ثلاثة روافد ساهم كل منها في تشكيل هذه الثقافة الصفوية، وهي: ثورة الخميني وأفكاره، الفكر الثوري لدى محمد باقر الصدر، والفكر الحركي لدى موسى الصدر، أي: هناك ثلاثية مكونة من: الثورة، الفكر، والحركة، هي باختصار روافد حزب الله اللبناني.

ونتناول هذه الثلاثية منسوبة إلى أصحابها على الترتيب، مع بيان طبيعة العلاقة بينهما، إذ تمثل هذه العلاقة بدورها الرافد الرابع؛ لأنها لم تكن ودودة على الإطلاق، خاصة فيما بين الخميني من جهة والصدرين من الجهة الأخرى، وهذه العلاقة المتوترة الغامضة ـ كما سيتبين ـ تفيد أن الثقافة التي أشربها حزب الله كانت تحمل في طياتها معنى الانشقاق واللدد، وهو ما تبدّى لاحقاً في أداء الحزب وتفاعلاته.

الخميني:

الخميني نسبة إلى بلدة خمين في إيران وهي مسقط رأسه، ويذكر كثير من المحققين أن والد الخميني واسمه مصطفى قدم إلى إيران من الهند واستقر في تلك البلدة، حيث تزوج من أهلها، ونصحه بعض أصدقائه بأن يعلن انتسابه إلى آل البيت ويلبس الشال الأخضر، ففعل ذلك وأصبح يدعى الملا مصطفى، وانضمّ الخميني وكان اسمه «روح الله» إلى الحوزة العلمية في قم، وترعرع فيها، وكان صاحب تمرد واعتراض على علماء الحوزة مما أدى إلى طرده منها فرحل إلى أصفهان، ثم عاد إليها وأكمل دراسته، وكان على خلاف دائم مع «آية الله العظمى» بروجردي، المرجع الإيراني الأعلى، ونال الخميني رتبة «آية الله» وقاد مظاهرات ضد الشاه عام ١٩٦٢م نتج عنها اشتباكات قتل فيها المئات، فاعتقل من قبل الشاه، ولكن مراجع قم أجمعوا واتفقوا على ترقيته إلى رتبة «آية الله العظمى» باعتماد كتابه «تحرير الوسيلة» رسالة علمية، وذلك لأن الدستور الإيراني يمنع اعتقال من هم في مرتبة«آية الله العظمى» فأطلقه الشاه ونفاه إلى تركيا عام ١٩٦٣م، ثم إلى النجف بالعراق حيث مكث فيها ١٤عاماً حتى ١٩٧٨م، حيث

انتقل إلى فرنسا بعد تحسن علاقات البعث مع الشاه..[١].

وكان تركيز الخميني في دراسته على الفلسفة، ولكن أصدقاءه نصحوه أن يهتم بالفقه ليبلغ مقاماً لائقاً[٢]، وهكذا توجه اهتمام الخميني نحو الفقه الذي كان موضوع أغلب كتبه، ومن أصل ٤٤ عملاً لم يتناول الخميني السياسة إلا في ٤ أعمال فقط، ويمكن الوصول من بحث أعماله وتحليل مضمونها إلى نتيجة خطيرة هي أن اهتمامه بالسياسة كان ضئيلاً مقارنة باهتمامه بالأمور الفقهية والمذهبية، وعملياً ظهر هذا الاهتمام فجأة في عام ١٩٦٣م بمشاركته في مظاهرات «١٥ خرداد» ضد الشاه وكان عمره وقتها قد تجاوز الستين[٣].

وقد ولدت نظرية ولاية الفقيه في فترة نفيه بالنجف، حيث ألقى محاضرات حولها ثم جمعها في كتاب «الحكومة الإسلامية» بعد سنوات من وصوله إلى العراق[٤].

وهذه المعلومات تطرح تساؤلاً حول تحول الخميني فجأة إلى مفكر صاحب مشروع سياسي متخصص، خاصة وأن مكانته العلمية وكتبه لم تبلغا مرتبة علماء قم البارزين، الذين كانوا أكثر شعبية وكتبهم الأكثر انتشاراً بين الشيعة في إيران، أحد احتمالات الإجابة تشير إلى دور «آية الله العظمى» محمد باقر الصدر، في بلورة الفكر السياسي للخميني.

باقر الصدر:

وُلِدَ محمد باقر الصدر في الكاظمية بالعراق عام ١٣٥٣هـ في أسرة ذات تاريخ علمي يحتشد فيها العلماء والمراجع، وقد برز باقر الصدر في طلب العلوم الدينية

---

(١) انظر: إيران بين التاج والعمامة، أحمد مهابة ص ٢١٩ إلى ص ٢٢٤. وتحقيق سيرة الخميني منقول عن مقال نشره د. شوكت بن محمد علياني في صحيفة الشرق الأوسط ١/ ٣/ ١٩٨٨م.

(٢) محمد قوجاني، رئيس تحرير صحيفة الشرق الإيراني، مقال: موقع الإمام الخميني وولاية الفقيه في المذهب الشيعي، نشر في صحيفة القبس ٩/ ٦/ ٢٠٠٦م.

(٣) حدائق الأحزان ص ١١٣-١١٥.

(٤) السابق ص ١٠٥.

الشيعية، حتى أصبح من علماء النجف البارزين، وقد تزوج من ابنة عمه المرجع الديني الإيراني «آية الله العظمى» صدر الدين الصدر، والد موسى الصدر مؤسس حركة أمل في لبنان، وبذلك يكون موسى الصدر ابن عمه وشقيق زوجته[١].

تميز باقر الصدر إلى جانب تميزه العلمي الفقهي، بأنه صاحب مشروع تجديدي للمرجعية الشيعية، حيث كان يدعو إلى ما أطلق عليه «المرجعية الموضوعية» أي: «نقل المرجعية من حالتها الفردية إلى مؤسسة ثابتة تعتمد على التخصص في الإشراف العلمي وإدارة الأعمال[٢] وتتكون هذه الإدارة المركزية للمرجعية من عدة إدارات تشمل العلمية والمالية والخارجية وشؤون العلماء والحوزة، بمعنى أنها تسيطر تماماً على شؤون المرجعية[٣]، وهذا المشروع يعني: نسف نفوذ المراجع الشيعية بصورته المعهودة، وهذا أوجد له عداوات واسعة بين طبقة العلماء والمراجع.

وكان باقر الصدر خلاف ما يعرفه كثيرون، هو صاحب استراتيجية «تصدير الثورة» الشيعية، بل يعتبر مسؤولاً بدرجة كبيرة عن التطرف الشيعي الذي مارسته وتمارسه العديد من الأحزاب والتجمعات الشيعية الحالية سواء في لبنان أو العراق، فإن باقر الصدر كان يحمل مشروعاً سياسياً شيعياً، قدَّم له في كتبه ومحاضراته واتصالاته، وسعى إلى تنفيذه بصورة عملية من خلال تأسيس حزب الدعوة العراقي عام ١٩٥٩م، وقد أراد لهذا الحزب أن يكون ذا نسخ متكررة في الدول التي يوجد بها تجمعات شيعية، وكان أول بلد سعى إلى تصدير الثورة إليه هو لبنان، وقد اعتبره عدد من المؤرخين «أحد واضعي النظريات التي تخطت حدود العراق»[٤].

يقول د. مسعود إلهي: «حتى بداية الثمانينيات كان أكثر علماء الدين الشيعة تلامذة في حوزة النجف، وعاشوا هنالك خلال الستينات والسبعينات وشاهدوا بروز الحركة الثورية العراقية السرية، التي عرفت بحركة الدعوة

---

(١) انظر موقع الدعوة الشيعي: http://www.daawa.org/asaderbook/1.htm

(٢) جودت القزويني، الإمام باقر الصدر وريث المرجعية الشهيدة (مجلة الفكر الجديد) موقع دار الإسلام - شيعي.

(٣) الطائفية والسياسة ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٤) السابق ص ٣٥٥.

الإسلامية، في حوزة النجف، درس طلاب العلوم الدينية الشبان الآتون من العراق وإيران ولبنان والدول الإسلامية الأخرى، وتأثروا بالنظريات الإسلامية الثورية التي أطلقها علماء الدين الشيعة الإيرانيون والعراقيون الكبار؛ كالإمام الخميني وآية الله السيد محمد باقر الصدر، وهكذا كان من الطبيعي أن تجمع الصداقات الشخصية بين المدرسين والطلاب في النجف وكربلاء، بغضّ النظر عن قومياتهم المختلفة، وفي الحقيقة كان نشاط علماء الدين في النجف يمثل القلب ومركز الثقل لغالبية الحركات الثورية أو الإحيائية في العالم»(١).

وعندما رجع طلاب العلم والعلماء اللبنانيين إلى بلدهم نشطوا في إنشاء المؤسسات التعليمية لتلقين الأجيال الشيعية الجديدة الفكر الثوري الذي تلقوه من باقر الصدر والخميني، وكان معظم العائدين من النجف قد انضموا إلى حزب الدعوة المعبر عن مشروع باقر الصدر، وقد التفوا في بادئ الأمر حول موسى الصدر ثم انفصلوا عنه وأسسوا حزب الدعوة اللبناني برعاية رجل الدين البارز محمد حسين فضل الله(٢).

وكان باقر الصدر قبل أن يتنبه النظام إلى خطورة دوره الخارجي والداخلي، قد أصبح بؤرة لالتقاء العلماء والناشطين الشيعة الذين يحملون الحماسة الثورية، فقد سافر موسى الصدر إلى النجف عام ١٩٥٤م، ومكث فيها أربعة أعوام لتلقي العلوم الشيعية قبيل رحيله إلى لبنان لبدء مشروعه الكبير، وكان باقر الصدر ابن عمه وشقيق زوجته قريباً منه في هذه الفترة، كما التقى الاثنان بمحمد حسين فضل الله ـ المولود في النجف أصلاً، قبل هجرته إلى لبنان ـ وقد ساهم فضل الله في تأسيس حزب الدعوة العراقي الذي يدعو إلى جمهورية إسلامية(٣).

وأصدر باقر الصدر في هذه الفترة مجلة الأضواء الإسلامية باسم جماعة العلماء، وشاركه في تحريرها حسين فضل الله، وهاجم الصدر من خلالها رجال

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي ص ٣٢٣.
(٢) انظر السابق ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.
(٣) انظر مقال: فصول من قصة حزب الله ج١، حازم صاغية، صحيفة الحياة ٤/ ١/ ٢٠٠٥م.

الدين الشيعة الذين يتخذون موقفاً معارضاً لتياره الثوري[١] والتقى موسى الصدر وباقر الصدر مع محمد مهدي شمس الدين، الذي خلف موسى الصدر في رئاسة المجلس الشيعي الأعلى في لبنان[٢]، ذلك المجلس الذي اعتبره المراقبون ترجمة عملية لبنانية لأفكار باقر الصدر حول «المرجعية الموضوعية».

وحتى في العراق كان محمد باقر الحكيم رئيس المجلس الشيعي الأعلى السابق وزعيم منظمة بدر من تلامذة باقر الصدر، ومحمد صادق الصدر والد مقتدى الصدر زعيم ميلشيا جيش المهدي الدموية؛ كان من تلامذته أيضاً، وهو ابن عمه، وقد تزوج ثلاثة من أبنائه بثلاث بنات لباقر الصدر، ومن بينهم مقتدى، أي: أن باقر الصدر كان بمثابة الشيخ والملهم بأفكاره لزعماء: حزب الدعوة بفروعه، والمجلس الشيعي الأعلى العراقي وميلشياه منظمة بدر، وتيار الصدر وميلشياه جيش المهدي، وحركة أمل اللبنانية، وحزب الله اللبناني.... ألا يشير ذلك إلى حقيقة أنه يعتبر الأب الروحي لتصدير الثورة الشيعية إلى العالم العربي؟...

يقول مسؤول أمني في حزب الله اللبناني: «كان فرع حزب الدعوة في لبنان أقوى فروع هذا الحزب خارج العراق، ولهذا السبب كان العراق يبحث عن معارضيه في لبنان»[٣] ولأن حزب الدعوة اللبناني كان يتبع نهجاً سرياً مشابهاً لنهج أصله العراقي، فقد حدَّ ذلك من انتشاره في أوساط الطائفة الشيعية اللبنانية، وبمجرد أن بدأ توافد الإيرانيين على لبنان بعد ثورة الخميني، وتأسيس حزب الله، انتقل كثير من أعضاء حزب الدعوة ـ وكان باقر الصدر قد قتل في العراق ـ إلى حزب الله، وبذلك تكون الصفوف الأولى لهذا الحزب من الشباب متقارب السن وأغلبهم من تلامذة باقر الصدر الذين تربوا على أفكاره الثورية[٤]، ولا يزال الحزب معترفاً بذلك إلى الآن، وقد أنتجت قناة المنار التابعة لحزب الله برنامجين وثائقيين، من عدة حلقات، يحكي الأول سيرة الخميني، والثاني يحكي سيرة باقر الصدر، وتم بثهما متتالين في العام ٢٠٠٦م.

(١) الطائفة والسياسة ص ٢٥٢.
(٢) انظر: الموقع الشيعي بني حيان: http://www.banihayan.com/MOUSSA%20AL%20SADER.htm
(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي ص ٣١١.
(٤) انظر السابق ص ٣٢٥.

موسى الصدر:

وُلِدَ موسى الصدر في مدينة قم بإيران في إبريل ١٩٢٨م، وكان أبوه من كبار المراجع في الحوزة، وتذكر المصادر الشيعية أن نسب عائلة الصدر يرجع إلى عائلة شرف الدين في لبنان[(١)] والتي كانت تقيم في مدينة صور قبل أن تهاجر منها إلى النجف في أواخر الدولة الصفوية، وتبادل أفراد العائلة الهجرة بين إيران والعراق، لتصبح عائلة الصدر من العائلات العلمية البارزة عابرة الدول، وكان موسى الصدر يتميز بالذكاء، وقد تنقل في طلبه للعلم ما بين حوزتي قم والنجف، كما حصل على إجازة من كلية الحقوق في طهران، ولكنه لم يصل إلى رتبة علمية وفق التراتبية الشيعية.

الصدر من إيران إلى لبنان:

وقد هاجر موسى الصدر إلى لبنان عام ١٩٥٩م بدعوى سدِّ الفراغ الذي تركه موت العالم الشيعي عبد الحسين شرف الدين، وبناء على إلحاح من مواطني مدينة صور، وكذلك بناء على طلب من المرجع الإيراني البروجردي والمرجع العراقي محسن الحكيم، غير أن المعلومات غير الرسمية تذكر أن مدير الأمن العام الإيراني الجنرال بختيار أرسله إلى لبنان باسم الشاه في مهمة ظاهرها ديني دعوي مع أنه لا يُعدّ من علماء الشيعة، وباطنها سياسي طائفي، والذين انتدبوه لهذا الغرض سهلوا له طريق الوصول إلى القصر الجمهوري، وإقامة علاقات مريبة مع رئيس الجمهورية فؤاد شهاب وبطانته (أقطاب النهج)، وخلال فترة قصيرة تمكن الصدر من الحصول على الجنسية اللبنانية بموجب مرسوم جمهوري»[(٢)]، و «سواء كان الدافع المؤسسة الشاهنشاهية أو الدينية، فقد كان الغرض واضحاً: مهمة الصدر سحب أجيال الشيعة من الأحزاب السياسية اليسارية والقومية، وإعادتها إلى بيت الطائفة، بل وربما إلى البيت الفارسي»[(٣)].

---

(١) موقع الإمام موسى: http://www.imam-moussa.com/sirah.htm

(٢) انظر: مقال: الشيخ محمد سرور، مقال: المرحلة التي سبقت تأسيس حزب الله ج ١، مجلة السُّنّة.

(٣) غسان الإمام، الشرق الأوسط ٨/ ٨/ ٢٠٠٦ م، مقال: شيعة لبنان من الحزبية إلى الطائفية.

وقد أسس موسى الصدر المجلس الإسلامي الشيعي ليكون بمثابة المرجعية الدينية لحركته، ثم أسس حركة المحرومين لإضفاء صبغة وطنية وشعارات براقة على تحركاته الطائفية، ولكنه كشف عن أبعاده الطائفية مع تأسيس حركة أمل عام ١٩٧٥م والتي كان لها دور كبير في الحرب الأهلية، وقد اعتمد موسى الصدر بشكل كبير على خبرات منظمة التحرير وحركة فتح العسكرية والتدريبية والأمنية، قبل أن تنقلب حركته عليهم، وفي بداية السبعينيات تدهورت علاقته مع نظام الشاه، وتحول إلى صفوف المعارضة وسُحِب جواز سفره الإيراني(١).

وقد تميز تيار موسى الصدر بانفتاحه واستيعابه لشخصيات علمانية ويسارية، ولكن في إطار طائفي شيعي، يقول الدكتور الإيراني مصطفى شمران أحد مؤسسي حركة أمل: «فعقيدة الحركة هي العقيدة الإسلامية التي أصبحنا الممثّلين لها والمجسّدين لتعاليمها، وليس إسلام المشايخ الجامد وإسلام الإقطاعيين وإسلام العجائز والإسلام التقليدي... استمرار هذا الفكر وتقدّمه يعود لبركة وجود الإمام موسى الصدر»(٢).

الصدر من لبنان إلى إيران:

طرأ تحول جذري على مشروع موسى الصدر في لبنان، وخاصة منذ تدهور العلاقة مع شاه إيران، فقد تحول الصدر كلياً إلى تدعيم مشروع الثورة الإيرانية، ووظّف طاقاته وإمكاناته بل وإمكانات الطائفة الشيعية في لبنان لأجل هذا الغرض، يقول حسين كنعان رئيس المجلس السياسي لحركة أمل في عهد موسى الصدر: «حسب علمي فقد كانت الثورة في الخارج تعتمد على دوره بالدرجة الأولى في لبنان، وكان قادة الحركة الثورية الإيرانية يأتون إليه ويأخذون توجيهاته ويستمعون إلى رأيه»(٣).

ولم يكن مشروع موسى الصدر منحصراً بعد لبنان في إيران فقط، بل كان

---

(١) انظر: مقال د. علي حسن، مجلة الشراع، ١٠/ ٩/ ٢٠٠١م، موقع حركة أمل:
http://www.amal-movement.com/kalofilimam1.htm

(٢) انظر: موقع الإمام موسى http://www.imam-moussa.de/sira.htm.

(٣) موسى الصدر، قدر ودور، حوارات مع حسين كنعان، دار النهار، ص ٥٦.

الرجل يحمل فكراً صفوياً توسعياً يسعى لتصبح إيران القطب الأوحد في المنطقة العربية، يقول كنعان عن الصدر: «كان يرى أنه إذا حصلت الثورة فإن منطقة الشرق الأوسط سوف تنعم باستراتيجية إيرانية عادلة»(١)، ويقول: «مشروع موسى الصدر كان أكبر مما يتصوره البعض... ولو قُدِّر له أن يكون رئيساً لإيران لما حصلت الحرب العراقية ـ الإيرانية... كان من هؤلاء الذين يملكون رؤية بعيدة تتصل بتحرير الشعب الإيراني وصولاً إلى تحرير المحرومين في كل العالم العربي وربما الإسلامي»(٢).

وهذا يعني: أن كافة المشاريع الشيعية السياسية في المنطقة، والتي تتخذ من إيران ـ أو لبنان ـ منطلقاً لها، تتفق على وجوب الهيمنة الشيعية على سياسة الشرق العربي.

ويلفت «آية الله» موسى أردبيلي ـ أحد رجال الخميني الأوائل وعضو مجلس قيادة الثورة ـ إلى أن لبنان كان معقلاً ومقراً للثورة الإيرانية، وكان واضحاً أن زعيم الشيعة في لبنان يتطلع إلى دور قيادي في الثورة القادمة، يقول أردبيلي: «كان يعمل لإنجاح الثورة في إيران. كل الزعماء والسياسيين الإيرانيين المُبْعَدين كان يجمعهم في لبنان، حتى آية الله بهشتي ومنتظري، فلبنان كان نواة لانطلاق الثورة الإيرانية، ويتبادل الرسائل مع الثوار الذين كانوا يتحركون داخل إيران، ويرشدهم ويساعدهم. وكان مساهماً مهماً في تحقيق أهداف الثورة»(٣).

وكان موسى الصدر يعتمد في سيطرته على حركة الثورة على شبكة من العلاقات والشخصيات التي تمثل كلا التيارين الديني والليبرالي أو اليساري في إيران، وهو ما كان الخميني يفتقده إلى حدٍّ كبير، حيث كانت علاقاته تقتصر على التيار الديني، يقول هاني فحص ـ وهو عالم شيعي لبناني ـ: «السيد موسى الصدر كان على علاقة وثيقة بتيارات وشخصيات أساسية في التيارين الديني والليبرالي،

(١) السابق ص ٥٧.
(٢) السابق ص ١٤٦.
(٣) انظر: الحوار مع أردبيلي في موقع الإمام موسى http://www.imam-moussa.de/sira.htm.

مثل: المرحوم بهشتي وموسوي أردبيلي والموسى الزجاني والمرحوم مطهري كانوا حاملين همّ تحديث الحوزة في قم... كان على علاقة عضوية بالتيار الديني إذاً، وعلى علاقة أيضاً عضوية بالتيار المدني خاصة حركة تحرير إيران التي كان عنده في مؤسسته أحد الناس الأساسيين فيها المرحوم الدكتور مصطفى شمران»(١).

ويشير د. علي الحسن - من قيادات حركة أمل السابقين - إلى أن دور موسى الصدر مع التيار الليبرالي كان أكثر من العلاقات، فقد كان بمثابة المؤسس والزعيم، فيقول: «وكان الإمام الصدر قد ابتدأ مع جماعة من الوطنيين نشاطه السياسي، وأثمرت بتأليف «حركة تحرير إيران» التي تزعمها المهندس الراحل مهدي بازرجان، ومن أعضائها جامعيون تخرجوا من الجامعات الغربية، ولقد كان مرشدهم الإمام الصدر، فكان يزورهم في ألمانيا وفرنسا وغيرهما؛ حيث استطاع أن يحصل لهم على إذن إقامة في دول العالم»، ويذكر أن هذه الحركة تنكّر لها الخميني بعد سنوات قليلة من تسلّمه الحكم وانقلب عليها وعلى كوادرها كما سيأتي لاحقاً، ويقول الحسن: «أذكر أن أحدهم - والذي أصبح نائب رئيس وزراء في الجمهورية الإسلامية - صادق طباطبائي سأل الإمام الخميني عن سبب اختياره فرنسا بعد إخراجه من العراق فقال: لو كان خالك - يقصد: موسى الصدر - في لبنان لما تشردت هكذا ولما أتيت إلى هنا»(٢).

آل الصدر يخططون لحكم إيران:

لم يكن دور موسى الصدر مخفياً، أو على الأقل الإطار العام لتحركاته، وكتب مستشرق ألماني يدعى (ديتريش ديتل) في كتاب أصدره عام ١٩٧٩م بعد اختفاء الصدر يقول: «إن دور موسى الصدر هو الشرارة الأولى التي أدت إلى قيام الثورة الإيرانية، وإن تحركه من لبنان إلى جميع الدول الأوروبية لتنظيم الثورة كانت نتيجته الجمهورية الإسلامية الإيرانية»(٣)، وهذه التسهيلات الهائلة التي جعلت

(١) العربية نت، برنامج مشهد وآراء، ٤/ ٩/ ٢٠٠٥م.
(٢) انظر مقال د. علي الحسن المنشور في مجلة الشراع بتاريخ ١٠/ ٩/ ٢٠٠١م، وهو على موقع حركة أمل http://www.amal-movement.com/kalofilimam1.htm.
(٣) المرجع السابق.

موسى الصدر وشبكته يتنقلون بحرية بين دول العالم، تشير إلى أن إزالة نظام الشاه واستبداله بنظام آخر ديني كان أمراً يكاد يحظى بالإجماع، ويشير د. علي الحسن في مقاله المهم إلى أن صحفاً أوروبية كانت تتحدث في هذا الوقت أن موسى الصدر هو الرئيس القادم للجمهورية الإيرانية التي يقود الخميني ثورتها، وذكرت صحيفة ألمانية كبرى أن الخميني سيكلِّف موسى الصدر برئاسة الجمهورية الأولى. وكتبت صحيفة أخرى: هناك رجل طويل القامة عنده «كاريزما» وشعبية سيُنْتَخَب رئيساً لجمهورية إيران وهو من عائلة آل الصدر(١)، ومما يدعم تنامي الثقل السياسي لموسى الصدر في سنواته الأخيرة، أنه تلقى عروضاً لشغل مناصب عليا في إيران الشاه ولكنه رفض(٢).

ومن ناحية أخرى لم يكن باقر الصدر بعيداً عن نخبة الحكم القادمة في إيران، بل كان موسى الصدر يبذل قصارى جهده لإعطاء ابن عمه منصباً يليق به، ولم يكن ذلك المنصب يقل عن خليفة المرشد الخميني، ويحكي صادق طبطبائي ـ أحد رجال الثورة، ونائب رئيس الوزراء في السنوات الأولى، وهو في نفس الوقت ابن أخت موسى الصدر ـ عن اجتماعات التحضير للثورة واختيار شاغلي المناصب الرئيسة، فيقول: «كنت أحضر بعض اجتماعات التقييم العام.. كان النقاش يدور حول من يخلف الإمام الخميني في معرض التخطيط لما بعد نجاح الثورة الإسلامية.. الدكتور بهشتي اقترح آية الله الشيخ حسين منتظري باعتباره تربَّى وتخرج على يد الإمام الخميني وواكبه في الكثير من التحولات والمتغيرات وأنه شجاع لا يخاف، أما السيد موسى فقد رأى أن هذا لا يكفي؛ فالزعيم السياسي يجب أن يرى لليوم وللغد ولما بعد الغد، وهذا متوافر بالسيد محمد باقر الصدر في العراق»(٣).

وكان التنسيق والاتصالات بين الصدريين تتم في أواخر السبعينيات بصورة شبه يومية، ويذكر حسين كنعان أن «باقر الصدر كان يتصل يوماً بعد يوم من العراق

---

(١) المرجع السابق.
(٢) موسى الصدر، قدر ودور، ص ٣٨.
(٣) د. علي حسن، مجلة الشراع، مرجع سابق.

مستفسراً عن سماحة الإمام.. هل لديكم أي معلومات جديدة عن سماحة السيد؟»(١) وقال باقر الصدر في آخر رسالة أرسلها إلى ابن عمه قبل اختفائه: «أخي وملاذي المعظم، لا عدمتكم ولا حرمتكم وبنفسي ما تعيشونه من الآلام وبعين الله ما أنتم عليه من صمود ومحنة... وهذا شأن الكبار قلباً وهدفاً ورسالة»(٢).

وكان موسى الصدر يعتمد اعتماداً أساسياً على مجموعته المقربة، من الأكاديميين ورجال الدين والسياسيين الإيرانيين، والتي شكل منها جبهة قوية صالحة لتولِّي الحكم فور نشأة الثورة، وكان عدد منهم يعاونوه في تأسيس حركة أمل اللبنانية، وكان أغلب هؤلاء يجمعون بين الفكر الليبرالي العلماني والانتماء الديني الطائفي، بينما في المقابل لم يكن الخميني يمتلك تلك القاعدة الموثوقة من الخبراء والتكنوقراط، وكان مؤيدوه في أغلبهم من رجال الدين والحوزة، وكانت هذه نقطة تفوق جنت على موسى الصدر في النهاية.

ومن أبرز أعضاء مجموعة موسى الصدر: الدكتور مصطفى شمران، وهو دكتور إيراني في الفيزياء كان يقيم في أمريكا، وقد انتقل إلى لبنان في بداية السبعينيات حيث التقى موسى الصدر وشاركه في تأسيس حركة أمل، يقول د. علي حسن: «كان للدكتور شمران الدور الكبير في ماكينة واستراتيجية الإمام الصدر بالنسبة للثورة الإيرانية، كان يدرب العناصر الإيرانية في منطقة صور، كما كان يرسل الأسلحة الخفيفة إلى الثوار الإيرانيين، وفهمت أنه أرسل لإيران عن طريق مرفأ اللاذقية إلى مرفأ البصرة باخرة فواكه وخضار وبينها الأسلحة التي أرسلت براً إلى إيران»(٣)، وقد كُوفئ شمران على ذلك بتوليه منصب وزير الدفاع الإيراني في بداية الثورة.

ومنهم: صادق قطب زاده الإيراني وكان معارضاً للشاه، وهاجر إلى أمريكا، ثم التقى موسى الصدر في لبنان، والخميني في النجف، وكان غامضاً في علاقاته،

(١) موسى الصدر، قدر ودور، ص ١٣٣.
(٢) السابق ص ١٣٣.
(٣) د. علي حسن، مجلة الشراع، مرجع سابق.

ويُشك بأنه على صلات استخباراتية، ويؤكد كنعان أن الصدر «كان حسب اعتقادي قد بدأ يشك بدور صادق قطب زاده»(١)، وكان مثار الشك علاقاته المريبة بأعداء الصدر الفلسطينيين والليبيين، حيث كان زاده يلتقي بياسر عرفات سراً كلما زار بيروت، ورغم الشك فقد استمر صادق زاده قريباً من الصدر والخميني حتى أنه تقلد منصب وزير الخارجية في السنوات الأولى للثورة.

ومنهم: إبراهيم يزدي، الأكاديمي الإيراني الذي كان يقيم بدوره في أمريكا، ويعتقد أن له علاقة قوية مع المخابرات الأمريكية، وقد تولى يزدي منصب وزير الخارجية، كما كان يشغل في بداية الثورة منصب نائب رئيس الوزراء لشؤون الثورة، وكان يتعاون مع مصطفى شمران سراً لتأسيس جهاز مخابرات جديد للثورة على شاكلة السافاك(٢)، وقد أرسل ياسر عرفات برقية سرية في سنوات الثورة الأولى إلى بعثته الدبلوماسية في طهران يحذرهم من أن يزدي عميل للولايات المتحدة، ولكن الرسالة وصلت إلى يزدي الذي كان يتجسس على مكتب المنظمة(٣).

وكان من اللافت أن الطائرة التي أقلت الخميني من باريس إلى طهران كان على متنها بصحبته: ابنه أحمد الخميني، وإبراهيم يزدي، وصادق قطب زاده، وأبو الحسن بني صدر، وقد انقلب الخميني على الثلاثة(٤).

منعطفات:

بمرور الوقت ومع اقتراب ساعة الصفر، تجمعت أمام الخميني في النجف المعطيات التالية:

١ - كان باقر الصدر يمثل بؤرة الاهتمام الشيعي في مجال الثورة والفكر

---

(١) موسى الصدر، قدر ودور، ص ١٤٨.

(٢) جهاز مخابرات شاه إيران، وهو من أسوأ أجهزة المخابرات في العالم من حيث دمويته وقسوته البالغة في التعامل مع معارضي الشاه، انظر: السافاك، تأليف تقي نجار راد، ترجمة: المجلس الأعلى للثقافة، مصر.

(٣) انظر: إيران بين التاج والعمامة، ص ٥٠٢.

(٤) السابق ص ٣٧٩.

السياسي، وكان الصدر بدوره نشطاً في تصدير أفكاره وثورته إلى الخارج.

٢ ـ كان موسى الصدر يمثل الجناح الديناميكي في مشروع الصدر، بعلاقاته الشخصية الواسعة الغريبة والمريبة، بحيث أنه تحول إلى محور ومحرك أهم مجموعات المعارضة الإيرانية ضد الشاه، إلى جانب امتلاكه الساحة الشيعية اللبنانية، والتي مثلت دوماً مخزوناً استراتيجياً للتشيع الصفوي.

٣ ـ كان مشروع الصدريين قد أصبح جاهزاً من حيث جانبه الفكري السياسي النظري، ومن حيث جانبه العملي متمثلاً في كوادر جاهزة وقادرة على تسلم الحكم فور اندلاع الثورة، كما أن المشروع الصدري المنطلق من لبنان قدَّم مرشحين مهمين لتولِّي أهم المناصب: خليفة مرشد الثورة، رئاسة جمهورية الثورة، فماذا بقي للخميني من بعد؟

٤ ـ كانت لبنان بهذه الوضعية تمثل خطراً بالغاً على ثورة الخميني، فكان لا بد من التفكير في حل جذري يؤمن الجبهة اللبنانية الشيعية لأجل طويل.

لم يكن الخميني قادراً على منازعة موسى الصدر أو الانفراد بالثورة، فمجموعته الأساسية رجال دين، وأغلبهم يعيش في الداخل ولا يملكون الخبرات السياسية لإدارة الثورة، ومن ثم تمثلت المشكلة في الرؤوس، وتمثل الحل في النفوس، فكان لا بد من العمل على إزاحة الرؤوس والاستئثار بالنفوس، ومن ثم امتلاك الثورة، ثم تأمينها من بعد تطهيرها.

إزاحة موسى الصدر:

قبل قيام الثورة بأشهر قليلة جداً، وفي الأيام الأخيرة للخميني في النجف، وقبل اختفاء موسى الصدر بأسابيع قليلة، عقد اجتماع سري في النجف ترأسه الخميني وحضره ممثلون عن معظم رجال الدين وقوى المعارضة، وفي هذا الاجتماع طلب بعض الحاضرين أن يكون موسى الصدر أول رئيس للجمهورية بعد الشاه، ولكن الخميني اعترض، وتعلل بأن «موسى الصدر من خيرة الناس وليس هناك أجدر منه للقيام بهذه المهمة ولكن يجب التمهل بهذا الأمر لنرى ماذا ستكون طبيعة

وشكل النظام بعد إقالة الشاه وهل ستكون جمهورية إسلامية إيرانية أو غير ذلك»[١].

بعدها بقليل دُعي موسى الصدر لحضور احتفالات ثورة الفاتح من سبتمبر في ليبيا عام ١٩٧٨م، حيث انقطعت أخباره حتى اليوم.

وكانت علاقته مع الليبيين قد ساءت بسبب تلقي حركة أمل مساعدات ليبية دون أن تلتزم بتوجيهات القذافي بخصوص الحرب الأهلية، وكان القذافي وقتها معارضاً لسوريا، ومن ثم تحالف مع الفلسطينيين، الذين كانوا في حالة عداء كامل مع موسى الصدر بسبب انقلابه عليهم بعد أن استنسخ تجربتهم وخبرتهم السياسية العسكرية، وكان البعث العراقي يؤيد فصائل لبنانية معادية لحركة أمل، بالإضافة إلى أن نظام الشاه كان يعتبر الصدر عدواً بسبب دعمه للمعارضة الإيرانية، وبذلك كان الصدر مطلوباً من أطراف كثيرة، بخلاف العداء الذي أحدثته سياسته الطائفية داخل لبنان في الحرب الأهلية.

ويؤكد بعض المراقبين أن الدور الليبي في اختطاف الصدر لا يعبر عن حقيقة ما حدث، فقد كان دوراً مكشوفاً محروقاً يتناسب مع طبيعة العقلية الثورية الديكتاتورية التي كانت سِمَة النظام الليبي وقتها، ولذلك ينقل حسين كنعان عمن وصفه بأحد الرؤساء الأجانب: «اسألوا ليس عمن غيَّب السيد ولكن عن الذي رمى هذا القائد في فم الذئب»[٢]، ويقول إبراهيم مهدي شمس الدين ـ ابن رئيس المجلس الشيعي اللبناني السابق ـ: «صحيح أن النظام الليبي مسؤول عن تغييب الإمام، لكن ليبيا ساحة الجريمة وليست كل الجريمة، قطعاً هناك امتدادات أخرى»[٣].

وكان من الغريب أن العلاقة بين ليبيا وإيران لم تتدهور بسبب اختطاف موسى الصدر، بل على العكس تماماً تطورت العلاقة على نحو غريب وصارت شراكة في عمليات تصنيع عسكرية واسعة، حتى أن تسليم ليبيا برنامجها النووي إلى أمريكا

(١) موسى الصدر، قدر ودور، ص ١٤٧.
(٢) السابق، ص ١٤٠
(٣) حوار مع مجلة المجلة ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

أثار قلق طهران بسبب البرامج المشتركة، وكانت ليبيا تدعم طهران في حربها مع العراق على خلاف غالبية الدول العربية، وفي بداية الحرب العراقية تعهدت طهران على لسان محسن رفيق دوست ـ وزير الحرس الثوري وقتها ـ للقذافي بأنها ستعمل على غلق ملف موسى الصدر نهائياً لو سلمت ليبيا إيران صواريخ سكود الروسية، فأرسل القذافي فوراً ٢٤ صاروخاً مجاناً(١).

وظلت العلاقات بين البلدين قوية خاصة في رئاسة رفسنجاني الذي كان مختلفاً مع موسى الصدر، وأصدر كتاباً بعنوان «خلاف وتضامن مع الصدر» هاجمه فيه وانتقد عليه أموراً كثيرة(٢)، ولكن في المقابل عندما تولّى خاتمي الرئاسة تدهورت علاقة طهران مع ليبيا؛ لأن خاتمي كان يعتبر موسى الصدر من أساتذته، كما أن الصدر ابن خالة زوجته(٣)، ولذلك هو على علاقة جيدة بأسرة الصدر، وقد حاول خاتمي فتح ملف الاختطاف من جديد ولكنه لم يصل إلى نتيجة، وقد صرّح القذافي في إحدى لفتاته ـ أو فلتاته ـ أن اتهامه: «باغتيال الإمام موسى الصدر يشبه اتهام السيد حسن نصر الله باغتيال الرئيس رفيق الحريري»(٤).

ويذكر الباحث الإيراني علي نوري زاده ـ نقلاً عن دبلوماسي إيراني سابق ـ أن صادق طبطبائي مساعد رئيس الوزراء في بداية الثورة ـ وابن أخت موسى الصدر ـ كلّفه القيام بمهمة تحرّي أثناء خدمته في ليبيا حول اختفاء خاله، وقد حصل الدبلوماسي على معلومات مهمة حول التورط الليبي أرسلها في حقيبة دبلوماسية إلى طبطبائي، ولكن استخبارات الحرس الثوري استولت عليها، واضطر الدبلوماسي للهرب إلى الخارج، وتم التحفظ على المعلومات في وزارة الاستخبارات(٥)، ولا تزال العلاقات اللبنانية الليبية غير مستقرة بسبب ضغط حركة أمل بخصوص هذه القضية التي يتبناها نبيه بري زعيم الحركة، وعبد الأمير قبلان نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى، بينما لا يحفل بها حزب الله.

---

(١) الشرق الأوسط، ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٣م.
(٢) د. علي الحسن من قادة أمل السابقين، مجلة الشراع ١٠/ ٩/ ٢٠٠١م.
(٣) صنع القرار في إيران، ص ٩٥.
(٤) حوار مع صحيفة الدستور المصرية، ٤/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٥) الشرق الأوسط، ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٠م.

وذكر أحد المستشرقين الألمان في تحقيق له نهاية السبعينيات أن محمد منتظري ـ ابن «آية الله» حسين منتظري خليفة الخميني في الثمانينيات[١] وكان متواجداً وقتها في لبنان ـ كان على علاقة مريبة مع السفارة الليبية، واليسار اللبناني، أي: حلفاء الفلسطينيين، وأعداء موسى الصدر[٢].

وعلى الجانب الفلسطيني، فقد كانت أول طائرة تهبط في مطار طهران بعد الثورة هي طائرة ياسر عرفات الذي جاء مهنِّئاً الخميني بنجاح الثورة، وقد استقبل استقبالاً حافلاً ـ رغم أنه أحد المشتبهين في تورطه باغتيال موسى الصدر قبل أشهر معدودة ـ ورافقت طائرته ست طائرات فانتوم من الحدود الإيرانية حتى مطار طهران، واصطفت لتحيته ميلشيات الحرس الثوري على جانبي الطريق من المطار إلى مقر الخميني، وقد تملكت الحماسة عرفات فقال: «إن الطريق إلى بيت المقدس سيكون عبر طهران»[٣].

دفع باقر الصدر إلى الهاوية:

بعد تأسيسه حزب الدعوة بسنوات قليلة، انفصل محمد باقر الصدر عن الحزب تنظيمياً بسبب تغير رؤيته بخصوص مخاطر العمل التنظيمي السري، ورغبته في التركيز على تنشئة أجيال جديدة تحمل الفكر الثوري، والتزم باقر الصدر الحذر والحرص في التعامل مع النظام ولم يجهر بعداوته، وظل ذلك ديدنه لفترة من الوقت.

وبدأت العلاقة في التدهور بعد نجاح ثورة الخميني في إيران، حيث بدأ الخميني يوجه رسائل ودعوات مركزة تطلب من شيعة العراق الثورة، وكان الإعلام الإيراني

(١) لم يلبث أن طالته طاحونة التطهير الثوري، واعتبر معادياً لنظرية ولاية الفقيه بسبب اعتراضاته على السياسة التنفيذية لأنصار خط الإمام، وقام الخميني بعزله بتحريض من علي خامنئي وأحمد الخميني وهاشمي رفسنجاني، وتم وضعه في إقامة جبرية لم ترفع عنه قليلاً إلا منذ ثلاث سنوات، وتم منعه من السفر للعلاج واضطهد أبناؤه في عملهم وأنشطتهم، انظر: صنع القرار في إيران ص ١٠٦، صحيفة الشرق الأوسط ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٠م.

(٢) د. علي الحسن، مجلة الشراع، ١٠/ ٩/ ٢٠٠١م.

(٣) إيران بين التاج والعمامة ص ٤٩٤.

يبرز مكانة الصدر بوصفه قائداً للشيعة العراقيين[١]، وهكذا اضطر الصدر للخروج عن حذره تدريجياً فبدأ في إصدار الفتاوى المعارضة، وأرسل إلى الخميني كتابه «مشروع الدولة الإسلامية».

وكان رد فعل السلطات اعتقال الصدر بعد مظاهرات دموية نظمت في النجف وغيرها من المراكز الشيعية، ثم أفرج عنه ووضع قيد الإقامة الجبرية في منزله، حيث تفاجأ الناس برسالة بعث بها الخميني إلى باقر الصدر عبر الإذاعة الموجهة إلى شيعة العراق من إيران، يدعوه فيها إلى عدم ترك العراق، وجاء فيها: «لقد علمنا أنكم تنوون مغادرة العراق بسبب بعض الأحداث الجسام التي وقعت، إني لا أرى ضرورة لذلك، ولا نفع من مغادرتكم النجف»[٢]، وكان الغريب أن باقر الصدر لم يكن يخطط لترك العراق، وحتى لو كان يفعل، فليس من المعقول فضح الأمر بهذه الصورة، وكانت البرقية بمثابة رسالة إنذار إلى السلطات بالتعجل في وضع حدٍّ لخطر باقر الصدر، إذ كان نموذج الخميني لا يزال قائماً، وسيكون انتقال الصدر إلى إيران مؤشر لزعزعة حكم البعث العراقي، وهكذا تم اعتقال باقر الصدر من جديد وإعدامه.

ويقول الدكتور فرهاد إبراهيم: «والسؤال الآن عن الدور الذي لعبه الخميني في تحوُّل موقف الصدر من الحرص والحذر الشديدين إلى موقف المواجهة الصريحة والجريئة مع السلطة إلى حدِّ التهور، إن هذا يبدو أمرا ذا أهمية كبيرة»[٣]، ويشير كاتب شيعي آخر إلى تسريب الخميني معلومات استخباراتية عن باقر الصدر لنظام البعث في العراق لتدفعه إلى تصفيته، كما تكرر ذلك مع ابن عمه صادق الصدر - والد مقتدى الصدر - بعده بأكثر من ١٧ عاماً، يقول الكاتب: «لقد انتهى ذلك إلى إقفال مكتب محمد باقر الصدر - في إيران - على يد أحمد خميني، ثم التشهير وتقديم الإدانة بباقر الصدر وفضح حركته للنظام العفلقي في عهد الخميني، ليتكرر الأمر بإقفال مكتب محمد صادق الصدر ومطاردة أتباعه وتعذيبهم - في إيران - ثم

---

(١) الطائفية والسياسة، ص ٣٧٣.

(٢) السابق، ص ٣٧٣.

(٣) السابق، ص ٣٧٥.

التشهير به وتقديم الإدانة ضده وفضح تحركه للنظام العفلقي»[١].

تطهير الثورة:

تخلصت ثورة الخميني من الشخصيات القائدة الخطرة، ونجحت في تحقيق انتقال السلطة عن طريق طاقم موسى الصدر الذين تسلموا مسؤولية ما يقرب من نصف الحقائب في أول وزارة بعد الثورة[٢]، فشغل كلٌّ من صادق قطب زادة، وإبراهيم يزدي وزارة الخارجية، والدكتور مصطفى شمران عيَّنه الخميني أولاً مساعداً لوزير الدفاع ومسؤولاً عن قمع الثورات الكردية ، وذلك بسبب خبرته في حرب العصابات التي درَّب عليها حركة أمل في لبنان[٣]، ثم تسلم شمران مسؤولية وزارة الدفاع في بداية الحرب العراقية الإيرانية.

وكان هناك أشخاص آخرون بعضهم من رجال الدين ينتمون إلى تيار موسى الصدر، ومنهم: أربعة كانوا من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي تزعمه الخميني نفسه، وهم: «آية الله» محمد حسين بهشتي، و «آية الله» محمود طالقاني، و «آية الله» مرتضى مطهري، والمهندس مهدي بازرجان، وقد تولى بازرجان رئاسة أول وزارة بعد الثورة، وكان هؤلاء مع موسى الصدر ينتمون إلى «تيار الفكر الديني الذي يتواصل مع العصر، وينفتح على العلوم والمعارف الحديثة، ويتبنى اتجاهات الإصلاح والتجديد»[٤].

فماذا حدث لهؤلاء السبعة بعد استقرار الأمور وإقرار دستور ولاية الفقيه واطمئنان الخميني إلى شكل دولته؟

١- صادق قطب زاده: استقال من منصبه بعد معارضة أنصار خط الإمام لموقفه من أزمة رهائن السفارة الأمريكية، ثم أعلن تفرغه للكتابة عن الثورة، ولكنه اعتقل

(١) الكاتب عبد اللطيف الخرز، موقع قناة الفيحاء الشيعية:
http://www.alfayhaa.tv/main/showart.php?artID=330&catID=2.
(٢) د. علي الحسن، مجلة الشراع ١٠/ ٩/ ٢٠٠١م.
(٣) الشرق الأوسط ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٤) زكي الميلاد، كاتب شيعي، من مقال بعنوان: الإمام موسى الصدر والمشروع الإصلاحي، موقع شبكة أقلام الثقافية الشيعي.

بعدها بتهمة التآمر ضد نظام ولاية الفقيه، وتم إعدامه[١].

٢- مصطفى شمران، قتل أثناء الحرب العراقية الإيرانية على الجبهة، وذكرت تقارير أن الرصاصة التي قتلته جاءت من الجانب الإيراني، وقبل اغتياله كان يتابع ملف اختطاف موسى الصدر[٢].

٣- «آية الله» بهشتي، اغتيل عام ١٩٨١م ونسبت العملية إلى جماعة مجاهدي خلق[٣].

٤- «آية الله» محمود طالقاني، مات فجأة بعد أن اتخذ توجهاً مخالفاً لخط الإمام وحذر الناس من المتسترين بعباءة الدين[٤].

٥- «آية الله» مطهري، اغتيل عام ١٩٨٠م،على يد جماعة ذات صلات غامضة تدعى «الفرقان»[٥].

٦- إبراهيم يزدي، تم اعتقاله وسجنه، وظل يتنقل بين المنفى والسجون[٦].

٧- مهدي بازرجان، أُقيل من الوزارة بعد أشهر من تسلمها، ثم سجن لفترة، وبعدها ترك العمل السياسي[٧].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط، فقد أنشأ الخميني محكمة رجال الدين لمحاكمة الذين يخرجون عن خطه، وأنشأ محكمة الثورة وعيَّن لها «آية الله» صادق خلخالي رئيساً، وهو الرجل الذي أعدم المئات، ويقول الكاتب الشيعي المعارض أحمد الكاتب أن خلخالي اتُّهم بالفساد والرشوة، وتم التحقيق في ٩٦ حالة من بين ٩٨ من الحالات التي أعدمها، فتبين أنهم جميعاً أبرياء، وأن الاثنين الآخرين لا يستوجب عقابهما الإعدام[٨]، يقول حسين خميني حفيد «آية الله العظمى» روح

---

(١) التحول العاصف، ص ٤٦٢.

(٢) د. علي الحسن، مجلة الشراع ١٠/ ٩/ ٢٠٠١م، وصحيفة الشرق الأوسط ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٠م.

(٣) التحول العاصف، ص ٤٤٨.

(٤) السابق، ص ٤٦٠.

(٥) السابق، ص ٤٦٥.

(٦) حدائق الأحزان، ص ٧٢.

(٧) السابق، ص ٧٢.

(٨) انظر: صنع القرار في إيران، ص ١٢٥.

الله الخميني: «لقد افترست ثورة جدي أبناءها وخرجت من مسارها»[١].

تأمين الثورة في لبنان - دور حزب الله:

لا يقتصر دور حزب الله على تطويع الساحة اللبنانية لخدمة المصالح الإيرانية، فهناك أهداف أخرى لها بواعث تاريخية أشرنا إليها في بداية الفصل، ويمكن بلورة أهم أدوار حزب الله على ضوء ما تقدم في:

أولاً: ترميم الطائفة الشيعية في لبنان بعد استئصال موسى الصدر:

تعرضت الطائفة الشيعية لزلزال سياسي وديني واجتماعي باختفاء موسى الصدر، فقد كانت حركة أمل تعتمد على شخصيته القيادية بصورة كبيرة، ولأنه لم تكن هناك حركة منافسة تملأ الفراغ، فقد تعرض «الوضع الشيعي إلى إرباكات شديدة، وانقسامات حادة، وصدامات عنيفة، بسبب ما أصاب الساحة الشيعية من اختلال في التوازنات السياسية، وتراجع المشروع السياسي للإمام الصدر، وانتكس بصورة خطيرة»[٢]، وكان لزاماً أن تبادر الثورة الخمينية إلى تدارك الأمر حتى لا يفلت الزمام ويذهب القياد إلى جهة مختلفة عن خط الثورة.

ثانياً: تأمين الطائفة من الخروج عن الخط الإيراني، والتأكد من تراجع مشروع موسى الصدر:

لبنان يمثل بالنسبة لإيران الصفوية أهمية كبرى، تتجاوز حدود المصالح السياسية والسيطرة المذهبية؛ فشيعة لبنان على مدار التاريخ - وبالأخص في مرحلة الدولة الصفوية عام ١٥٠١م، وفي مرحلة ما قبل ثورة الخميني - كانت تمثل بالنسبة لإيران الجبهة الخلفية، ومصدر الإمداد والإعداد والحركة، ولا يزال ينظر إليها على هذا النحو حتى الآن، فهي ليست مثل أي تجمع شيعي آخر في المنطقة العربية، خاصة وأن الطبيعة السياسية للبنان تجعله بلداً مفتوحاً على الدوام، يقول «حجة الإسلام» فخر روحاني - أول سفير إيراني في لبنان بعد الثورة -: «العقبة الكبرى التي تعيق انطلاق الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، هي المتمثلة في ارتباط

---

(١) قناة العربية، انظر: جريدة الجرائد العالمية، العدد ٩٨٩، تاريخ ٨/ ٦/ ٢٠٠٦م.

(٢) زكي الميلاد، مقال: الإمام موسى الصدر والمشروع الإصلاحي، موقع شبكة أقلام الثقافية الشيعي.

الشعوب بالحكومات، لكن بما أن الدولة اللبنانية لا تتمتع بسلطة قوية، فليس هنالك أي عقبة خطيرة في طريق شعب لبنان»(١).

كما أن حالة الشك والريبة التراكمية تجاه إيران وتاريخها العدائي في المنطقة المحيطة بإيران، تجعل من تلك الدول أقرب إلى الأعداء من الحلفاء، وهو ما عبَّر عنه حسن نصر الله بأسى في احتفاله بالذكرى الـ١٣ لموت الخميني، قائلاً: «من ٦٣ حتى ٧٩ كان الشعب الإيراني يواجه لوحده، لم يعقد أحد مؤتمرات في العالم، ولم يجرِ له أحد تظاهرات في العالم، نعم في بعض المفاصل كان هناك تحرك في لبنان وبعض الأماكن الأخرى»(٢).

وحتى يتحقق هذا الهدف لا بد من التأكد من ضعف المشروعات المنافسة أو زوالها، وبعد اختفاء موسى الصدر كان لا بد من التأكد من إضعاف مشروعه السياسي، وكان حزب الله منوطاً به هذا الدور، وقد كانت المرحلة الأولى متمثلة في شقِّ صفوف أمل بحيث تزداد ليبرالية وانفتاحاً وتبتعد عن الدين الذي احتكرته نظرية ولاية الفقيه، وكان الصراع الذي أشعلته طهران بين أمل وحزب الله يهدف إلى إجراء عملية تطهير ثوري، وكان تصنيف طهران لأمل على أنها حركة «تعمل لحسابها أكثر مما لحساب طهران.. فهي حركة شيعية ولبنانية، انقلابية وطامحة إلى أن تصير تقليدية، وحليفة لسورية»(٣)، ومن ثم لم تكن صالحة «لاستيراد الثورة».

ولم يكن كافياً أن يصبح حزب الله تنظيماً يمتلك القوة، فـ«ما حققته القوة حتى تلك اللحظة كان يبحث عن طرف يحفظه ويستأنفه براديكالية وإقدام أكبر، وطرف كهذا لا بد أن يكون صافياً، أو يتوهّم في نفسه صفاء لا تمتلكه أمل الكثيرة المشارب الموزّعة الأهواء»(٤).

وكان السعي الإيراني لنشر الثقافة الثورية في أوساط الشيعة اللبنانية مثار

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٩٩.
(٢) هكذا تكلم نصر الله، ج ١ ص ١٢٨.
(٣) انظر: مقال: فصول من قصة حزب الله ج ٢، حازم صاغية، صحيفة الحياة ٥/ ١/ ٢٠٠٥م.
(٤) انظر: مقال: فصول من قصة حزب الله ج ١، حازم صاغية، صحيفة الحياة ٤/ ١/ ٢٠٠٥م.

احتجاج من قبل أنصار أمل، وكان اللقاء الأول بين عماد مغنية ـ الرجل الخفي في حزب الله ـ وعلي محتشمي بور سفير إيران في دمشق وعرّاب حزب الله، كان هذا اللقاء على خلفية تميز المتشددين في حركة أمل، من خلال بعض حوادث الاحتكاك الثورية، ومنها: ما حدث أثناء المهرجان الخطابي الذي نظمته سفارة إيران في بيروت في الذكرى الثانية لثورتها في منطقة شيعية، فقد أفسد متشددو أمل الدينيون المهرجان، وبعدها ترك عدد منهم الحركة نهائياً، ومنهم: حسين الموسوي، وإبراهيم أمين السيد، وحسين خليل، وعلي عمار، وحسن نصر الله[١].

وكان مما أقلق طهران أن مجموعة موسى الصدر في إيران ـ والتي لم يكن قد تم التخلص منها بعد ـ كانت على علاقة مع حركة أمل، بوصف أغلبهم من كوادرها وقادتها، ومن بينهم: مصطفى شمران وزير الدفاع، والذي استدعى كوادر من الحركة إلى إيران ليقوم بتدريبهم عسكرياً والإشراف عليهم في سرية تامة، حتى أن رئيس المجلس السياسي للحركة حسين كنعان لم يكن يعرف بذلك[٢].

ثالثاً: تأسيس مركز لتصدير الثورة الإيرانية يبدأ بلبنان ويثنّي بالمقاومة الفلسطينية، ومن ثم التجمعات الشيعية القريبة:

سبقت الإشارة إلى أن مبدأ تصدير الثورة من تداعيات نظرية ولاية الفقيه، ولأن حزب الله يعتنق هذه النظرية فهو ملتزم التزاماً وجوبياً بحكم عقيدته أن يقوم بتصدير الثورة، لا يوجد خيار آخر لديه، وتصدير الثورة يعني في أحد معانيه: استيراد الولاء للولي الفقيه من كافة المسلمين، بدءا بالتجمعات الشيعية.

وبعد تشكيل أول مجلس للشورى في حزب الله عام ١٩٨٢م، توجهوا جميعاً إلى طهران لاعتماد عملهم «ومباركته» من قِبَل الخميني، وتحدث عباس الموسوي في اللقاء عن ظروف لبنان، فقال الخميني: «إن المهم هو العمل، فمرحلتكم كربلائية، ولا تنتظروا قطف الثمار في حياتكم»[٣]، ويقول الدكتور

---

(١) انظر: المرجع السابق، ج ٢، ٥/ ١/ ٢٠٠٥م.
(٢) موسى الصدر، قدر ودور، ص ٧٢.
(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢٦.

مسعود إلهي: «حزب الله كان مستعداً لإنجاز أي مهمة يأمر بها الولي الفقيه، أو الذين يحملون إجازة تمثيله، وكان يعتبر ذلك شرعياً وإسلامياً، ويعتبر مخالفته مخالفة للإسلام، ولأوامر النبي ﷺ، والأئمة المعصومين»(١).

وسنتناول جوانب أخرى من دور حزب الله في الفصول القادمة بإذن الله تعالى.

(١) السابق ص ٣٢٢.

الفصل الثالث: لعبة الشطرنج الإيرانية

تمهيد:

«السيد خامنئي قال قبل أسابيع: نريد أن نهزم أمريكا في لبنان، فهل لبنان هو بوابة من دون مفتاح»[١]، هكذا عبَّر فؤاد السنيورة رئيس الحكومة اللبنانية عن غضبه من تحويل لبنان إلى ساحة مبارزة بين أمريكا وإيران، وقد عبَّر الرئيس الإيراني أحمدي نجاد عن هذه المبارزة ولكن من الجهة المقابلة، حين قال: «العدوان الإسرائيلي ضد حزب الله جزء من استراتيجية أوسع، وأولئك الذين شنّوا العدوان يعتقدون إنه إذا ما سقط حزب الله فإن قوى أخرى ستسقط، وبينها سوريا»[٢].

إذاً؛ نحن أمام مباراة سياسية بين طرفين، أحدهما: يمثل قوة إقليمية لها مطامح ومطامع، والثاني: قوة عظمى تريد أن تحافظ على مصالحها وتمرر استراتيجيتها الجديدة في المنطقة.

إنها أشبه بحرب باردة جديدة؛ لأنها تجمع متناقضات السياسة في صراع واحد، حيث العداء والتحالف والتآمر والتعاون، يجمع بين طرفي الصراع، ولأنها أيضاً مباراة تتم على ساحات الآخرين، بعيداً عن القوتين المتنازعتين.

وبما أن لبنان هو إحدى ساحات النزال، نحتاج إلى إلقاء ضوء على أنفاق الصراع المظلمة لتلمّس موقع الساحة اللبنانية من هذا الصراع بين الحلفاء الأعداء.

١- إيران في المنظور الأمريكي:

أول خطوة لفهم الأحداث الجارية إدراكُ أهمية معادلات التوازن الإقليمية في ضبط العلاقات بين الدول، هذه المعادلات - التي يتم صياغتها حسب محصلة القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية لكل دولة، بالإضافة إلى عوامل أخرى - ليست معادلات دائمة، فهي قابلة للتغير والتبدل، والمحيط الذي لا توجد فيه معادلة توازن لا بد أن يعاني من حروب وصراعات، وعندما تختل المعادلة تحدث الحروب حتى

(١) صحيفة المستقبل، ٣/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) الشرق الأوسط، ١٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.

تنشأ معادلة توازن جديدة.

وتتعدد أسباب اختلال التوازن؛ فقد يكون ذلك بسبب سعي دولةٍ ما إلى تصحيح وضعها داخل محيطها نتيجة نموّ قوتها العسكرية أو الاقتصادية، وقد يكون بسبب غياب قوى فاعلة عن الساحة، وقد يكون بسبب سعي قوة عظمى لإخلال المعادلة وإعادة تركيبها من جديد.

وفي محيط الشرق العربي؛ فإن سقوط العراق ـ أو إسقاط الولايات المتحدة الأمريكية نظامَ العراق، أحدث خللاً خطيراً في توازن المنطقة، هذا التوازن لم تتم معالجته حتى الآن إلا عن طريق التواجد العسكري الأمريكي المكثف.

وحتى يتضح حجم الخلل، فإن الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت عشر سنوات، بكل خسائرها الرهيبة على الجانبين، كانت تطبيقاً لسياسة الاحتواء المزدوج التي اتبعتها أمريكا، أي: تحقيق التوازن بين القوتين على حساب أحدهما الآخر، فلماذا تركت واشنطن الخلل الحادث منذ إبريل ٢٠٠٣م قائماً حتى الآن لحساب طهران، وهو ما دفع (يوشكا فيشر) وزير الخارجية الألماني السابق إلى القول: «لا تجد واشنطن إجابة عن السؤال الملحّ: كيف يمكن الحيلولة دون تحول أمريكا دون إرادتها وعن طريق سياستها إلى عميل يخدم المصالح الإيرانية؟»(١).

وهكذا لا يمكن فهم مسارات الأحداث ومآلاتها في المنطقة دون فهم إشكالية العراق، حيث تثور عدة تساؤلات حائرة، أبرزها: ماذا تريد أمريكا من العراق؟ وماذا تريد إيران؟ ثم أين ومتى تتقاطع الإرادتان؟ وأين ومتى تنفصلان؟

ولسنا في صدد تحقيق الإجابة عن هذه الأسئلة، ولكننا نقدم اتجاهات عامة لتفسير ما يحدث في لبنان، والاتجاه الأبرز بخصوص الإرادة الأمريكية هو أنَّ مصالح أمريكا تتوافق مع استقرار نظام موالٍ لها في العراق.

ولكن هل هذا الافتراض صحيح؟ إن استقرار النظام السياسي في العراق سوف يعني ما يلي: وجود حكومة مستقرة في بغداد، وتحقق رضى نسبي للعرب السُّنة عن وضعهم السياسي، واكتفاء الأكراد ولو مؤقتاً بالحكم الذاتي دون

---

(١) مجلة دير شبيجل ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٦م، جريدة الجرائد العالمية، العدد ٩٨٨.

الاستقلال، وانتفاء الحاجة إلى وجود قوات أمريكية في العراق، وسيؤدي إلى تراجع دواعي زيادة القوات الأمريكية في الخليج، ومن ثم تراجع ميزانية الدفاع الأمريكية، وسينتج عن ذلك استقرار في منطقة الخليج، وتراجع أسعار النفط، ومن ثم اقتراب استثمارات نفطية هامة في مناطق مختلفة من العالم تنقذ أمريكا من الوضع الحرج والذي سبّبته مساواة (تكلفة الإنتاج النفطي مع عوائده).

فهل يمكن بهذه الصورة الاعتقاد بأن أمريكا تريد تحقيق استقرار سياسي في العراق؟ ثم هل هناك تصور آخر لهذا الاستقرار، على الأقل في نتائجه العامة؟

الذي يمكن قوله في هذه المرحلة من الصراع: أن كلاً من إيران وأمريكا تتفقان على أهمية الفوضى النسبية في العراق، وكلاهما يعتبرها فوضى «خلاقة». وأما مناط الاختلاف بين الطرفين فليس في كيفية تحقيق الاستقرار العراقي، ولكن في كيفية إدارة الفوضى، فالفوضى القائمة حالياً أكثر ملاءمة لكلا المشروعين: الأمريكي والإيراني، مقارنة بمخاطر السعي إلى استقرار قد يجعل مقاليد الأمور خارجة عن السيطرة.

أما عن ثوابت أو خيارات أمريكا بالنسبة لإيران، فبعيداً عن ضغط الظروف الآنية، فإن واشنطن تنظر إلى إيران نظرة ذات أبعاد ثلاثة: إيران النظام، وإيران الدولة، وإيران الجغرافيا.

والنظرة الأولى: متعلقة بالنظام القائم الحالي «ولاية الفقيه»؛ فهل النظام الذي تفضّله أمريكا هو نظام ديني معتدل أم علماني؟

والنظرة الثانية: تتعلق بطبيعة الدولة؛ هل الأفضل دولة مركزية تحكم أطرافها كما هو الحال الآن؟ أم تفضّل أمريكا دولة مفككة على نمط أفغانستان والعراق؟

والنظرة الثالثة: تتعلق بالحدود الجغرافية الحالية، والحدود التي تفضّلها أمريكا، هل تبقى إيران موحدة أم يتم تقسيمها مثل ما هو مخطط لغيرها؟

وبذلك تملك واشنطن حزمة خيارات تتعلق بـ: النظام والمركزية والحدود، وعلى المدى البعيد، وإن المحظور الأمريكي ضمن هذه الخيارات تفكيكُ إيران كلياً،

خاصة فيما يتعلق بحدودها الشمالية، لأن هذا يفتح منفذاً لروسيا نحو المياه الدافئة في الخليج. وتاريخ إيران مع الاتحاد السوفييتي القديم لا يشجع على المخاطرة؛ فقد كانت إيران منقسمة بين نفوذ بريطانيا في الجنوب وروسيا في الشمال، حتى جاء الأمريكان واستحوذوا على نظام الشاه كله، وتروي أشرف بهلوي شقيقة شاه إيران في مذكراتها: «كان خروتشوف قد حذرني قائلاً: إن إيران قد أخطأت حينما اختارت التحالف مع أمريكا، وإنه سيأتي اليوم الذي تكتشفين فيه أنني كنتُ على صواب، وأنك أنت والشاه مثل التفاحة التي ستسقط يوماً حين تصل إلى حالة معينة من النضج، وسيأتي سقوطها في أيدي السوفييت»(١).

ولكن مع ذلك تبقى الاضطرابات العِرْقية أحد وسائل زعزعة الاستقرار المتاحة أمام واشنطن، وهي يمكن أن تلجأ إليها في إطار من الضوابط والضمانات التي تؤمن مصالحها ضد أي أطماع روسية مستقبلة، وهي تبذل جهوداً منذ سنوات لفتح قنوات اتصال مع أغلب الجماعات العِرْقية المعارضة للنظام الإيراني، يقول قائد الحرس الثوري اللواء يحيى رحيم صفوي: «الولايات المتحدة تسعى بوجودها في العراق وأفغانستان إلى التآمر ونشر عدم الاستقرار في إيران، وتريد تشجيع الاضطرابات ذات الطابع العرقي في بلادنا» واتهم أمريكا بدعم: الحزب الكردي الديمقراطي، وجماعة كومالا الكردية الماوية، ومجاهدي خلق، وقال: إن واشنطن «تمدُّ هذه الجماعات بالأموال لخَلْق حالة من عدم الاستقرار في إيران»، وأضاف: إن الأمريكيين يجمعون في أفغانستان «المتمردين الإيرانيين لخَلْق حالة من عدم الاستقرار في سيستان ـ بالوشستان» وهي المحافظة الإيرانية جنوب غربي البلاد(٢).

وليس من المستبعد أن تحاول واشنطن فتح ملفات قديمة أمنية ضد إيران وتضخيمها على غرار قضية طائرة لوكيربي التي تورطت فيها ليبيا، وهناك عدة قضايا صالحة لاستخدامها في هذا الإطار، منها: تفجيرات السفارة الإسرائيلية في الأرجنتين وفي أماكن أخرى.

أما على المدى القريب؛ فإن واشنطن تستخدم النظام الحالي في إيران «ولاية

(١) إيران بين التاج والعمامة، ص ١٩.
(٢) الشرق الأوسط، ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٤م.

الفقيه» ـ رغم أنه ليس نظامها المفضَّل ـ باعتباره فرشاة تعيد بها رسم دول المنطقة من جديد. وفي دهاليز السياسة لا يوجد تناقض بين أن تنشأ سبل للتعاون بين دولتين، في الوقت نفسه الذي تخطط فيه إحداهما لإزاحة الأخرى. وقد كانت واشنطن في زمن الشاه حليفَه الأوثق بعد إسرائيل، تعدّ خططاً لإسقاط نظامه منذ الستينيات، وخاصة في حكم الديمقراطيين، الذين يستبشر حكام طهران الآن بفوزهم في انتخابات الكونجرس، ولا مجال للتشكيك الآن بعد انقضاء ٢٧ عاماً على ثورة الخميني أنها نجحت في الأساس نتيجةَ الدعم الأمريكي الفرنسي البريطاني، وهو ما جعل الشاه يصرّح من منفاه في مصر: «إنني الآن أرى كل شيء بوضوح، لقد صدّقت الغرب كالأعمى، وإنني أخذت قضية صداقة الغرب شيئاً مسلَّماً به، لقد كنت أعمى»(١).

وقد أثمر الجهد الأمريكي في بعض جوانبه، حيث بات الحديث في الأوساط العربية عن مشروعين يتناطحان، ويُرَوِّج بعض المتحمسين المشروعَ الأمريكي في ثنايا الترهيب من المشروع الإيراني، ويقول الكاتب العربي المقيم في أمريكا مأمون فندي: «سؤالي الواضح لأيٍّ قارئ عربي اليوم لا مواربة فيه ودون لفٍّ أو دوران: هل أنت مع المشروع الأميركي الذي يريد إعادة رسم خريطة المنطقة العربية من الخارج، أم أنك مع المشروع الإيراني الذي يهدف إلى تقويض العالم العربي من الداخل؟»(٢).

ويمكن بالعودة إلى تاريخ المنطقة أن نكتشف أن أغلب الدول الموجودة حالياً لا تملك مرجعية تاريخية قبل مائة عام على الأكثر، وهو ما تنطلق منه أمريكا في سعيها إلى إعادة ترسيم المنطقة، أو إعادتها إلى وضع قريب مما كانت عليه قبل مائة عام، وبمزيد من التأمل يمكن اكتشاف أن المنطقة المحيطة بالخليج العربي شرقاً وغرباً وشمالاً هي أغنى المناطق النفطية في العالم، بما فيها منطقة الأحواز العربية في إيران، والتي تنتج نحو ٩٠٪ من النفط الإيراني، وقد أعلن عن اكتشافات حديثة رفعت من مستوى الاحتياطي الإيراني عالمياً(٣).

---

(١) إيران بين التاج والعمامة، ص ٣٤٠.

(٢) مأمون فندي، مقال: الإيرانيون الجدد، الشرق الأوسط، ٢/ ٣/ ٢٠٠٦م.

(٣) القضية الأحوازية، عباس عساكرة، دار الحكمة، ص ٤٣.

إذاً؛ تلك المنطقة الممتدة بين ضفتي الخليج العربي - شرقاً وغرباً - وإلى الجنوب العراقي، هي بيت القصيد، ومن أجلها تسعى أمريكا إلى إعادة تشكيل المنطقة، بما يضمن لها تكوين حزام من الدول البترولية ذات السيادة المنتقصة، والتي لا تمتلك قدرة على اتخاذ قرار سياسي سيادي، وهذا الحزام النفطي حول الخليج يتشابه في عدد من العوامل الاستراتيجية: الانتماء العربي، والطائفية «سُنة وشيعة»، والثروة النفطية، وجميعها يطل على الخليج، وهو ما يجعله نقطة ارتكاز عسكرية بالغة الأهمية والمثالية، ولذلك صرَّح وزير الدفاع الأمريكي الجديد (روبرت جيتس) تعليقاً على زيادة التواجد العسكري الأمريكي في الخليج: أن القوات الأمريكية جاءت لتبقى.

وهنا يأتي دور نظام «ولاية الفقيه» أو «فرشاة الرسم السياسي»، وهنا تكمن الإجابة عن سبب التراخي الأمريكي مع النظام الإيراني منذ سقوط نظام صدام حسين، ودائماً تفضِّل السياسة الأمريكية نموذج النظام أو الزعامة «الثورية» لإحداث خلل في معادلات التوازن، وقد كانت تستخدم جمال عبد الناصر في مصر، ثم صدام حسين في العراق، ثم نظام «ولاية الفقيه» في إيران في هذا السياق، دائماً الأنظمة الثورية تكون مصدر الخلل والعلل، وحتى النظام السوري الذي لم يظفر من الثورية إلا بالخطاب حظي بدوام أكثر من غيره، ولا يزال نظامه مستقراً بينما يتنافس عليه المحوران الإيراني والأمريكي.

وفي المرحلة الحالية تتراوح مجالات التعامل مع إيران بين حالات ثلاث: المعادلة، المشاركة، والمواجهة، وهناك داخل دهاليز السياسة الأمريكية مؤيدون لكل خيار من هذه الثلاثة.

يقول مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق في عهد (جيمي كارتر): «إطالة أمد العداء الأمريكي - الإيراني في غير صالح الولايات المتحدة... إن وجود إيران قوية - حتى وإن كانت مدفوعة دينياً - هو في مصلحة الولايات المتحدة»[(١)]، وطبعاً فإن استبدال نظام «ولاية الفقيه» بنظام ديني آخر معتدل لا يتعارض مع هذا التوجه،

---

(١) كتاب رقعة الشطرنج الكبرى، زبجنيو بريجنسكي، ص ٢٥٠.

ولكن ليس قبل أن تحقق واشنطن خيار المعادلة، أي: معادلة القوة الإيرانية بقوة أخرى في المنطقة، والمرشح لهذا الدور هو «إسرائيل» التي يُدفع بها تدريجياً لمحاولة سدّ الخلل الناجم عن مخاطر «الهلال الشيعي الإيراني».

وتروج كتابات كثيرة لهذا السيناريو، وكتب مأمون فندي في الشرق الأوسط مقالاً بعنوان: «من الأخطر: إيران أم إسرائيل؟»، ويدفع المقال في اتجاه ترسيخ «ثنائية الخطر» ثم «حتمية الاختيار»، أي: أنه لا بد أن نختار أخف الخطرين وأقل الضررين، وحسب كلام الكاتب فإن المشروع الإيراني هو الأخطر؛ لأنه يتمدد إلى العالم العربي كله، بينما إسرائيل خطرها على فلسطين ولبنان فقط(١).

وهكذا فإن عملية الإحلال ـ المعادلة ـ التدريجي هذه ليست سهلة أبداً، وهو ما يفسر بطء التحرك، فليس من الصالح حرق المراحل بحيث تصل العداوة مع إيران إلى نقطة اللا عودة، وأيضاً ليس من الصحيح أن تُترك إيران لتستفيد من الوقت وهو أكثر ما تجيده إيران، وقد عبَّر الرئيس أحمدي نجاد عن هذه الفلسفة الزمنية بأسلوبه الخاص، فقال: «إن ما يريدون أن يفرضوه كعقوبات يذكرني بقصة قديمة، حيث اعتقد رجل أن ما يراه من بُعْد هو زبادي، ولكنه عندما اقترب اعتقد أنه عصير الزبادي، ولكن في النهاية استوعب أنه مجرد ماء»(٢).

ويمكن تقدير الموقف على هذه الصورة: واشنطن تنفذ الخيارات الثلاثة جميعاً، فهي حققت مشاركة فعالة مع طهران، ثم هي تسعى إلى إحلال خيار المعادلة مكان المشاركة، وفي الأخير يبقى خيار المواجهة، ويمكن أن ينفذ بهجوم عسكري أو بغيره.

وقد تكررت التهديدات العسكرية أكثر من مرة من أمريكا تجاه إيران، وتكررت أيضاً تهديدات طهران بتعدد وسائل المواجهة والرد، فهل تتحقق التهديدات هذه المرة؟ يقول وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (هنري كيسنجر): «تضطرُ عملياً إلى استخدام القوة مرة واحدة من كل عشرٍ تلوّح فيها باستخدام

---

(١) انظر المقال في الشرق الأوسط، ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

(٢) صحيفة الحدث، ١١/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

القوة، ولكن التهديد يجب أن يبدو دائماً حقيقياً وذا مصداقية».

ويتوقع معارضون إيرانيون أن تكون الضربة الأمريكية لإيران ـ لو حدثت ـ من قبيل «شد الأذن»، ويقول أبو الحسن بني صدر أول رئيس لإيران: إن إمكانية توجيه أمريكا ضربة عسكرية إلى بلاده قريباً «موجودة ومهمة؛ لأن القوات الأمريكية بالعراق في وضع سيِّئ، والولايات المتحدة تحتاج الآن أن تهاجم إيران لتغطية وضعها الكارثي في العراق، والقول: إن هجومهم هو بداعي التدخل الإيراني بالعراق». وعن تأثير هذه الضربة المحتملة على النظام الإيراني يقول بني صدر: «أيضاً الحكومة الإيرانية التي تعاني من أزمات عديدة تحتاج إلى تعزيز وضعها من خلال تلقي ضربة عسكرية لكي تستمر وتعزز وضعها الداخلي ومصداقيته». وعن طبيعة الضربة العسكرية نفسها يقول: «إذا كان الهجوم جوّياً فإن هذا سوف يقوي النظام الإيراني وأما تغيير النظام فيحتاج إلى هجوم بري، وهذا غير ممكن»(١).

ولكن ماذا عن الجانب الإيراني؟

٢ـ أمريكا في المنظور الإيراني:

يقدم هاشمي رفسنجاني ـ الذي يعتبره كثيرون الرجل الثاني في النظام ـ رؤيته واضحة دون مواربة: الولايات المتحدة هي البلد الأهم في العالم، وإيران هي البلد الأهم في المنطقة، ومن المنطقي أن يسوّيا مشاكلهما(٢).

ويعبِّر رفسنجاني عن تيار ديني قوي داخل بنية النظام الإيراني يؤمن بسياسة أكثر مرونة مع الولايات المتحدة، ورفسنجاني الذي يطلق عليه لقب «الثعلب» كان قد حظي بدعم أمريكي في الثمانينيات من خلال صفقة إيران جيت المشهورة، لتدعيم موقفه داخل النظام الإيراني، ولذلك فإن الجانب الآخر من التيار الديني المحافظ يطلق على رفسنجاني وحلفائه لقب «مثلث اللؤم».

وكثير من الإيرانيين يعتبرون أن «الانبعاث» الشيعي الحالي لا يجب أن يتعارض بأيِّ حال مع المشروع الأمريكي، ويعتبر الإيراني والي نصر الأكاديمي في مجلس

(١) حوار مع العربية نت، ١٠/ ٢/ ٢٠٠٧م.

(٢) التحول العاصف، ص ٣٥٠.

العلاقات الخارجية في نيويورك ـ وهو يعتبر بمثابة مخزن أفكار السياسة الخارجية الأمريكية ـ من أنصار هذا الاتجاه، وله كتاب يحمل عنوان «الصحوة الشيعية» يقول فيه: «إن الصحوة الشيعية هي السدُّ المنيع في مواجهة التطرف السُّني في المنطقة، فهي صحوة مضادة لها وللتطرف بشكل عام، تهدف إلى تغيير المنطقة بشكل ديمقراطي»، ويدعو إلى أن يتعامل الغرب مع تلك «الصحوة» على أنها حليف وليس عدو، في مواجهة التطرف السُّني(١).

وبعيداً عن «أحجية الزبادي» عند نجاد، و «ثعلبية» رفسنجاني، فإن المشروع الإيراني يبدو قنبلة زمنية قادرة على تفجير المنطقة دون أن يعني ذلك بالضرورة أن المستفيد الأول سيكون إيران، حيث تتبادر عدة عوامل تجعل من طهران آخر المستفيدين من مغامراتها السياسية.

وأبرز هذه العوامل دخول إيران في سباق تسلُّح لا تملك معطياته، وقد كان سباق التسلُّح الذي استدرجت أمريكا إليه الاتحاد السوفييتي أحد أسباب انهياره، يقول د. ثامر الخزرجي: «التسلُّح في ظل نظام توازن القوى ينطوي على إشكالية غير تقليدية، وهي انعدام السقف الذي يقف عنده التسابق، بمعنى: أنه يتطلب قدرات اقتصادية وتقنية قد لا تكون متيسرة في كل المراحل والظروف لدى بعض الدول، وهو ما يقود بالنتيجة إلى الإخلال بالنظام»(٢).

ومنها: أن اقتصاد إيران قائم على النفط، وأغلب الدخل يذهب إلى دعم السلع الأساسية وسداد الديون، ولذلك تبدو إيران كمن يهدد عدوها بيد مثقوبة، يقول خامنئي مخاطباً أمريكا وحلفاءها: «إذا ارتكبتم أي خطأ فإن التزود بالطاقة سيكون في خطر كبير مشيراً إلى قطع إمدادات الغرب من النفط»، وردت عليه وزيرة الخارجية الأمريكية بالقول: «إيران تعوّل كثيراً على عائدات النفط لأن (٨٠٪) من موازنتها يأتي من النفط»(٣)، بل إن أحد الأساليب المقترحة لمعاقبة إيران، هو حظر

---

(١) الشرق الأوسط، ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٢) العلاقات السياسية الدولية، ص ٢٨٠.
(٣) موقع الجيش اللبناني الرسمي، الرصد الإعلامي، ٥/ ٦/ ٢٠٠٦م.

الاستثمارات في مجال الطاقة، وحظر استيراد النفط منها، يقول النائب الديمقراطي الأمريكي توم لانتوس: «نطلب من حلفائنا القيام بما قامت به الولايات المتحدة قبل أكثر من عشر سنوات: الانسحاب من قطاع الطاقة الإيراني، البقرة الحلوب للتطلعات النووية لآيات الله»(١).

ومنها: أن النهضة «الثورية» الإيرانية الحالية أحد أسبابها ارتفاع أسعار النفط إلى مستويات غير مسبوقة، حيث وجد النظام الإيراني نفسه يمتلك في عام واحد ميزانية عامين، وهو ما دفع بالطموحات الإقليمية إلى الأمام، خاصة وقد بلغ سعر النفط في عام ١٩٩٨م وحتى أول عام ١٩٩٩م ما بين ٩ ـ ١٤ دولاراً، وهي أسعار أدنى من مثيلتها قبل حرب أكتوبر ٧٣(٢)(٣).

ولكن هناك بوادر أزمة إيرانية حادة في الأفق، فالجهد الإيراني النووي حالياً الغرض منه تكوين درع حماية لتعويض درع الحماية النفطية الذي يتوقع سقوطه قريباً، أضف إلى ذلك الدرع السياسي من خلال نفوذها على الأقليات الشيعية، يقول كريستوفر ديكي الصحفي الأمريكي البارز: «استراتيجية طهران هي تأكيد حماية النظام بدرع دبلوماسي أو نووي أو بالاثنين معاً قبل أن يضعف درع البترول»(٤).

ونبدأ بالدرع النفطي / لماذا يتوقع أن يضعف؟

يفسر كريستوفر ديكي هذه الإشكالية، فيقول: «في عام ٢٠٠٥م بدأ السعوديون برنامجاً يقدر بـ ٥٠ مليار دولار لزيادة إنتاج النفط، وفي صيف عام

---

(١) صحيفة الرأي العام، ٩/ ٣٠/ ٢٠٠٦م.

(٢) صنع القرار في إيران، ص ٣٠.

(٣) تصدر إيران يومياً نحو ٢,٤ مليون برميل، من إجمالي إنتاج يومي ٤ مليون برميل تقريباً، وفي الوقت نفسه تستورد (٦٠٪) من حاجاتها من البنزين والنفط المصفى لضعف إنتاجها المحلي، وبلغت قيمة التصدير في عام ٢٠٠٥م ٤٥ مليار دولار، وفي عام ٢٠٠١م ٢٠ مليار دولار، وكانت قيمة الدخل المتوقعة عام ٢٠٠٦م ـ لو ظل سعر البرميل في نطاق الـ ٧٠ دولاراً ـ ٦٠ مليار دولار، شموئيل إيفن، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، نشرة دورية «نظرة عليا»، العدد ١٨٥، ٧/ ٩/ ٢٠٠٦م، موقع صحيفة الحقائق، الشرق الأوسط ٢٠/ ١/ ٢٠٠٦م.

(٤) مجلة جين أفريك الباريسية، ١٧/ ٦/ ٢٠٠٦م، جريدة الجرائد العالمية العدد ٩٨٧.

٢٠٠٩م فإنهم يعتزمون أن يزيدوا طاقاتهم الإنتاجية من ١١ مليون برميل يومياً إلى ١٢,٥ مليون برميل يومياً، الأمر الذي سوف يسمح لهم بوضع احتياطي يقدر بـ ٣ ملايين برميل»[١]، وعندما يتحقق هذا الفائض العالمي في القدرة الإنتاجية فإن أسعار البترول العالمية سوف تكون أقل حساسية لتوقف إنتاج إيران بصورة تامة، وهو ما يعني أن تهديد إيران بوقف إنتاج نفطها لا جدوى منه، كما أن تهديدها بوقف التصدير من الخليج يقابله زيادة القوات الأمريكية في الخليج.

ويقول بيير ترزيان مؤسس جماعة استراتيجية البترول الباريسية: «هناك فرصة لمدة عامين أو ثلاثة أعوام على الأكثر لتظل إيران محتفظة بهذه الحماية التي يوفرها لها البترول، لذلك فإن إيران تسرع في تطوير برنامجها الذرّي قبل أن تفقد الدرع البترولي»[٢].

وهناك توقيتات أخرى لهذه التطورات تقدم معطيات خطيرة، إذ يقول الباحث السعودي نواف عبيد: إنه في يونيو ٢٠٠٧م من المتوقع أن يصبح لدى السعودية طاقة إنتاجية احتياطية توازي كل الصادرات الإيرانية التي تبلغ ٢,٧ مليون برميل يومياً، وفي عام ٢٠٠٩م ستكون الطاقة الإنتاجية كافية لتعويض التوقف في إنتاج إيران وإحدى الدول النفطية الكبرى، مثل: فنزويلا، نيجيريا، والعراق[٣]، فهل يمكن تفسير زيارة نجاد الأخيرة إلى أمريكا اللاتينية في هذا الإطار؟[٤].

أما عن الدرع النووي فرغم التصريحات الثورية الحاسمة للقادة الإيرانيين حول حقهم في تخصيب اليورانيوم والاستخدام السلمي للطاقة النووية، إلا أن لهم تصريحات أخرى أكثر تعبيراً عن دوافعهم؛ فالمرشد خامنئي قال: إنه «لدى كوريا

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيفة النهار ٤/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٤) هناك مشكلة أخرىٰ تلوح في الأفق للنظام الإيراني، وهي الانخفاض المفاجئ والمستمر في أسعار البترول منذ النصف الثاني من عام ٢٠٠٦م، وهو ما يطرح تساؤلات حول ما إذا كان الانخفاض مقنناً لأجل حصار الاقتصاد الإيراني، خاصة وأن الأسعار لم ترتفع رغم موسم الشتاء، فكيف مع دخول الصيف عام ٢٠٠٧م؟ هل تندفع إيران إلىٰ عمل تهوري من أجل رفع أسعار البترول من جديد؟

الشمالية ثلاث قنابل أو قنبلتان، فالولايات المتحدة الأميركية لا تستطيع أن تفعل شيئاً بها، فهكذا إذا كانت لدينا قنبلة أو ثلاث قنابل أو أربع قنابل فإن عمر الثورة سوف يستمر إلى الخمس وعشرين عاماً أخرى، فالنظام سيكون باقياً لمائة سنة»، ولذلك فإن أحمدي نجاد يعترف أنه إذا كانت هناك ضمانات من أمريكا بأنها سوف تتخلى عن خططها ضد نظامنا فإننا سوف نقبل بإيقاف عملية تخصيب اليورانيوم(١).

وبصورة إجمالية؛ فإنه من غير المعلوم تحديداً الوقت الذي سيستغرقه البرنامج النووي الإيراني ليصل إلى قدرة إنتاج قنبلة نووية أو إنتاجها بالفعل، خاصة وقد أصبح الدرع النووي بحاجة إلى درع لحمايته، ويتوقع خبراء استراتيجيون أن إيران حتى لو امتلكت القدرة النووية، ستكون دولة نووية غير حقيقية، بمعنى: أنها ستمتلك القدرة على إنتاج القنبلة دون أن تقوم بذلك فعلاً.

وماذا عن الدرع السياسي؟

أوراق اللعب:

تدرك طهران أنها تواجه وضعاً بالغ الصعوبة، ولذلك أعلن المرشد خامنئي في ٢٧ / ٦ / ٢٠٠٦م عن تشكيل مجلس استراتيجي جديد للمساعدة في تقديم المشورة في قضايا السياسة الخارجية، ويتشكل المجلس من بعض الكوادر المعروفة من الإصلاحيين والمحافظين، مثل: كمال خرازي الذي عيّن رئيساً للمجلس، وهو إصلاحي، وعلي أكبر ولاياتي ويعمل مستشاراً للمرشد حالياً، وعلي شمخاني وزير الدفاع في عهد خاتمي، وسيتولى المجلس مهمة وضع الاستراتيجية التنفيذية الخاصة بعلاقات إيران الخارجية(٢).

ويمكن تحليل الدرع السياسي الإيراني إلى ثلاثة مكونات: المحور الروسي الصيني، المحور السوري، الأقليات الشيعية.

---

(١) علي نوري زاده، برنامج (مشاهد وآراء)، قناة العربية، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٢) صحيفة شرق الإيرانية، ٢٨/ ٦/ ٢٠٠٦م، مختارات إيرانية العدد ٧٢، يوليو ٢٠٠٦م.

وما يهم هنا هو محور الأقليات الشيعية، التي على رأسها حزب الله اللبناني، وهي لا تمثل لإيران درعاً فقط، بل أغلبها في الحقيقة الأداة الرئيسة للمشروع الإيراني في المنطقة.

في دراسة إيرانية سرية متعلقة بالتهديدات الأمريكية لإيران عام ٢٠٠٣م ـ وتم تسريبها ـ ينقل الصحفي الإيراني أمير طاهري جزءاً منها منسوباً إلى علي أكبر ولاياتي وزير الخارجية السابق، ومستشار المرشد الحالي، يقول ولايتي: إنه إذا تعرضت إيران لهجوم فستفتح «جبهة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة» وأنه هناك حلفاء للجمهورية الإسلامية في أفغانستان والعراق يمكنهم «إشعال بعض الحرائق» ضد الولايات المتحدة وحلفائها هناك(١).

هذه الجبهات التي يتحدث عنها ولايتي هي تلك التجمعات التي يُعتقد أن إيران تمتلك تأثيراً متفاوتاً عليها، وهو ما يجعل معرفة محددات هذا التأثير ودوافعه أمراً بالغ الأهمية.

ويمكن إبراز أربعة محددات يربط بعضها أو كلها بين شيعة إيران والتجمعات الشيعية الأخرى، وهذه هي مرتبة حسب قوة تأثيرها في العلاقة: الانتماء الطائفي، الانتماء الثوري (ولاية الفقيه)، الانتماء السياسي، ومرجعية التقليد.

ومن خلال رؤية تحليلية لهذه المحددات كما يتضح في الجدول التالي:

م	الانتماء الطائفي	ولاية الفقيه	مرجعية التقليد	الانتماء السياسي	التوصيف
١	يوجد	يوجد	يوجد	يوجد	الأكثر تبعية
٢	يوجد	يوجد	لا يوجد	يوجد	تبعية عالية
٣	يوجد	لا يوجد	لا يوجد	يوجد	تجمعات نائمة
٤	يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد تبعية

(١) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ٣٠/ ٨/ ٢٠٠٣م.

يمكن القول: إن التجمعات التي ترتبط مع إيران من خلال المحددات الأربعة، هي الأكثر تبعية وتصل فيها العلاقة إلى درجة تطابق المصالح، وأما التجمعات التي ترتبط مع إيران من خلال الانتماء الطائفي ونظرية ولاية الفقيه والانتماء السياسي دون مرجعية التقليد؛ فهي تلتزم بتبعية عالية تجاه إيران.

وأما التجمعات التي ترتبط مع إيران من خلال الانتماء الطائفي والسياسي، فهي ملتزمة بمستوى من التبعية يجعل قرارها السياسي مرتهناً لإيران أكثر منه للطائفة نفسها، وهو ما يجعل من هذه التجمعات بمثابة الأقليات النائمة التي يتم تحريكها وفق تطورات الأحداث.

وجدير بالذكر أن الانتماء السياسي يحقق درجة عالية من الارتباط لا تقل عن محدد «ولاية الفقيه»، وخاصة بعد أن تطورت نظرية ولاية الفقيه في عهد خامنئي ليغلب عليها الزعامة السياسية أكثر من الدينية، بمعنى: أن الانتماء السياسي من ضمن معانيه الإقرار بالمرشد خامنئي زعيماً سياسياً باعتباره وليَّ أمر المسلمين «الشيعة»، وإن كان يتم الرجوع إلى مرجع آخر في القضايا الفقهية وتسليم الخمس.

ويوضح خامنئي نفسه طبيعة هذه العلاقة من خلال إحدى الفتاوى، والتي تضمنت سؤالاً مفاده: إذا كنت مقلداً لأحد المراجع، وأعلن ولي أمر المسلمين الحرب ضد الكفرة الظالمين أو الجهاد، ولم يجوِّز لي المرجع الذي أقلده الدخول في الحرب؛ فهل ألتزم برأيه أم لا؟ وأجاب خامنئي قائلاً: «يجب إطاعة أوامر ولي أمر المسلمين في الأمور العامة التي منها الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الكفرة والطغاة المهاجمين وهو رأي الفقهاء الأعلام»(١)، ولا شك أن من أهم هذه الأمور العامة تحريك هذه التجمعات للدفاع عن المصالح الإيرانية أو مصالح دولة «ولي الأمر».

ويعتبر محدد «الانتماء السياسي مستحدثاً إلى حدٍّ ما؛ لتعويض التراجع في التأييد «الفقهي» لنظرية ولاية الفقيه، ومن جهة أخرى لتخفيف الضغط على التجمعات الشيعية التي يمكن أن تتهم من خلال تبنِّيها تلك النظرية، ويقول أحد

---

(١) مفكرة الإسلام، مقال: من يملك القرار في حزب الله.

الباحثين الشيعة: «استمر الضغط على الأحزاب الشيعية الرئيسية لاتخاذ موقف محدد إزاء دور الفقيه حتى بداية التسعينات حين تغيرت أولويات الحكومة الإيرانية، كما تراجع النقاش حول ولاية الفقيه وعلاقة الدين بالسياسة بشكل عام»[١]، والباحث وإن كان يتخذ اتجاهاً آخر في تحليل التغير، إلا أنه يمكننا تفسير هذا التحول الإيراني على أنه تطور في اتجاه استبدال الولاء للنظرية - لدى من لا يعتقدون بها - بالولاء لإيران الدولة الزعيمة للشيعة، أي: الانتماء السياسي.

ونشير هنا أيضاً إلى أن التفرقة بين كون بعض التجمعات «نائمة» أو «نشطة» لا يتحدد فقط من خلال العوامل السابقة، فهناك عوامل أخرى تمثل الظرف السياسي، ولها تأثير على أداء هذه التجمعات، مثل: نسبة التجمع السكانية، قوة الدولة الحاضنة أو ضعفها، مستوى التركز الجغرافي.

وأما التجمعات التي ترتبط مع إيران بالمحدد الأول فقط، فهي أقلها تبعية، أو أكثرها معارضة للنظام الإيراني، ويغلب على هؤلاء أن يكونوا شخصيات أكثر منهم تجمعات حقيقية.

ونشير هنا إلى ملاحظة جديرة بالاعتبار، وهي: أهمية التفرقة بين ارتباط التجمعات الشيعية بإيران، وبين وجود مشروع سياسي لبعض هذه التجمعات، فلا يعني القول: باستقلالية تجمّعٍ ما عن إيران - ولائياً وسياسياً ومرجعياً - أن ذلك التجمع لا يملك مشروعه الخاص الذي ربما يتجاوز العقد السياسي للبلد الذي يوجد فيه، وعلى سبيل المثال: فإن موسى الصدر كان توجهه السياسي مخالفاً تماماً لخطٍّ إيران الحالي، وكما يدل على ذلك توجهات أتباعه، ولكن هذا لم يمنع من أن موسى الصدر كانت لديه ثورته الخاصة وأحلامه التوسعية عبر الشرق العربي.

وإيران رغم مراوحة نظامها ما بين العلمانية المتطرفة في عهد الشاه، والخمينية المتشددة حالياً؛ فإن ثوابت التمدد - الشيعي - خارج إيران إلى المحيط العربي تظل ثابتة، وإن اختلفت استراتيجيات التحقيق، وقد كانت اليمين الدستورية التي أدلى بها رضا شاه والد الشاه محمد رضا بهلوي - عند تأسيسه حكم أسرته في إيران عام

(١) الجزيرة نت، مقال: الأحزاب المرتبطة بالولي الفقيه، ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٦م.

١٩٢٥م ـ تتضمن نصاً يقول: «.. وأن أعمل جاهداً على نشر المذهب الجعفري الإثني عشري»[١] رغم أن الدولة كانت علمانية، وقد سبق أن الذي أرسل موسى الصدر لينشئ نهضة سياسية دينية في لبنان، كان الشاه محمد رضا الأشد تطرفاً في علمانيته.

ويأتي حزب الله اللبناني على رأس الفئة الأولى التي تتطابق مصالحها مع مصالح إيران، أو بمعنى أكثر دقة، تتبنى مصالح إيران تماماً.

تحليل العلاقة بين إيران وحزب الله:

بخلاف المحددات الأربعة السابقة، هناك آلية أخرى لتحليل طبيعة العلاقة وقوتها ودرجتها بين حزب الله وإيران، فإنه من خلال تتبع مسيرة وتاريخ الحزب منذ نشأته يمكن أن نلاحظ أربعة عوامل مؤثرة في تحديد مستوى علاقته بإيران، وهي:

أولاً: تشابه البدايات:

نقلت إيران إلى حزب الله نفس تجاربها وخبراتها في الثورة منذ بداية تأسيسه عام ١٩٨٢م، وحتى أثناء المرحلة التحضيرية قبل ذلك، واعتمدوا الأساليب ذاتها وطبقوا المناهج نفسها، يقول سفير إيران في بيروت حجة الإسلام فخر روحاني: «لبنان يشبه الآن إيران عام ١٩٧٧م، ولو نراقب ونعمل بدقّة وصبر، فإنه ـ إن شاء الله ـ سيجيء إلى أحضاننا»[٢]، يقول (مارتن كريمر) أحد الباحثين الذين كتبوا عن حزب الله: «للوهلة الأولى قد يصعب على المراقب غير المتمرس أن يميز بين تظاهرة يقوم بها حزب الله في بيروت، وبين تظاهرة مشابهة تجري في طهران، إذ إنه من ناحية التأثر بالطراز، على صعيد الزي الخارجي والمظهر الشخصي على سبيل المثال، يلاحظ أن النموذج الإيراني له تأثير قوي وبديهي على عناصر حزب الله»[٣].

ويقول د. مسعود إلهي: «فالألفاظ والمصطلحات التي استخدمت في بيانات

(١) حدائق الأحزان، ص ٨١.

(٢) صحيفة إطلاعات الإيرانية يناير ١٩٨٤م، نقلاً عن الشيخ محمد سرور، مقال: انتصار حزب الله ج ٢، مجلة السنة.

(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣١٧.

الحزب وفي آثاره المكتوبة وفي خطب شخصياته خلال الثمانينيات مأخوذة حرفياً من الألفاظ والمصطلحات التي روجتها الثورة الإسلامية الإيرانية، كما أن الأساليب والوسائل الإعلامية التي اعتمدها تشبه شبهاً كاملاً الأساليب الدعائية في المجتمع الإيراني»، ويقول بوضوح أكثر: إن معظم شعارات حزب الله مستعار من معجم الثورة الإسلامية الإيرانية، ومع أن اسم حزب الله مستمد من الآيتين... لكنه في نفس الوقت مأخوذ من المعجم السياسي لإيران في المرحلة التي أعقبت الثورة الإسلامية، كذلك لفظة المستضعفين، وقد سمي الحزب أول محطة إذاعية له في بعلبك: صوت المستضعفين، وعرف عن أمريكا والاتحاد السوفييتي كنموذجين عن الاستكبار العالمي، وإسرائيل «غدة سرطانية يجب استئصالها»[١].

ثانياً: تشابه التحولات:

عندما أقرَّت إيران بهزيمتها في الحرب مع العراق، أو أعلنت قبولها قرار مجلس الأمن بوقف الحرب، بدأت ملامح التغير تظهر في السياسة الإيرانية، وعندما مات الخميني عام ١٩٨٩م، وتولى بعده علي خامنئي منصب المرشد، وتولى رفسنجاني منصب رئيس الجمهورية، توجهت إيران نحو البرجماتية السياسية للتغطية على هزائمها، وتدارك الخسارة التي لحقت بها في الحرب، وأبدى الإيرانيون تنازلات سياسية في عدة مجالات، وأعلن رفسنجاني بدء مرحلة إعادة الإعمار.

وأدت هذه التطورات المتلاحقة إلى إحداث حالة من الارتباك والهزة داخل صفوف حزب الله في لبنان، واعتبر كثيرون أن قبول إيران قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ بإنهاء الحرب مع العراق تراجعاً عن شعارات الثورة، خاصة وأن عناصر الحزب نفذوا عدداً من العمليات داخل لبنان وخارجه ضد مصالح العراق ومؤيديه[٢]، ومع هذه الصدمة، إلا أن مستوى الارتباط الكامل للحزب بالثورة الإيرانية، جعله يحقق تحولاً في مواقفه وأفكاره بما يتناسب مع تحولات الثورة ليعود متطابقاً معها من جديد.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٣.

(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص٣٩٦.

هذا التحول الهائل السريع، جعل بعض المحللين والباحثين، خاصة المؤيدين لحزب الله، يعتبرون ما حدث هو افتراق طرق بين الحزب وإيران، بينما التحليل المنطقي العلمي يقول: إن استجابة أحد الأطراف لتحولات جذرية وقعت مقدماتها ومسوغاتها لدى الطرف الآخر، يعني: أن مستوى ارتباط الأول بالثاني يصل إلى حدِّ التطابق.

وبعد التحولات الإيرانية بفترة وجيزة، تمَّ وقف الحرب بين أمل وحزب الله بعد رضوخ سوريا للشروط الإيرانية، واستوعبت قيادة الحزب التغيرات في إيران، وبدأت في محاكاتها، فخففت شعارات الثورة، وتغير علم الحزب ليصبح شعاره «المقاومة الإسلامية في لبنان» بدلاً من «الجمهورية الإسلامية في لبنان».

وكانت تحولات حزب الله السريعة والحادة قد جعلته خارج نطاق الاستيعاب بالنسبة لبعض قادة الحزب، الذين اعتبروا ما حدث خروجاً عن خط الخميني، وفي مقدمة هؤلاء صبحي الطفيلي الأمين العام للحزب وقتها، مما ترتب عليه تنفيذ مخطط لعزله من القيادة وتحويله إلى عضو في مجلس الشورى عام ١٩٩١م، واتهم الطفيلي بأنه متشدد وعلقت عليه سلوكيات الحزب المتشددة مع حركة أمل[١]، بينما كان السبب الحقيقي لخلعه هو علاقته بخليفة الخميني المعزول «آية الله» حسين منتظري، والذي توافق على خلعه الثلاثي المشهور وقتها: هاشمي رفسنجاني، وأحمد الخميني، وعلي خامنئي[٢].

وكان لا بد أن ينعكس الانقلاب على منتظري بصورة مباشرة على حزب الله، فقد كان الطفيلي من أتباع منتظري ومؤيديه، كما كان لديه عيب آخر هو أنه من تلامذة موسى الصدر ومتّبعي تراثه الثوري[٣]، ولذلك تم إبعاده بعد تحيُّن الفرص لذلك.

ومن دلائل التطابق في هذه النقطة تحديداً أن توظيف عزل الطفيلي تمَّ بنفس

(١) انظر: الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٥٠.
(٢) انظر: صنع القرار في إيران، حدائق الأحزان.
(٣) علي نوري زاده، الشرق الأوسط، ١٧/ ٧/ ٢٠٠٦م.

سياق توظيف عزل منتظري، فبينما اتهم الثاني بأنه متشدد ومن أبرز أنصار تصدير الثورة واعتبرت تنحيته نزوعاً للاعتدال، اتُّهم الثاني أيضاً بنفس التوجه، واعتبرت تنحيته نزوعاً للاعتدال(١).

وكان حسن نصر الله من المتمردين على نهج الطفيلي، وقد ترك لبنان وسافر إلى قم اعتراضاً على الاتفاق الأول للصلح بين حركة أمل وحزب الله عام ١٩٨٩م(٢)، حيث مكث في إيران أقل من عام ثم عاد ليتم تنحية الطفيلي بعد عودته بأشهر قليلة، وتمت مكافأة نصر الله بتعيينه رئيس المجلس التنفيذي للحزب وعمره ٣١ عاماً، وكان قبل سفره إلى قم المسؤول العسكري في الجنوب، وهذا المنصب هو الأهم بعد منصب الأمين العام، وتفوق صلاحياته تلك الممنوحة لنائب الأمين العام نعيم قاسم، وفي بيان أصدره «أبناء الشيخ صبحي الطفيلي» جاء فيه: «حزب الله والسيد حسن نصر الله بنفسه، لم يوفرا طريقة لإطفاء ثورة الجياع وإقصاء الشيخ القائد صبحي الطفيلي أول أمين عام لحزب الله من صفوف الحزب الذي أسسه»(٣).

ومن الشواهد على تشابه التحولات في حزب الله بالتحولات الإيرانية، أن تحولات الحزب كانت تتم في كثير من الأحيان عن طريق فتاوى مباشرة من علي خامنئي، مثل: تحسين العلاقة مع سوريا، ومباشرة العمل السياسي، وهو ما سنعرض له في الفصول القادمة إن شاء الله.

ثالثاً: تشابه الأداء:

لم يتفق حزب الله مع مسيرة الثورة الإيرانية في بداياتها ثم في تحولاتها فقط، بل إن أداء الحزب يعتبر نموذجاً طبق الأصل لأداء الثورة الإيرانية في مختلف المجالات، ومن الأحداث ذات الدلالة الواضحة في هذا السياق: أن حسن نصر الله ـ خليفة عباس الموسوي في أمانة حزب الله ـ قال في مناسبة تشييع جثمان الأخير

(١) انظر: الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، ص ٢١٩.
(٢) السابق، ص ١٧٨.
(٣) السياسة الكويتية، ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

بعد اغتياله عام ١٩٩٢م: «إننا إذ نودع شهيدنا الكبير وزوجه وطفله، نؤكد لروحه الطاهرة ولأمتنا وشعبنا المظلوم، أننا سنكمل طريقه ونتابع نهجه نهج الخميني والخامنئي، وستبقى الثوابت هي الثوابت، لن نتزحزح عنها ولو قُطّعنا ومُزّقنا وارتكبت في حقنا أبشع المجازر»[١]، وهي عبارات واضحة في أنه رغم التحولات التكتيكية في أداء الحزب تناغماً مع التغيرات الإيرانية، فإن الحزب باقٍ على ثوابته الخاصة المنبثقة من ثورة الخميني.

وسوف نعرض في الباب الثاني ـ بإذن الله ـ أوجه التشابه في الأداء السياسي ومجالاتها.

رابعاً: ثلاثية: الدين والمال والسلاح:

من يدفع يملك الولاء، ومن يدفع ويسلِّح يملك ولاء أكثر، أما من يدفع ويسلِّح ويفتي، فهو يملك السمع والطاعة في المنشط والمكره، وهذا هو حال حزب الله مع إيران، يقول حسن صبرا الصحفي اللبناني الشيعي: «ونحن نبحث عن عذر لكل هذه التناقضات في مواقف وسياسات ونهج وثقافة السيد حسن نصر الله نقول: إن الذي يعطي المال هو الذي يأمر، فالآكل من خبز السلطان يضرب بسيفه.. فكيف وإيران هي مرجع السيد نصر الله المالي والفقهي والسياسي والعسكري والأمني.. انظروا واقرؤوا دستور حزب الله تجدوا جواباً كافياً كي يجعل نصر الله وحزبه مصلحة إيران فوق كل مصلحة حتى لو كانت مصلحة لبنان واللبنانيين»[٢].

ويعتبر مفتي صور وجبل عامل رجل الدين الشيعي علي الأمين أن مصطلح المال النظيف هو «للأسف مساعدات سياسية أكثر منها مساعدات لعموم الشعب» وهو يؤكد أن الأحزاب التي تتلقى تمويلاً من الخارج «ستتأثر قراراتها بقرارات تلك الدول التي تقدم لها المساعدات»[٣].

إذاً؛ نحن أمام حالة تطابق كاملة بين الحزب وإيران من الناحية المنهجية

(١) هكذا تكلم نصر الله، ص ٦٩.
(٢) مجلة الشراع، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) صحيفة الحدث، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

والتنظيمية؛ سواء من حيث بدايات الحزب أو تحولاته أو أداؤه، وأيضاً فيما يتعلق بالتمويل والتسليح والمرجعية الدينية.

ولكن يبقى أن نشير إلى أنه في سياق تحليل العلاقة بين حزب الله وإيران، هناك مساران يشكلان معاً نسقاً متكاملاً، أولهما: العلاقة التنظيمية والمنهجية؛ سواء كانت تفصيلية متعلقة بالشؤون اليومية، أو لا مركزية تعتمد على الإدارة بالتفويض مع التدخل في القرارات الهامة، ثانيهما: الارتباط الثقافي، فلأن حزب الله يستلهم تماماً في أدائه ومسيرته الثقافةَ الصفوية، والتجربة الخمينية، فإنه يبقى أسير هذه الثقافة حتى ولو ضعفت الروابط التنظيمية أو بمعنى أكثر دقة: حتى لو اتخذت تلك الروابط شكلاً مغرقاً في اللاَّمركزية؛ لأن الحزب بهذه الوضعية انطلاقاً من ثقافته المختزنة، يفكر كما تفكر إيران ويخطط كما تخطط ويتصرف كما تتصرف، والنقطة الأهم أن: الحزب ـ كما المخطط الإيراني ـ كلاهما يسعى إلى تحقيق أهداف المشروع الصفوي بالدرجة الأولى.

ولذلك تبقى هذه الروابط الثقافية ـ ونحن نتحدث عن الثقافة بمعناها العلمي العام وليس بالمعنى الدارج ـ هي المحدد الأهم في فهم وتفسير العلاقة، وفي فهم وتفسير الأداء، ومن ثم في تقدير مسارات الأداء مستقبلاً ـ مع عدم إهمال أثر الروابط التنظيمية بالطبع ـ لأن تلمُّس مسارات التأثر والتبادل الثقافي أكثر سهولة للوصول إلى نتائج مرضية مقارنة بتلمُّس مسارات العلاقة التنظيمية.

وسوف نعرض في الباب الثاني ـ إن شاء الله ـ أهم مكونات الثقافة السياسية للثورة الإيرانية، ومقارنتها بأداء حزب الله، وهذه المكونات من الصعب أن يتم اتباعها من قِبَل حزب الله عن طريق الأمر أو التلقين المباشر، بل جزء كبير منها ترسب مع التكوين النفسي الطائفي والثوري والسياسي الذي نجحت إيران في إيجاده ممثلاً في الحزب اللبناني.

ومن خلال هذه المكونات سيتم بناء نموذج تحليلي يمكن من خلاله تفسير وتوقع أداء حزب الله في الحاضر والمستقبل، أو على الأقل تحديد اتجاهاته العامة.

الباب الثاني: إيــران وحــزب اللـــه

- المقدمة.
- التمهيد.
- الفصل الأول: ثقافة التقيّة.
- الفصل الثاني: التفكُّك.
- الفصل الثالث: الأقلية.
- الفصل الرابع: الغيبة والانتظار.
- الفصل الخامس: لعبة السياسة.
- الفصل السادس: حرب الفراغات.

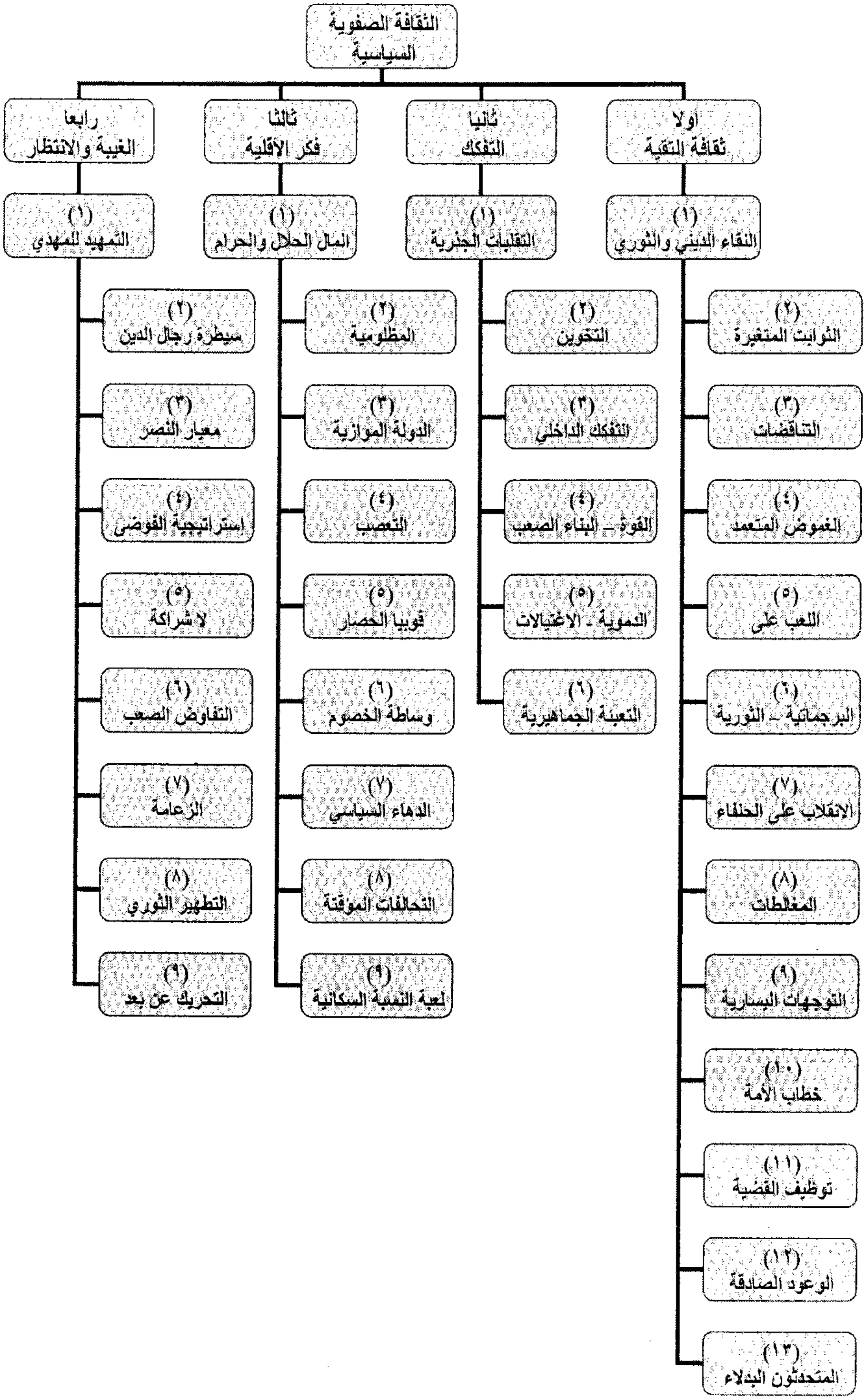
المقدمة

تتصف الثقافة الشيعية بالتعقيد وكثرة مكوناتها التي تراكمت وتفاقمت عبر مئات السنين والتجارب والعلماء والزعماء، وقد أثمرت هذه الثقافة واقعاً اجتماعياً وسياسياً من الصعب مقارنته بأمثاله لدى الطوائف الأخرى، وعندما تأسست الدولة الصفوية عام ١٥٠١م، تلاقحت الخبرات القديمة مع الدولة الجديدة، ونتجت خبرات سياسية قلّ أن نجد لها مثيلاً في أي دولة أخرى قديماً أو حديثاً، وعندما عادت الدولة الصفوية في ثوبها الجديد ممثلة في إيران الخميني ـ خامنئي، فإنها منحت الثقافة الصفوية الرافضية خبرات جديدة وجددت القديم ونقّحته، وأصبحنا أمام واقع سياسي مستعصٍ على الفهم، ويقع بسببه كثير من الناس في أزمات ومشكلات إدراكية.

ويمكن من خلال تحليل الثقافة الشيعية السياسية في ثوبيها القديم والجديد أن نتلمس أربعة محاور رئيسة، تنبعث منها أغلب مكونات هذه الثقافة، وهذه المحاور هي: ثقافة التقيّة، التفكك، فكر الأقلية، والغيبة والانتظار.

ونسعى في خلال الفصول القادمة إلى بيان كيف أن حزب الله قد ورث مكونات هذه الثقافة بحذافيرها وبقضِّها وقضيضها من إيران الصفوية، ونكشف في ثنايا ذلك أن هذه المكونات تقدم لنا نموذجاً تحليلياً يفسر أداء حزب الله في لبنان، ويقدم لنا أيضاً رؤية واضحة لتوجهات الحزب المستقبلية وآلياته في العمل داخل: الحزب، الطائفة، والدولة؛ سواء باعتباره مقاومة عسكرية، أو حزباً سياسياً..

وفي الصفحة التالية نعرض جدولاً بهذه المكونات مقسمة على روافدها الأصلية، وهي أربعة: التقيّة، التفكك الداخلي، الأقلية، والغيبة والانتظار.


الثقافة الصفوية السياسية
أولا ثقافة التقية
ثانيا التفكك
ثالثا فكر الأقلية
رابعا الغيبة والانتظار
(١) النقاء الديني والثوري
(٢) الثوابت المتغيرة
(٣) التناقضات
(٤) الغموض المتعمد
(٥) اللعب على
(٦) البرجماتية – الثورية
(٧) الانقلاب على الحلفاء
(٨) المغالطات
(٩) التوجهات اليسارية
(١٠) خطاب الأمة
(١١) توظيف القضية
(١٢) الوعود الصادقة
(١٣) المتحدثون البدلاء
(١) التقلبات الجذرية
(٢) التكوين
(٣) التفكك الداخلي
(٤) القوة – البناء الصعب
(٥) الدموية - الاغتيالات
(٦) التعبئة الجماهيرية
(١) المال الحلال والحرام
(٢) المظلومية
(٣) الدولة الموازية
(٤) التعصب
(٥) فوبيا الحصار
(٦) وساطة الخصوم
(٧) الدهاء السياسي
(٨) التحالفات المؤقتة
(٩) لعبة النسبة السكانية
(١) التمهيد للمهدي
(٢) سيطرة رجال الدين
(٣) معيار النصر
(٤) استراتيجية الفوضى
(٥) لا شراكة
(٦) التفاوض الصعب
(٧) الزعامة
(٨) التطهير الثوري
(٩) التحريك عن بعد

الفصل الأول: ثقافة التقيّة

التمهيد:

لماذا اختفى المهدي الإمام الثاني عشر عند الشيعة، وهو صاحب الزمان؟ الجواب: «اختفى بناءً على تقليد شيعي يبدأ في عهد الإمام جعفر الصادق ـ الذي تتبع الشيعة الإثني عشرية فقهه واجتهاداته ـ وهو المعروف بالتقيّة، واعتبر الإمام الصادق التقيّة واجباً شرعياً لحماية النفس والروح»(١).

وتنسب كتب الشيعة إلى الإمام جعفر الصادق قوله: «التقيّة ديني ودين آبائي» وقوله: «من لا تقيّة له لا دين له»(٢)، وعلى ذلك فإن المهدي يمتنع عن الظهور بسبب التقيّة، وهذا ما أدّى مع مرور الوقت إلى ظهور التيارين المتعارضين: تيار التقيّة، وتيار الثورة، وقد انتصر الخميني ـ كما سبق في الفصل الأول ـ للتيار الثاني، وأعلن تعطيل التقيّة(٣).

وتجنباً للاتهام المعتاد بالرجوع إلى كتب الشيعة الأقدمين دون مراجعة «تنقيحات» المعاصرين، نعتمد في تعريف التقية على فتاوى الزعيم «الروحي» السابق لحزب الله محمد حسين فضل الله، وهي فتاوى أصدرها في فترة الثمانينيات أي: بعد الثورة الإيرانية، وبينما كان هو من المتحمسين لها.

يُعرِّف فضل الله التقيّة بأنها: قيام «الإنسان بعمل لا يؤمن به أو لا يلتزم به خوفاً على حياته أو تحبباً للجوِّ الإسلامي العام»(٤)، ويذكر أن علماء الشيعة قسموا

---

(١) حسن صبرا رئيس تحرير مجلة الشراع اللبنانية، وهو شيعي، والمصدر بحث بعنوان: عن الصحوة الإسلامية في لبنان، كتبه ضمن أعمال منتدى العالم الثالث، مكتب الشرق الأوسط، الذي نشر في كتاب باسم: الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ص ١٦٤.

(٢) إيران بين التاج والعمامة، ص ٢١١.

(٣) صنع القرار في إيران، ص ٧٣.

(٤) فتاوى فضل الله، فتوى رقم ٢٤٣٥.

التقيّة إلى قسمين: «التقية قد تكون من خلال حالة خوف، وقد تكون من خلال حالة تحفظ»(١)، ورداً على سؤال: متى تكون التقيّة واجبة؟ قال: «عندما تتعرض الحياة للخطر أو عندما يتعرض العمل الإسلامي للخطر يجب التقيّة في هذا الحال، أو عندما تكون هناك مصلحة إسلامية فوق العادة بحيث أنه لو لم نمارس التقيّة يكون خطراً على ذلك، ولكن بشرط أن لا يكون في التقيّة إفساد في القضايا بالصورة العامة»(٢) ورداً على سؤال آخر: هل التقية مرتبطة بالعمل أو العامل؟ قال: «التقيّة مرتبطة بالعمل عندما تقتضي مصلحة العمل التقيّة، وبالعامل عندما تقتضي سلامة العامل التقيّة»(٣).

ونُذكّر بأن هذا التعريف للتقيّة إنما هو بعد ثورة الخميني، الذي عطّل التقيّة لزوال أسبابها، وهو ما يعني منطقياً أن مجال التقيّة أوسع بكثير مما ذكره فضل الله، ولكن لو تقيدنا بتعريفاته يمكن أن نحدد الإطار للتقيّة فيما يلي، فهي أولاً تتعلق بالعمل والقول، وقد يكون العمل الذي يفعله «المتقي» بخلاف ما يؤمن به أو يعتقده، وهي لا تقتصر على الخوف فقط، بل هناك التحبب والتحفظ أيضاً، وهي قد تكون لمصلحة العمل أو لمصلحة الشخص، ويدخل في موجبات التقيّة الخوف على العمل الإسلامي -وهو ليس العمل الإسلامي السُّني قطعاً-.

وهذا الإطار يعطي ضوابط متميعة للتقيّة؛ لأنه -فضلاً عن اتساعه- يترك للإنسان الشيعي حرية تقدير: المصلحة، الخوف، التحفظ، التحبب... إلخ، وهي أمور لا شك تختلف من شخص إلى آخر.

وواقع الأمر أن التقيّة تجاوزت منذ أمدٍ بعيد كونها مسألة فقهية أو عقدية، لتتحول إلى ثقافة واسعة المجال والتأثير، متعددة الأساليب والتطبيقات، تمددت لتشمل كافة مناحي الحياة، بل إنها أصبحت أداة يتعاطاها الشيعي حتى مع أقرانه في الطائفة.

---

(١) السابق، فتوىٰ رقم ١٧٠٢.

(٢) السابق، فتوىٰ رقم ٢٤٣١.

(٣) السابق، فتوىٰ رقم ٢٤٤٨.

ويمكن أن نطرح أهمَّ الجوانب البارزة في ثقافة «التقيّة المعاصرة» في هذه المحاور التالية:

أولاً:

حسب المراجع الشيعية فإن التقيّة تعود إلى عهد الإمام جعفر الصادق، وهذا يعني: أن هذا المبدأ يطبق من قِبَل الشيعة الجعفرية منذ أكثر من ١٢٠٠ عام، إذاً؛ نحن أمام تراكم هائل من التطبيقات والخبرات في ممارسة التقيّة، التي تحولت مع السنين إلى ثقافة متكاملة لها أبعادها وطرائقها، وبحيث أن الشيعة الإثني عشرية توفر لهم جراء تعاطي هذه الثقافة مهارات كبيرة في التعامل مع مخالفيهم أو حتى مع أنفسهم، وهي مهارات تقوم على إخفاء الحقيقة أو جزء منها أو استبدالها أو تحريفها، وهي كذلك تشمل القول والعمل، على خلاف ما يعتقده كثيرون أن التقيّة في القول فقط.

ولم يكن إعلان الخميني تعطيل التقيّة، إلا بالقدر الذي يتيح له تمرير الثورة، وإلا فإن ما تراكم عبر الأجيال من هذه الثقافة لا يمكن إلغاؤه من حياة الناس بجرَّة قلم، بل إن مرشد الثورة نفسه كان يستخدم التقيّة على نطاق واسع، كما سيتضح لنا بعد قليل، وما فعله الخميني أنه: حوَّل التقيّة من درع للشيعي القاعد إلى سلاح في يد الشيعي الثوري.

ثانياً:

تلوين الخطاب وتنويعه أصبح سِمَة لازمة للخطاب الشيعي السياسي، ولم يعد من السهل معرفة التوجه أو الموقف الحقيقي لإيران أو لحزب الله، فهناك خطابات متعددة؛ سواء على مستوى القيادات، أو حتى على مستوى الشخص الواحد، وما يصرح به الخطاب يكذبه الأداء والعكس صحيح، كما يتغير الخطاب مع تغير الزمن أو الظرف، وأغلب القادة الإيرانيين يمكن ببساطة جمع تصريحات وأقوال متضاربة لكل منهم بخصوص نفس القضية، فما يقوله أحدهم اليوم ينفيه غداً، وما يثبته غداً ينفيه بعد غد.

وكان الخميني يتعمد في قراراته التي تَبَيَّنَ خطأها أو أراد التراجع عنها أن يقول: إنه اتخذها عن غير رغبة منه بل أُجبر عليها، فبعد أن أثنى على مهدي بازرجان وعيّنه رئيساً للوزراء لتاريخه النضالي، قال عند عزله: «تالله كنت معارضاً لرئاسة وزراء بازرجان»، وبعد أن كان أبو الحسن بني صدر رفيقه في باريس، وعلى طائرة النصر، وعيّنه أول رئيس لإيران، قال لاحقاً: «والله لم أمنح صوتي لبني صدر كرئيس للجمهورية»، وبعد أن اختار تلميذه حسين منتظري خليفة له ووصفه بأنه «زهرة عمره»، عاد بعد عزله ليقول: «قسماً بالله أني كنت معارضاً لانتخابك منذ البداية»[1]، وعندما أراد تغيير الدستور ليوافق تعيين خامنئي مرشداً للجمهورية، وكان الدستور يشترط درجة المرجعية وهو ما لم يكن متوفراً في خامنئي، علماً بأن الخميني هو من وضع الدستور الأول، قال: «وأنا منذ البداية كنت معتقداً وأصرُّ على عدم اشتراط المرجعية»[2].

وكان موسى الصدر في تحركاته داخل لبنان يستخدم شخصيات أكاديمية غير معروف عنها التدين لتتحدث بلسانه فيما لا يريد التصريح به، وقد فعل ذلك مع د. حسين كنعان الأكاديمي الشيعي الذي أتى به من أمريكا لكي يتولى رئاسة المكتب السياسي لحركة أمل، وكان يصطحبه في لقاءاته ومشاوراته لتنويع صيغ الخطاب بما يكفل للصدر الاحتفاظ باعتداله الظاهري[3].

وتدفع التقيّة كثيراً من قادة حزب الله إلى اتخاذ مواقف متضاربة، والمشكلة أن كثرة اللجوء إلى التقيّة وبصورة تبدو أحياناً لا إرادية - من كثرة تعاطيهم إياها - تجعلهم ينقضون كلامهم حتى في اللقاء نفسه أو الحوار ذاته، مثال ذلك: الأمين العام الأسبق لحزب الله صبحي الطفيلي، وهو قد ملأ وسائل الإعلام بتصريحاته عن تبعية حزب الله لإيران، وفي حوار مع قناة العربية قال بالحرف الواحد عن الحزب: إنهم «ملتزمون بالسياسة الإيرانية... الشيعة في لبنان هم مزرعة لإيران» ولكنه في

(١) ويلاحظ هنا أن الحلف بالله مشمول ضمن التقية، حدائق الأحزان، ص ٢١٠.
(٢) حدائق الأحزان، ص ٢٤٤.
(٣) انظر: كتاب قدر ودور، مرجع سابق.

البرنامج نفسه لما سئل عن قول البعض: إن الشيعة ولاؤهم لإيران قال دون حرج: «هذه للأسف الشديد من جملة الفيلم لتخويف العالم الإسلامي السُّني من الموضوع الشيعي.. مذيعة البرنامج: إنت ما بتعتقد هيك؟ صبحي الطفيلي: لأ؛ أنا بالعكس أنا أعتقد الأمور ليست كذلك، هذا فيه إجحاف»(١).

ثالثاً:

تضليل الأتباع، هو من الآثار السلبية التي يتعرض لها الشيعة بسبب استغراقهم الشديد في التقيّة، بحيث أنه في أحيان كثيرة ولكثرة التناقض والتضارب يختلط الأمر على الأتباع فلا يعرفون لقادتهم موقفاً أو مساراً، يروي «آية الله» كاظم الحائري(٢) ـ عالم الدين الإيراني ـ أنه عندما قدم الخميني إلى طهران في بداية الثورة لم يعلن تطبيق ولاية الفقيه بادئ الأمر، حتى اعتقد أتباعه أن الأمور تغيرت، خاصة عندما عيّن مهدي بازرجان غير المتدين رئيساً للوزراء.

وقال حائري: «بعد مجيء الإمام ذهبت إلى منزله، وكان البيت مليئاً بالزائرين، ثم تحدث الإمام، فقال: ما قلناه من أن تنصيب المهندس بازرجان كان بانتخاب الشعب كلام ذكرناه أمام الرأي العام وأن الحقيقة هي أني أنا ولي الأمر»، يقول حائري: «وما إن سمعت هذا الكلام حتى غمرتني الفرحة الكاملة... علمت أن جميع الأوضاع والشعارات سوف تتغير وتدور حول محور ولاية الفقيه»(٣).

الوضع نفسه ينطبق على باقر الصدر، الشيخ الأول لمؤسسي حزب الله الأوائل، مثل: عباس الموسوي، وحسن نصر الله، حيث يروي كاظم الحائري أيضاً أن موقف باقر الصدر من الحزبية لم يكن معروفاً، فبينما هو مؤسس حزب الدعوة، كان يفتي بترك العمل الحزبي، فأحدث ذلك بلبلة لدى تلامذته، فأرسل إليه الحائري

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ١٣/ ٧/ ٢٠٠٦م.

(٢) من معتنقي مبدأ ولاية الفقيه وله كتاب فيها، وهو مرجع التقليد لمقتدى الصدر زعيم التيار الصدري في العراق حسب وصية والده.

(٣) في حوار مع مجلة «بزوهش وحوزه» الفارسية عدد ٦، وقد قامت مجلة فقه أهل البيت بترجمته، انظر: موقع البرلمان الهولندي «شيعي» ١١/ ٥/ ٢٠٠٦م.

يذكر له احتمالات أربعة لهذه الفتوى: هل هي من باب إظهار غير المقصود؟ وهو ما أطلق عليه بالمصطلح الأصولي الشيعي «المصلحة في الجعل»، أم هي تقتصر على طلبته القريبين منه؟ أم على طلبة الحوزة في العراق؟ خوفاً من نظام البعث، أم هي فتوى عامة لكل مكان وزمان؟ فردَّ عليه باقر الصدر أنه قصد الأول والثاني والثالث ولم يقصد الرابع[١].

إذا كان هذا حال الشيوخ الأولين لحزب الله، فكيف يكون حال تلامذتهم؟ هل يمكن بعد ذلك أن يوثق في كلامهم أو تصريحاتهم؟ كم مصلحة أو فائدة يمكن ادِّعاء جلبها لتبرير الكذب على الرأي العام، وكم مفسدة ومضرة يمكن ادّعاء دفعها؟

رابعاً:

لم يعد للكلمة ثقل أو قيمة، بالنسبة لقادة إيران أو حزب الله، فكل شيء يمكن إثباته أو نفيه حسب الضرورة، وها هنا أمر مهم، فانتشار ثقافة التقيّة بهذا الشكل يعني: أنه يوجد مستوى مقبول من التضارب والتناقض والتقلب الذي تقبله الأوساط الشيعية من زعمائها، بل يفهمون جيداً ويقدرون ويمتدحون فعلهم أو قولهم ذاك، خاصة عندما تكون التقيّة موجهة ناحية المخالفين، وفي مقدمتهم أهل السُّنة، وأهل السُّنة يُطلق عليهم في المصطلح الجعفري «العامة»، ومخالفة العامة هي من الأصول عندهم، حتى أنه في المسائل الفقهية لو وُجد قولان في مسألة دون ترجيح أحدهما، يُنظر ما يختاره العامة «أهل السُّنة» فيُعمل بخلافه[٢] فكيف بممارسة التقيّة مع هؤلاء العامة؟ ومعروف أن «العامة» في لبنان، هم الثقل الرئيسي في مواجهة حسن نصر الله.

يقول الصحفي اللبناني الشيعي حسن صبرا: «السيد حسن تلميذ نجيب في مدرسة التقيّة التي تُظهر ما لا تضمر، ولم تكن أولى حالاتها تعهّده بعدم تخريب موسم الاصطياف ٢٠٠٦م، ليبدأ الحرب الاستباقية في ١٢ / ٧ / ٢٠٠٦م قائلاً هذا

---

(١) انظر: الطائفية والسياسة، ص ٣٦٨.

(٢) هذا هو التشيع بلسان الخوئي، عبد الملك بن عبد الرحمن الشافعي، ص ٢٥، ٢٦.

الموسم نفسه، ولا كانت ثانية حالاتها تعهّده بعدم طرح موضوع الحكومة حتى مرور باريس ٣، فإذا به يريد الإطاحة بالحكومة الوطنية قبل الوصول إلى باريس ٣، ولم تكن آخر حالاتها تعهّده بالمحافظة على السلم الأهلي، وهو يعلن البلاغ رقم ١ متمنطقاً مجندلاً بعشرين أو ثلاثين أو ربما مائة ألف صاروخ، ولا تعهّده بالمحافظة على الدستور وهو يعلن نسف الدستور بالكامل وهو يعين الرؤساء والنواب والأكثرية والأقلية»(١).

خامساً:

سُئِل حسن نصر الله عن اتباع حزبه للتقيّة؟ فقال: إن التقيّة «ضرورة فرضتها ظروف القهر السياسي في فترات تاريخية معيّنة، وكان الشيعة المضطهدون يلجؤون إليها لمنع الفتنة والشقاق والصدام المكلف بالحكم الظالم»(٢). ويشارك نصر الله رموز شيعية كثيرة في القول: بأن التقيّة قد ولّى زمنها ولم يعد لها مجال في العصر الحالي، ولكن المشكلة في هذه الأقوال أنها جميعها يمكن تصنيفها ضمن «التقيّة».

ومن الطبيعي أن من يمارس التقيّة لن يعترف أبداً بذلك، وهذا يضعنا أمام معضلة، فلا توجد قرائن على ترك الشيعة للتقيّة كما يزعمون، بل إن القرائن المتاحة كلها تؤكد اتباعهم لها، إذاً؛ نحن أمام مسار دائري ليس له نهاية، فقادة حزب الله يدينون بالتقيّة، ولكنهم يقولون: إنها قضية تاريخية انتهت، وهذا القول يندرج ببساطة ضمن التقيّة، ومن ثم لا نصل إلى شيء، وهذا يذكر بمثال فلسفي رمزي يقرب المعنى، يقول المثال: إن أهل قرية ما كذابون، والمتكلم من هذه القرية، إذاً هو يكذب، إذاً ليسوا كذابين، إذاً كلامه صادق، وهكذا مسارات حلزونية لا تصل بنا إلى شيء.

ومن يصعب عليه فهم المثال السابق، فليتابع تطبيقاً حرفياً له من كلام نصر الله أثناء الحرب الماضية في يوليو ٢٠٠٦م، حيث إنه صرَّح لقناة (نيو تي في)

---

(١) حسن صبرا، مجلة الشراع، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) حوار مع صحيفة الأهرام المصرية بعد انسحاب إسرائيل عام ٢٠٠٠م، هكذا تكلم نصر الله، ص ٣٦.

أن قيادة حزب الله «لم تتوقع ولو واحداً بالمائة أن عملية الأسر ستؤدي إلى حرب بهذه السعة وبهذا الحجم، لأنه وبتاريخ الحروب هذا لم يحصل.. لو علمت أن عملية الأسر كانت ستقود إلى هذه النتيجة لما قمنا بها قطعاً»(١)، وبعد أن ترك الرأي العام يتفاعل مع هذا الاعتراف الخطير لفترة من الزمن، خرج على الناس ليقول: إن كلامه فسّر بالخطأ العمد.

وفي حوار مع الصحفي «طلال سلمان» رئيس تحرير صحيفة السفير المتحمسة لحزب الله، أفاض نصر الله الحديث في بيان كيف أن كلامه أُخرج من سياقه، وفيما يقرب من ألف كلمة تحدث في مسارات دائرية لا يفهم منها شيء، وقال في النهاية: «أعرف أن هذا السؤال موجود عند الناس وأُثير بقوة في زمن الحرب، أعتبر أن من مسؤوليتي الحقيقية أن أجيب عنه، وقلت: نعم لو كنا نحتمل لما أقدمنا في هذا التوقيت على عملية الأسيرين» ولكنه استدرك بالقول: «ولكن هذا الكلام جاء في أي: سياق؟ جاء في سياق أنه حتى هذا الاحتمال ليس وارداً على الإطلاق» وهذا أحد المسارات الدائرية غير المفهومة.

وهناك مسار آخر، حيث قال في السياق نفسه: «لا أحد في الدنيا لو يدرس ويقيّم ويحلّل كان يفترض بأن أسر جنديين يؤدي إلى حرب بهذا المستوى؛ لأن الحرب لا صلة لها بأسر الجنديين، هذه الحرب هي خارج أي: منطق أو معيار أو قانون أو ضوابط»، ولكنه يعود فيقول: «إذا كنت أريد أن استعمل عبارات لا يمكن اجتزاؤها أو اقتطاعها، أنا أقول لم نخطئ التقدير وكانت حساباتنا دقيقة وصحيحة، وأيضاً لسنا نادمين»(٢).

إذاً؛ هذه حرب لا يمكن توقعها بالدراسة والتحليل، وفي الوقت نفسه حزب الله لم يخطئ التقدير والحسابات، أي: أن الحرب كانت متوقعة.. إلخ.

وفي النهاية يبقى الأمران قائمين، فمن يردْ أن يقتنع أن «السيد» حسن قد اعتذر للبنانيين فليقتنع، ومن يردْ أن يفهم أن حزب الله غير مسؤول فليفهم!

---

(١) العربية نت، ٢٧/ ٨/ ٢٠٠٦م.

(٢) الحوار منشور في صحيفة القبس بتاريخ ٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.

ومثل هذه المعضلات لا يصلح معها إلا المدخل العقدي في تفسير الأحداث، وهذا المدخل يرشدنا إلى استصحاب الأصل وهو التقيّة طالما لم تردنا قرائن قوية تفيد العكس، والقوم لم يقصروا في بيان ذلك، والحديث ـ الموضوع ـ المنسوب إلى جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ معروف ومشهور «لا دين لمن لا تقيّة له» ونحسبهم متدينين للغاية!

ونذكر فيما يلي بعض التطبيقات التي يستبطن فيها الشيعة الإثني عشرية ثقافة التقيّة، مع اتّباع أسلوب المقارنة بين إيران وحزب الله؛ لتحقيق فرضيات الدراسة السابق الإشارة إليها:

١ـ دعوى النقاء الديني والثوري:

الاحتكار هو الوجه الآخر لولاية الفقيه، فكل شيء مرتهن ومحتكر لأنصار هذه النظرية باسم «صاحب الزمان» الذي ينتظرون خروجه، ومصدر الاحتكار هو نائب صاحب الزمان، أي: الولي الفقيه، الذي من حقه صلاحيات لا محدودة لا تقتصر على بلده فقط، بل يتسع لها أرجاء العالم بأسره، ولذلك يحرص أنصار هذه النظرية على تأكيد نقائهم الديني والثوري والقيمي، باعتبار أنهم صفوة الخلق الذين يستحقون حكم بقية الخلق.

ولأن صاحب البدعة غير مستقر من الناحية النفسية، فهو لا يقف ببدعته عند حدٍّ معين، فالبدعة باب إلى الفتنة إذا فتح فمن الصعب إغلاقه، وقد تنامى شعور النقاء الديني والثوري والطهر الأخلاقي لدى أنصار الخميني حتى بلغ بهم عقد المقارنات بين مجتمع الخميني ومجتمع النبي ﷺ، لا ليقولوا أن مجتمع الخميني هو الأقرب إلى مجتمع النبي ﷺ، ولكن ليدّعوا أن مجتمعهم الفارسي الرافضي هو أفضل المجتمعات على الإطلاق، وهذا القول ليس بزلّة لسان يعقبها ندم، بل آخر ما كتبه الخميني في وصيته إلى أنصاره، إذ قال لهم: «إنني أدّعي بجرأة أن الوضع الذي يتميز به الشعب الإيراني وجماهيره المليونية في العصر الحاضر أفضل من شعب الحجاز في عهد رسول الله ﷺ، ومن شعب الكوفة والعراق في عهد أمير

المؤمنين والحسين بن علي صلوات الله وسلامه عليهما»[1] ومفهوم طبعاً أن الذم متوجه إلى الصحابة -رضوان الله عليهم- الذين هم مجتمع النبي عليه الصلاة والسلام، ولذلك فسَّر الخميني كلامه بأنه كان بين أهل الحجاز والكوفة عصاة وهاربون من أرض المعركة.

وتبلغ الجرأة أيضاً بالبرجماتي هاشمي رفسنجاني أن يردد كلام مرشده، إذ يقول في بعض خطبه: «إن المجتمع الإيراني يتصرف بأحسن مما كان يفعل المجتمع الإسلامي في عهد الرسول ﷺ، فعلى حين شكا الرسول ﷺ من تخاذل بعض المسلمين قدَّر الخميني لأتباعه حماستهم، وعلى حين أعرض بعض أتباع الرسول ﷺ عن نصائحه اتخذ الإيرانيون من توجهات الخميني نهجاً لهم»[2].

ولكن هذا النقاء الثوري الديني لم يمنع ملالي الثورة من التعاون مع أعدائهم وأعداء الدين، فبعد فترة قصيرة من بدء الثورة وبينما أنصارها في حمأة حماسهم ضد «قوى الاستكبار» من أجل مناصرة «المستضعفين» كان أعضاء اللجان الثورية -وهي إحدى ميليشيات الثورة- تحمل الرشاشات الإسرائيلية عوزي، حتى أن رئيس الوزراء -غير المتدين- مهدي بازرجان أرسل إلى الخميني يشتكي هذا التناقض، وفي الفترة من بدء الثورة وحتى وفاة الخميني أكد خبراء اقتصاديون إيرانيون أن الصادرات الإسرائيلية إلى إيران زادت بنسبة ٤٠٠٪، وفي ثلاث سنوات فقط من ١٩٨٠-١٩٨٣م استوردت إيران من إسرائيل ما قيمته ٦ مليارات دولار.

وكان الحرس الثوري -حامي حمى الثورة- من أوائل المستخدمين للرشاش الإسرائيلي الأحدث «جليل» بمجرد ظهوره في العام ١٩٨٠م، وظلت إيران حتى العام ١٩٨٣م تستورد ٧٠٪ من احتياجاتها من الدواء من إسرائيل[3].

ولم يتوقف التعاون عند هذا الحد، بل إن الصحفي الفرنسي (إيريك لورو)، أكد في كتابه «حرب آل بوش» أن إسرائيل كانت تدرب الطيارين الإيرانيين في

(١) صنع القرار في إيران، ص ٦١.
(٢) السابق، ص ٦١.
(٣) إيران بين التاج والعمامة، ص ٤٨٣ إلى ٤٩٠.

ألمانيا، وكانت تفعل ذلك لأن إيران تحارب عدواً مشتركاً، أي: بلد عربي هو العراق، الذي عادت إيران بعد عقود لتتحالف مع قوى الاستكبار مرة أخرى لاحتلاله، ومعلوم أن عدد اليهود في إيران يبلغ ٢٥ ألف يهودي(١)، وهي النسبة الأكبر في الشرق الأوسط، فلماذا لم يهاجر اليهود من إيران؟ هل لأنهم يشعرون بالأمن والأمان في رفقة ولاية الفقيه؟

ويذكر موقع المقاومة ـ على الإنترنت ـ التابع لحزب الله في تأريخه لحياة الخميني أنه من أبرز خطب الخميني الحماسية التي أشعلت التظاهرات ضد الشاه وأعقبها نفي الخميني، كانت خطبة ألقاها في ٣ / ٦ / ١٩٦٣م يندد فيها بالعلاقات السرية بين الشاه وإسرائيل!(٢)؛ فأي الحالين نصدّق؟

رغم أن قادة حزب الله اليوم يوزعون على الرموز السياسية في لبنان تُهم التعاون والاتصال مع إسرائيل وأمريكا، إلا أن رفسنجاني ـ الذي يُعدّ حالياً الرجل الثاني في النظام الإيراني ـ يعتبر أن فضيحة «إيران جيت» والتي بموجبها تسلمت طهران أسلحة أمريكية عبر إسرائيل، هي مفخرة من مفاخر العمل الدبلوماسي: «عندما أقيم الآن قضية (مكفرلين) الشهيرة أصنفها كجزء من مفاخر العمل الدبلوماسي»(٣)، ولذلك لم يكن غريباً أن يقول محسن رضائي ـ وهو من المحافظين ـ الأمين العام لمجمع تشخيص مصلحة النظام، والقائد السابق للحرس الثوري: «إن الثورة الإيرانية قامت على أسس أخلاقية وفكرية... والمؤسف أن انفصال السياسة عن القيم كان موجوداً في كل فترة»(٤).

وعلى الوتيرة نفسها سار حزب الله الذي احتكر لنفسه الشرف والطهارة من

---

(١) انظر: هيرالد تربيون ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م، جريدة الجرائد العالمية عدد ٩٩٤.

(٢) موقع المقاومة، سيرة الخميني:
http://www.moqawama.org/_lekhosera.php?filename=20051123162741O.

(٣) روبرت مكفرلين كان مستشار الرئيس الأمريكي الجمهوري الأسبق رونالد ريجان، وزار طهران سراً عام ١٩٨٦م لبحث آفاق التعاون مع إيران أثناء الحرب مع العراق، انظر: حدائق الأحزان، ص ١٩٢.

(٤) صحيفة الجزيرة السعودية.

خلال عبارة أمينه العام الشهيرة التي يبدأ بها خطبه لأنصاره «يا أشرف الناس! يا أطهر الناس!»، وفي محاولة الانقلاب الأخيرة كان أنصار الحزب يحملون لافتات مكتوب عليها: «لسنا أوهاماً بل نحن أشرف الناس وأطهر الناس وأنقى الناس وحرّرنا بدمائنا الجنوب»[١]، وكان لفظ «النظافة» حاضراً بكثافة لوصف أموال الحزب والتبرعات الإيرانية وأموال الخمس، والحكومة التي يطالبون بها، ولكن هذا الحرص على النظافة لم يمنع أنصار الحزب من تلقِّي الدعم العربي ـ السُّني ـ بعد حرب يوليو ٢٠٠٦م.

يقول الشيخ محمد الجوزو مفتي جبل لبنان: «.. الملايين الحلال وهي من إيران، أما مال العرب فهو حرام، لكنهم يأخذونه أيضاً، وقد أخذ الشيعة المساعدات التي تأتي لإعادة إعمار لبنان، وخلطوا الحلال بالحرام»[٢].

وفي مجال المقاومة أكَّد حسن نصر الله أن المقاومة التي يمارسها الحزب هي شيء مقدس ولا تخضع لإجماع أو لغيره؛ لأن المقاومة في نظره: «تستند إلى حق سماوي وأرضي لا تحتاج إلى أذونات في انطلاقتها ولا إلى إجماع وطني، عندما نتحدث عن مقاومة هذا هدفها وهذه استراتيجيتها من الطبيعي أن نتحدث عن مقدَّس»[٣].

ولكن مع هذه القدسية فإن المقاومة فاجأت إسرائيل بعد انسحابها بمستوى عالٍ من الانضباط والهدوء «المقدّس» لم تكن تتمناه، يقول المحلل (دانيل سوبلمان): «في السنوات التي تلت الانسحاب كانت طريقة العمل التي تبناها حزب الله قد تنبَّأ بها بدقّة قسم البحوث في الاستخبارات، ولكن عدد الهجمات التي حدثت كان أقل من المتوقع بكثير»[٤].

ويأتي الرد الشيعي على دعوى النقاء الديني والثوري من داخل الطائفة

---

(١) صحيفة المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٢) حوار مع الشيخ محمد الجوزو، صحيفة روز اليوسف اليومية المصرية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦ م.

(٣) الشرق الأوسط، ١٧/ ٢/ ٢٠٠٦م.

(٤) انظر: قواعد جديدة للعبة: إسرائيل وحزب الله، دانيل سوبلمان، مركز جافي للدراسات، الدار العربية للعلوم، ص ٤٤.

اللبنانية نفسها، حيث يقول أحمد كامل الأسعد - ابن رئيس المجلس النيابي السابق كامل الأسعد وهو من شيعة الجنوب - رداً على سؤال حول المقارنة بين أداء أمل وحزب الله: «أتأسف جدّاً عندما أرى أن هذه الطائفة ممثّلة اليوم من جماعة فاسدين، أو شهود زور»(١).

٢- الثوابت المتغيرة:

أصدر نائب «صاحب الزمان» المرشد علي خامنئي فتوى بالجهاد ضد الوجود الأمريكي في الخليج، وجاء فيها: «إن الكفاح ضد العدوان والأطماع والمآرب والسياسة الأمريكية في الخليج الفارسي سيدخل في عداد الجهاد في سبيل الله»، ولكن رغم هذه الفتوى، فقد كان الموقف الرسمي للدولة برئاسة رفسنجاني متمثلاً في قول الأخير: «إن إيران لا تمانع في الاستعانة بقوات أجنبية ما دامت سترحل فور تحرير الكويت»(٢).

وكتب الخميني يؤكد مبدأ تصدير الثورة، فقال: «نهدف إلى تصدير ثورتنا إلى كل الدول الإسلامية، بل إلى كل الدول حيث يوجد مستكبرون يحكمون مستضعفين»، ولكنه كتب في سياق آخر يؤكد على رفض: «أي شكل من أشكال التدخل الخارجي في أي: شأن من شؤون الدول الأخرى»(٣).

وحالة «الانفصام الاحتكاري» هذه لم يكن حزب الله غائباً عنها في لبنان، فعدد كبير من ثوابت الحزب السياسية لا تتجاوز صلاحيتها عاماً واحداً، ولأن الحزب كان يرفع شعار «حزب فقط حزب الله»(٤)، وهذا يشمل من ضمن المعاني: أن الحزب يعطي لنفسه حق وضع الثوابت، وحق تغييرها لاحقاً.

وفي تظاهرة التأييد لسوريا عقب اغتيال رفيق الحريري فبراير عام ٢٠٠٥م، خطب حسن نصر الله في الجماهير: «من المعيب أن يتحدث أحد عن شعبه

(١) حوار مع صحيفة النهار، ١/ ٢/ ٢٠٠٤م.
(٢) صنع القرار في إيران، ص ٢٢٩.
(٣) السابق، ص ٦٣.
(٤) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٨٠.

وشركائه في الوطن بلغة الاتهام والتقزيم والإهانة... أدعو الجميع إلى تجاوز كل لغة فيها إهانة... يستطيع كل منا التعبير عن آرائه ولكن في حدود الأدب»[١]، ثم قال في حوار مع قناة (نيو تي في): «الكلام الذي.. يحمل شتائم واتهامات ومس بالمقدسات يخلق جواً سلبياً جداً، يمكن أن نكون محتاجين لميثاق شرف وكل واحد يقول الذي عنده وليعبر كل واحد بهدوء عن رأيه»[٢]. ولكنه بعد أن رسخ هذا الثابت، عاد بعد عام ليشنّ حملة اتهامات وإهانات ضد رئيس الحكومة فؤاد السنيورة، هو وأنصاره وقناة المنار، فأصبح السنيورة: فؤاد فيلتمان، وخائناً، وصارت شتيمته في برامج المنار والتظاهرات التي ترفع شعار حزب الله من الطقوس اليومية، وسنعرض قبساً من هذه الشتائم لاحقاً.

وحول كيفية التعبير عن الرأي والمعارضة، خاطب نصر الله تظاهرة أخرى قائلاً: «إن قرار الشعب في أية مسألة... يجب أن تتم معالجته من خلال الحوار ومن خلال المؤسسات الدستورية وليس من خلال الاحتكام إلى الشارع»، وقال أيضاً: «في لبنان كلنا عندنا شارع وكلنا عندنا تظاهرات، فلندع هذا جانباً ونتصرف بمسؤولية وديمقراطية»[٣]، وفي تظاهرة ساحة رياض الصلح عام ٢٠٠٥م لتأييد سوريا قبل انسحابها، قال: «لبنان ليس جورجيا وليس أوكرانيا، وليس بالحشود والأعداد والأعلام والشالات والشعارات تُبنى الأوطان»[٤].

بعد كل هذه الثوابت والمبادئ، عاد حسن نصر الله بعد حرب يوليو ٢٠٠٦م، وهو لا يرى حلاً إلا في حرب الشوارع المفتوحة والدواليب المشتعلة والاعتصامات طويلة الأجل، وحرق السيارات وإغلاق الطرقات، بل إن حزبه يغضب بشدة على من يحاول فتح الطرقات المقفلة قسراً وإرهاباً.

والطريف أن أوكرانيا التي أكد نصر الله على اختلاف لبنان عنها، كانت تتخذ من اللون البرتقالي شعاراً لثورتها الشعبية، وهو نفس اللون الذي اتخذه عون شعاراً

(١) صحيفة الوسط البحرينية، ٩/ ٣/ ٢٠٠٥م.
(٢) تاريخ الحوار ١٨/ ١/ ٢٠٠٦م، انظر: موقع المقاومة التابع لحزب الله.
(٣) صحيفة الوسط البحرينية، ٢٠/ ٢/ ٢٠٠٥م.
(٤) مجلة المجلة، مقال ديانا سكيني، ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

لتياره، ويرفعه الآن مناصرو حزب الله ضمن شعاراتهم «الأوكرانية».

وكان قادة الحزب يدعون المعارضة قبل الانسحاب السوري إلى تجنب المعارضة «الانقلابية» تحديداً، وقال نعيم قاسم نائب حسن نصر الله: «المعارضة بتعني معارضة أداء، معارضة فساد، معارضة نظام... المعارضة عم تأخذ منحى انقلابياً إذا صح التعبير، يعني فيه تغيير جذري بالوضع السياسي بدها إياه»(١)، ويقول قاسم أيضاً في حوار لاحق: «نحنا إذا بدنا نلجأ للمجموعات ونعمل استفتاء رح نضيّع البلد، نحنا منعتبر أنّو فيه قنوات طبيعية اسمها الدولة، نحنا لنا علاقة مع الدولة، يلّي عنده وجهة نظر يبينها بالقنوات الصحيحة»(٢).

وكان الحزب ينادي باتباع الطرق الدستورية في تغيير الرؤساء اللبنانيين، في مواجهة مطلب استقالة الرئيس إميل لحود، يقول قاسم: «نحنا متمسكين بأنه أي: إقالة أو دفع باتجاه الاستقالة يجب أن تتم عبر الطرق الدستورية، إذا الطرق الدستورية ما بتساعد فهو رئيس موجود، بعدين شو إشكالهم إنهم بدهم يشيلوا هالرئيس؟»(٣)، ولكن مع فؤاد السنيورة لم يكن هناك طريق غير الشارع والإضراب، ولم يجرب الحزب اللجوء إلى مجلس النواب الذي انتخب الحكومة؛ لكي يصوت على إقالتها.

وبخصوص التفاوض مع إسرائيل، كان للحزب موقف قطعي ـ ظاهرياً ـ رافض لكل أنواعه، وجاء في بيان أصدره الحزب عام ١٩٨٤م رداً على مفاوضات السلام بين لبنان وإسرائيل: «لا للتفاوض مع العدو اليهودي بأي شكل من الأشكال، سراً أو علناً، مباشرة أو غير مباشرة، مدنياً أو عسكرياً، ضمن اتفاق الهدنة أو خارج إطارها»(٤)، ولكن الحزب قَبِلَ التفاوض مع إسرائيل بصورة غير مباشرة عن طريق وسطاء ألمان لإتمام صفقة تبادل الأسرى عام ٢٠٠٤م، والغريب أن الحزب وأنصاره اعتبروا أن عملية التفاوض هي بمثابة اعتراف رسمي من إسرائيل بشرعية المقاومة،

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م، العربية نت.
(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م، العربية نت.
(٣) قناة العربية، برنامج (بالعربي)، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.
(٤) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٨٥.

فما الذي يمنع أن يعمل المفهوم نفسه في الاتجاه الآخر، أي: أن تكون عملية التفاوض اعترافاً بإسرائيل من قبل الحزب، يقول الرئيس اللبناني إميل لحود - الموالي لحزب الله وسوريا -: «تحرير الأسرى والمعتقلين عبر التفاوض بهذه الطريقة يشكل اعترافاً صريحاً من قِبَل إسرائيل بأن المقاومة شرعية ووطنية»(١).

ويعتبر موسم الصيف بمثابة مصدر دخل مستقل للاقتصاد اللبناني، وقد سبق لحزب الله أن قدَّم وعوداً أكيدة بعدم التسبب في فساد الموسم، وأنه متنبه جيداً لمكائد إسرائيل في هذا السياق، وصرَّح محمد رعد رئيس كتلة الحزب البرلمانية: «المقاومة واعية لمكائد إسرائيل ولما يمكن أن يحدث للمجتمع اللبناني والوضع الاقتصادي، دعونا نفترض أننا في موسم الصيف حيث يتدفق السياح إلى لبنان فهل ستتابع المقاومة نشاطها لتدمر هذا؟ إن المقاومة سوف تتصرف بما يليق والظروف الحاضرة ولن تكون مسؤولة عن تدمير موسم إجازة الصيف»(٢)، كان هذا في موسم العام ٢٠٠١م، ولكن في العام ٢٠٠٦م تغيرت الثوابت وأصبحت التضحية بالموسم من لوازم تفجير الأوضاع الداخلية وفاء لوعد بشار الأسد بتكسير لبنان إن هو أُجبر على مغادرتها(٣).

٣ - التناقضات:

توارث التقيّة وتراكم ثقافتها أدّى إلى تداخلات وتعقدات في الخطاب الشيعي السياسي، ويصعب على الإنسان العادي أن يتذكر ابتكاراته واختراعاته الكلامية مع تباعد الزمن، حيث يتسع الخرق على الراقع بعد فترة، فيفقد بوصلة المواقف والآراء التي أصدرها سابقاً، فيكون الوقوع في التناقض حتمياً.

وليس بجديد أن نكتشف دوماً تعدداً في الآراء وتضاداً في المواقف الإيرانية، ولذلك يصعب تحديد ما تريده طهران من أي: قضية بوضوح، فدوماً يكون هناك الرأي ونقيضه «وأصبح من الصعب القول ما إذا كانت ثورة الخميني غربية الاتجاه انطلاقاً من رفضها للشيوعية، أم يسارية الاتجاه انطلاقاً من معاداتها للمصالح الغربية، وبينما

---

(١) صحيفة الخليج الإماراتية، ١/ ٢/ ٢٠٠٤م، نقلاً عن كتاب هكذا تكلم نصر الله، ص ٢٨٢.

(٢) قواعد جديدة للعبة، ص ١٣٤.

(٣) فارس خشان، الوطن السعودية، ٣٠/ ١١/ ١٤٢٧هـ.

يقول رفسنجاني: إن الخميني أوصاه قبل موته بتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، يقول آخرون: إن الخميني لعن في وصيته الشرق والغرب معاً»(١).

وتقريباً لم يسلم من هذا التناقض شخص أو مبدأ في إيران، وحتى نظرية ولاية الفقيه ولدت في رحم التناقض، يقول د. مصطفى اللباد: «وجود ولاية الفقيه يستلزم عدمها في آنٍ، بمعنى: أنه إذا كانت ولاية الفقيه قائمة فإنها تكون غير موجودة في الواقع، ومردُّ ذلك أن الشعب في جمهورية إيران الإسلامية ينتخب الولي الفقيه، عبر انتخاب الأعضاء في مجلس الخبراء الذين ينتخبون بدورهم الولي الفقيه، ولو كان الشعب ينتخب وله إرادة ورأي فهو ليس محجوراً عليه حسب المنطق الداخلي للنظرية ولا يحتاج إذن إلى ولي، ومن ناحية أخرى إذا كان الفقيه هو ولي الشعب بالفعل حسب مبنى ومعنى النظرية فليس للشعب الحق في الانتخاب وامتلاك إرادة بل فقط الحق في إطاعة الفقيه ولي الأمر الذي يمتلك صلاحيات الأئمة المعصومين»(٢).

وعلى صعيد حزب الله اللبناني فإن التناقضات أمر حتمي لا يمكنه الفكاك منها، ويمكن من خلال متابعة وتحليل خطاب قادة الحزب أن نكتشف تركيزهم على نطاق زمني قصير في الخطاب، وهم دائماً يحاولون تجنب نبش الماضي في الإجمال، وإن فعلوا يكون ذلك مضمراً مجملاً؛ لأنهم يعرفون أن فتح الملفات القديمة سيكشف عورات كثيرة، وتناقضات جسيمة.

ويندرج الموقف من اتفاق الطائف ضمن هذا الإطار، فللحزب مواقف متعددة من الاتفاق، فأولاً كان موقفه الرفض بقوة واستنكر الاتفاق بمجرد صدوره، وكانت حجته أن الاتفاق يمثل «قوى الاستكبار»، وتمت كتابته بواسطة «الدول الرجعية»، ويقصد بالرجعية طبعاً: «السعودية» التي يعتبرها عدوه السُّني الأول، وقال الحزب في بيان له: إن الاتفاق ناقص وأنه أبقى الامتيازات الطائفية، ونشر كتيباً مفصلاً يفنّد مضمون الاتفاق بصورة تامة(٣).

---

(١) إيران بين التاج والعمامة، ص ١١.

(٢) انظر: حدائق الأحزان، ص ٣١١.

(٣) انظر: الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٤٦ـ٣٤٧.

ولكن الحزب غيَّر موقفه بعد مساومات نتج عنها احتفاظه بسلاحه «الطائفي» تحت عنوان «المقاومة»، وعاش الحزب فترة سلام مع الاتفاق، وكان نصر الله يقول: «كلنا في لبنان تحت سقف الطائف»(١).

ولكن مع تداعيات الانسحاب السوري عاد حسن نصر الله يتململ من الاتفاق، ويقول: «اتفاق الطائف قبلنا به مع التحفظات»(٢)، ويبقى أن الموقف الأصلي للحزب من الاتفاق هو الرفض: «إيران وبتكليف صادر عن مرجعية علي خامنئي قررت محاربة اتفاق الطائف واستبداله بخيار (حزب الله) وهذا ما سبق وكشف عنه الشيخ حسن نصر الله بالذات في خطاب مدون ومحفوظ له في الخامس من نوفمبر ١٩٨٩»(٣).

والحال نفسه بالنسبة لتقويم وضعية الجيش اللبناني، فأثناء الوجود السوري في لبنان كان الحزب يعتبر أن الجيش موجود فعلاً في الجنوب ويقوم بدوره، وقال حسن نصر الله صراحة: «هم بيعرفوا إنه الجيش موجود في الجنوب وعلى مقربة من الحدود اللبنانية، وعلى مقربة من الشريط الشائك أيضاً»، ثم لكي يقطع الشك باليقين، قال: «أنا أدعو بعض هذه الأوساط اللبنانية إلى الذهاب إلى الجنوب وزيارة الجنوب والتأكد من وجود الجيش اللبناني في الجنوب وعلى مقربة من الشريط الشائك»(٤).

وفي المقابل عندما أصبح وضع السوريين حرجاً في لبنان وأُرغموا على الانسحاب، تغيَّر الأمر، وقال نعيم قاسم: «يلي بده يطلّع الجيش اللبناني على الجنوب ويلغي المقاومة مهو عنده مشروع، مش قصة قرار دولي»(٥)، وقال حسن نصر الله متجاهلاً تصريحاته السابقة عن وجود الجيش في الجنوب: «أن تضع جيشاً

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، حوار مع نعيم قاسم، ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م، العربية نت.
(٢) حوار مع حسن نصر الله، برنامج (لقاء خاص) قناة الجزيرة، تقديم: غسان بن جدو القريب إلى حزب الله والمتزوج من امرأة لبنانية شيعية، ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٣) فارس خشان، صحيفة الوطن السعودية، ٣٠/ ١١/ ١٤٢٧هـ.
(٤) حوار مع نصر الله، برنامج (لقاء خاص)، قناة الجزيرة، تقديم: غسان بن جدو، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣م.
(٥) برنامج (بالعربي)، فضائية العربية، ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م، العربية نت.

نظامياً على الحدود الدولية مباشرة في مواجهة عدو قد يعتدي في أي: لحظة من اللحظات، هو أنت تضع هذا الجيش في فم التنين أو كما يقولون عندنا بالعامية في بوز المدفع»(١) إذاً؛ الجيش اللبناني لم يكن في «بوز المدفع» كما أكد زعيم حزب الله من قبل!

ويحلو للحزب أن يقدم تفسيرات متناقضة للحالة نفسها الحالة في زمنين مختلفين، مثل: إطلاق الرصاص في التظاهرات، ففي العام ٢٠٠٤م ومع تزايد سخونة المواجهات السياسية بين الموالاة والمعارضة، خرجت عدة تظاهرات ووقعت أكثر من حالة لإطلاق نار من قِبَل فريق الموالاة لسوريا، وهو ما اعتبره نعيم قاسم أمراً عادياً ودليلاً على متانة الوضع الداخلي، فقال: «يعني هذا أمر عادي يمكن أن يحصل، بالعكس أعتبر أن كل ما حصل من تظاهر واجتماع في البلد وأنشطة مختلفة ولم يحصل شيء كل هذه الفترة، هذا دليل على متانة الوضع الداخلي»(٢)، ولكن عندما قاد حزب الله تظاهرات المعارضة في نهاية عام ٢٠٠٦م، كان حادث واحد لإطلاق نار في موقف استفزازي نتج عنه مقتل شخص واحد، دلالة على طغيان الطغمة الحاكمة، وفلتان الأمن وبدء حمام الدماء وتساقط الشهداء... إلخ.

ومن نماذج التناقض الواضحة، ما سبقت الإشارة إليه حول إعلان نصر الله أن حزبه لم يكن يتوقع الرد الإسرائيلي على عملية اختطاف الجنديين، رغم أنه كان يفتخر بقدرته على قراءة التفكير الإسرائيلي بدقّة، يقول: «عندما أقرأ هآرتس صباحاً، أستطيع أن أعرف إذا كانت إسرائيل جادة في نواياها تجاهنا أو أن الأمر يتعلق بتهديدات فارغة»(٣)، فهل إنه لم يقرأ هآرتس قبل عملية الاختطاف ولذلك تورّط فيها؟!

ويعلّق أحد المحللين السياسيين على هذه الحالة قائلاً: «نصر الله فُوجئ بردّة الفعل الإسرائيلية، كذلك حسب كلامه فُوجئ بردّة فعل بعض البلدان العربية،

(١) برنامج (العين الثالثة)، قناة العربية، ٣/ ١١/ ٢٠٠٦م، العربية نت.
(٢) قناة العربية، برنامج (بالعربي)، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م، العربية نت.
(٣) شيلح، يديعوت أحرونوت، مقال: لغز نصر الله، منقول من موقع المقاومة الإسلامية، تاريخ المقال بعد الانسحاب عام ٢٠٠٠م بأسبوعين.

وفُوجئ أيضاً بردّة فعل الشارع، إذا كان نصر الله قد فُوجئ بكل هذا، ألا يعني هذا أن حساباته كانت خاطئة»[١].

ومنها أيضاً موقف الحزب من عدم مشاركة الأغلبية النيابية المسيحية في الحكومة، والتي يمثلها ميشيل عون، فهو يعتبر أن ذلك طعن في دستورية الحكومة ويجب تعديله، مع أن تيار عون هو الذي امتنع بإرادته عن المشاركة، وفي المقابل كان حزب الله في العهد السوري لا يرى بأساً في امتناع الأغلبية المسيحية عن المشاركة ـ وكان عون أيضاً من بينهم ـ ولم يوافق أبداً على أن ذلك يطعن في دستورية الحكومة وقتها[٢].

٤ ـ الغموض المتعمد:

من السِّمَات المترسّبة عن ثقافة التقيّة في العقل الشيعي، أن يشعر الناس دوماً بغموض موقفه، بحيث لا يفهم ماذا يريد أو ماذا يؤيد تحديداً، وعلى سبيل المثال: فإن قضية التدخل في شؤون الدول الأخرى باسم تصدير الثورة أو مساعدة حركات التحرر، تثير مشكلات كبيرة لإيران، فلنتأمل كيف حاول رفسنجاني أن يحل هذه الإشكالية، يقول: «إن دعم الحركات التحررية دون التدخل في الشؤون الداخلية للدول يبدو مشكلة، ولكن الفاصل بين الأمرين يبدو دقيقاً جداً، إننا نحاول أن لا نتدخل، إننا ندعم الفلسطينيين، فأيُّ تدخل لنا في إسرائيل؟ وندعم الأفغان المسلمين ـ يقصد: الشيعة الأفغان ـ فأيُّ تدخل لنا هناك؟ إننا لا نقوم بالعمل بأنفسنا، إننا لا نقوم بعمل فيزيقي داخل هذه الدول إلى الحد الذي يحسب تدخلاً، ونقوم بالدعم، وهذه المسألة تنطبق على جميع الدول، وإن كل دولة تدعم نوعاً من الأحداث آخر الأمر، وليس معنى هذا الدعم تدخلاً بالضرورة»[٣].

وعندما أراد الخميني أن يستفتي الشعب على الدستور الذي وضعه لإقامة «جمهورية إسلامية» أتى الاستفتاء مختصراً غامضاً لا يعطي مجالاً للاختيار

---

(١) مأمون فندي، الشرق الأوسط، ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٢) انظر: وجيه كوثراني، صحيفة النهار، ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٣) صنع القرار في إيران، ص ٦٤.

أو التفكير، وكان مضمونه: هل توافق على إقامة جمهورية إسلامية؟![١].

وقد تعلّم حسن نصر الله من مدرسته الخمينية أن يبقى غامضاً قدرَ الإمكان، وبعد الانسحاب الإسرائيلي من لبنان كان السياسيون والمراقبون يريدون أن يعرفوا: وماذا بعد؟: «سئل نصر الله عشرات المرات عن مسألة: اليوم الذي يلي، نصر الله حافظ على ضبابية هذا الموضوع على رغم الضغوط الكثيرة وكذلك الإغراءات.. اقترح عليه سفير اليابان في بيروت هبة ضخمة لمؤسسات حزب الله إذا أعلن عن نيته حول ما سيقوم به»[٢].

وفيما يتعلق بقضية نزع سلاح الحزب، فقد تحولت هذه القضية إلى ما يشبه الأحجية، وفي أحد حواراته الكثيرة مع قناة الجزيرة، قال نصر الله رداً على سؤال حول هذه القضية: «فلنترك هذا الأمر للمستقبل... أظن هذا أقوى لسوريا ولبنان ولنا أيضاً، دعنا في هذه الليلة لا نكشف كل الأوراق»[٣].

ويعتبر بعض المراقبين لأداء حزب الله أن الحزب يفضل طرح إجابات غامضة في القضايا التي يخشى فيها من الجهر بموقفه صراحة، أو أن الإجابة التفصيلية سوف تكشف تباينات حادة بين الخطاب والأيديولوجية، يقول د. مسعود إلهي: «قادة الحزب لم يقدموا حتى الآن تعريفاً دقيقاً للنظام غير الطائفي الذي يريدونه، ولم يوضحوا شكل النظام الذي يطالبون بإحلاله مكان النظام السياسي الحالي، ويرى الدكتور نزار حمزة أن سبب هذا الإبهام والبعد عن الشفافية في هذا الموضوع هو أن: التعريف الكامل للنظام غير الطائفي معناه رفض نظرية ولاية الفقيه، وبناء على ذلك؛ فإن الإبهام وعدم الصراحة أتاحا لحزب الله أن يتعاون مع الآخرين»[٤].

---

(١) انظر: حدائق الأحزان، ص ١٥٧.

(٢) عوفر شيلح، يديعوت أحرونوت، مقال: لغز نصر الله، منقول من موقع المقاومة الإسلامية، تاريخ المقال بعد الانسحاب عام ٢٠٠٠م بأسبوعين.

(٣) برنامج (لقاء خاص)، قناة الجزيرة، تقديم: غسان بن جدو، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣م، الجزيرة نت.

(٤) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٧١-٣٧٢.

٥- اللعب على التناقضات:

التناقض المترسب عن التقيّة صار مكوناً رئيساً للمجتمعات الشيعية السياسية، ولأنه قديم قدم الطائفة، كان لا بد من تصميم استراتيجية للتغلب عليه، أو بمعنى أدق: التعامل معه، وقد نجحوا بالفعل في ذلك وتمكنوا من اللعب على تناقضاتهم وتحويلها في بعض الأحيان إلى ورقة قوة يلعبون بها على من لا يدرك حقيقة ثقافاتهم، ومكوناتهم النفسية والعقلية.

ويقدم الانقسام السياسي الشديد في تركيبة النظام الإيراني نموذجاً للتناقضات السياسية، ولكن أسلوب الولي الفقيه - الخميني ثم خامنئي - في التعامل مع التيارات السياسية يقدم نموذجاً قوياً للعب على هذه التناقضات واستغلالها لصالحه، ولعل من الأمثلة على ذلك موقف الخميني من انشقاق تيار علماء «روحانيين» على تيار علماء «روحانيات» رغم أن الأول إصلاحي والأخير محافظ، ولكن الخميني وصفهما أنهما «جناحا طير واحد»(١)، وهو أسلوب خامنئي نفسه في التعامل مع الإصلاحيين والمحافظين، فمحمد خاتمي رغم كونه من الإصلاحيين إلا أن خامنئي يحرص على تقريبه واختياره ضمن مستشاريه، وزيارة خاتمي الأخيرة إلى الولايات المتحدة لم تتم إلا برضا المرشد، وحتى رئاسة خاتمي الإصلاحية كانت مرحلة هدنة لتخفيف الاحتقان الدولي تجاه إيران، يقول المحلل الإيراني علي زاده: «كان المرشد والمحافظون يشعرون دائماً بأهمية دور خاتمي في إبعاد التهديدات والمخاطر التي استهدفتهم، فلهذا تركوا ساحة العلاقات الخارجية لخاتمي»(٢) ولما تراجعت التهديدات قليلاً إلى مستوى مقبول، جاء الرجل الثوري أحمدي نجاد.

وحتى نجاد - الذي يتراجع مستوى القبول به رئيساً لدى أغلب الأوساط الإيرانية - فهو ورقة ستُترك حتى تحترق أو تحقق إنجازات ملموسة، فإذا أخفق ربما يُستدعى تالياً أحد الإصلاحيين لِلَمْلمة الأوضاع وامتصاص الصدمات، وتكون

---

(١) صنع القرار في إيران، ص ١٨٢.

(٢) الشرق الأوسط، ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٤م.

مهمة نجاد نجاحه في تمرير الملف النووي إلى أقصى مسافة ممكنة، ثم يتم تنصيبه كبش فداء على الطريقة الإيرانية.

وفي حزب الله عندما تمت تنحية الأمين العام الأسبق صبحي الطفيلي بعد اتفاق الطائف، وتحدث البعض عن وجود تيارات متناقضة داخل الحزب، تم توظيف ذلك لأجل إثبات أن القادة الحاليين للحزب يمثلون التيار المعتدل وأن الطفيلي يمثل التيار المتشدد[١]، وقد انتصر الاعتدال في النهاية مؤذناً بمرحلة جديدة، وهكذا تم توظيف الانقسام الداخلي إلى وسيلة لإعادة «غسيل» الحزب في الداخل اللبناني.

ومن الطريف هنا أن حزب الله لم يفته اللعب على التناقضات داخل إيران نفسها، يقول د. مسعود إلهي: «الانقسام الذي يعاني منه الإيرانيون ترك له مجالاً معتبراً للمناورة»[٢].

ولا يضير الحزب أن يتنقل بين التيارات المتصارعة طالما أنه في النهاية يلتزم بولاية الفقيه، وما سكت عنه المرشد فهو مما لا ضيرَ في الاجتهاد فيه.

٦ـ البرجماتية ـ الثورية النائمة:

تعرضت إيران في وقت واحد تقريباً ـ نهاية الثمانينيات ـ إلى عدة ضربات متلاحقة داخلياً وخارجياً، فقد أعلنت هزيمتها من العراق، ومات الخميني، وتم تعيين خامنئي مرشداً على جرف هار، وكانت الثورة قد أكلت أغلب أبنائها «المخلصين»؛ سواء بتصفيتهم، أو بإبعادهم، أو بموتهم في الحرب، لذا كان لا بد من الانتقال من مرحلة الثورة إلى مرحلة «السياسة البرجماتية» التي تتنازل قليلاً عن ثوابت الثورة والولاية من أجل تجاوز الأزمة والتكيف مع الظروف الدولية، وقد مرَّ بنا قول حسين الله كرم ـ أحد زعماء حزب الله الإيراني ـ أن الولي الفقيه يمكنه أن يغير بعض قواعد الإسلام من أجل المحافظة عليه ـ أي: الإسلام وليس الولي ـ.

---

(١) انظر: الإسلاميون في مجتمع تعددي ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠، والمؤلف ممن يحاولون ترويج هذه الصورة عن القادة الجدد المعتدلين لحزب الله.

(٢) السابق، ص ٣١٨.

وقد كان بالفعل، وتم تعيين رفسنجاني الذي كان مناسباً لمرحلة «تنويم الثورة»، وهو مصطلح لا يعني بالضرورة: توقيف الأعمال الثورية وتصدير الثورة إلى الخارج، ولكنه يعني في جزء كبير منه: تخفيف الشعارات، وتحويل المعلن إلى سرّي، والسرّي إلى سرّي للغاية.

وحاول رفسنجاني أن يجمع بين الثورة والسياسة البرجماتية، فدشّن لمرحلة «إعادة الإعمار» وقال: «يجب أن تحافظ إيران على مثالياتها، لكنها كذلك يجب أن تستجيب لحاجات الشعب»(١) ودائماً نلاحظ حضور الشعب - نظرياً - في خطاب النخبة السياسية الشيعية عندما يراد الانتقال إلى مرحلة مثيرة للجدل.

ومع قرب انتهاء رئاسة خاتمي كانت الثورة تتململ في مخبئها أو سردابها، فقد آنَ لها الظهور بعد غيبة، وكان المحافظون على انتظار لها، وتمثلت المرحلة الثورية الجديدة في شخص أحمدي نجاد الذي بلغ من تفاعل أنصار الثورة له أن ألّفت زوجة مدير مكتب رئاسة الجمهورية - وتدعى: فاطمة رجبي - كتاباً يمتدح نجاد، وعنوان الكتاب «أحمدي نجاد، معجزة الألفية الثالثة»، و (رجبي) هذه تعمل كمحررة في صحيفة «يالثارات الحسين!» التي تمثل تيار حزب الله الإيراني(٢).

وفي زيارة وفاء قام بها نجاد إلى قبر معلمه الخميني، قال بعبارات ثورية عند المرقد: «إن هويتنا وكرامة شعبنا والصحوة العالمية اليوم وكل ما يُشاهَد من الحركات الحرة لدى شعوب العالم رهن بجهاد الإمام الخميني (رض) المبارك»، وأكد نجاد في عبارات واضحة على ضرورة تلمس مسيرة الثورة: «يجب أن لا نضيّع الطريق، وعلينا أن ننتبه إلى العلامات في مسيرنا، فإن لم ننتبه إلى العلامات سنجد أنفسنا بعد مدة من الزمن قد ابتعدنا عن الطريق الأصلي»(٣)، وقد أثلجت - أو أججت - رئاسة نجاد أحلام الرفاق القديمة، فصرّح «آية الله» مصباح يزدي مرجع نجاد: «هذه هي المرة الأولى التي تكون لدينا فيها حكومة إسلامية»، وقال قائد

(١) صنع القرار في إيران، ص ٢٠١.
(٢) صحيفة الجزيرة السعودية، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٣) موقع الوفاق الشيعي، ٣١/ ٨/ ٢٠٠٦م.

ميليشيات «الباسيج»[١]: «الوزارة الجديدة ستغير كل شيء في إيران»، وصرَّح نائب قائد الحرس الثوري موضحاً مسار الفترة القادمة: «بعد الانتخابات الرئاسية لدينا ثلاث مهمات: الأولى أننا نريد أن نشكل وزارة إسلامية، ثم سنغير المجتمع الإيراني إلى بلد إسلامي، وأخيراً سنغير العالم إلى عالم إسلامي»[٢].

وكان حزب الله وفياً في تتبُّع طريق الثورة فوق الأرض وتحت الأرض، فعندما تقرر «تنويم الثورة» التزم الحزب فورياً، وتم تخفيف الشعارات واللافتات، وحتى عَلَم الحزب كتب عليه «المقاومة الإسلامية» بدلاً من «الجمهورية الإسلامية»، وأطلق نصر الله عباراته الموهمة المعتادة في «أرجحة» المواقف لكي تحتمل عدة تفسيرات، فقال عن مطلب الجمهورية الإسلامية في لبنان: «من حق المسيحيين وغير المسيحيين أن يخافوا؛ لأن هنالك مسلمين أيضاً قد لا يوافقون على إقامة دولة إسلامية في لبنان... نحن نرفض استعمال القوة لإقامة دولة إسلامية؛ لأنه بطبيعة إقامة الدولة الإسلامية فإن هدفها تحقيق العدالة... سوى ذلك لا يمكن إقامة الدولة الإسلامية»[٣].

وفي السنوات الأخيرة بدأت ملامح خجولة للعودة إلى المرحلة الثورية، على الأقل من الناحية السياسية، فقد صرَّح نعيم قاسم بما يوحي بأن تغييرات الحزب كانت تكتيكية وليست أيديولوجية، فقال: «لقد حدثت أشياء عديدة منذ عام ١٩٨٥م ولغاية اليوم، إن مبادئنا الأساسية تبقى ذاتها حيث إنها جوهر حركتنا، ولكن التغيير كان على جوانب أخرى بسبب تطور الظروف المحيطة بنا»[٤]، ويقول الصحفي اللبناني حازم صاغية: «من يزر الضاحية الجنوبية اليوم يأخذه ذاك الشبه بينها وبين حزبها، حزب الله، ففي كل مكان تنتشر صور الخميني وخامنئي والأمينين العامين السابق والحالي؛ عباس الموسوي وحسن نصر الله، وأغلب الوجوه

---

(١) وهي ميليشيا تعمل تحت رعاية الحرس الثوري، وعناصرها أقل ثقافة وتدريباً، وكانت تمثل وقود الحرب مع العراق حيث ينضم إليها الأفراد عن طريق التطوع.

(٢) الشرق الأوسط، ١٨/ ٥/ ٢٠٠٥م.

(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٧٠.

(٤) حوار مع صحيفة ديلي ستار، لبنان، ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٢م.

عابس كالح فكأن أصحابها يعلنون استياءهم من رائحة كريهة تُفسد الهواء الساري»[١].

وفي حوار مع صحيفة «رسالة الحسين» التابعة لحزب الله الإيراني، قال حسن نصر الله نافضاً الغبار عن الثورية التي نامت قبل سنوات: «إنْ رغبة حزب الله هي إقامة جمهورية إسلامية يوماً ما؛ لأن حزب الله يعتقد أن إقامة حكومة إسلامية هي الطريق الوحيد لتحقيق الاستقرار للمجتمع، وهي الطريق الوحيد لتسوية الخلافات الاجتماعية، حتى في مجتمع متكوّن من أقليات متعددة»[٢].

وهنا أمر جدير بالاعتبار، وهو أنه قد يصعب على البعض تخيّل التحولات الجذرية التي يمكن أن يقوم بها الشيعة الصفويون في تنقلهم ما بين السكون والثورة، فنذكر هنا إفادة للدكتور محمود دغيم ـ المؤرخ السوري المعروف والمقيم في لندن ـ يقول: كان لنا أصحاب في لندن يقولون: إنهم علمانيون وينشطون في اتجاهات يسارية أو شيوعية وغيرها، وبعد سقوط العراق فوجئنا بهم يقولون: قال المرجع وذكر المرجع.. كانوا يتبعون التقيّة، وبمثابة خلايا نائمة»[٣].

ومن الأمور التي يصعب على هؤلاء استيعابها: كيف أن حزب الله يمكن أن ينقلب عدواً للسُّنة في لبنان أو يريق دماءهم على مذبح ولاية الفقيه في يوم من الأيام؟ وأولاً حزب الله لم يتورع عن دماء السُّنة في تاريخه القديم، ولم يتورع عن دماء إخوانه من الشيعة فأراق دماء الآلاف منهم، ومن يرقْ دماء طائفته لن يتورع عن دماء طائفة أخرى، كما أن المرحلية عند الخمينيين لها دور محوري، وهو يشبه دور «الجزار» تحديداً، فهو أشد ما يكون حنواً على الشاة عندما يريد لبنها، وأشد ما يكون قسوة عندما يبتغي لحمها، وحزب الله الآن ما بين اللبن واللحم يتجهز لمرحلته القادمة.

فهل يقتنع المروجون والمصدقون خدعة «لبننة» حزب الله أن الأمر لا يعدو المراوحة بين مرحلتين: الثورية النائمة، والثورية المتحركة، أولئك الذين روّجوا

---

(١) صحيفة الحياة، مقال: فصول من قصة حزب الله ح ٣، ٦/ ١/ ٢٠٠٥م.

(٢) مجلة الشراع، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م، ونصر الله يتحدث عن دولة إسلامية على نمط ولاية الفقيه تتأسس على دماء السُّنة تقرباً إلى المهدي؛ لئلا ينخدع بكلامه الطيبون.

(٣) قناة المستقلة، ١٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ.

لـ« لبننة» حزب الله ـ بمعنى: تصالحُه مع المؤسّسات والأعراف السياسيّة اللبنانيّة ـ «بات يُستحسن بهم أن يراجعوا ما روّجوا له، ذاك أن السيّد نصر الله ذهب بعيداً في الصراحة والمكاشفة حين تحدّث عن ثقافة قليلة التحمّل.. فإمّا أن يتم الإقرار بكيفيّتين ثقافيّتين، أو أن يتمّ ـ في أكثر الحالات تسامحاً ـ الاستقرار عند نقطة وسطى بين والنقد واللا نقد»(١).

وأكثر من يروجون لهذه المقولة ـ اللبننة ـ اختُرقوا ذهنياً من موافقة الحزب على ممارسة العمل السياسي، وهذا في حقيقة الأمر انسياق وراء منهجيات التحليل الغربية التي تحلل وتنظر لعملية الانتقال من الثورة إلى الدولة، والتي تعتبر أن الحزب الثوري عندما يمارس العمل السياسي تتآكل أجزاء من ثوابته الأيديولوجية مع الوقت.

وتلك التحليلات يتجاهل المتعلق منها بالحركات الشيعية المداخلَ العقدية والتاريخية، وهي مداخل لا يمكن الاستغناء عنها عند التعامل مع الثقافة الشيعية السياسية، فلا يمكن تجاوز عقائد التقيّة والانتظار والغيبة، المؤثرة إلى حدٍّ كبير في الأداء الشيعي السياسي، والتي تجعل عمليات التحول والانتقال بين مراحل متناقضة عملاً تتطلبه الضرورة، وتقتضيه الأحداث، مع فارق بالغ الأهمية بالنسبة للحركات الشيعية، وهو أن: تحولاتهم عادة ما تكون في الاتجاهين، ولا تسير أبداً في اتجاه واحد.

ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من التحليلات الغربية هي من قبيل المواد «المدفوعة مقدّماً» وتحت تأثير الدعم السوري أو الإيراني، وكان من أبرز الصحفيين الذين تروج مقولاتهم ـ الحانية ـ على حزب الله (فرانسواز شيبو) وكانت مراسلة لصحيفة (لوموند) الفرنسية في الشرق الأدنى في التسعينيات، وكانت معروفة بأنها تنقل حرفياً المواقف السورية الرسمية، ولذلك كتبت تقول: «إن حزب الله الموالي لإيران صار حزباً لبنانياً حقيقة وفعلاً»(٢).

---

(١) حازم صاغية، صحيفة الحياة، ١٠/ ٦/ ٢٠٠٦م.

(٢) دولة حزب الله، ص ٣٧٧.

والغريب أن بعض الباحثين كان يتحدث عن «اللبننة» بمعنى آخر مناقض تماماً، ولكنه هدف لحزب الله أيضاً! يقول د.وضاح شرارة: «اللبننة - أي: تعليق الدولة المركزية ومؤسساتها وسلطاتها، وإتاحة الفرصة للجماعات السياسية والمسلحة الأهلية أن تتحكم في معاقل لا قوام لها إلا بسند خارجي - هذه اللبننة هي بغية الحركات السياسية الخمينية، وهي زبدة التجربة الإسلامية بإيران»(١)، ونحن نوافق بالفعل على أن حزب الله قد «تلبنن» وفق التعريف الأخير.

وتمارس إيران - في سياق مراوحتها بين البرجماتية والثورية - نمطاً من المزاوجة يمكن أن نسميه «الثورية النفعية»، وهذا النمط يجعلها تحفز مسلكاً ثورياً في بلد بينما تحفز عكسه في بلد آخر، وفي النطاق الشيعي بالطبع، مثال ذلك: موقفها من «مأسسة» الأحزاب الشيعية، فهي كانت تسعى إلى جعل المجلس الشيعي الأعلى في العراق برئاسة باقر الحكيم بمثابة الحاضن لجميع الأحزاب والحركات الدينية الشيعية، ولكن المجلس أخفق في تحقيق هذا الهدف(٢)، وفي الوقت نفسه كانت تحارب في لبنان المجلس الشيعي الأعلى برئاسة محمد مهدي شمس الدين؛ لأنه كان من تراث موسى الصدر، ولم يكن يسير على خطها، وكان قادة حزب الله يطلقون عليه في الثمانينيات «المجلس الماروني»(٣).

٧- الانقلاب على الحلفاء والأصدقاء:

في مجال التعامل مع الحلفاء أو الفرقاء، فإن الثقافة الشيعية الخمينية تفرق بين مرحلتين، الأولى: مرحلة ما قبل الأزمة أو الثورة أو الانتفاضة أو غير ذلك، والثانية: مرحلة ما بعد الأزمة أو الثورة أو الانتفاضة، ولكل مرحلة منهج خاص في التعامل مع الحلفاء، وعادة ما ينزع الشيعة الخمينيون في مرحلة «ما قبل» إلى توسيع نطاق التحالفات، وتخفيف حدة الخلافات والصراعات إلا في مواجهة العدو الرئيس، ولكن في مرحلة «ما بعد» تنقلب الأمور، وتبدأ مرحلة الاستئثار بالكعكة، وتنقية

---

(١) دولة حزب الله، ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) الطائفية والسياسة، ص ٤١٧.

(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٨٩.

الصف وتطهير الثورة أو النصر، وقد تتفاوت حدة التطهير من الخصومة السياسية لتصل أحياناً إلى التصفية الجسدية.

وقد كانت مرحلة ما قبل ثورة الخميني واسعة المجال في التعامل والتحالف مع الجميع، بدءاً بالشيوعيين ممثلين في حزب توده، وانتهاء بتيار الصدر الذي سبق الحديث عنه، ولكن عندما تحقق للخميني هدفه، تغيّر الحال وتحول الرفاق إلى أعداء، وبدأت مرحلة التطهير التي أشرنا إلى أطراف منها في فقرات سابقة.

وأول من انقلب عليه مرشد الثورة هو نظام البعث العراقي، الذي كان بمثابة الحليف والصديق للخميني، فبخلاف سماحه له بالعيش في النجف، قدَّم صدام حسين للخميني دعماً مادياً ومعنوياً ما يقرب من سبع سنوات منذ استيلائه على الحكم في العراق مطلع السبعينيات، وأصدر له صحيفة «١٥ خرداد» التي خصصها الخميني للهجوم على الشاه، وسمح له بتحويل النجف إلى بؤرة للالتقاء والتعارف بمعارضي النظام الإيراني، ومنهم أبو الحسن بني صدر وصادق قطب زاده وموسى الصدر[١].

ويعترف حزب الله في موقعه على الإنترنت ـ المقاومة ـ بأن بيت الخميني في النجف تحول إلى منطلق لتصدير الثورة قبل الثورة، فيقول الحزب في تعريفه بسيرة الخميني: «تحوّل بيت سماحة الإمام بالنجف الأشرف إلى منطلق لتصدير الثورة وقيادتها، فإنّ كُلاً من إدارة شؤون البيت، وتنظيم لقاءات قائد الثورة، وتسهيل قنوات اتصال المناضلين الضرورية مع النجف، وتقديم التقارير الواردة عن اتساع النشاطات الثورية في إيران، وإبلاغ أوامر الإمام إلى المناضلين، وكذلك توفير قنوات الاتصال الواسعة مع الفصائل المناضلة في الداخل؛ كل ذلك كان يتحمل مسؤوليته السيد أحمد الخميني»[٢]، كل هذه الأعمال كان يمارسها الخميني وولده في ظل حماية نظام البعث العراقي.

---

(١) إيران بين التاج والعمامة، ص ٢٢٤.

(٢) موقع المقاومة، سيرة الخميني:

http://www.moqawama.org/_lekhosera.php?filename=20051123162741O.

وفي بداية الثورة أرسل صدام حسين خطاباً إلى مهدي بازرجان رئيس الوزراء الإيراني يهنئه «بانتصار الثورة الإيرانية المجيدة على نظام الشاه»، ودعاه إلى زيارة العراق، وكان برزان التكريتي الأخ غير الشقيق لصدام على علاقة جيدة بالخميني، ودعاه لكي يقدم برنامجاً بالفارسية موجهاً ضد الشاه في إذاعة بغداد، وعندما تعين أول سفير لإيران في بغداد وكان من ضمن اللاجئين السابقين في العراق استُقبل بحفاوة بالغة[(١)].

وكان صدام يقدم لأنصار الخميني التدريب العسكري والسلاح، ولكن الأخير بمجرد أن استقر في الحكم انقلب على العراق ومضى يحرض العراقيين الشيعة على الثورة ضد البعث ويخاطبهم في إذاعة موجهة من طهران[(٢)]، ودعا إلى تحرير القدس عبر طريق يمر بالعراق وكربلاء ودول أخرى؛ منها: لبنان بالطبع.

وبينما كان الخميني يمارس عمليات التطهير، كان حرسه الثوري وثلة من رجال الدين الإيرانيين يؤسسون حزب الله اللبناني، وكان الحزب بعد شقه صفوف أمل يحتاج إلى فترة هدوء داخل الطائفة حتى يرسخ وجوده، خاصة وأن قيادة أمل كانت تدرك خطورة تأسيس حزب إيراني داخل لبنان ينافسها على زعامة الطائفة، كان ذلك يعني بالنسبة لها انتحاراً سياسياً وعسكرياً، وكان مؤسسو الحزب الإيرانيون حريصين على عدم تورط الحزب بصورة علنية في أي: أزمات حتى يشتد عوده، إذ كان ميدان المعركة الأول بالنسبة لهم داخل الطائفة الشيعية، وتركوا مهام الاغتيالات والعمليات لمنظمة وهمية تأسست كستار واسمها «الجهاد الإسلامي»، ولذلك لم يعلن الحزب رسمياً إلا في العام ١٩٨٥م رغم أن الجميع كانوا يعرفون بوجوده.

وقد كان ثوار حزب الله الأوائل قليلي الخبرة في التعبير عن ولائهم لإيران، وقد صرَّح حسين الموسوي ـ أحد المنشقين عن أمل وهو حالياً رئيس المجلس السياسي لحزب الله ـ أن سبب خروجه على أمل يتمثل في أن: «الذي يقرر ما هو إسلامي

---

(١) علي نوري زاده، الشرق الأوسط، ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٥م.

(٢) الطائفية والسياسة، ص٣٧١ وما بعدها.

وما هو غير إسلامي، هو الثورة الإسلامية التي أعلنا نحن جميعاً في حركة أمل في المؤتمر الرابع للحركة في آذار ١٩٨٢م أننا جزء لا يتجزأ منها»[(١)].

ولم يكن انشقاق هؤلاء عن أمل - كما تذكر كثير من المصادر - بسبب مشاركة نبيه بري في هيئة الإنقاذ التي تم تشكيلها برعاية موفد الرئيس الأمريكي رونالد ريجان؛ من أجل تسوية الأزمة بين لبنان وسوريا، فقد كان مخطط حزب الله معدّاً من قبل، وكانت المجموعات الموالية للخميني تتخذ من أمل ستاراً للتحرك ريثما يحين وقت الانقضاض، يقول د. وضاح شرارة: «وكانت الجماعة الإسلامية أو الخمينية والإيرانية الولاء لاحقاً، أكثر الجماعات المستدخلة لحركة المحرومين - والساعية في الاستيلاء عليها من داخلها - تماسكاً وقوة، وكانت الحركة - أمل - العباءة التي لبستها وتسترت بها قبل أن يحين وقت خلعها والسفور عن هوية سياسية ومنظمة مستقلة»[(٢)]، وعندما حان وقت السفور تزامن خروج حسين الموسوي من أمل مع تصريح ممثلها في طهران إبراهيم أمين السيد عن انسحابه من الحركة في مؤتمر صحفي، طالباً من بقية «الإخوة» في أمل الاقتداء به[(٣)].

وعندما بدأت حركة أمل مجزرة حرب المخيمات بتحريض من سوريا، ترك حزب الله الحركة تُجهز على الفلسطينيين في المخيمات، واتّبع سياسة تعاطف ظاهرية مع الفلسطينيين المحاصرين، وكانت عناصر إيرانية مشاركة في إدارة الحزب تقوم ببعض الممارسات الدعائية في هذا المجال، ومنهم عيسى طبطبائي أحد رجال الدين، ومهدي كروبي الذي أرسلته طهران لترتيب الأحداث - أو تشغيلها على البطيء - تحت ستار الوساطة مع سوريا لإنهاء حرب المخيمات التي شكلت فرصة حزب الله لتصفية حسابه مع أمل، والاستئثار بالضاحية الجنوبية بعد ذلك، من دون أن يكون الفلسطينيون قادرين على الإفادة، ولم يكن الحزب ليغامر بدعمهم، فهو لم تكن لديه رغبة صادقة في ذلك أولاً، ثم إنه لن يخالف التوجهات العامة للشيعة

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١١٤.
(٢) دولة حزب الله، ص ٧٧.
(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١١٣.

في لبنان المعادية للفلسطينيين[١].

يقول محمد أسعد التميمي - ابن الشيخ أسعد بيوض التميمي -: «اضطر الفلسطينيون أن يأكلوا القطط والفئران والجيف وأن يشربوا بولهم، ورغم وجود قوات حزب الله بجوار هذه المخيمات في الضاحية الجنوبية إلا أنها لم تحرك ساكناً أو تتدخل لوقف المجازر أو إرسال الطعام والشراب إليهم، بل كانت متواطئة مع المجرم بري بالتزامها الصمت»، ويشير التميمي إلى وجود تواطؤ من الخميني وقتها على ترك الفلسطينيين يُذبحون، فيقول: ذهب والدي رحمه الله - الشيخ أسعد بيوض التميمي - يرافقه غازي الحسيني إلى إيران في ذلك الحين -عام ١٩٨٦م - من أجل أن يطلُب من الخميني أن يتدخل لوقف المجازر التي يرتكبها الشيعة في لبنان ضد الشعب الفلسطيني بإصدار فتوى تحرم قتل الفلسطينيين، ولكن الخميني رفض»[٢].

وكانت القوى الفلسطينية المسلَّحة تشكل تهديداً مستقبلياً لحزب الله خاصة في الجنوب ميدان المستقبل، وكان التخطيط أن يتم افتعال حرب تصفية جديدة مع حركة أمل المنهكة لامتلاك السيطرة الجنوبية والوصول إلى الحدود وتدشين «خدعة» المقاومة[٣].

وسارت الأحداث كما خُطِّط لها في طهران، واشتعلت المواجهات بين أمل وحزب الله عام ١٩٨٨م وكانت الحصيلة الأولى ٥٠٠ قتيل، وامتدت المعارك من الضاحية الجنوبية لبيروت إلى الجنوب، وبينما كان خامنئي يخطب في عيد الفطر بطهران منادياً بحقن دماء «المسلمين» كان رجاله في لبنان يديرون معركة الحزب مع أمل وحليفها السوري[٤].

وكان المثير أن مبعوثي الخميني إلى لبنان يتشكلون على ثلاثة أصناف تعبر عن مستوى التعقيد الذي بلغته ثقافة التقيّة الإيرانية، وكان الصنف الأول من هؤلاء المبعوثين إلى لبنان: رجال دين يُعبِّئون الشيعة لصالح حزب الله ضد أمل، والثاني:

---

(١) حازم صاغية، فصول من قصة حزب الله ج ٣، ٦/ ١/ ٢٠٠٥م، صحيفة الحياة.
(٢) مفكرة الإسلام، ٢٠/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٣) انظر: الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١٧٤، وهو يتبنى موقفاً دفاعياً تبريرياً لأداء الحزب.
(٤) انظر: السابق، ص ١٧٦ - ١٧٧.

رجال الحرس الثوري الذين يدربون عناصر الحزب ويديرون المعركة مع أمل، والثالث: وفد سياسي يسعى ظاهرياً إلى إيقاف الحرب بين الفريقين، وفي هذا تنبيه إلى أن الإيرانيين وأتباعهم عادة ما يعتنون بكافة المسارات حتى وإن كانت تبدو متعارضة، فهم يتباحثون حول سبل إيقاف الحرب في الوقت نفسه الذي يتابعون فيه تسخين المعارك، ولذلك عندما اضطروا إلى إيقاف الحرب في صيف العام ١٩٨٨م، انتظر رجال حزب الله قليلاً ثم نفذوا عملية اغتيال أحد مسؤولي أمل العسكريين، مما أشعل الحرب من جديد في خريف العام نفسه[١].

وحاول عناصر من أمل اغتيال عدد من قيادات حزب الله كان من بينهم حسن نصر الله في أكتوبر ١٩٨٨م إلا أنهم نجوا من الانفجار الذي استهدفهم في منطقة البقاع[٢]، وفي يناير ١٩٨٩م تم توقيع اتفاقية «دمشق-١» بين الطرفين فتوقف القتال وسمح لحزب الله للمرة الأولى أن يمارس نشاطاً سياسياً وثقافياً في الجنوب، إلا أن حسن نصر الله لم يوافق على بعض بنود الاتفاق فسافر إلى إيران بحجة مواصلة تعليمه الديني في قم[٣].

ومرة ثانية تسبَّب حزب الله في معاودة القتال بسبب قيامه بعمليات استفزازية ضد إسرائيل يترتب عليها قصف المناطق المدنية بوحشية، واستمرت المعارك بين الطرفين حتى نوفمبر ١٩٩٠م حيث تم توقيع اتفاقية «دمشق-٢» بعد أن رضخت سوريا للشروط الإيرانية، وأصبح حزب الله من يومها حليفاً لسوريا وشريكا في اللعبة اللبنانية، ونتج عن المعارك مقتل ٢٥٠٠ شخص وجرح مثلهم، وأغلب القتلى من حركة أمل التي تسببت المعارك في إضعافها عسكرياً إلى درجة كبيرة[٤].

ولا تزال المنافسة السياسية قائمة بقوة بين الطرفين مع احتكاكات مسلَّحة كل فترة، ولذلك فإن التحالف الظاهري بينهما الآن له سببان: أولهما: الضغط

---

(١) السابق، ص ١٧٧.
(٢) السابق، ص ١١٨.
(٣) السابق، ص ١١٨.
(٤) السابق، ص ١٨٠.

السوري الذي يوازن ما بين الحركتين ولا يريد لحزب الله الانفراد بالساحة الشيعية اللبنانية، وثانيهما: أن التحالف يحقق لحزب الله مصالح سياسية مهمة في المرحلة الحالية، خاصة وأن أمل باتت أشبه بحليف تابع للحزب.

٨- المغالطات:

الغفلة، التغافل، والاستغفال.. هذه ثلاثة أسباب محتملة لتفسير وقوع رموز الشيعة السياسيين في المغالطات والافتراءات والدعاوى الكاذبة، وبغضّ النظر عن الراجح منها فإن المصدِّق لكلام يسمعه من هؤلاء لا يلومنّ إلا نفسه، وهذه بعض الشواهد:

حجة الإسلام علي أكبر محتشمي بور، كان سفيراً لإيران في سوريا مطلع الثمانينيات، وهو بمثابة الأب الروحي لحزب الله، وأكثر الأشخاص اضطلاعاً بمهمة تأسيس الحزب في لبنان بالمشاركة مع عماد مغنية أو «الثعلب» كما يلقب في إيران[1]، وهو الآن من الإصلاحيين، وفي لقاء مع قناة العربية قذف محتشمي بمجموعة من المغالطات مرة واحدة، فقال عن سعي إيران إلى امتلاك سلاح نووي: «لم نفكر لحظة واحدة في الحصول على هذه الأسلحة ولم نتخذ أي: خطوة تؤدي إلى هذا المنحى، ونحن ليس لدينا أي: توجه في هذا الإطار»[2] وطبعاً كان ذلك قبل أن يكشف هاشمي رفسنجاني في صراعه مع أحمدي نجاد رسالة بعث بها إلى الخميني محسن رضائي قائد الحرس الثوري في نهاية الحرب العراقية الإيرانية، قال فيها: إن إيران لن تنتصر في الحرب إلا إذا أصبحت «قادرة على إنتاج الأسلحة الليزرية والنووية خلال السنوات العشر المقبلة»[3].

وقال محتشمي واصفاً موقف الشعوب العربية السُّنية من ثورة الخميني: «شعوب المنطقة؛ سواء كانت تنتمي إلى الطائفة السُّنّية أو الطائفة الشيعية أو كانت تنتمي إلى القومية العربية أو غير العربية، هذه الشعوب وهذه الدول لديها تعلق

(١) الشرق الأوسط، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٣م.
(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ١١/ ٥/ ٢٠٠٦م.
(٣) الشرق الأوسط، ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

كبير بالثورة الإسلامية وأهدافها وقيمها وبسماحة الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، وهذا الأمر لا ينطبق فقط على شيعة العراق، حتى أن أهل السُّنة في العراق لديهم حب وتعاطف مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية ومواقفها المبدئية والثابتة»(١)، ويقول عن تاريخ التشيع في إيران: «إيران منذ ١٤٠٠ سنة كانت ولا تزال شيعية»(٢).

وانتقلت هذه السِّمَة البارزة في الخطاب الشيعي السياسي إلى لبنان مع دماء الخميني التي قال حفيده: إنها تجري في لبنان، وكان من المعتاد نشر الافتراءات والأكاذيب في مرحلة الثمانينيات، وكانت بيانات التأييد للسياسة الإيرانية في لبنان تصدر وتنشر في صحف لبنانية مذيلة بتوقيعات علماء شيعة من لبنان، ثم يتبين بعدها أن أغلبهم لم يوقعوا على شيء ولم يؤيدوا(٣).

وفيما يتعلق بعلاقة الحزب مع إيران، وهي علاقة لا يمكن أن ينكرها جاهل، يقول نعيم قاسم: «حزب الله لا يُعدّ أداة في يد إيران، وهو حزب لبناني ينفذ مطالب الشعب اللبناني»(٤)، وقال نصر الله في كلمة موجهة إلى أنصار المعارضة: «الإيرانيون لا يتدخلون ولا يناقشون، والإيراني يتطلع إلى الموضوع من خلال المنطقة والشرق الأوسط الكبير والصراع الكبير الموجود في المنطقة، ويمكن الآن هناك محاولة لإدخال الإيرانيين في المعالجات، لكن الإيراني لم يعرض نفسه حتى يعمل وسيطاً أو يتدخل في الملف، على كل حال، الإيراني بعيد، أبقوه بعيداً»(٥)، أين هذا القول من اعتراف الحزب في الكتاب الذي أصدره نعيم قاسم بعنوان: «حزب الله، المنهج، التجربة، المستقبل»، بأن الولي الفقيه هو من يملك صلاحيات قرار الحرب والسّلم(٦)؟! وأين هذا القول من حقيقة أن الحزب لم يخض غمار

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ١١/ ٥/ ٢٠٠٦م.

(٢) السابق.

(٣) انظر: دولة حزب الله، ص ٧٠.

(٤) صحيفة اليوم، ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٦م، مختارات إيرانية، العدد ٧٢، يوليو ٢٠٠٦م.

(٥) كلمة في لقائه بأعضاء اللجان المخولة بالإشراف على التحرك الشعبي للمعارضة، موقع شبكة الشيعة، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٦م: http://www.shiaweb.org/hizbulla/news/9.html

(٦) موقع مفكرة الإسلام، مقال: من يملك القرار في حزب الله؟

العمل السياسي إلا بعد فتوى شرعية من المرشد علي خامنئي[١]؟!

ويقول حزب الله في الكتيب الذي أصدره عام ١٩٩٤م «حزب الله النشأة والرؤيا»: «وفيما يتعلق بولاية الأمر، نحن نلتزم بولاية المرجعية الرشيدة التي يجسدها الولي الفقيه، الذي تتوافر فيه مجموع الشرائط والمواصفات.. لا بد لهذه المرجعية أن تكون مرجعية متحركة تتصدى لقيادة المسلمين»[٢].

ومثّلت حادثة اغتيال الوزير الماروني بيير الجميل حالة جديدة في مستوى «الاستغفال» عند حزب الله، حيث وصل الأمر إلى «اتهام أصحاب الضحية بتصفيتها! والاستهزاء المبطن إلى درجة رثاء القتيل وتعزية أهله وبلده، والإشادة بمناقبه ومحاسنه»[٣].

ومن العجيب أن حسن نصر الله لا يُجيز الكذب على الإسرائيليين في سياق ما وصفه بالحرب النفسية: «أنا أعترف أنني أقوم بحروب نفسية، ولكن حتى خلال الحرب النفسية لا أطلق الأكاذيب، إذ لا يجوز لي أن أفعل ذلك، أقله على المستوى الشرعي»[٤]، والتناقض هنا أنه على المستوى الشرعي ـ الشيعي ـ يجب عليه لكي يكون متدينا أن يمارس التقيّة، وأما في سياق الحروب النفسية مع اللبنانيين فيبدو أن نصر الله لا يرى بأساً بالكذب فيها، والأدلة على ذلك تستعصي على الحصر، وهذا أحدها:

في حوار حسن نصر الله مع غسان بن جدو، ذكر معلومة هامة: «الحرب التي كانت قائمة في لبنان.. لم نكن نحن كحزب الله جزءاً منها والحمد لله، نحن لم نكن جزءاً من أي: حرب داخلية أو حرب أهلية في لبنان»[٥]، وهذا النفي مثير للدهشة والتأمل، فقد كان حزب الله بحق يقاتل ـ تقريباً ـ كل شيء يتحرك على

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣١.

(٢) السابق، ص ٣١٩.

(٣) غسان الإمام، الشرق الأوسط، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٤) حوار مع تلفزيون (نيو تي في)، يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، إصدارات السفير، ص ٢٧٦.

(٥) برنامج (لقاء خاص)، قناة الجزيرة، ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م.

أرض لبنان أثناء الحرب الأهلية، وسبقت الإشارة إلى حربه الدموية مع أمل التي أطالت أمد الحرب الأهلية ثلاث سنوات.

ويقول د. وضاح شرارة ـ الأستاذ الجامعي اللبناني المولود في صيدا عام ١٩٤٢م، والذي ينتمي إلى عائلة شيعية معروفة في لبنان ـ: «كان الإسلاميون الشيعة ذوو الهوى الإيراني والخميني في الصفوف الأولى من كل أعمال الكرِّ والهجوم على العدو العام: على القوات الإسرائيلية، وعلى الوحدات الأمريكية والفرنسية، وعلى القوات اللبنانية، وعلى الجيش اللبناني، وعلى المسيحيين اللبنانيين، وعلى الأجانب، وعلى جيش لبنان الجنوبي، وعلى السفارات العربية والأجنبية، وعلى القوات الدولية، وعلى بعض المواطنين المسلمين الذين يخالفونهم في الهوى والمشرب، وعلى المراقبين السوريين الذين سبق قدومهم الانتشار السوري في بيروت عام ١٩٨٧م، وعلى مسلّحي أمل بالضاحية الجنوبية، وعلى الفلسطينيين المتحالفين مع أمل، فهؤلاء كلهم تسهم حربهم في إنشاء الجيب الإسلامي الإيراني»[(١)]، إن التاريخ مع الخمينيين أشبه بكتاب تحت الطبع، تعاد صياغته ألف مرة قبل أن يُسمح له بالنشر.

٩ـ التوجهات اليسارية:

تفاعلت فكرة «السرداب» في الثقافة الشيعية إلى حدٍّ كبير، بحيث أن تطبيقاتها لا تحصى، ومنها: اللجوء إلى وضعية السكون كما مرَّ بنا في فقرة سابقة، ومن خلال تتبع التاريخ القريب يمكن ملاحظة أن «السرداب السياسي» المفضل للرافضة كان: الأحزاب اليسارية والشيوعية، حيث كمن فيها كثير من الناشطين والرموز، والذين تأثروا لاحقاً بالأفكار اليسارية من طول فترة الكمون والانتظار، وصارت لازمة لهم، حتى أن باقر الصدر اضطر إلى تخصيص بعض كتبه، مثل: «فلسفتنا» و «اقتصادنا» لنفض آثار (التسردب) عن العقل الشيعي عندما أراد أن يعلنها ثورة من جديد.

ومرت بنا أيضاً التحالفات القوية بين تيار الخميني والأحزاب اليسارية في

---

(١) دولة حزب الله، ص ١٢١ـ١٢٢.

مرحلة ما قبل الثورة، ويذكر الكاتب الشيعي د. موسى الموسوي ـ وكان قريباً من رجال الثورة ـ في كتاب «الثورة البائسة» أن الخميني كان يستنسخ الطابع الماركسي للثورات الشيوعية، ويتضح ذلك في الحالة الثورية المستمرة حتى بعد تأسيس الدولة، وفي المحاكم الثورية، حتى أنه يقول: «لا أجد صعوبة في رمي الخميني بالشيوعية»[١]، ويقول د. وضاح شرارة: «السابقة الشيوعية والسوفيتية هي إمام يأتمُّ به الخمينيون عامة، وغُلاتهم خاصة»[٢].

وفي لبنان كان الحزب الشيوعي اللبناني حليفاً أساسياً للحزب الاشتراكي بزعامة كمال جنبلاط، بقدر ما كانت أكثريته شيعية المذهب مع اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٧٥م[٣]، ويشير حسن صبرا إلى ظاهرة الإقبال الشيعي اللبناني على الانضمام للأحزاب الثورية اليسارية الرافضة للكيان اللبناني في النصف الثاني من القرن الماضي، ومنها: حزب البعث العربي الاشتراكي السوري، والحزب القومي السوري، والحزب الشيوعي اللبناني، والحزب التقدمي الاشتراكي، والقومي العربي الناصري، ويلفت إلى «مسارعة الشيعة إلى الالتحاق بها عبر مراحل متعددة، حتى شكلت في لحظة مستمرة قاعدة أساسية لها، على مستوى القاعدة، ثم على مستوى القيادة»[٤].

وكان التوافق بين حزب الله والأحزاب اليسارية ـ سواء كانت لبنانية أو فلسطينية ـ ملحوظاً منذ تأسيس الحزب[٥]، ولكن تغير الحال وانقلب الحزب على حلفائه السابقين وتحولت علاقة الود إلى عداوة بحسب تغير مراحل تطور الحزب وطموحاته، ولكن تبقى الأحزاب اليسارية في مجملها تمثل الرصيد الاستراتيجي لحزب الله عندما يسعى إلى تكوين جبهة سياسية لمواجهة أطراف أخرى، وهو ما يحدث الآن، حيث يتكتل الحزب القومي السوري، والحزب الناصري وتجمعات

---

(١) الثورة البائسة، د. موسى الموسوي، ص ١٧٤.
(٢) دولة حزب الله، ص ٣٣٨.
(٣) حازم صاغية، صحيفة الحياة، ٢١/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٤) بحث: الصحوة الإسلامية في لبنان، مرجع سابق، ص ١٦٦.
(٥) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٨٠.

أخرى يسارية مع تيار المعارضة الذي يقوده حزب الله في مواجهة تيار ١٤ آذار .

١٠ ـ خطاب الأمة:

«ولاية الفقيه» لا تطرح الولي الفقيه باعتباره قائداً لدولة الولاية فقط ، بل هو قائد للأمة كلها ؛ لأنه ينوب عن الإمام الغائب الذي هو أصلاً إمام لجميع المسلمين، وهكذا نائبه ، ومن ثم كان الخطاب الشيعي الصفوي للأمة خطاباً عقدياً في الأساس .

وانطلاقاً من اعتماد الخميني هدف تصدير الثورة الإيرانية إلى كل الدول الإسلامية ، فقد كان خطابه للأمة يأتي ضمن هذا الإطار ، فكان يهاجم الأنظمة العربية الحاكمة ، يقول مثلاً : «إسلام إيران غير إسلام الذين يدافعون عن عملاء أمريكيين كالسادات وبيجين» ، ويقول : «إن إسلام صدام كإسلام محمد رضا خان ، وإسلام ذلك المصري السادات أيضاً كإسلام صدام» ، ودعا الشعبين المصري والعراقي إلى التخلص من «شر حكّامهما» ، وحاول الخميني أن يتسرب بأفكاره من مدخل التقريب بين المذاهب باعتبارها موجة مسموعة في العالم العربي ، فأصدر عدداً من فتاوى «التقيّة» يجيز فيها صلاة الشيعي خلف السُّني ، ويحرم انتقاد الخلفاء الراشدين[1] .

وتعتبر منظمة الإعلام الإسلامي الإيرانية من أبرز المؤسسات المعنية بمخاطبة الدول الإسلامية من خلال إمكانات هائلة وإنتاج غزير من المواد الإعلامية المختلفة التي توزع في أنحاء العالمين العربي والإسلامي[2] .

ويستبطن الخطاب الخميني المقاومة والثورة كأحد مقوماته الرئيسة ، يقول أحد الكُتّاب المغاربة المتشيعين : «أحسب أن المرحوم الشيخ مهدي شمس الدين ـ نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان سابقاً ـ كان في غاية النباهة والجرح ، لما أشار إلى حالة الاستثناء التي يمثلها الشيعة في المعارضة والثورة والمقاومة في الشرق الأوسط ، معتبراً ذلك خطراً على وجودهم ، فلا ينبغي أن يصبح ذلك حكراً على

---

(١) انظر : صنع القرار في إيران ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية ، د . عصام عبد الحميد ، ص ١٦٨ .

الشيعة، فإما أن يشاركهم الأغيار ـ السُّنة ـ في ذلك أو لا يفعلوا... والحق أن المرحوم كان بعيد المدى، حين خشي على الشيعة أن يكونوا دونكيشوت يقاتل بالوكالة عن الأمة»(١).

يقول الشيخ محمد سرور: «كان علماؤنا الأفاضل يقودون الأمة في مسيرة جهادها التي أخذت أشكالاً مختلفة، ونذكر من بين هذه الأسماء: الشيخ الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، ورئيس الهيئة العربية العليا، والشيخ كامل القصاب، والشيخ عز الدين القسام، ثم الشيخ حسن البنا، والشيخ مصطفى السباعي، والشيخ أمجد الزهاوي، والشيخ محمد محمود الصواف رحمهم الله وأسكنهم فسيح جنانه، ولا نعرف للشيعة مشاركة في هذا الجهاد المبارك»(٢).

ويعتبر الخطاب الذي يتبناه حزب الله في حدٍّ ذاته أحد وسائل الخطاب «الأُموي» الذي تمارسه طهران ويعتمد على مدخل المقاومة، حيث يحرص قادة الحزب على تبنّي لغة إعلامية دعائية تثير المشاعر الوطنية اعتماداً على محاربة العدو المشترك «الإسرائيليين» وقد حقق نجاحاً واختراقاً لافتاً للرأي العام، مما دفع حسن نصر الله إلى القول: «علينا الاعتراف أنّ حزبنا أكبر من الطائفة التي ينتمي إليها مناصروه، وأكبر من أي: طائفة، بل هو أكبر من أي: كيان سياسي قائم. إننا مشروع قومي»(٣)، ويقول نصر الله: إن «عَلَم حزب الله لم يعد عَلَماً خاصاً بالحزب بل أصبح منذ ٢٥ آيار ٢٠٠٠م رمز النصر والشرف والفخر للأمة أجمع وليس لحزب أو جماعة بعينها»(٤).

١١ ـ توظيف القضية الفلسطينية:

إذا كانت الأهداف الحقيقية ووسائل تحقيقها لا يمكن الجهر بها، فإنه يصبح

---

(١) إدريس هاني، كاتب مغربي متشيع، موقع منتدى القرآن، مقال: التقيّة.. التقيّة.. هل قدر الشيعة أن يتعبوا أنفسهم بإعلان حسن النوايا؟

(٢) المرحلة التي سبقت حزب الله، ج ١، مجلة السُّنة.

(٣) حوار مع صحيفة السفير، هكذا تكلم نصر الله، ص ٣٥.

(٤) قواعد جديدة للعبة، ص ١٤.

لازماً على أصحابها البحث عن ستار يعمل كواجهة لممارسة نفس الوسائل والأساليب دون إثارة الريبة والشك، وقد كانت القضية الفلسطينية الميدان المثالي للشيعة الثوريين لتغطية أنشطتهم، وإضفاء طابع ديني قومي عليها، وقد اتسع مجال التوظيف لهذه القضية ليشمل أغلب التيارات الثورية الشيعية.

وأول بداية أمكن رصدها لتوظيف القضية الفلسطينية في خدمة أهداف الحركات الشيعية الدينية، كانت من باقر الصدر في العراق، الذي جعل من نصرة القضية الفلسطينية ستاراً لدعوة العلماء الشيعة في النجف إلى المطالبة بالحكم، وكان يدعوهم إلى التحضير لمعركة فاصلة مع إسرائيل(١)، وطبعاً المعركة يلزم لها إعداد وتجهيز.

وانتقلت الفكرة مع غيرها من أفكار باقر الصدر التي «اقتبسها» الخميني، الذي اعتبر الطريق إلى القدس يمرُّ بعدد لا بأس به من الدول العربية التي «صادف» أنها تحتضن أقليات شيعية لديها.

وتكرر استخدام «القدس» كرمز للتعبير عن الاستغراق في خدمة القضية الفلسطينية، فهناك يوم القدس العالمي الذي يتم الاحتفال به سنوياً منذ عام ١٩٧٩م في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وفيلق «القدس» الدموي ضمن الحرس، وهو معنيٌّ بشؤون دعم الحركات التحررية الشيعية بالخارج.

وعلى مستوى المسؤولين الإيرانيين، فإن أحمدي نجاد لا يتوقف عن انتقاد إسرائيل والصهيونية، ويشغل الإيراني علي محتشمي بور ـ مؤسس حزب الله ـ منصب أمين عام المؤتمر الدولي لدعم الانتفاضة والشعب الفلسطيني، وهي كلها أسماء رنّانة ذات بُعْد دعائي أكثر منه حقيقي.

وخاطب علي أكبري ـ ممثل مرشد الثورة في هيئة الطلبة المسلمين في إيران ـ جمعاً من الطلاب قائلاً: «إن الطلبة الإيرانيين الشبان يتم إعدادهم ليكونوا حملة الأعلام التي ستمحو إسرائيل من الوجود»(٢).

---

(١) دولة حزب الله، ص ٦٨.

(٢) الشرق الأوسط، ٣/ ١١/ ٢٠٠٥م.

ويبدو أن الشعب الإيراني قد فقد حماسته لهذه الشعارات وللقضية الفلسطينية، إذ لم يشارك في مسيرات يوم القدس عام ٢٠٠٥م سوى آلاف من الإيرانيين، بينما كان يبلغ عدد المشاركين في الماضي مئات الآلاف(١).

وشارك حزب الله في توظيف الفلسطينيين وقضيتهم لحسابه الخاص، يقول عباس الموسوي الأمين العام الثاني لحزب الله: «إن إسرائيل سرطان الشرق الأوسط، سوف نسعى في المستقبل إلى محو كل أثر لإسرائيل من فلسطين»(٢)، ولا يدخر حسن نصر الله وسعاً في بيان مدى ارتباط حزبه، بل ومرشده الإيراني بهذه القضية، فقال في حواره مع الجزيرة: «الجمهورية الإسلامية لم تكن وليست على الحياد في صراع الشعب الفلسطيني مع المحتلين، ما تستطيع أن تقدمه أو تفعله الجمهورية الإسلامية في هذا الصراع هي تقوم به وتنجزه، وهذا ليس شعارات، نحن نعرف والفلسطينيون يعرفون بحسب التجارب الماضية أنه هذا ليس كلاماً بكلام»(٣).

وعلى خلاف الخطاب الدعائي المعلن، كان الفلسطينيون يمثلون دوماً بالنسبة للشيعة في لبنان أزمة كبرى، وكان جلّ خوفهم واهتمامهم بهذه القضية محصوراً في أمرين: السلاح الفلسطيني خارج المخيمات، والتوطين في لبنان، وهذه هي الأسباب الحقيقية لاهتمام شيعة لبنان بقضية فلسطين، بالإضافة إلى توظيفها دعائياً من قِبَل حزب الله، ولأغراض التشيع السياسي كما سيأتي، ولعل استقبال شيعة الجنوب الحافل للقوات الإسرائيلية عام ١٩٨٢م ورشّهم الأرز على جنود الاحتلال، مؤشرٌ على المشاعر الحقيقية التي أجاد الحزب الخميني اللبناني في إخفائها، وقد استمرت هذه الحفاوة أشهراً حتى تبين لشيعة الجنوب أن الاحتلال لا يحمل لهم مشاعر ودودة(٤).

وقد عبَّر حسين فضل الله المرشد «الروحي» السابق لحزب الله عن مشاعر

(١) المرجع السابق.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٧٣.
(٣) برنامج (لقاء خاص)، قناة الجزيرة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣م.
(٤) حازم صاغية، صحيفة الحياة، ٥/ ١/ ٢٠٠٥م.

حقيقية تجاه الفلسطينيين فقال رداً على سؤال حول التمدد الفلسطيني خارج المخيمات: «قبل ٨٢ - يشير إلى سنة تأسيس حزب الله - الفلسطينيون كانوا يحكمون البلاد العربية بشكل غير مباشر، كان كل الحكام العرب يخافون منهم ويجاملونهم وكانوا يتدخلون في السياسة العربية، وكانوا يحكمون لبنان بشكل مباشر، وكانوا هم الوحيدين الذين يملكون السلاح في الدائرة الإسلامية، أما الآن فليس لهم أي: قوة في داخل السياسة العربية كلية، والدليل على ذلك أن حرب المخيمات عندما صارت كيف ضجت البلاد العربية، بالمرة الثانية خفت الضجة، الآن لا يوجد أحد يحكم، فقط مجرد كلام على الماشي» أي: أن دماء الفلسطينيين التي سالت في المخيمات مجرد «كلام على الماشي» في تقدير المرجع «المعتدل»، ويقول أيضاً: «على المدى الطويل هم لا يملكون القوة؛ لأن الناس - يقصد: شيعة لبنان - لم يكن لهم أنياب وأصبح للناس أنياب في هذا المجال»(١).

وكانت المقاومة الفلسطينية تنفذ عمليات فدائية انطلاقاً من الجنوب بعد عام ١٩٧٠م، وهو ما دفع إسرائيل إلى غزو لبنان أكثر من مرة، وكانت منظمة التحرير وقتها تتخذ من حركة إسلامية تسمت باسم «الجهاد الإسلامي» جناحاً لممارسة عملياتها، وكان الإسلاميون السُّنة في هذه الحركة قد نفذوا عمليات بطولية في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٨٢م(٢)، وقام حزب الله منذ بداية تأسيسه بالتشويش على هذه الحركة فأنشأ منظمة وهمية بالاسم نفسه «الجهاد الإسلامي» لكي يسند إليها العمليات التي ينفذها، وقد اختفت تلك المنظمة - أو توقف استخدام اسمها - منذ بداية التسعينيات(٣).

ورغم التحكم الشيعي في الحدود الجنوبية عن طريق حزب الله، إلا أن ذلك لم يكن أبداً لصالح المقاومة الفلسطينية، بل العكس ما حدث كما يؤكد صبحي الطفيلي الأمين العام الأسبق للحزب «يعني وظيفة حزب الله، وظيفة المقاومة اليوم

---

(١) فتاوى فضل الله، فتوى رقم ٢٦٦٨.
(٢) الشيخ محمد سرور، المرحلة التي سبقت حزب الله، ج١، مجلة السُّنة.
(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص٣٥٣.

حرس حدود، هذه الوظيفة جداً سيئة»[١].

وقد قامت القوات اللبنانية باعتقال عدد من الناشطين الفلسطينيين وهم يعبرون الحدود لأغراض المقاومة، وكانت المفاجأة أن حزب الله اعترف بأنه قدَّم المساعدة لإحباط تسلل المقاومين الفلسطينيين، وفي إحدى المرات تبادل مقاتلو الحزب النيران مع قوات لبنانية ظناً منهم أنها جماعة فلسطينية تريد عبور الحدود[٢]، وهو ما يثبت قيام الحزب بعمليات عسكرية حقيقية ورقابة يقظة للحدود؛ ليس لأجل المقاومة أو لمنع التسلل الإسرائيلي، ولكن لتعطيل المقاومة الحقيقية ومنع التسلل الفلسطيني.

ويقع كثيرون في لَبْسٍ عندما يعتقدون أن مقاومة حزب الله تخفف الضغط على المقاومة الفلسطينية، والعكس هو الصحيح، حزب الله استغل انتفاضة الأقصى لتخفيف الضغط على الجنوب اللبناني، وأعطى إسرائيل الأمان تماماً على الجبهة اللبنانية بحيث تفرغت بالكامل لمواجهة فصائل المقاومة الفلسطينية، وكانت أسخن أعوام الانتفاضة هي أكثرها هدوءاً على الجنوب اللبناني، بل إن الحزب كان وقتها يشرف على مشروع مياه نهر الوزاني وهو مشروع مكلف ويحتاج إلى جبهة هادئة لتنفيذه والحفاظ عليه.

ويستخدم حزب الله ـ تماماً كما إيران ـ أسلوب «الجبهة الثانية» لتخفيف الضغوط على جبهته، والجبهة الثانية في الحالة اللبنانية هي الانتفاضة الفلسطينية، وفي حالة إيران كانت العراق، ولذلك صرَّح أحمدي نجاد بثقة كما نقلت الجزيرة (٢٤ / ١ / ٢٠٠٧م) أن أمريكا لا تستطيع شنَّ حرب على إيران.

أما في لبنان ـ وبنفس المنطق ـ يقول محمد حسين فضل الله بصراحة ووضوح: «العدو غير قادر على فتح جبهة ثانية؛ لأن صواريخ المقاومة تستطيع الوصول إلى حيفا الآن، ولذلك فإن تهديدات إسرائيل للبنان تهدف إلى مجرد التخويف»[٣]،

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٦م.
(٢) قواعد جديدة للعبة، ص ٥٣.
(٣) قواعد جديدة للعبة، ص ٨٠.

وقد بادله المشاعر نفسها وزير الدفاع الإسرائيلي وقتها (بنيامين أليعازر)، فقال أيضاً بصراحة: «إسرائيل ستستخدم كل ما لديها من قوة لتجنب فتح جبهة ثانية في الشمال»[١]، وجاء توضيح هذا التوافق من مصدر في حزب الله، قال: إن «حدوث أزمة على طول الخط الشمالي الإسرائيلي سوف يستلزم تحريك قوات الدفاع الإسرائيلية من المناطق الفلسطينية إلى الجبهة الشمالية مما سيشجع الفلسطينيين ويلهب موقفهم»[٢]، ولكنه أيضاً سيلهب الجنوب اللبناني وهو ما لا يريده حزب الله الذي كان منكفئاً على مشروع نهر الوزاني.

وحتى يضمن الحزب تسخين الانتفاضة بصورة ربما تخرج عن السياق الذي رسمه قادة المقاومة الفلسطينية أنفسهم، كان حريصاً على أن يفتح صلات قوية مع عدد من تلك الفصائل، وبخلاف ما يعرفه كثير من الناس أن علاقات حزب الله فقط مع حماس والجهاد، فإن الحقيقة أن الحزب حقق اختراقات حقيقية لحركة فتح، وتمكن من فتح صلات وتكوين خلايا داخل الحركة، سواء في الضفة أو غزة، وهذه الخلايا تتلقى دعماً وتمويلاً من عناصر الحزب[٣]، وهذا يشير إلى نتيجة جانبية وهي أن حركة حماس تتمتع باستقلالية في اتخاذ القرار الداخلي، وهو ما يجعل حزب الله حريصاً على تنويع مجالات اختراق الساحة الفلسطينية من خلال مجموعات متناثرة، تتبع فتح أو فصائل أخرى.

وكان حزب الله يستخدم الفلسطينيين لخدمة هدف آخر، وهو التغطية على الوجود السوري في لبنان، باعتبار أن المخيمات الفلسطينية تمثل خطراً داهماً على لبنان، يقول نعيم قاسم في حوار مع قناة العربية: «نعيم قاسم: لو افترضنا أننا نريد أن نقول لسورية لم يعد لبنان بحاجة إلى سورية، نحن نسأل: هل تستطيع الدولة اللبنانية أن تحمي لبنان من فتن محتملة مع وجود عدد كبير من الفلسطينيين على أراضيه، ومشكلة قائمة مع إسرائيل، وحدود يمكن أن تسبب مشاكل كثيرة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) صحيفة المستقبل، ٨/ ١٠/ ٢٠٠٢م.

(٣) قواعد جديدة للعبة، ص ١٢٢.

جيزال خوري :أنا ما عم بفهم الخوف من الفلسطينيين ولاّ من الإسرائيليين؟!

نعيم قاسم: لأ؛ الخوف من الإسرائيليين لكن.

جيزال خوري:.. والسوريين عم يحموںا من الإسرائيليين سماحة الشيخ؟!»(١).

١٢ـ الوعود الصادقة:

أطلق حسن نصر الله عدداً من التصريحات بصيغة «الوعد المؤكد» وبأسلوب دعائي يضفي عليه سِمات المصداقية والإلهام والكرامات، فيبدو في أعين الغافلين زعيماً لا يرقى إليه الشك، وذا قدرة لا يرقى إليها العجز، فقد وعد بتحرير الأسرى وفي مقدمتهم سمير القنطار، ثم وعد بعد ذلك بالنصر في معركته مع الحكومة إكمالاً لوعده الذي تحقق بالنصر على إسرائيل في حرب تموز ٢٠٠٦م.

وإطلاق وعود قاطعة بهزيمة الأعداء هو نمط خميني يهدف إلى إضفاء نوع من «القداسة» على ذلك الشخص الذي يصدر تنبُّؤات تتحقق لاحقاً ـ مصادفاً أو تكلفاً ـ ومن ثم يكون سائغاً للأنصار المتحمسين أن يتعاملوا مع هذه الوعود «النصوص» وكأنها حتميات إلهية لا مفرّ منها.

وذكر أحمدي نجاد الرئيس الإيراني وهو يحتفل بيوم القدس: أن الخميني أعلن «إن نظام الشاه غير الشرعي يجب أن يزول، فزال، ثم قال: إن الإمبراطورية السوفيتية ستختفي، وحدث هذا، وقال أيضاً: إن رجلاً شريراً مثل صدام يجب أن يُعاقب، ونرى الآن أنه يُحاكم في بلاده»، ثم قال نجاد: «إلا أن الإمام قال: إن إسرائيل يجب أن تُمحى عن خريطة العالم وبمساعدة الله سنرى عالماً من دون أميركا والصهيونية»(٢).

ويقول أحد أنصار حزب الله المعتصمين في ساحات بيروت معبراً عن انتظاره تحققَ وعد «السيد» حسن: «في أوج الحرب، وعد السيد بالنصر وانتصر، فكيف في

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م.

(٢) الشرق الأوسط، ٣/ ١١/ ٢٠٠٥م.

السلم فالحكومة ستسقط لأنه وعد بذلك، على السنيورة أن يدرك ذلك ويرحل»[١]، ولكن يبدو أن السنيورة كان يتذكر وعداً سابقاً لحسن نصر الله اتضح أنه مجرد وعد هوائي لا قيمة له، ففي العام ٢٠٠٣م قال نصر الله لقناة (إن بي إن): «أستطيع أن أقطع وعداً بألا يكون هنالك هجوماً إسرائيلياً على لبنان مماثلاً لما حدث في عام ١٩٨٢م و١٩٩٣م و١٩٩٦م فطبيعي أن قدراتنا أصبحت أقوى وأفضل بكثير مما كانت عليه في الماضي»[٢].

١٣ ـ المتحدثون البدلاء:

تتبع السياسة الإيرانية أسلوب «المتحدثون البدلاء» عندما تريد التعبير عن رأي أو التصريح بموقف تريد أن تترك لنفسها مجالاً للتنصل منه لاحقاً بعد أن يكون قد أدَّى وظيفته، وفي أزمة الملف النووي كانت إيران تريد أن تسرب تهديدات بخصوص ردود أفعالها إذا ما تعرضت لهجوم عسكري أمريكي، وكانت التصريحات النارية عادة ما تأتي من مسؤولين غير معنيين بالسياسة الخارجية ويمكن التنصل من أقوالهم لاحقاً، فيما يبدو وكأنه توزيع متقن للأدوار.

ومن ذلك؛ تصريح وزير الداخلية الإيراني عن استخدام سلاح النفط في حال فرض عقوبات دولية على إيران، وبعدها صرَّح وزير الخارجية (منوشهر متقي) ـ وهو من المحافظين واستخباراتي سابق ـ أن بلاده قررت عدم استخدام النفط لتطبيق سياستها الخارجية[٣].

ويستخدم حزب الله الأسلوب ذاته، ولكن بدلاً من متحدثين من داخل الحزب، يعتمد على متحدثين من تيار المعارضة الذي تم تركيبه بعد الانسحاب السوري، حيث يترك الحزب ميشيل عون زعيم التيار الوطني الحر يتحدث عن اتفاق الطائف والانتقادات عليه، بينما يؤكد نصر الله على أن حزبه ملتزم بالاتفاق، كما يفوض إلى عون الانتقاد الصريح للسُّنة واتهامهم بالسعي لتحييد وإهمال الشيعة

(١) المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٢) قناة (إن بي إن)، ٥/ ١/ ٢٠٠٣م، قواعد جديدة للعبة، ص ٥٩.

(٣) الموقع الرسمي للجيش اللبناني، الرصد الإعلامي، ١٢/ ٣/ ٢٠٠٦م.

والمسيحيين، وفي برنامج (حديث الساعة) في قناة المنار (٢٦/ ١/ ٢٠٠٧م)، يتميز مقدم البرنامج بتهيئة الأسئلة الطائفية وتسليمها كما يقال بالعامّية «مقشرة» للضيف، وقد استضاف ميشيلَ عون زعيم التيار الوطني الحر، ومارس معه هذه الطريقة في توجيه الأسئلة، ومنها: «جنرال: أنت اتهمت الرئيس فؤاد السنيورة بأنه باع نفسه للشيطان.. لهون وصلت الأمور؟» وسأله أيضاً: «النائب سعد الحريري يقول: إنكم معارضة الدواليب، ماذا تقول له؟» وبدوره لم يقصر ميشيل عون فقال ما هو مطلوب منه، واتهم السُّنة بأنهم يريدون الاستئثار بالسلطة بعد سحب سوريا قواتها من لبنان، فقال: «خلاص مكافأة.. إنو السُّنة اعترفوا بالاستقلال اللبناني.. خلاص الشيعة بنحطهم بره، المسيحية بره من الأساس».

ويعتبر سليمان فرنجية رئيس تيار المردة المسيحي من المتحدثين المفضلين لدى قناة المنار باسم المعارضة، إذ يُعرف فرنجية بحدة لسانه وتوجيه الشتائم لفريق الأغلبية دون حرج، وقد استضافته القناة أو استفزته لانتقاد بطريرك المارون نصر الله صفير، فقال: «نرى اليوم وليد جنبلاط والسنيورة أمس بطريقة غير مباشرة ونرى الجميع حتى إنهم باتوا ما بيسترجوا يطلعوا هني، صاروا يبعتو نسوانن عا بكركي، ما بعرف يمكن البطرك تهيّج عاشوفة النسوان امبارح»، وعندما تفاعلت التصريحات الساخنة، قال فرنجية في بيان أصدره: «في مداخلتي الصباحية على محطة المنار، استخدمت فعلاً بالعامية اللبنانية، قصدت منه معنى تحمس، فاستغله أصحاب النيات»(١).

(١) صحيفة المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.

الفصل الثاني: التفكُّك

أدّى ارتباط الشيعة عبر تاريخهم بشخص الإمام، إلى اعتيادهم على وجود شخصية محورية تتحلق حولها آمالهم وطموحاتهم، حتى ولو لم يمكنه قيادتهم واقعاً وفعلاً، وحتى لو كان رافضاً لتوجهاتهم.

وبعد موت الإمام الحادي عشر وتعرض المذهب لهزة قوية زلزلت أركانه، تكاثرت الخلافات وتواترت، وبدأت طبقة العلماء الذين سُموا بالمراجع بعد ذلك في النمو والتمدد الفقهي والمالي والسياسي أحياناً، وهو ما أدَّى إلى نشأة مراكز قوى وتنافس على اجتذاب النفوذ وأموال الخمس، الأمر الذي سَعَّر حروباً خفية في أوساط الحوزات وبين المرجعيات، انعكست ـ من ثم ـ على الأتباع الذين انقسموا بين مراجع التقليد بعد أن كانوا متوحدين خلف إمام واحد، وأصبح التفكك والانقسام الداخلي لازمة من لوازم المجتمعات الشيعية.

١ـ التقلبات الجذرية المفاجئة أحياناً:

هناك وجهان متعارضان في ثورة الخميني يثيران الفضول، فأحد الوجهين يتمثل في وجود أتباع للثورة متفانين في خدمتها ودعمها وتصديرها، والوجه الثاني يتمثل في النفور الشديد الذي ينشأ لدى عدد كبير من أتباعها بعد فترة من الانغماس الكامل في دواخلها، وكلا الوجهين يتصارعان في إيران اليوم، ولا يعلم أحد لمن ستكون الغلبة، وهذا لا يمنع من وجود ثوابت قومية ودينية بين أبرز أطراف الصراع.

ولو بدأنا بعائلة الخميني راعي الثورة وقائدها الأول، فإن بعض أسرته تحلل من مواثيقه، وأبرز المتحللين هو حسين حفيد الخميني، الذي يعارض نظام «ولاية الفقيه» حتى النخاع، ولا يكفّ عن مهاجمة النظام الإيراني، بل إنه يدعو الولايات المتحدة إلى احتلال إيران، ولم يستطع حسين أن يدخل إيران بعد عام ٢٠٠٣م إلا بوساطة جدته، وقال حسين: «ينبغي أن تأتي الحرية إلى إيران بجميع الأساليب الممكنة»(١).

(١) العربية نت، الصنداي تليجراف البريطانية، جريدة الجرائد العالمية، ٨/ ٦/ ٢٠٠٦م، العدد ٩٨٩.

وفي بداية الثورة كان الطلبة الذين شاركوا في تنفيذ عملية خطف السفارة الأمريكية في طهران، من أبرز الشبان المتعصبين لما يعرف بـ «خط الإمام»، وأصبحوا معروفين بالاسم وبمثابة أبطال قوميين، ولكن بعد عدة سنوات انقلبت الأمور، وأصبح عدد كبير من هؤلاء الطلبة «المتعصبين» من معارضي النظام والمطالبين بتقليص صلاحيات الولي الفقيه(١).

وحتى محمد خاتمي الزعيم الإصلاحي الكبير، سبق أن وصفه الخميني ذات يوم بأنه من أبرز علماء الدين الملتزمين المحافظين في إيران(٢)، وكان خاتمي المسؤول الإعلامي الأبرز في مرحلة من مراحل الحرب العراقية الإيرانية، وكانت مهمته تسخين مشاعر الجماهير وجعل الرأي: العام الإيراني متحمساً للثورة وقادتها.

ولم يسلم الحرس الثوري - حامي الثورة ومصدرها للخارج - من التقلبات، حيث تراجع كثير من أعضائه عن خطهم الثوري، وانقلبوا على النظام بحدّة، ومن هؤلاء (أكبر كنجي) الذي تعرَّض لحكم الإعدام بسبب حضوره مؤتمراً انتقد «ولاية الفقيه» في برلين، وكان كنجي ضابطاً كبيراً في الحرس، ولكنه تحول ليصبح من أكبر مروجي الأسرار الاستخباراتية عن النظام الإيراني(٣).

ومن بين المتقلبين علي أكبر محتشمي بور، المؤسس الأبرز لحزب الله اللبناني، وقت أن كان سفيراً لإيران في دمشق، وقد تولى بعد ذلك منصب وزير الداخلية، وكان محافظاً متشدداً، ولكنه تحول أيضاً ليصبح إصلاحياً ومن المعارضين لـ«ولاية الفقيه»(٤).

وهنا فارق هام تنبغي الإشارة إليه، وهو أن المتقلبين ليسوا من تحول إلى التيار الإصلاحي فقط، فهناك نمط آخر من التقلب والتحول داخل تيار المحافظين نفسه، دون أن يخرجه ذلك عن مسمى المحافظين، ورغم أن هذه التحولات كانت حادة أحياناً إلا أنهم لم يفقدوا هذا الوصف أبداً.

---

(١) انظر أسماء عدد كبير من هؤلاء في: حدائق الأحزان، ص ١٧٠.

(٢) صنع القرار في إيران، ص ٩٤.

(٣) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٢/ ١١/ ٢٠٠٠م.

(٤) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ١١/ ٥/ ٢٠٠٦م.

ونتناول هذه التقلبات من خلال حزب الله الذي كان مميزاً حتى في تقلباته، حيث جمع بين «الحسنيين»، فهو متقلب، لكن مع النظام وليس ضده، أي: مع «ولاية الفقيه» أينما توجهت.

وأبرز مثال على التقلب، هو محمد حسين فضل الله، الذي تتلمذ في الثورية على يد باقر الصدر، ثم أسس حزب الدعوة في لبنان ورعاه، وارتبط بحزب الله منذ نشأته في عام ١٩٨٢م، ولكنه رغم ذلك يقول وكأن التاريخ مكتوب بالحبر السري: «هناك زمالة بيني وبين السيد محمد باقر الصدر.. الواقع إنني فكرت إسلامياً قبل أن ينطلق السيد الصدر في تأسيس حزب الدعوة.... أنا لم أتأثر بالسيد باقر الصدر... كنت أنفتح على الحركة الإسلامية في العراق، ولكن لم أكن منظَّماً فيها، وهكذا المسألة بالنسبة لحزب الله»(١).

ويعاني فضل الله الآن من عداء قوي تجاهه من حزب الله بسبب تغير موقفه من إيران، فقد كان في عهد الخميني تابعاً للثورة حتى النخاع، وهذا سؤال وُجِّه له في تلك الفترة، ولننظر سياق إجابته ذا الدلالة الواضحة، يقول السؤال: «نحن كمسلمين لبنانيين ـ بعض الإخوان يقول ـ نؤمن بوجوب الحركة الإسلامية العالمية والتي توجهها الجمهورية الإسلامية، ولكن لنا خصوصياتنا الجغرافية والسياسية وعندنا مراجع دينية سياسية نرجع إليها بالرأي؛ لماذا الجمهورية عندما تقرر قراراً أو تنتهج منهجاً سياسياً يختص بلبنان بالدرجة الأولى لا تستشيركم وتشارككم الرأي»، وجاء رده على السؤال كالتالي: «الجمهورية الإسلامية حسب معلوماتنا هي أكثر خبرة في خصوصيات الواقع اللبناني السياسية والجغرافية من أكثر القيادات الدينية والسياسية، بعض الناس يتصور أن هؤلاء الجماعة بعيدون ولا يعرفون شيئاً، لا؛ حسب اجتماعاتنا بمسؤولين في وزارة الخارجية وبرئيس الجمهورية وبرئيس مجلس الشورى الإسلامي وببعض قيادات الحرس نعرف أنهم يعرفون عن لبنان في بعض الحالات ما لا نعرف، والذين يحكون لكم إنه الجماعة لا يعرفون شيئاً عن لبنان يعني احملوهم على الصحة، إنهم غير عايشين مع الإخوان في

(١) حوار مع مجلة المشاهد السياسي، ٣٠/ ٥/ ١٩٩٩م.

الجمهورية الإسلامية»[١].

ويحلو للمدافعين عن حزب الله أن يفسروا تحولات الحزب على أنها نزعة مستقلة إلى البرجماتية والواقعية السياسية، وأنه تحول حقيقي خرج بالحزب من مستوى التابع لإيران، إلى مستوى التفرد بالقرار السياسي والعسكري[٢].

ومشكلة هذا التحليل أنه انتقى احتمالاً واحداً من ثلاثة احتمالات، واستبعد الاحتمالين الآخرين ولم يأخذهما في حسبانه، رغم قدرتهما على تغيير وجهة التحليل، الاحتمال الأول: أن تتحول إيران إلى الواقعية السياسية ويبقى حزب الله على ثوريته، والاحتمال الثاني: أن يبقى النظام على ثوريته المعلنة ويتحول حزب الله إلى الواقعية، أما الاحتمال الثالث والذي يناقشه أنصار (التلبنن)، فهو: تحول إيران وحزب الله إلى الواقعية.

ومن الواضح أنه في كلا الاحتمالين الأول والثاني، فإن مخالفة الحزب التوجه الإيراني تعني أنه (تلبنن)، حتى ولو (تلبنن) مع احتفاظه بثوريته فلا يوجد ما يمنع من ذلك نظرياً أو عملياً، ولكن الاحتمال الوحيد الذي يؤكد ارتباط الحزب بإيران هو الثالث ـ وهو ما حدث فعلاً ـ؛ لأنه يؤكد أو يرجح التبعية عكس الاحتمالين الآخرين، فكيف يكون هذا الاحتمال دليلاً على نفي التبعية، وهو مولود من رحمها أصلاً؟!

مشكلة إضافية يقع فيها أو يتعمّدها أصحاب هذا التحليل، وهي ترسيخ خدعة (المذهبين والمرحلتين) لدى الرأي: العام، بحيث يتجاوز الكم الهائل من التناقضات التي وقع فيها حزب الله وقادته، وقد أشرنا إلى بعض ذلك في فقرة «البرجماتية والثورة النائمة، الفصل الأول»، ومن ثم نصبح رهناً لتحولات الحزب، الذي يمكن أن ينتقل إلى مرحلة ثالثة ورابعة، ويكون له الحق في كل مرحلة أن يضع القواعد

---

(١) فتاوىٰ فضل الله، فتوىٰ رقم ٢٥٧٢.

(٢) انظر: كتاب الإسلاميون في مجتمع تعددي، فهو من أبرز متبنّي هذا التوجه، والكتاب عبارة عن رسالة دكتوراه من جامعة الإمام الصادق في طهران، وقد حصل علىٰ جائزة أفضل كتاب لعام ٢٠٠٠م من وزارة الإعلام الإيرانية، وينتهي الكتاب إلىٰ أن حزب الله أصبح لبنانياً منفرداً بأغلب قراراته.

بنفسه ولا أحد يحاسبه على ما مضى.

ومن أمثلة تقلبات حزب الله، موقفه من العمل السياسي الداخلي، فهو كان رافضاً ذلك، ويذكر د. مسعود إلهي كيف تغلب الحزب على هذه المعضلة ـ وهذه الفقرة تحديداً تردُّ على دعوى المؤلف باستقلالية حزب الله بعد واقعيته ـ فيقول: «كان على قادة الحزب أن يسوقوا قبولهم ومشاركتهم في نظام هو غير إسلامي بالمنظور العقائدي، وهم حلّوا هذه المشكلة من طريقين: أولاً: حصلوا على تأييد شرعي لعملهم من الولي الفقيه، أي: من آية الله الخامنئي، ثم أعلنوا أن قرارهم المصيري هذا مطابق للأحكام الشرعية الإسلامية، وقد صرَّح حسن نصر الله في حديث إلى الشرق الأوسط: أن لا مانع من وجهة نظر الشرع من المشاركة في النظام السياسي طالما أنه يؤدي إلى تأمين مصالح الشعب، وإلى إقرار العدالة والإنصاف»، إذاً؛ فمحور الحدث هو الولي الفقيه؛ لأن استفتاءه يعني أنه لو كان رافضاً للمشاركة، فلا مناص من تركها، وإلا لما كان هناك معنى من استفتائه أصلاً، وطبعاً من عادة الحركات الإسلامية الشيعية أن تلخص مواقفها السياسية في صورة فتاوى من أجل تخفيف حدة التبعية، وكأن الأمر مشابه لفتوى عن الطهارة مثلاً؛ فخامنئي مجرد مرجع يفتي، وحزب الله مجرد حزب يستفتي.

وعندما نستحضر أحد مقومات الثقافة السياسية الإيرانية المذكورة في فقرة «فوبيا الحصار، الفصل الثاني» وهي المبالغة، يمكننا أن نفسر بعض مواقف حسن نصر الله، فهو متأثر بتلك الثقافة التي تربى عليها، ومن ثم هو أسير لها، ولأنه أصبح مبالغاً، فهو يتخذ أحياناً كثيرة مواقف في أقصى اليمين، ويبالغ في تأكيداته ووعوده، ثم يضطر لاحقاً لاتخاذ مواقف هي في أقصى اليسار، ولعل موقفه من المشاركة السياسية في الحكومة يعطي نموذجاً دقيقاً، فقد خطب نصر الله في حفل عشاء على شرف المشاركين في مؤتمر القدس الأول ٢٩ / ١ / ٢٠٠١م، فقال: «هنا في لبنان يكتبون عن حزب الله مثلاً أنه مستقيل من الحياة السياسية اللبنانية هذا لا يغضبنا ولا يحزننا ولا يضيرنا بشيء أن نكون مستقيلين من الوحل».

ولكن نصر الله رضي بعد ذلك بـ«الوحل»، وتشوق للحصول على أكثر من

ثلثه وأخذ يقاتل ويقتل عليه، وبينما كان يتعفف عن الوحل في العام ٢٠٠١م، إذا به يشارك في حكومات عام ٢٠٠٥م، والسبب أنها مراحل حساسة، يقول حسن نصر الله: إن حزبه شارك في «حكومة الرئيس نجيب ميقاتي؛ لأنها كانت حكومة انتقالية وفي مرحلة حساسة في البلد، ودخلنا إلى حكومة الرئيس السنيورة؛ لأن البلد دخل في مرحلة مصيرية جديدة لا يمكن أن نقف فيها على الحياد»(١)، وكما قال وليد جنبلاط: إن نصر الله يكون أكثر تهوراً عندما يخاطب جمهوره الحديدي(٢).

مثال آخر حول موقفه من القدس وفلسطين، فمن المعلوم أن الحزب مثل «متبوعه»، يدندن حول القضية الفلسطينية، وفي بيان للحزب بمناسبة يوم القدس العالمي عام ١٩٨٤م قال: «إن قضية جنوب لبنان قضية إسلامية، وإن جهاد المؤمنين في الجنوب والبقاع الغربي لا يهدف فقط إلى تحرير الجنوب اللبناني، وإنما هو جهاد من أجل تحرير القدس وحركة باتجاهها، على هذا الأساس فإن حربنا مع إسرائيل لن تتوقف مطلقاً بعد خروجها من الجنوب والبقاع الغربي»(٣).

وتغير الموقف مائة وثمانين درجة؛ ففي لقائه مع غسان بن جدو، قال نصر الله: «حزب الله يعني هو يعمل في ساحته وعلى أرضه، عندما نطالب بالواقعية هذا جزء من الواقعية، في فلسطين الآن الذي يقاتل هو الفلسطيني، في لبنان الذي يقاتل هو اللبناني، عندما يتحدث أحد عن المقاومة في العراق، طبعاً الرهان هو على.. على شعب العراق، هناك حدود وسدود، وأسوار مرتفعة قسَّمت بلاد المسلمين»(٤)، وكما أغلقت إيران طريق القدس الذي يمر عبر العراق، واكتفت بالوصول إلى الضاحية الجنوبية عن طريق دمشق، فقد أغلق نصر الله طريق القدس، واكتفى بمزارع شبعا، ومقاومة تسدُّ الرَّمق.

(١) كلمة في لقائه بأعضاء اللجان المخولة بالإشراف على التحرك الشعبي للمعارضة، موقع شبكة الشيعة، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٦م: .http://www.shiaweb.org/hizbulla/news/9.html

(٢) قناة العربية، ٢٥/ ١/ ٢٠٠٧م.

(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٧٣.

(٤) برنامج (لقاء خاص)، قناة الجزيرة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣م.

٢ـ التخوين:

«أنت تعارضني... إذاً أنت خائن، ومشروع أمريكي»... هذه العبارة تكاد تكون شعاراً ثابتاً ومتكرراً للخمينيين في مواجهة أعدائهم، فكل من يعارضهم أو يقف في طريقهم خائن، وعميل للسياسة الأمريكية، وطبعاً هم يغضّون الطرف عن علاقاتهم الخاصة مع أمريكا، وعن حجم التعاون بينهم في قضايا هامة، وهو تعاون يتجاوز بمراحل تعاون بعض من يتهمونهم بالخيانة، فضلاً عن أن بعض المتهمين الآخرين هم في الأصل معادين للسياسة الأمريكية، ولكنهم صُنفوا ـ خمينياً ـ على أنهم عملاء!

وتُهم الخيانة يتقاذفها السياسيون في إيران كما الكُرة، وكأن للكلمة مدلولاً آخر لديهم ليس محل إنكار، وأبرز من يقذف هذه التهم المحافظون في مواجهة الإصلاحيين، فمثلاً: يتهم أحمد جنتي أمين مجلس صيانة الدستور، الدكتور رضا خاتمي ـ شقيق محمد خاتمي، والقيادي في حزب جبهة المشاركة الإصلاحي ـ ورفاقه في الحزب بأنهم خونة، وأنهم قاطعوا الانتخابات النيابية لإرضاء أمريكا(١).

وتُعدّ فاطمة رجبي ـ زوجة مدير مكتب رئاسة الجمهورية (غلام رضا إلهام) ـ من أنصار حزب الله الإيراني المتشددين، وهي متعصبة جداً لأحمدي نجاد، ونشرت مقالاً في صحيفة «يالثارات الحسين!» لسان حزب الله الإيراني، اتهمت فيه محمد خاتمي الرئيس السابق بالخيانة، وقالت: «إن خاتمي بوصفه المنفذ الرئيس للإصلاحات، بزيارته لأمريكا يتسلم مكافأته من الأمريكيين خاصة من البيت الأبيض، على مساعيه مدة ثمانية أعوام»، وقد ردَّ عليها أحد رجال الدين بالقول: «إن قائد الثورة قد صادق مرتين على حكم رئاسة جمهورية السيد خاتمي وأبدى تأييده وعنايته مراراً، وعليه فإن لهجة السيدة رجبي تجاه السيد خاتمي هي قطعاً إهانة لخامنئي»(٢).

وأحياناً يصبح من الصعب تتبّع مناط الاتهام، مثل ذلك الذي وجهه سفير

---

(١) الشرق الأوسط، ص ٢١/ ٢/ ٢٠٠٤م.

(٢) صحيفة الجزيرة السعودية، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٦م، مقال أحمد مصطفى الخريف.

طهران في بيروت عام ١٩٨٤م إلى حركة أمل، وكان موقف إيران من الحركة معادياً، قال السفير: «أمريكا تدعم عملاءها مباشرة أو عن طريق التابعين لها، وإلا فكيف يمكن تفسير قيام الجزائر بدفع خمسين مليون دولار لمنظمة أمل؟ ما هي علاقة الجزائر؟ بلد سُنّي في شمال أفريقيا يقوم بدعم الشيعة في لبنان؟ ظاهرة فريدة وحسنة.. ولكن أنا أعرف بأن أمريكا وراء دعم الجزائر للشيعة»(١).

فإيران تريد احتكار الأتباع واحتكار التمويل واحتكار الاتهامات، ومن كثرة ما يتداولون ذلك أصبحوا يصدقونه، فلا يجد قادة حزب الله أي: حرج في توجيه اتهامات لمعارضيهم بتلقِّي تمويل خارجي، أو تلقِّي أسلحة، أو تلقِّي دعم سياسي، وكأنهم لا يفعلون كل ذلك منذ نعومة بنادقهم، وكما يقول عباس العقاد في كتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»: «وإنه لعقل بديع ذلك العقل الذي ينكر الشيء ثم لا يستطيع أن يتصوره حقاً إلا على الصورة التي أنكرها»، إذا كان الكل يتلقى وإذا كان الكل يتصل بقوى خارجية؛ فما وجه الإنكار إذاً؟ لا جواب سوى أن حزب الله يتلقى المال الحلال، والسلاح الحلال، والدعم الحلال.

واتهامات الخيانة يوجهها حزب الله إلى جميع خصومه وفي جميع الاتجاهات، ولا توجد هنا خطوط حمر، مثل التي يلوّن حسن نصر الله بها خطاباته عندما يواجه «الأمة اللبنانية» بذنوبها.

ولم يسلم حتى مفتي جبل لبنان السُّني، الشيخ محمد الجوزو، الذي اتهمه نصر الله بأنه «عميل أمريكي»(٢)، وطبعاً كان السنيورة صاحب الحظ الأوفر، فهو «فؤاد فيلتمان» حسب وصف نصر الله.

وحاول نصر الله أن يغمز من السُّنة ويوسع دائرة الاتهام بالخيانة، فقال في إحدى كلماته: بأن السُّنة فيهم من وقّع اتفاق كامب ديفيد مع إسرائيل، في إشارة إلى الرئيس المصري أنور السادات(٣)، وكأن الشيعة ليس فيهم من وقّع مع المغول

(١) صحيفة إطلاعات الإيرانية يناير ١٩٨٤م، نقلاً عن مقال: انتصار حزب الله، ج ٢، الشيخ محمد سرور، مجلة السنة.
(٢) حوار مع صحيفة روز اليوسف اليومية المصرية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) الشرق الأوسط، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

اتفاقاً بدماء مئات الألوف من المسلمين، مثل: الطوسي، وتسبب في إسقاط دولة الخلافة، وهو إنجاز استحق عليه تقدير الشيعة حفيداً بعد جَدّ، وقد سئل شيخ حزب الله «المخلوع» حسين فضل الله عن دور الشيعة مع المغول، فقال: «الشيعة لم يتعاونوا مع المغول ولكنهم تخففوا من بعض ضررهم»(١) وهذا التخفف كلّف المسلمين السنة مئات الألوف من القتلى، فكيف لو تخففوا من كل الضرر؟

ولأن شروط الانتماء إلى حزب الله قاسية، وتتضمن بيع النفس والحال والمآل إلى «سماحة السيد» فقد تعرض بعض الرافضين لـ«نعمة» الانتماء، إلى الاتهام بالخيانة أيضاً، حتى ولو كانوا شيعة قبل أن يولد نصر الله، وفي حوار مع أحمد كامل الأسعد، ابن رئيس مجلس النواب السابق، وهو من عائلة شيعية معروفة ولها ثقلها، قال الأسعد رداً على سؤال حول ردود حزب الله وأمل على إحدى انتقاداته: «جاء رد من حزب الله لم يكن عبر وسائل الإعلام، بل في الحسينيات في الجنوب، إذ ردّ ممثلو الحزب على الكلام الذي قلته في دير كيفا. س: ماذا كان فحوى الرد؟ ج: قالوا إنني مشروع أمريكي. س: ما تعليقك على ردِّهم؟ ج: بئس ردّهم، وأنا سأختار المكان والزمان المناسبين لأردَّ على تعليق حزب الله في شكل عميق»(٢).

ومما يؤيد سياسة اتباع الحزب لأسلوب التخوين كوسيلة لإضعاف خصومه في سياق الحرب النفسية، أنه بعد حرب تموز مباشرة، وبينما كان يتهيأ لمعركة الداخل، بدأ نصر الله في توزيع تُهم الخيانة على مستوى الطوائف، فذكر في بعض خطبه تعداداً لمناطق لم يستهدفها العدوان الإسرائيلي بالتدمير تاركاً لمن يستمع المقارنة مع المناطق المستهدفة، ثم التساؤل عن الأسباب والعلل(٣).

٣ـ التفكك الداخلي وفقدان الرؤية:

حاول كثير من الباحثين أن يحلل ويستوعب التركيبة السياسية الإيرانية، فضلاً عن فهمها وإدراك أبعادها، ولكن النتائج لم تكن أبداً مشجعة، يقول

(١) فتاوىٰ فضل الله، الفتوىٰ رقم ٢٥٠٧.
(٢) حوار مع صحيفة النهار، ١/ ٢/ ٢٠٠٤م.
(٣) فارس خشان، المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(كينيث بولاك) الخبير في معهد بروكينجز الأمريكي: «إيران تُعدّ من أكثر الحكومات الممزقة في العالم، حيث يميل بعض المحللين إلى وصف سياسة إيران بأنها متلوّنة، بمعنى: أنها منقسمة إلى آلاف القطع الفردية والتي تتراصّ كل منها بشكل مختلف حسب تغير القضية»[1]، هذا إذاً حل الأحجية، النموذج الإيراني الفسيفسائي قابل لإعادة الفك والتركيب من جديد مع كل مشكلة أو أزمة، وهذا هو سبب استعصائه على الفهم، ولكن هناك أحجية أخرى، وهي أن قرار الفك والتركيب لا يُعلم على وجه التحديد من يملكه، أو من يملكونه.

والذي يجعل من إيران دولة لها خطورتها حتى الآن هو المنصب السياسي الأول فيها: المرشد، فهو الذي يملك كل الصلاحيات بلا قيد، وهذا ما يجعل إيران فاعلة خارجياً، إذ ينحصر الصراع السياسي في جانب كبير منه بين أشخاص لا يملكون إلا صلاحيات محدودة أو مقيدة، بينما تبقى القرارات المهمة بيد الحاكم الذي لا يتغير إلا بموته، ومن ثم يحظى المنصب وشاغله باستقرار سياسي لا يتمتع به طرف آخر داخل النظام السياسي الإيراني، وتبقى أهم الفاعليات الخارجية المتعلقة بالمشروع الإيراني في المنطقة بيد الحرس الثوري، الذي لا يتحكم فيه إلا المرشد.

وبعد ذلك.. هناك صراع داخل إيران، في كل الاتجاهات وبين كل الأطراف، هناك صراع عرقي بين القوميات المختلفة، وصراع طائفي حيث يُضطهد السُّنة من قِبَل الشيعة، وصراع سياسي بين تيارات وأجنحة سياسية، كل تيار منها يتكون من منظمات وأحزاب وجمعيات، بالإضافة إلى شخصيات مستقلة، وداخل مكونات كل تيار هناك اختلافات هائلة، وهذه التيارات ـ بمكوناتها ـ يمكن أن تعيد تحالفاتها من جديد لتكون ائتلافات لم تكن موجودة من قبل.

وهناك طبقة رجال الدين، وما أدراك ما هي؟ هي «أكثر مناطق الصراع الداخلي بين «ولاية الفقيه» وأنصارها من ناحية وخصومها من ناحية أخرى» وقد ترك هذا

---

(١) (كينيث بولاك) مدير البحوث بمركز سابان التابع لمعهد بروكينجز الأمريكي، ومؤلف كتاب: اللغز الفارسي، الصراع بين أمريكا وإيران، عنوان هذه الدراسة: إيران، ثلاثة خيارات مستقبلية، مختارات إيرانية، العدد ٧٢، يوليو ٢٠٠٦م.

الصراع على الولاية تداعياته على واقع الحياة السياسية في إيران، «وأحدث هذا الانقسام شرخاً طولياً في جدار المؤسسة الدينية برُمّتها؛ بداية من مراجع التقليد في القمة وحتى الطلبة في الحوزات العلمية»(١).

ومن مظاهر هذا التفكك نشأة حالة من العدائية البالغة في التعامل مع المخالفين، حتى ولو كانوا حلفاء وأولياء سابقين، ومن أمثلة هذه العدائية، تدهور العلاقة بين الخميني وخليفته المعزول «حسين منتظري» بصورة مثيرة للتأمل، وربما تعطي بعض العبارات الواردة في خطابات الخميني إلى منتظري بخصوص العزل، ملامحَ لهذه العدائية؛ فقد خاطب الخميني خليفته بعبارات حانية، مثل: «كنت زهرة عمري.... الجميع يعرفون أنكم كنتم حصيلة عمري وأنا أحبكم حباً شديداً»(٢)، وفي الخطابات نفسها وجَّه إليه عبارات بالغة الحدة والقسوة: «ولا أراك تكلمت إلا طبقاً لما أملاه عليك المنافقون... ولا أرى المنافقين سيدعونك لحالك حتى يفسدوا آخرتك... ما عليك إلا التوبة والاعتراف بالذنب وإلا ستُحرق في قعر جهنم... سيكون لي معك تكليف آخر إذا تماديت في أفعالك»(٣).

ومن مظاهر هذه العدائية المغلفة بالودّ، العلاقة بين هاشمي رفسنجاني والمرشد علي خامنئي، فهما كانا يتبادلان في بعض المراحل عبارات غاية في المحبة، بينما يعلم الجميع حجم الصراع الدائر بينهما حالياً، إلى حدٍّ أن فاطمة رجبي إحدى الناشطات المتعصبات في حزب الله الإيراني - وهو مؤيد بقوة لـ«ولاية الفقيه» - تصف التحالف السياسي بين: رفسنجاني، خاتمي، ومهدي كروبي، بأنه «مثلث اللؤم»(٤).

وكان خامنئي يقول عن رفسنجاني في ساعات الصفاء إنه: «أمهر وأشجع رجل عرفته على الإطلاق»، ويقول: «أنا أبتهل إلى الله أن يأخذ من عمري ويضيفها إلى

(١) حدائق الأحزان، ص ١٥٣.
(٢) حدائق الأحزان، ص ٢١٠-٢١٧.
(٣) المرجع السابق.
(٤) صحيفة الجزيرة السعودية، مقال: أحمد مصطفى الخريف، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.

عمر رفسنجاني»، بينما في المقابل يقول رفسنجاني: «عندما لا ألقاه أشعر بالضعف»(١).

وبهذه الكيفية يكون على حزب الله أن يخدم سيدين في دمشق وطهران، وأن يتوافق مع صراعات الأسياد في طهران، وهو ما ينعكس على الحزب اضطراباً وفقداناً للهوية في كثير من الأحيان، وربما اضطرابات تنظيمية نتيجة عدم وضوح الرؤية.

وعندما نفذ الحزب بعض العمليات في جبل الشيخ في عام ٢٠٠٢م وكان خاتمي في الرئاسة، سارع وزير الخارجية كمال خرازي إلى زيارة بيروت وصرح أن على تنظيم حزب الله ألا يعطي إسرائيل الفرصة لمهاجمة سوريا ولبنان، وقد فُسرت عبارات خرازي على أنها انتقاد للحزب، وقد أحدث ذلك إرباكاً واضحاً داخل صفوف الحزب، واعترف نصر الله بأن «عبارات خرازي أوجدت وضعاً معقداً من سوء تفاهم مُرْبك»(٢)، ولكن تجدر الإشارة إلى أن خطوط الحزب الرئيسة موصولة مع المرشد خامنئي وأجهزته الخاصة، ومع الحرس الثوري أكثر من أي: جهات تنفيذية أخرى داخل إيران.

وليس أدل على ذلك الاضطراب المنعكس عن التفكك الإيراني الداخلي، من تذبذب الحزب في مواقفه تجاه لبنان الدولة، فهو بداية لم يكن يعترف أصلاً ببلد اسمه لبنان، ثم اعترف بلبنان ولم يعترف بالدستور «اتفاق الطائف»، ثم اعترف باتفاق الطائف ولم يعترف بالعمل السياسي في إطاره، ثم اعترف بالعمل السياسي ولم يعترف بالمشاركة في الحكم، ثم اعترف بالمشاركة في الحكم ولم يعترف بنصيبه في الحكم....

يمكن أن نفسر هذا التتابع المحير وفق سياق التآمر، وهذا صحيح إلى حدٍّ كبير، ولكن التآمر الشيعي الصفوي معضلته الكبرى - بالنسبة لممارسيه - أنه تآمر من النوع المفتوح، يعني: أن عملية التآمر يمكن أن تستمر إلى أمد بعيد دون أن يمتلك

(١) صنع القرار في إيران، ص ١٩٧.
(٢) قواعد جديدة للعبة، ص ٢٩.

المتآمرون رؤية واضحة تضع حداً مقبولاً لعملية التآمر، وهذا يرجع ـ كما سيأتي في الفصل الرابع، فقرة الزعامة ـ في بعض جوانبه إلى تأثير عقيدة الانتظار.

بالنسبة لخصوم الشيعة، الخطر الأكبر يتمثل في مقدار الفوضى الذي يمكن أن تتسبب فيه عمليات تآمرية مستمرة بلا توقف، مقارنة بخطر وصول هذه التآمرات إلى نهاياتها المنطقية بالنسبة لمنفذيها، ولذلك تتركز خطورة المشاريع الإيرانية في الخطط طويلة الأجل ذات النهايات المفتوحة، فهي مجالهم الأول، وهم يبرعون فيها أكثر من غيرهم ويحققون نتائج مؤثرة، والذي يستطيع أن ينقل ـ أو يستدرج ـ مستوى التخطيط الشيعي السياسي من النمط طويل الأجل إلى النمط قصير الأجل، يكون قد قطع الخطوة الأولى في تحجيم الخطر الإيراني.

وفي النهاية يبقى الفعل الشيعي الإيراني عاجزاً أو ضعيفاً عن التأثير إلا بحبل من الناس، وقد يكون هذا الحبل أحياناً في سوريا، وقد يكون حيناً في واشنطن، وقد يكون في غيرهما، ومن يقطع حبل الناس عنهم يحظى بالجائزة الكبرى.

كانت هذه بعض تداعيات التفكك الإيراني على أداء حزب الله، أما التفكك المنطلق من داخل الحزب نفسه أو من داخل الطائفة، فسوف نتناوله بتفصيل أكثر في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

٤ ـ القوة أو الانهيار ـ البناء الصعب:

يمثل الضعف أقوى الأسباب الدافعة إلى تحصيل القوة أو ادّعائها، وعندما يعاني الوضع الداخلي في دولة ما من ضعف بنيوي، فإن النظام يسعى إلى إبراز قوته في مجالات أخرى على سبيل التعويض، وأيضاً من أجل مواجهة الأطماع الخارجية التي يحفزها هذا الضعف. يشير (أفشين مولافي) المحلل السياسي في مؤسسة نيو أمريكا إلى اتباع طهران هذا الأسلوب: «إيران عادة تبالغ في تقدير قوتها وقد رأينا هذا خلال حروب العراق ـ إيران في الثمانينات»[١].

وهناك تقسيمات أربعة للدول حسب طبيعة العلاقة بين إمكانات الدولة

---

(١) قناة العربية، برنامج (عبر المحيط).

الوطنية وسلوكها الدولي، ذكره د. إسماعيل صبري مقلد، وهي: الدولة القوية القانعة، الدولة القوية غير القانعة، الدولة الضعيفة القانعة، والدولة الضعيفة غير القانعة[١]، ويمكن اعتبار إيران في مرتبة متوسطة بين التقسيم الثاني والرابع.

وهذه الطريقة في التفكير والتقدير قد ينتج عنها إشكاليات متعددة، لعل أبرزها النتائج الكارثية عند حدوث المواجهة العسكرية، وهو ما اعتبره وزير الخارجية الألماني السابق (يوشكا فيشر) بمثابة الخطر المحدق بالمنطقة «مبالغة إيران في تقدير قوتها، والإقلال من القوة الأمريكية»[٢].

وقد كان حسن نصر الله حريصاً بعد انتهاء حرب يوليو ٢٠٠٦م على إثبات قوة الحزب العسكرية رغم الحرب، فقال في مهرجان «النصر الإلهي»: «المقاومة تملك أكثر من عشرين ألف صاروخ»، ثم أكد على دلالة هذا التصريح: إنها «اليوم أقوى من أي: زمن مضى»[٣].

وتدفع الظروف المحيطة بحزب الله قادته إلى الحرص على التصريح الدائم بامتلاكهم أسباب القوة، ومع أنهم يركزون هذا الخطاب غالباً في اتجاه العدو الإسرائيلي، إلا أنه يأتي في سياق «اسمعي يا جارة»، ويقول رئيس قسم البحوث في الاستخبارات الصهيونية العميد (يوسي كوبرا واسر) عن حزب الله إنه: «تنظيم يعاني من أزمة في تحديد هويته؛ لأن الضغوط المفروضة عليه تجبره على الظهور بمظهر جهادي»[٤]، ويقول نعيم قاسم: «.. حزب الله هو يحمي لبنان، حزب الله هو يحمي استقلاله، هو يحمي شعبه، حزب الله لا يحتاج إلى حماية من الآخرين»[٥].

ويتوافق «المبالغون» ـ سواءً كانوا دولة أو حزباً ـ في إخفاء خسائرهم، ولم يعلن حزب الله إلى الآن عن خسائره الحقيقية سواء بشرياً أو عسكرياً، وذلك

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، د. ثامر الخزرجي، ص ٢١٩.

(٢) مجلة دير شبيجل، ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٦م، جريد الجرائد العالمية، العدد ٩٨٨.

(٣) العربية نت، ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٦م.

(٤) قواعد جديدة للعبة، ص ١٤.

(٥) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م.

حتى لا ينتقص من قدرته على تعظيم وتضخيم قوته بعد الحرب، ولذلك أيضاً كان تركيزه ـ الاختزالي لمعايير القوة ـ على عدد الصواريخ.

ويستخدم حزب الله المعلومات المتسربة حول قوة الحزب وتكديس الأسلحة كرسالة غير مباشرة إلى الداخل اللبناني، حتى لا يفكر أحد في مواجهة الحزب لمدى بعيد أو محاولة نزع سلاحه ، وصار من الطبيعي أن يقارن الحزب بين قوته وقوة الجيش اللبناني بطريقة ساخرة منوهة بعجز الجيش عن منافسة الحزب في المهام العسكرية، ويقول نصر الله: إن وجود الحزب على الحدود عامل في الاستقرار، وضمان لأمن المنطقة؛ لأن الجيش اللبناني غير قادر على الرد على كل هجوم(١).

٥ـ الدموية ـ الاغتيالات:

التصفية الجسدية تمثل عنصراً ثابتاً في الثقافة الخمينية، وعندما لا يجد الخمينيون من يقتلونه، فإنهم يقتلون أنفسهم، بل ربما يفعلون في جميع الأحوال.

وتتفرد ثورة الخميني بأنها من أكثر الثورات فتكاً بأبنائها، وقد مرَّ بنا الحديث عن التطهير الثوري، وبخلاف ذلك فإن الاغتيالات الغامضة والتي لا يُعلن عن أسرارها أبداً سِمَة ملازمة للنظام الإيراني حتى الآن.

وقد بلغ عدد القادة العسكريين الذين قتلوا خلال السنوات الأخيرة إثر سقوط طائراتهم أكثر من ثلاثمائة قيادة بينهم اللواء ولي الله فلاحي رئيس أركان الجيش الأسبق، والعميد نامجو وزير الدفاع، واللواء منصور ستاري قائد القوات الجوية السابق، واللواء جواد فكوري وزير الدفاع وقائد القوات الجوية الأسبق، ورئيس منظمة الطيران شاه تشيراغي(٢)، ويلاحظ وجود أكثر من قائد للقوات الجوية ضمن القتلى.

ويطلق الصحفي الإيراني المعارض أكبر كنجي على وزارة الأمن والمخابرات الإيرانية لقب «بيت الأسرار المظلم» بسبب عمليات الاغتيال والقمع التي لا تتوقف(٣).

---

(١) السابق، ص١٤١.

(٢) علي نوري زاده، الشرق الأوسط، ١٠/ ١/ ٢٠٠٦م.

(٣) الشرق الأوسط.

واغتيال المخالفين والمعارضين من داخل الطائفة أو من خارجها نمط لا ينفك عن حزب الله، رغم كل التصريحات والادعاءات الكاذبة عن التسامح والتحذير من الطائفية والفتنة.

وشيعة لبنان أنفسهم اكتووا بنار الحزب ورصاصه، ومن المعروف أن رئيس تحرير مجلة الشراع حسن صبرا وهو شيعي قريب من حركة أمل، تعرض لمحاولة اغتيال من قِبَل عناصر حزب الله في لبنان[١]، بسبب كشفه لفضيحة «إيران جيت» ونشره عنها، وقد وصلته أخبار الصفقة بالأساس عن طريق مهدي هاشمي صهر «آية الله» حسين منتظري - خليفة الخميني المعزول - وكان جزاء هاشمي الحكم عليه بالإعدام مع التنفيذ.

وأغلب عمليات الاغتيال التي نفذها الحزب كانت تتم لحساب إيران ورعاية لمصالحها في لبنان، يقول حازم صاغية: «مارس حزب الله، كما مارست أمل حرب اغتيالات متواصلة في بيروت والجنوب، ذاك أن قتال إسرائيل واحتلالها هو ما لا ينبغي تركه لأطراف مزغولة[٢]، سيطرةُ طهران ودمشق عليها ناقصة مطعون فيها»[٣].

وإذا كان الحزب يقوم باغتيال الأشخاص لا لشيء إلا لتصفية طريق المقاومة من أي: شريك لا يدين بالولاء لإيران، فكيف بالمعارضين السياسيين؟ لقد قام الحزب من قبل باغتيال الشيعي خضر طليس قرب حوزة بورضاي بسبب خلافاته مع الحزب وإيران، كما ترددت أنباء عن وجود فتوى بإهدار دم محمد الحاج حسن مؤسس التيار الشيعي الحر المعارض لحزب الله، كما أجبر الحزب عائلته على إعلان البراءة منه[٤].

ويقول محمد الحاج حسن موضحاً حالة معارضي حزب الله من الشيعة: «المشكلة الأساسية التي نواجهها هي خشية معارضي حزب الله من المجاهرة

---

(١) الشيخ محمد سرور، الموقع الشخصي.

(٢) يقصد: مزعزعة الولاء.

(٣) حازم صاغية، ٥/ ١/ ٢٠٠٥م، الحياة، سلسلة مقالات: فصول من قصة حزب الله ح ٢.

(٤) صحيفة السياسة الكويتية، ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

بمعارضتهم خوفاً من التصفيات الجسدية التي قد يتعرضون لها، فالجواب الذي نسمعه دائماً منهم: ما متت، ما شفت مين مات؟ لا يمكنك ممارسة الفكر بحرية ضمن الطائفة الشيعية»، ويقول: «عندما تغيب الشمس نبدأ برؤية الكوابيس خوفاً مما قد يفعله بنا حزب الله، فمعظمنا من الشيعة المعارضين له ولنهجه مجربين طعم يلي بدو يصير»[(١)].

واتهم صبحي الطفيلي - الأمين العام الأسبق للحزب - عناصر لبنانية موالية لإيران بمحاولة قتله في بورضاي عن طريق عناصر مدسوسة بين الجيش اللبناني[(٢)].

وسبق لحزب الله تنفيذ عدد من اغتيالات الإعدام بناء على فتاوى من الخميني في بعض مثقفي الشيعة اللبنانيين، مثل: مهدي عامل وحسين مروة، واللذَيْن تردد أن حسن نصر الله شارك بنفسه في اغتيالهما عندما كان المسؤول العسكري لحزب الله[(٣)].

تحتل الدماء مكانة مقدمة في ثقافة أنصار حزب الله، ومن الهتافات التي رددها أنصار نصر الله في التظاهرات الأخيرة «يا نصر الله لا تهتم، معك شيعة بتشرب دم»[(٤)]، إنها إذاً الدماء مهما طال الزمن ومهما تعمقت التقيّة، فلا بد يوماً من انقشاع الغبار، وإذا كانت المقارنات بين التيار الصدري في العراق وحزب الله في لبنان أصبحت أمراً طبيعياً، خاصة مع التعاون العسكري النشط بين الطرفين، فإن المؤشرات تقول: إن حزب الله اللبناني قابل للتحول إلى نسخة أخرى من جيش المهدي في العراق إذا ما سنحت الظروف ولم يعد الحزب بحاجة إلى قناع السياسة الذي يخفي وراءه الوجه الحقيقي، عندها لن يكون نصر الله قلقاً لأن معه «شيعة» يشربون الدماء، تماماً كما يفعل جيش المهدي في سُنّة العراق.

٦- التعبئة الجماهيرية:

المجتمع الإيراني يعيش حالة متقدمة من التفكك الداخلي؛ سواءً على صعيد

(١) صحيفة المستقبل، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) برنامج (نقطة نظام)، قناة العربية، ١١/ ٢/ ٢٠٠٧م.
(٣) أشرف عبد القادر، موقع إيلاف، ٤/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٤) الشرق الأوسط، ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

الأعراق أو الأديان، وحتى داخل الطائفة الشيعية نفسها، وقد تطلب هذا الوضع أن يتبع محركو النظام سياسة تعبئة جماهيرية مستمرة حتى لا ينفرط العقد ويتسع الخرق، وكان العدو الخارجي هو أبرز أساليب التعبئة التي يتبعها الإيرانيون، يقول أحد السياسيين الليبراليين في إيران: «الضغط الخارجي وتهديد الأمن القومي الإيراني يجعلنا جميعاً محافظين وهذا من أسرار نجاح نجاد»(١).

ويمثل محمد خاتمي نموذجاً متميزاً في التعبئة الجماهيرية الناجحة، فقد شغل مناصب إعلامية بارزة في مرحلة الثمانينيات، وكان مسؤولاً عن جهاز الدعاية الحربية وتوجيه الرأي: العام أثناء الحرب مع العراق، ويشمل ذلك حث الإيرانيين على التطوع من أجل الموت في ساحة المعركة، وتميز خاتمي في خداع الجماهير بدعاياته ذات الصبغة الدينية، وكان يجعل الجنود يربطون على رؤوسهم شارات مكتوب عليها نداءات دينية مثل: «يا حسين»، يقول د. مصطفى اللباد: «أتت الدعاية الحربية الخاتمية ثمارها حتى كأن آل بيت النبي -ﷺ- قد بعثوا من مراقدهم لينادوا الحشود الإيرانية لاجتياز حقول الألغام ومعادلة التفوق التسليحي المعادي بأجسادهم المجردة»(٢)، واستغل خاتمي مهاراته في حملاته الانتخابية، فافتتحها «بالتركيز على البكاء كإشارة إلى مظلوميته واستضعافه»(٣).

وعندما مرض الخميني قبل موته وضع أتباعه كاميرا خفية في حجرته بالمستشفى لتصويره سراً دون علمه، ثم استغلال هذه الصور في تعبئة الجماهير لاحقاً(٤)، وقد نقل تلفزيون المنار بعضاً من هذه الصور في برنامج وثائقي من عدة حلقات عن الخميني تمَّ بثه في عام ٢٠٠٦م.

وتعتبر خطبة الجمعة من أبرز وسائل التعبئة الجماهيرية لدى الشيعة الثوريين، وتحظى باهتمام بالغ، ولذلك يوجد في طهران مسجد جمعة واحد فقط يتسع لعشرات الألوف، وتقيم السلطات مسجداً آخر يتسع لمليون مصلٍّ، ويعين الخطباء

(١) نقلاً عن مجلة الإيكونوميست، موقع المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب.
(٢) حدائق الأحزان، ص ٢٦٧.
(٣) السابق، ص ٢٦٧.
(٤) السابق، ص ٢٢١.

من قِبَل خامنئي مباشرة، وهم أشخاص ثابتون من بينهم رفسنجاني، وأمر خامنئي مؤخراً بإقامة صلاة في شمال وجنوب العاصمة للتيسير على المصلين، وقبل الخطبة السياسية تكون هناك أخرى دينية تركز على تعبئة المصلين بمواقف المذهب الشيعي(١).

وتحتل المساجد في استراتيجية التعبئة لدى حزب الله مكانة بارزة، ويمثل إلقاء الخطب في المساجد أهم وسيلة تواصل بين الحزب ومؤيديه، ومصدراً دائماً لتعبئة الأنصار خاصة في الثمانينيات قبل تأسيس قناة المنار والإذاعة، ولذلك أنشأ الحزب مئات المساجد في المناطق التي يسيطر عليها، وكان ازدياد أعداد المصلين يستدعي زيادة عدد أئمة الجماعة؛ لذلك تأسست حوزات جديدة لتعليم الطلبة وتخريج أئمة ينقلون إلى المصلين أفكار الحزب ووجهات نظره(٢).

ولأن حزب الله له إيديولوجية خاصة ومنهجية معقدة، فإنه يحتاج إلى أن تظل جماهيره مرتبطة به بصورة دائمة ولا تتفكك بعيداً عنه وسط الطائفة، يقول وضاح شرارة: «الحركة الخمينية حركة سياسية وعسكرية ترمي إلى ضمِّ أوسع الجماهير إليها، وإلى مشيهم في ركابها والائتمار بأمرها، وهي تدرك أن مرامها هذا لن تبلغه ما لم ترضخ للدواعي التي تبعث الناس على الانضواء تحت علمها انضواء ثابتاً»(٣) ولذلك وسع الحزب نطاق مساعداته وخدماته لجماهيره، وأنفق في سبيل ذلك مئات الملايين من الدولارات سنوياً، وكما يقول سوبلمان: «الصلة الجوهرية بين حزب الله وجمهور مؤيديه من خلال أشكال المساعدة التي يقدمها لعدد كبير من العامة تعتبر الأساس الذي يتخذه حزب الله للتطورات المقبلة»(٤).

وكانت التظاهرات من أبرز وسائل ثورة الخميني لإسقاط نظام الشاه، وكانت الدماء المقترنة بهذه المظاهرات إضافات مهمة جداً لإنجاحها، حتى أنه في بعض المرات لم تحدث اشتباكات كما كان متوقعاً فأحضر رجال الدين التابعين للخميني

---

(١) ماجد أبو دياك، الجزيرة نت، ١٧/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٣٤.
(٣) دولة حزب الله، ص ٢٩٤.
(٤) دانييل سوبلمان، كتاب قواعد جديدة للعبة، ص ١٤٧.

أشرطة مسجلة بواسطة متخصصين تمثل صرخات وإطلاق نار وعنف، وأداروا هذه الأشرطة على مكبرات الصوت من منابر المآذن ليلتقطها المراسلون الأجانب، وفي اليوم التالي وجد الناس الخارجون من بيوتهم بقعاً حمراء على الرصيف الذي وقعت فيه المسيرة، فقد صبَّ الملالي صبغة حمراء اللون على الشوارع حتى يتوهم الناس أنها دماء، وهذه التكتيكات التي يعرف الجميع أن لها تأثيراً فعالاً على الشعب الإيراني، ليست من صنع الملالي قليلي الخبرة في هذا المجال(١).

وتحتل الدماء نفس الأهمية في استراتيجية حزب الله، وخطب نصر الله في ذكرى الخميني يدافع عن سيلان الدماء الذي تسبب به قائلاً: «يمكن أن نأخذ هذه المجزرة فنصبغ فيها لحانا ووجوهنا وثيابنا ونحمل هذا الدم نحوله إلى غضب إلى ثورة إلى إرادة»(٢).

وقد تعلم الخمينيون أساليب التعبئة الجماهيرية بشكل كبير من الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، والتي سخرت الحكومة البريطانية إمكاناتها لتأييد الثورة، حتى أنها أرسلت مراسلين إلى كل مدينة وقرية في إيران، وخلال أقل من ٢٤ ساعة كان رجال الخميني يستطيعون تنظيم مظاهرات في وقت واحد في المدن الإيرانية، التي يفصل بينها آلاف الأميال وذلك عن طريق الإذاعة البريطانية، كما مارست الـ (بي بي سي) حرب إشاعات تُذَكِّر بأساليب قناة المنار التابعة لحزب الله مع فريق الأغلبية، فكانت الإذاعة تقول: الشاه قد هرب من البلاد، أو أنه قد تخلى عن العرش لابنه، أو أنه قد جُنّ، أو أنه تعرض لمحاولة اغتيال(٣).

وقد انتقل تكتيك التظاهر بحذافيره إلى حزب الله، حيث يتضح التطابق في ثلاثة مجالات: التحفيز الإعلامي المصاحب للتظاهر، نمط التظاهرات المفتوح مكاناً وزماناً، والبحث عن دماء لتسخين حدة التظاهرات(٤).

يقول د. مسعود إلهي عن تطابق حالة التظاهر بين إيران وحزب الله: «من

---

(١) إيران بين التاج والعمامة، ص ١٧٦.

(٢) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٢٨، في الذكرىٰ الـ (١٣) لموت الخميني.

(٣) المرجع السابق، ١٧٥.

(٤) سوف نلقي الضوء علىٰ بعض أساليب قناة المنار في الباب الثالث إن شاء الله.

الأساليب الدعائية التي استخدمها حزب الله مقلداً الثورة الإسلامية، أسلوب المظاهرات، فقد كان الحزب منذ تأسيسه وحتى اليوم، يعمد في المناسبات الدينية والسياسية المختلفة ـ كيوم عاشوراء، أو يوم القدس العالمي ـ إلى إقامة المظاهرات الشعبية التي حشد فيها عشرات الآلاف في شوارع الضاحية الجنوبية لبيروت والمدن الشيعية في البقاع والجنوب»، ويقول عن تشابه وسائل التحفيز الإعلامي: «استخدام كاميرات الفيديو في تصوير العمليات العسكرية وتشييع جثامين الشهداء والمسيرات والخطب، من الأساليب التي اعتمدها حزب الله متشبهاً بالثورة الإسلامية الإيرانية، ويشبه الخبراء ذلك باستخدام الثورة الإسلامية الإيرانية لأشرطة التسجيل لإيصال رسائل الخميني وخطبه إلى داخل إيران»(١).

ويستخدم الحزب أسلوب الشحن ضد السُّنة في لبنان باعتباره أقوى محفزات التحرك الجماهيري عند الشيعة، وكان ذلك واضحاً في التظاهرات الأخيرة رغم إنكار الحزب، يقول الشيخ محمد الجوزو موضحاً كيفية مقتل أحد المتظاهرين الشيعة في منطقة سُنّية في بيروت: «هذه الواقعة حدثت من خلال شباب الشيعة.. فبدلاً من أن ينزلوا على ساحة رياض الصلح خرجوا على أحياء أهل السُّنّة فسبّوا الصحابة، وقالوا: «إحنا هنا يا أولاد كذا، فانزلوا لنا يا أهل السُّنّة» كان من الطبيعي أن يحدث احتكاك، فقتل شاب شيعي، وأنا أعتبر أن دم هذا الشخص في عنق حسن نصر الله، وفي عنق القيادات الشيعية التي لا تستطيع أن تضبط ساحاتها، وكان من المفترض أن تقوم هذه القيادات بمنع هؤلاء الشباب من أن يدخلوا مناطق السُّنة ليستفزوهم»(٢).

ويعضد الصحفي الشيعي حسن صبرا هذه الرواية فيقول: إن حسن نصر الله «يرسل جماعاته المعبأة مذهبياً حتى النخاع إلى أحياء بيروت المسلمة السُّنّية كي تستفز أبناءها وتعتدي على أملاكها وتشتم مراجعها الدينية والسياسية التاريخية والحالية، ثم يخرج لائماً صارخاً منفعلاً متوتراً مهدداً المسلمين السُّنّة أبناء بيروت إذا تعرضوا لمتظاهريه»(٣).

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٣٥.
(٢) حوار مع صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) رئيس تحرير مجلة الشراع القريبة من أمل، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

ومن ملامح الشحن الطائفي للشيعة كما يمارسه الحزب، إبرازه لاستقالة الوزراء الشيعة من حكومة السنيورة على أنه استبعاد للطائفة الشيعية بأكملها، رغم أنها استقالة إرادية، وكان نصر الله يؤكد في حواراته قبل الأزمة على أن الوزراء الشيعة يمثلون أمل وحزب الله فقط، ولا يمثلون الطائفة، ولكن الآن يتم القول باستبعاد الشيعة من الحكم(١).

وتأتي التعبئة الحادة ضد شخص فؤاد السنيورة رئيس الحكومة لتعطي دليلاً على الشحن الطائفي المغلف سياسياً، ورغم كل ما يدعيه الحزب أنه ينتقد الأداء السياسي، فإن معرفة طبيعة التركيبة الطائفية في لبنان تفيد أنه لا يمكن أبداً الفصل بين البعدين السياسي والطائفي عند الهجوم على رئيس الوزراء، خاصة لو كان يحظى بأغلبية شعبية ونيابية داخل طائفته كما هو حال السنيورة.

وتجب الإشارة إلى أنه حسب القانون اللبناني فإن رأس الطائفة السُّنية في لبنان ليس المفتي وليس زعيم الأغلبية النيابية، بل هو رئيس الوزراء، واعتبر القانون أن المفتي ملحقاً برئاسة مجلس الوزراء، ويُكتب على الأوراق الرسمية «دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية التابعة لرئاسة مجلس الوزراء»، ويترأس رئيس الحكومة الهيئة العليا المشرفة على شؤون الطائفة والإفتاء(٢).

وتمتد القدرة التعبوية لحزب الله لتشمل الاستعانة بالعمال السوريين في لبنان والذين يمثلون مخزوناً استراتيجياً لتكثير السواد، وكان ملاحظاً عندما أعلنت معارضة حزب الله عن بدء النزول إلى الشوارع اختفاء أعداد كبيرة من هؤلاء العمال وظهورهم في ساحة رياض الصلح(٣)، وترسل الاستخبارات السورية من يشحن تجمعات الشيعة ضد السُّنّة، وقد تم توقيف أحد السوريين في بيروت بعد أن واجه مجموعة من أنصار حزب الله وشتم حسن نصر الله ثم فرَّ باتجاه الأشرفية، واعتقله الجيش قبل أن يلحق به ٣٠٠ من أنصار الحزب(٤).

(١) راجع: مقال د. وجيه كوثراني، صحيفة النهار، ٣/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٢) أيمن المصري، إسلام أون لاين، ١١/ ٥/ ٢٠٠٥م.
(٣) فارس خشان، صحيفة المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٤) المستقبل، ٣/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

الفصل الثالث: الأقلية

نشأت الطائفة الشيعية كأقلية في أغلب فترات وأماكن انتشارها، ونتج عن هذه الوضعية ذات الأبعاد الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، موروثات ثقافية تراكمت عبر الأجيال لتصبح منهجاً في التصرف والفعل، حتى أنه لو تغير الحال وأصبح الشيعة أغلبية في بلد ما - مثل: إيران - فإن فكر الأقلية سيظل حاكماً حتى في زمن الأغلبية، فهي ثقافة تكونت واكتُسبت وشكلت العقول والمشاعر ولن يمكن تجاوزها إلا بإعادة تكوين ثقافة مضادة لها عبر سنوات طويلة، وهم لن يفعلوا ذلك.

١ - المال الحلال والمال الحرام:

يعتبر «الافتتان» بالمال من أبرز مكونات الشخصية الشيعية السياسية، ومنذ دعا محمد بن مكي الجزيني العاملي اللبناني إلى تسلّم الفقهاء الخُمْس نيابة عن «الإمام الغائب»، أحدث تركز كميات هائلة من الأموال في أيدي عدد قليل جداً من الفقهاء فتنة كبرى، بحيث أصبح المال هو المحرك الأول وهو الدافع الخفي الذي يجب دراسة تأثيره منفرداً قبل غيره من الدوافع المحركة للأطماع الرافضية، حتى أن بعض الدراسات تذكر أن حركة التشيع النشطة التي قادها الصفويون كانت مؤيَّدة من قِبَل المرجعيات الدينية من أجل توسيع نطاق الشريحة الدافعة للخمس[١].

وفي عهد الأسر المتتالية التي حكمت إيران كان المراجع قد تمكنوا من تكوين دولة داخل الدولة بفضل الإمكانات الهائلة التي وفرتها لهم أموال الخمس، ولذلك كان العلاقات بينهم وبين التجار ورجال الأعمال - أو ما يعرف في إيران بالبازار - استراتيجية ومصلحية إلى درجة كبيرة، وحسب هذه العلاقة يمكن تفسير فتاوى كثيرة أصدرها المراجع احتجاجاً على سياسات الدولة المالية، واعتبرت في حينها مواقف مشرفة[٢].

---

(١) انظر: حدائق الأحزان، ص ٤٣.

(٢) السابق، ص ٤٧ - ٥٥.

وعندما سعى الخميني في بداية الثورة إلى محاولة فرض مرجعية واحدة باسمه، كان ذلك يصطدم بقوة مع «مصالح باقي الراغبين في أداء دور المرجعية، ويؤثر سلباً في مصالح جهازهم الإداري المتشعب والموزع جغرافياً على جهات الأرض الأربع»[١].

وكمثال على حجم الأموال التي يجمعها نظام ولاية الفقيه دون أن يكون عليها رقيب أو حسيب أمام الناس؛ مؤسسة المستضعفين، والتي تسمى «الأخطبوط» لتشعبها وسيطرتها على أنشطة هائلة داخل إيران، وكان يرأسها محسن رفيق دوست مدير الحرس السابق، وهو على علاقة قوية مع علي خامنئي منذ توليه رئاسة الجمهورية أثناء الحرب مع العراق، وقد اتهم نواب في مجلس الشورى خامنئي بأنه ترك منصب وزير الدفاع شاغراً لمدة عام حتى يُمكن رفيق دوست ـ وزير الحرس وقتها ـ من عقد صفقات السلاح والحصول على العمولة لنفسه ـ أي: خامنئي ـ، وقد استمرت العلاقة بينهما قوية، وردَّ خامنئي الجميل لدوست عن طريق تخفيف العقوبة على شقيق له تورط في قضية رشوة، ولا توجد أي: رقابة على مدير مؤسسة المستضعفين رغم أن البعض يقدر ميزانيتها في نهاية التسعينيات بـ ٦ مليارات دولار[٢]، وهي من ممولي أنشطة حزب الله في لبنان، وفي دلالة على حجم الفساد الداخلي، يقول محسن دوست عند تركه إدارة المؤسسة: «لقد استلمت المؤسسة من دون حساب ولا كتاب، وأسلِّمها أيضاً من دون حساب ولا كتاب»[٣].

وتبرز خطورة حزب الله ليس في جمعه الأموال فقط ولكن في إنفاقها، حيث يمكن القول: إن الحزب يعتمد في سياسته سواء داخل لبنان أو خارجها على إمكاناته المالية الهائلة بالدرجة الأولى، والتي تتوفر له من وكالة الحقوق الشرعية التي منحها علي خامنئي إلى حسن نصر الله، ومحمد يزبك عضو شورى الحزب، وهي تتيح لهم جمع الخمس نيابة عن الولي الفقيه، كما أن إيران ترسل للحزب عن

(١) السابق، ص ١٥٦.
(٢) انظر: صنع القرار في إيران، ص ١٥٠ ـ ٢٢١.
(٣) صنع القرار في إيران، ص ١٤٩.

طريق مؤسسات المرشد والمؤسسات الخيرية أموالاً هائلة، وسيأتي بيان ذلك في فصل قادم.

أما عن إنفاق الحزب فهو يقدم «رشاوى» سياسية ودينية إلى عدد كبير من الساسة ورجال الدين داخل لبنان، ويذكر الشيخ محمد الجوزو مفتي جبل لبنان أن الحزب يدفع مبالغ لبعض الدعاة السُّنة: «عندنا الآن في لبنان ١٥ إلى ٢٠ شيخاً سُنياً من الدرجة الثالثة، وهؤلاء يعطيهم الشيعة مرتبات بعضها تصل إلى ١٥٠٠ دولار في الشهر، أما نحن فنعطى راتباً لا يزيد على ٢٠٠ دولار، والسبب أن لديهم إيران تدعمهم»[(١)].

ويقول عن إمكانات شيعة لبنان المؤسساتية: «حسين فضل الله حين سئل في مقابلة تليفزيونية: أنت ليس لك منصب رسمي، فمن أين تعيش؟ فقال: أنا لدي ٢٢ مؤسسة ترد على هذا الكلام، وأنا أقول ـ محمد الجوزو- هناك ٢٨٠ مؤسسة في الضاحية الجنوبية للشيعة، وإذا استعرضنا مؤسسات السُّنة في لبنان سنجدها تُعدّ على أصابع اليد، خمس أو سبع مؤسسات على الأكثر، وأصبح الشيعة أكبر منا وأغنى منا، وكل هذا من مال إيران»[(٢)].

والمؤسف أن الشيعة في لبنان لا يكتفون بالمال «الحلال» من إيران، بل يسعون للحصول على أموال الدول العربية التي تقدم لدعم الشعب اللبناني، يقول الشيخ الجوزو: «ويروي لي أحد السفراء العرب أنه أتى ليعطي بعض المؤسسات دعماً، فأعطى ١٠ آلاف دولار للشيخ حسن خالد (سُنّي)، ثم أعطى ٥ آلاف دولار لمحمد مهدي شمس الدين «شيعي»، فتدخل مباشرة عبد الأمير قبلان ـ يشغل حالياً منصب نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى ـ وقال: نحن لا نأخذ نصيب الأنثى، مع أن الشيعة عندهم أن نصيب الأنثى في الميراث غير السُّنة، وكأنهم يريدون أن يأخذوا من إيران ومن العرب»[(٣)].

(١) حوار مع صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

ولما سئل الشيخ الجوزو عن وجود رجال دين سُنّة يؤيّدون حزب الله، قال: «هؤلاء جميعهم يقبضون مرتباتهم من إيران من أجل أن يقفوا مع حزب الله، فإيران تدفع وبسخاء في الخارج رغم أن شعبها يعاني الفقر المدقع وهذا هو ما يطلقون عليه المال الحلال الذي يذهب إلى خارج إيران ليشتري شخصاً في مصر أو غيرها، مثلاً ليطبع له كتاباً ضد السُّنة»(١).

ولا يكتفي طموح حزب الله المالي على مال الخمس أو «المال الحلال» فهناك مجال واسع للمال «الحرام» والمتمثل في تجارة المخدرات، والمخدرات لها أحكام مخففة لدى رجال الدين الشيعة، وقد تحدثت معلومات وتقارير من مصادر مختلفة عن ممارسة الحزب هذه التجارة، وقد نشر موقع (بي بي سي) البريطاني أن شبكة مخدرات تم ضبطها في الإكوادور(٢) بأمريكا اللاتينية، وأفادت التحقيقات أن الشبكة كانت تمول حزب الله بنسبة ٧٠٪ من أرباحها، وكان مدير الشبكة صاحب مطعم لبناني مقيم في عاصمة الإكوادور كويتو(٣).

وعندما أرادت الحكومة اللبنانية منع زراعة الحشيش في البقاع اللبناني، اعترض حزب الله بقوة، واقترح على الحكومة أن تشتري المحصول من المزارعين أو تجد لهم بديلاً آخر للرزق(٤).

٢ ـ المظلومية:

تمثل المظلومية بُعداً هاماً في الثقافة الشيعية، ويرجع أصلها إلى الظلم الذي تعرض له آل البيت عند مقتل الحسين، وما تلا ذلك من مظالم ـ مزعومة ـ متتابعة ارتكبها السُّنة في حق الشيعة، بدءاً بالدولة الأموية ثم العباسية ثم العثمانية، وينفخ قادة الطائفة في كير «المظلومية» بصورة مستمرة لتكوين حالة من العدائية المستمرة تجاه السُّنة، بحيث أصبح المعتقد مرتبطاً بالعداء للسُّنّة بصورة متزايدة.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) زارها الرئيس الإيراني أحمدي نجاد في ١٢/ ٢٠٠٦م، ضمن جولة في المنطقة.
(٣) بي بي سي، ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٥م.
(٤) قواعد جديدة للعبة، ص ١٣٣.

وكان من اللافت أن حزب الله في احتفاله بأيام محرم السنة الحالية جعل من عبارة «انتصار المظلوم» شعاراً للاحتفال، في محاولة ذكية لخلط المظلومية التاريخية بالظرف السياسي من أجل استمداد الزخم الديني في نفوس الشيعة وتحويله إلى زخم سياسي يستنهض الهمم ضد فريق الأغلبية الذي يقوده السُّنَّة.

واستخدم حسن نصر الله كعادته ألفاظاً موحية، وهو يخطب من على منبر الاحتفال الذي كتب عليه «انتصار المظلوم» حيث خاطب فريق الأغلبية بالقول: «لن يرهبنا سيفكم...»[(١)] وهذا الدمج اللفظي بين الواقع وبين تاريخ المظلومية العريق في الذهنية الشيعية، نجح نصر الله بتحقيقه باستخدام لفظ واحد فقط، وهو السيف، ومعلوم أن السيف له دور كبير في مظلومية الحسين حسب الثقافة الشيعية.

ويعتبر الشيعة أنفسهم مظلومين في لبنان، ويقول الإيراني مصطفى شمران - أحد مؤسسي أمل، ووزير الدفاع الأسبق في إيران - إن الشيعة في لبنان مظلومون منذ بدء التاريخ الإسلامي، ولذلك يعتبر أن حركة موسى الصدر كانت محاولة في سياق رفع المظلومية: «استطاع هذا الرجل العظيم أن يؤسس حركة في أصعب الظروف بعد ١٤٠٠ سنة من الاضطهاد الذي حاصر شيعة لبنان، فاستنهضهم وهزَّ بهم كيان السلطة الحاكمة في لبنان، وقذف الرعب في نفوس حكام إسرائيل والأنظمة الطاغوتية العربية»[(٢)] يعني: تقريباً الظلم واقع على اللبنانيين الشيعة منذ تاريخ الفتح الإسلامي للبنان في زمن الخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه.

وقال نبيه بري بعد حرب يوليو ٢٠٠٦م في حديث لقناة الجزيرة: «إننا نعاقب لاعتبارات مذهبية»[(٣)] وذلك رغم خروج المظاهرات في أكثر من بلد عربي تأييداً لهم.

ولكن كون المظلومية أبرز مكونات الاستنهاض الاجتماعي والسياسي لديهم،

---

(١) قناة المنار، ٤/ ١/ ١٤٢٨هـ.

(٢) انظر: موقع حركة أمل، قالوا في الإمام.

(٣) الجزيرة، ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٦م.

يجعلهم حريصين دوماً على ترددادها وتكرارها حتى لا يفقدوا موجة التلقي والتواصل مع جمهور الشيعة في لبنان، ويروي الشيخ محمد الجوزو عن عبد الأمير قبلان نائب المجلس الشيعي الأعلى، قوله: «إننا ـ ويقصد الشيعة ـ مضى علينا ١٤٠٠ سنة ونحن مضطهدون، والآن لا بد وأن نأخذ حقنا، ولا بد وأن نسترد حقنا»، ويعلق الشيخ محمد قائلاً: «وكأنه أخذ بالثأر التاريخي، وهو كلام صادر من عبد الأمير قبلان الذي يعتبره الكثير معتدلاً، وترسل له وزارات الأوقاف في البلاد الإسلامية، التي منها وزارة الأوقاف في مصر، ليشارك معنا في المؤتمرات»(١).

وكتبت صحيفة الديار اللبنانية الموالية للمعارضة عن مظلومية الشيعة في لبنان مع توجيه الاتهامات صراحة إلى دول سُنية مجاورة: «الشيعة الذين تعرضوا لحرب إبادة لمدة ٣٤ يوماً، بتغطية سعودية تحديداً ثم أردنية ومصرية، لديهم مشروع وطن العدالة وهم جزء من مواطنيهم في لبنان وفي العالم العربي، لا ينفصلون عن مواطنيهم ولا يتميزون عنهم، كما لا يقبلون العيش كمواطنين درجة ثانية في أي: بقعة جغرافية، هذا هو موقف المرجع السيد محمد حسين فضل الله والشيخ العلامة عبد الأمير قبلان والرئيس نبيه بري والسيد حسن نصر الله، كما هو موقف الرئيس كامل الأسعد وكل الفاعليات والقيادات الشيعية في لبنان»(٢).

٣ ـ الدولة الموازية:

استراتيجية الدولة الموازية ترسخت عبر القرون في اللاشعور الشيعي، وحدث ذلك بتأثير عاملين مهمين، أولهما: شعور الأقلية الذي يلازم الطائفة حتى وإن كانت أغلبية في مكان ما وفي زمان ما، وثانيهما: دولة المرجعية التي تكونت وتمحورت حول الحوزة والخمس، كلاهما يكمل الآخر ويدعمه، فالحوزة تمدُّ المرجعية بالقاعدة والكوادر، والخمس يمدُّها بالسلطة المالية، ولذلك لم يعد ممكناً أن يتخلى الشيعي الخميني عن هذه التركيبة المتجذرة في خلفيته الذهنية.

وعندما قامت الثورة الإيرانية، تسلم رجالها أجهزة الدولة، فأبقوا عليها

---

(١) حوار مع صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) صحيفة الديار اللبنانية، ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٦م.

ولكنهم أسسوا بجوارها منظومة كاملة من الأجهزة الموازية، فكل مجلس له مجلس آخر مضاد له، «مجلس الشورى»، يخضع لتأثير «مجلس صيانة الدستور ومجلس تشخيص مصلحة النظام»، و «مجلس الخبراء»، يتدخل في تعيينه «المرشد والحرس الثوري»، و «الجيش النظامي» تأسس بجواره جيش آخر كامل هو «الحرس الثوري»، وأجهزة الاستخبارات متعددة ومتداخلة»، ثمة مفارقة واضحة بين مؤسسات موجودة في الدستور لكن لا يقنن نشاطها في الواقع (كالأحزاب السياسية) أو يعترف بها لكنها تمارس صلاحيات دون تلك المنوطة بها دستورياً (المجالس المحلية والنقابات) ومؤسسات لا وجود لها في الدستور لكنها حية نابضة في الواقع (المحكمة الخاصة لرجال الدين)»(١).

وفكرة الدولة الموزاية ليست طارئة على حزب الله، فهو تأسس منذ البدء كدولة موازية للدولة اللبنانية، ولذلك كان الحزب يسعى دوماً قبل اتفاق الطائف إلى إبقاء الدولة ضعيفة ممزقة ليصبح هو القوة الأولى المسيطرة، وبعد اتفاق الطائف جاء احتفاظ الحزب بسلاحه سبباً لاستمراره دولة موازية، وقد اتضحت الأهداف الحقيقية للحزب في الأزمة السياسية الأخيرة، وكان نصر الله رغم «تقيّته» مكشوفاً نظراً لطبيعة وتعقد الحضور الإعلامي في العقد الأخير، حيث تعددت المنابر والأحاديث والحوارات، وهذا الظهور المتكرر يفرز مع الوقت النوايا الحقيقية، خاصة بالنسبة لشخصية مثل نصر الله تتنازعها التقيّة والحماسة الأيديولوجية، يقول نصر الله في لقاء مع أنصار المعارضة: «اجتمعت الحكومة وحاولت أكثر من مرة أن تأخذ قرارا في تحويل منطقة جنوب الليطاني إلى منطقة منزوعة السلاح، لكن هم يعرفون أن هذا الموضوع لا يحل بأكثرية الثلثين، هذا ليس موضوع تصويت في الحكومة... وهم يعرفون أن هذا القرار حتى لو صوتوا عليه لا يستطيعون تنفيذه، هؤلاء ليس لديهم أي: مانع أن يجتمعوا وأن يصوتوا بأكثرية الثلثين»(٢).

إذاً؛ القضية ليست ثلثاً معطلاً أو ثلثين أو ثلاثة أثلاث، إنها السيطرة التامة،

(١) صنع القرار في إيران، ص ١٨١.
(٢) كلمة نصر الله في لقائه بأعضاء اللجان المخولة بالإشراف على التحرك الشعبي للمعارضة، موقع شبكة الشيعة، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٦م: http://www.shiaweb.org/hizbulla/news/9.html

حتى لو تعارض ذلك مع نص الدستور، وحزب الله يستطيع بقوة سلاحه أن يحقق «توازن الردع» داخل لبنان وليس مع إسرائيل، وباعترافه لا تقدر الحكومة حتى ولو كانت تمتلك أغلبية الثلثين، أن تتخذ قراراً ضد سلاح الحزب، ولذلك عندما يتحدث نصر الله عن مهمة المقاومة في الجنوب، يتحدث كأنه منطقة مستقلة، وأن محاولة الجيش أو الدولة القيام بدورها في حماية الحدود، هو «تورط»[(١)]، بينما «وجود حزب الله على الحدود عامل في الاستقرار وضمان لأمن المنطقة» و «كل من ينصح بإرسال الجيش إلى الجنوب تكون معلوماته خاطئة إذ إن الجيش منتشر أصلاً في المنطقة ولكنه ليس مؤهلاً»[(٢)].

وقد تعددت أوجه «الدولة الموازية» وتمددت لتشمل كافة مناحي الحياة، التعليم والدين والاقتصاد والسياسة والقوة العسكرية والقضاء، كل هذه المجالات يحتفظ حزب الله بأجهزته الخاصة التي تنظم الأنشطة داخلها في إطار الطائفة الشيعية[(٣)].

٤ ـ التعصب العرقي والطائفي:

عندما قدم علماء جبل عامل ـ أجداد حسن نصر الله ـ إلى إيران لنشر التشيع قهراً بين الأغلبية السُّنية بمعاونة السلطة الصفوية، أريقت في سبيل ذلك دماء مئات الألوف من المسلمين السُّنة، وكان سبُّ الخلفاء الثلاثة الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ سؤالَ الامتحان للسُّنة، ومن يسمع سبهم كان يجب عليه أن يردد عبارة «بيش باد كم باد»، وتعني طلب المزيد من السب والشتم، ومن يمتنع قتل من فوره، وأعلن السب والشتم في الشوارع[(٤)].

وكما فعل الصفويون القدامى مع سُنة إيران، يتّبع الجدد أسلوباً مشابهاً مع عرب الأحواز، والأحواز منطقة عربية استولت عليها إيران عام ١٩٢٥م، وبذلت

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م.

(٢) من كلام حسن نصر الله، قواعد جديدة للعبة، ص ١٤١.

(٣) انظر: كتاب دولة حزب الله، وكتاب الإسلاميون في مجتمع تعددي.

(٤) انظر: الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، د. محمد عبد اللطيف هريدي، دار الصحوة، القاهرة، نقلاً عن مقال: حقيقة حزب الله سلوا التاريخ، الكاتب مجهول، موقع حرمة: http://harmah.org.

جهداً هائلاً في طمس هويتها العربية، فتم إلغاء التعليم باللغة العربية، والتحدث بها في المؤسسات الرسمية والمحافل العامة، والترجمة منها وإليها، مما أوقع الأحوازيين في أزمة أمام المحاكم، وبقي العرب هناك لا يقرؤون ولا يكتبون العربية، ورفع الشاه شعاراً ورثته الثورة الخمينية وهو: شعب واحد لغة واحدة، وتم تحريم ارتداء الأزياء العربية رجالاً وإناثاً(١).

ومنع العرب من تسمية أبنائهم بأسماء عربية، والعربي هناك لا يستطيع أن يختار اسم ميساء ووليد ونبيل، ولكنه يمكن أن يختار أسماء فارسية قحة، مثل: بريسا وكامران وآزيتا(٢)، وتم تغيير أسماء المدن والقرى والأحياء والأنهار والجبال إلى أسماء فارسية، ودمرت أغلب الآثار التي تدل على الهوية العربية للإقليم ذي الثروة البترولية الهائلة(٣)، وذلك رغم أن الإقليم تفوق مساحته مساحة فلسطين المستلبة، كما يقطنها أكثر من سبعة ملايين نسمة كلهم من العشائر العربية(٤).

وينظر إلى العربي في إيران على أنه متخلف عن الجنس الآري الذي ينتمي إليه الفرس، وفي قاموس يترجم الفارسية إلى الهولندية، تم تعريف العرب بأنهم «غزاة»، وذكر معنى: عربي الجذور، أي: منحط، بلا عقل، بلا دماغ(٥)، ويتواجد في إيران حالياً تيار فارسي قومي متشدد متغلغل في الجهاز الإداري للدولة(٦).

ويتعرض السُّنة في إيران إلى قهر وظلم عظيمين، ولا يوجد في طهران بأسرها مسجد واحد للسُّنة، والذي يزور طهران من العرب السُّنّة تكون إحدى مشكلاته البحث عن مكان للصلاة.

وتبدو النزعة الفارسية للثورة الخمينية طاغية، ومن أبرز معالمها: تسمية الخليج العربي بـ«الفارسي»؛ إذ تمثل تلك القضية بالنسبة لهم قضية هوية، وقد اعتبر

(١) انظر: القضية الأحوازية، عباس عساكرة، ص ١٧٧-١٧٨.
(٢) إيران الحائرة بين الشمولية والديمقراطية، يوسف عزيزي، ص ١١٢.
(٣) القضية الأحوازية، ص ١٧٨.
(٤) حاتم الفراتي، مجلة الشراع، ٩/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٥) السابق، ص١٨٦.
(٦) إيران الحائرة، ص١١٣.

هاشمي رفسنجاني وصف الرئيس الفرنسي جاك شيراك للخليج بأنه عربي بمثابة «فضيحة»، واعتبرت إيران أن أي: تنسيق سياسي يعتبر الخليج عربياً هو مسلك مرفوض، واعتبرت مجلس التعاون الخليجي بمثابة مؤامرة على إيران، وقد قالت وكالة الأنباء الإيرانية الرسمية في هذا الصدد: «إذا رغب عدد من النظم الصغيرة في المنطقة في صنع قرارات بخصوص المياه في الخليج الفارسي دون إعطاء أي: أهمية لجمهورية إيران الإسلامية فإن مبادرتها سينظر لها بدون شك كمؤامرة ضد شعب إيران المسلم»(١)، وقد صرَّح خاتمي ـ الإصلاحي المعتدل ـ بأن الخليج العربي فارسي وسيبقى فارسياً(٢).

ويعتقد الإيرانيون أن دماء الفرس تجري في الأئمة الإثني عشر؛ لأن الحسين ـ رضي الله عنه ـ أنجب علياً زين العابدين ـ رحمه الله ـ من «سلامة» أو «سلافة» ابنة ملك الفرس يزجرد، وعلي بن الحسين منه تناسل الأئمة الباقون حتى الحسن العسكري(٣)، وهذا ما جعلهم يتمادون أكثر في الدمج بين التشيع والفارسية، ولا يزال عيد النيروز من الأعياد الرسمية في إيران(٤).

وعندما اجتاحت قوات الحرس الثوري جزيرة الفاو العراقية أثناء الحرب، قاموا في غمرة حماستهم بتغيير أسماء شوارع المدينة ومساجدها من العربية إلى الفارسية، وتم إلقاء خطبة الجمعة بالفارسية أيضاً(٥).

ويحذر محمد الحاج حسن ـ الشيعي اللبناني ـ حزب الله من الاستسلام للتعصب الفارسي، ويدعو لمواجهة: «الموجة الفارسية إلى خلع الشيعة عن العالم العربي، إمعاناً في تقسيمه والفتّ من عضده»، ويقول: إن «إيران لا تعمل لمصلحة الشيعة في لبنان والعالم العربي بل لمصالحها كدولة إقليمية مهمة في المنطقة»(٦).

---

(١) صنع القرار في إيران، ص ٢٦.
(٢) السابق، ص ٢٤٦.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٤ رقم ١٥٧.
(٤) الفقه السياسي في إيران وأبعاده، د. محمد السعيد عبد المؤمن، ص ١٤١.
(٥) انظر: صنع القرار في إيران، ص ٦١.
(٦) صحيفة الحدث، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

ورغم هذه النعرة الفارسية الواضحة، فإن أنصار حزب الله في لبنان يتغاضون عنها أو يتغافلون، رغم أن أجدادهم من جبل عامل ـ الذين نجحوا في تشييع إيران ـ لم يسلموا من التعصب العرقي، فبات يُنظر لهم في إيران على أنهم دخلاء، وانتظم العلماء الإيرانيون في تنظيمات بعيداً عنهم، حتى أن علماء جبل عامل أحسوا بالأسى من ذلك، وكتب الحر العاملي ـ من أبرز علماء الشيعة ـ يذكر فضائل العرب وبلده الأول، ثم قال: «منذ أن جئنا إلى ديار العجم وشربنا من مائها، سُلبت منا كل تلك الفضائل»[١].

وفي سياق تغافل حزب الله اللبناني عن هذه الحقيقة، فإن موقف الحزب من عرب الأحواز يكشف أمرين مهمين جداً، أولهما: أن الحزب لالتصاقه الشديد بالإيرانيين فقد أتباعه فضائل العرب كما حدث مع جدهم الحر العاملي نتيجة مخالطة العجم، وثانيهما: أن تعصب حزب الله ليس شيعياً فقط، بل هو تعصب لولاية الفقيه قبل أي: شيء آخر، والتي أصبح لا يبصر الأشياء إلا بواسطة منظارها الطائفي.

وقد ثبت أن إيران تقيم مراكز تدريب لحزب الله في منطقة الأحواز، ونشرت التايمز البريطانية[٢] وتحت عنوان: حرب طهران السرية ضد شعبها: أن إيران تستخدم عناصر حزب الله في قمع العرب هناك لمعرفتهم باللغة العربية، وهذا شيء يثير العجب؛ لأن عرب الأحواز سُنّة وشيعة، بل إن آخر دولتين للعرب الأحواز في القرون الأخيرة ـ وهما: الدولة المشعشعية، والدولة الكعبية ـ كانا يحكمهما الشيعة الأحوازيون، وكانا يشاركان أحياناً في حرب الدولة العثمانية[٣].

وقد أرسلت منظمة عربستان إحدى المنظمات المطالبة بحقوق الأحوازيين رسالة إلى حسن نصر الله تخاطبه من منطق الانتماء العروبي، وجاء فيها: «نناشدكم بأن تطلعوا مناضليكم الشرفاء في حزب الله بمدى خطورة مشاركتهم في قمع أشقائهم

(١) سالم مشكور، عرض كتاب: هجرة علماء الشيعة في جبل عامل إلى إيران، صحيفة النهار.
(٢) بتاريخ ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٣) انظر: القضية الأحوازية، الباب الأول الفصل الثاني.

الأحـوازيين الأبرياء وحـجم المؤامـرة الإيرانيـة لزرع الفتن في صـفـوف العـرب والمسلمين»[١].

القضية إذاً يختلط فيها ثلاثة موارد للتعصب لدى إيران: الفارسية، التشيع، وولاية الفقيه، وفيما يتعلق بحزب الله فهو يستمد تعصبه من موردين فقط: التشيع، وولاية الفقيه، وبذلك يكون التعصب الفارسي ألصق بالإيرانيين، ولكن يبقى حزب الله موظفاً بقوة في الموارد الثلاثة للتعصب بحكم تبعيته لإيران، أي: أن حزب الله أصبح «فارسياً» بالانتماء السياسي، حتى أن الحزب يصف الخليج العربي في موقعه بـ«الخليج الفارسي»[٢].

ويقول محمد الحاج حسن ـ رئيس التيار الشيعي الوطني الحر المعارض لحزب الله في لبنان ـ: «هناك عاصفة فارسية تريد تدمير كل المفاهيم والأعراف العربية.. حزب الله يريد خلق ثقافة فارسية قائمة على ولاية الفقيه والتكليف الشرعي الذي لم يتحدث بهما أحد من المراجع الشيعية العربية»[٣].

ولعل الخميني جمع الموارد الثلاثة للتعصب الصفوي في قول واحد حين قال: «إن العرب حكموا المسلمين وكذلك الأتراك وحتى الأكراد، فلماذا لا يحكم الفرس وهم أعمق تاريخاً وحضارة من كل هؤلاء؟»[٤].

وفيما يتعلق بالسُّنة في لبنان، فإن حزب الله ذو تاريخ ممتد في التعصب الطائفي، وإن كان يحاول أن يلتزم بخطاب إعلامي عكس ذلك، يقول الشيخ محمد الجوزو مفتي جبل لبنان: «بعد عام ٢٠٠٠م هذا الانسحاب الإسرائيلي رافقه نوع من الغرور والتعالي والتحدي والاستفزاز العلني لدرجة أن بيتي في بيروت، ودار الفتوى في منطقة إقليم الخروب ـ وهي نصفها شيعة ونصفها سُنّة ـ بدأت

---

(١) انظر: مقال طالب المذخور عضو اللجنة المركزية لمنظمة عربستان، ٢٤/ ١١/ ٢٠٠٦م:

http://www.arabistan.org/76_2006/asaleeb_rakhesah.htm.

(٢) راجع: سيرة الخميني على موقع المقاومة:

http://www.moqawama.org/_lekhosera.php?filename=20051123l627410.

(٣) صحيفة المستقبل، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م

(٤) محمود قابل، مجلة الوطن العربي، ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٦م.

أكتشف مدى تعصبهم خصوصاً فيما يتعلق بكربلاء، وفي ذكرى حادثة كربلاء كانوا يسلطون الميكروفونات على دار الفتوى السُّنيّة»، وحكى عن مشكلة أوقاف مسجد النبي يونس ـ عليه السلام ـ وقال: إن أمل وحزب الله يرهبون من القضاء في إمضاء الحكم لصالح الأوقاف السُّنيّة: «القاضي في الاستئناف لا يريد أن يصدر الحكم، وكان من المفترض أن يصدر منذ شهر، ولكن أجله خوفاً من أن تقع مشكلات بينه وبين الشيعة؛ لأنهم أتوا له من حزب الله، وحركة أمل وقالوا له: إن لم تصدر حكماً لصالحنا، فجمِّده»، وفي إشارة إلى خروج الخطاب الديني المتعصب للحزب إلى العلن في الفترة الأخيرة، قال الشيخ: «لم يجاهروا في سبِّ الصحابة من قبل، وكانوا يكتفون بقولها فيما بينهم، لكن الآن أصبحت العملية على المنابر، حيث نجد هجمة شرسة على الصحابة»[1].

ولا يخفي حسن نصر الله موقفه من الجماعات الإسلامية السلفية، فهو ينتقدها بشدة، ويقول: «هناك بعض المجموعات التي تنسب نفسها إلى الإسلام، تكفر الشيعة وتكفر السُّنة من مختلف المذاهب، وتقتل الشيعة وتقتل السُّنة، وأولوياتها قتل المسلمين الذين لا ينتسبون إلى خططها وفكرها» وبعد أن جمع هذه الأوصاف، يركزها في اتجاه واحد يخلط بين الحق والباطل، فيقول: «إنني أتحدث بالتحديد عن الحركات الوهابية والتي لا تقوم ولا تعمل أي: عمل لتحرير القدس، بل تسعى من أجل التطبيع مع العدو وتفتن أمتها من أجل الولايات المتحدة، وهنا نقول للباحثين، لا نقبل أن تحسبوا الحركة الوهابية على الإسلام، وعلى الصحوة الإسلامية»[2].

ونصر الله في ذلك لا يختلف عن إمامه علي خامنئي، وهو الذي يقول: «إن مذهب الوهابية المستحدث هو أحد المشاكل التي تمنع من الوصول إلى الوحدة الإسلامية»، وكان وقتها رئيساً للجمهورية الإيرانية، ويقول خامنئي أيضاً: «إنني أطالب علماء المسلمين بالوقوف في مواجهة مذهب الوهابية الجديد الذي يسعى

(١) حوار مع صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) مجلة الأمان اللبنانية، ٣١/ ٤/ ١٩٩٥م، العدد ١٤٩، نقلاً عن موقع فيصل نور.

بسلاح التكفير إلى إيجاد الخلاف بين المسلمين، إنني أعتبر هذه المواجهة واجباً شرعياً على العلماء والمفكرين المسلمين».

وفي السياق نفسه طالب رفسنجاني بتدويل مكة المكرمة؛ لأن السلطات السعودية حالت بين حجاج إيران ومحاولة إثارة الشغب والفتنة التي أثارها الحجاج الإيرانيون عام ١٩٨٧م، وقال: «إذا كان علماء المسلمين في العالم غير مستعدين لتقبل مسؤولية إدارة مكة المكرمة فإن جمهورية إيران الإسلامية لديها الاستعداد للحرب من أجل تحرير هذا المكان المقدس»، وعقدت إيران عشرات المؤتمرات من أجل الدعوة لهذا الغرض الذي كشف عن حقيقة أطماعها وأبعاد مشروعها، وفي العام التالي منعت حجاجها احتجاجاً، وأذاع الخميني رسالة إلى أتباعه، قال في مطلعها الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧][(١)].

هؤلاء زعماء إيران سابقاً ولاحقاً، الخميني، خامنئي، رفسنجاني، فهل يملك نصر الله أن يخرج عن خط الزعامة الإيرانية؟ وهل يملك إلا الاستسلام لـ«التكليف الشرعي» لولي الفقيه أياً كان كما صرَّح بذلك؟ وهل أبدى خامنئي تراجعاً أو اعتذاراً عن آرائه بخصوص الوهابية، التي يتخذونها ستاراً لمحاربة السُّنَّة عموماً؟

وكما زعيمهم؛ فإن أتباع «شبكة» حزب الله في العالم العربي يتمنطقون عقيدة العداء للوهابية، وكتبت صحيفة البينة العراقية والتابعة لحزب الله العراقي الشيعي تهاجم موقف السعودية من حزب الله ومغامراته، فقالت: «مرة أخرى يثبت وهابيو السعودية أنهم يصطفون مع الصهاينة بوضوح وبلا أغطية وبقوة وبلا حياء»، وتعترض الصحيفة على حظر مظاهر تأييد حزب الله من تظاهر وغيره[(٢)].

وفي لبنان؛ كان هجوم حزب الله على فريق الأغلبية منصباً بصورة رئيسة على

(١) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، ص ١٧٤ ـ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) صحيفة البينة، مقال: وهابيو السعودية وصهاينة إسرائيل، رئيس مجلس الإدارة، عيسى السيد جعفر، وصدرت الصحيفة عام ١٩٩٨م.

فؤاد السنيورة رئيس الحكومة، وسعد الحريري رئيس الأغلبية النيابية، ورغم أن وليد جنبلاط ينتقد الحزب ويهاجمه بنبرة لاذعة بخلاف السنيورة والحريري، إلا أن الأخيرين - السُّنيين - يحظيان بالهجوم الأكبر و «الشتائم» الأوفر من أنصار حزب الله المتسترين بغطاء المعارضة، ومن خلال التظاهرات التي وصفها نصر الله بأنها منضبطة، رفعت لافتات وسمعت هتافات تتناول الرجلين بسبٍّ جارح، ومن هذه الهتافات ذات الدلالة الواضحة: «يا سنيورة يا... يا صرماية عتيقة»، «يا سنيورة لا تحتار شعب المقاومة هو بيختار» ، «يا سنيورة باي باي، واحد قهوة وواحد شاي»، «يا سنيورة فلّ اليوم برّي - أي: نبيه بري - أعطى أمرو اليوم»، «يا سنيورة قول الحق بعت الدولة واللا لأ»، «الله ونصر الله والضاحية كلها»، «يا سعد طق موت وتظاهرنا ببيروت»، «يا حرامي يا سراق يا أبو بهاء»- أي: رفيق الحريري(١).

كما يكشف حسن نصر الله عن تعصب واضح للحركات الشيعية في العراق، ويثني على مواقفها التي اعتبرها حقناً لدماء المسلمين، فيقول: «التأسيس لفتنة مذهبية بين المسلمين الشيعة والسُّنة، هذا خطر تم تجاوزه بفعل موقف المرجعيات الشيعية الكبرى والحركات الإسلامية الشيعية السياسية إضافة إلى أداء الشعب العراقي بالأخص مناطق الجنوب»(٢)، وهذا الثناء يتضمن أبرز حركتين دينيتين شيعيتين في العراق، وهما التيار الصدري بزعامة مقتدى الصدر، والمجلس الشيعي الأعلى بزعامة عبد العزيز الحكيم، أي: قادة فرق الموت، والذين لم يحقنوا حتى دماء بعضهم فتقاتلوا فيما بينهم.

ويمتدح نصر الله موقف المرجعيات من الاحتلال، فيقول: «لن توجد مرجعية دينية خصوصاً في النجف الأشرف يمكن أن تعطي غطاء للاحتلال أو للتعاون معه»(٣)، وطبعاً من المشهور فتوى السيستاني التي تمنع التعرض للاحتلال، وننقل هنا موقفاً واحداً لأحد علماء الدين العراقيين الذين التقى بهم بول بريمر الحاكم الأمريكي للعراق، وهو «الشيخ» فرقد القزويني، وهو إمام مسجد في الحلة،

(١) انظر: صحيفة المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٢) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٨٢.
(٣) السابق، ١٨٤.

ووصفه بأنه ذو شخصية طاغية ويرتدي عمامة سوداء، وبعد حديث حميم بينهما، يقول بريمر: «مال إلى الأمام والتمعت عيناه بفعل الإثارة، وقال: «إنني معجب بالديمقراطية كثيراً، يجب أن يكون العراق الولاية الأمريكية الثالثة والخمسين»[١].

٥- فوبيا الحصار:

«إذا أردت أن تدخل مكاناً، فانظر أولاً كيف تخرج منه»، هذه حكمة فارسية عريقة، تعبر عن مكنون ثقافي يتم توارثه عبر الأجيال في بلاد فارس، وإيران الحديثة لم تنشأ بهذه الصورة إلا منذ تأسيس الدولة الصفوية، وقبل ذلك كانت مجرد تعبير جغرافي هلامي لا يتضمن حدوداً واضحة[٢]، بل إن الدولة الصفوية طيلة فترة وجودها لم تضم إليها الأحواز العربية.

وتتميز إيران بأنها عبارة عن هضبة محاطة بأقاليم وجبال وقوميات متعددة من معظم الجهات، وقد أكسبت هذه الوضعية مزية المناعة ضد العدو الخارجي، ولكنها بطبيعة الحال لم تمنع الفتح الإسلامي، أو السيطرة البريطانية والروسية عليها، ويبقى أن إحاطة الأقاليم غير الفارسية بإيران عنصر باعث للقلق، خاصة وأن الأغلبية الفارسية الضئيلة (٥١٪) تتركز في وسط إيران، بينما تتوزع قوميات العرب والبلوش والأكراد والآذريين وغيرهم حول إيران على أطرافها.

وبالإضافة إلى هذه القوميات، فقد ظلت إيران دوماً محاصرة بدول سُنية على أغلب حدودها، وكما كانت الدولة العثمانية حجر عثرة أمام أطماع التمدد الصفوي، فإن العراق وقف - بغضِّ النظر عن نوايا نظامه - عائقاً أمام تمدد الثورة وتصديرها مباشرة.

وكما يقول نابليون: إن معرفة جغرافية الدولة تعني معرفة سياستها الخارجية، وفي دراسة قدمها جراهام فوللر - الاستخباراتي الأمريكي العريق - لحساب مركز دراسات راند، بعنوان «مركز العالم، جيوبولوتيك إيران»، قال فيها: إن مقومات الثقافة الإيرانية الأساسية هي: الخوف من الآخر، بحكم نشأة الطائفة الشيعية،

(١) مذكرات بول بريمر، ص ٧١.

(٢) القضية الأحوازية، ص ٥٩.

والشعور بالاستعلاء الحضاري والعرقي، والمعاناة من الازدواجية بين القومية والدين، المبالغة في كل شيء سواء الأهداف أو الطموح السياسي(١).

إذاً؛ إيران تشعر بالحصار، أو ما يمكن أن نسميه فوبيا الحصار، وقد انعكس ذلك على أدائها السياسي أو سياستها الخارجية، فأصبحنا نتحدث عن حصار معاكس، أو ما أصبح يعرف بـ«الهلال الشيعي»، وهو محاولة إيرانية لنقل فوبيا الحصار من داخلها إلى القوى السُّنية الأقرب إليها والمحيطة بها، وليس أفضل من توظيف الأقليات الشيعية في المنطقة لتحقيق هذا الهدف، وكما يقول أستاذ العلاقات الدولية، د. ثامر الخزرجي: إن الواقع الجغرافي للدول يرتب في أحيان مجموعة أنماط سولكية ثابتة نسبياً، بعضها يتعلق باستراتيجيتها العسكرية، وبعضها بحركة تجارتها الدولية(٢).

وبهذه المقدمة يمكن أن نفهم أمرين، أولهما: حجم الخدمة التي قدمتها الولايات المتحدة لطهران بإسقاط نظام طالبان، وصدام حسين، ثانياً: مقدار الفائدة التي يقدمها حزب الله لإيران، من حيث إنه نقطة ارتكاز لإيران خارج نطاق الحصار الجغرافي من حولها، تمكنها من دفع جزء كبير من الزخم الثوري المتراكم داخلها، وتخفيف الضغط الداخلي والخارجي على نظامها.

ولم يكن حزب الله غائباً عن إدراك هذه الحقيقة منذ البداية، يقول حسن نصر الله في احتفال السفارة الإيرانية في بيروت بالذكرى الثالثة عشرة لموت الخميني «٤ / ٦ / ٢٠٠٢م» مركّزاً على قضية الوحدة والعزلة الإيرانية في عبارة واضحة الإيحاء: «من ٦٣ حتى ٧٩ كان الشعب الإيراني يواجه لوحده... لم يعقد أحد له مؤتمرات في العالم، ولم يجر له أحد تظاهرات في العالم... بقي الإمام لوحده.. وبقي الشعب الإيراني لوحده.. هؤلاء إيرانيون ونحن عرب... هذه حركة شيعية ونحن بقية المسلمين لا تعنينا...»، ثم يحاول نصر الله بقدرته المعهودة على

(١) انظر: صنع القرار في إيران، ص ٣٥.
(٢) العلاقات السياسية الدولية واستراتيجية إدارة الأزمات، د. ثامر الخزرجي، دار مجدلاوي، ص ١٠٨.

«ترميز» خطابه أن يلخص هدف الهلال الشيعي وتصدير الثورة والانتقام ممن عزلوا إيران من قبل، يقول: «الإمام بقي وفياً لمبادئه وقيمه ودينه، وعندما انتصرت هذه الثورة، أراد أن يعيد إيران إلى الأمة؛ لأنه كان يعرف الأسباب الحقيقية التي أدت إلى عزل هذه الحركة طوال سنوات»(١).

وما سبق يلقي بظلال من الضوء على أحد الأدوار المهمة لحزب الله بالنسبة لإيران وهي «فك الحصار»، ويبين أيضاً ـ على خلاف ما يتوقعه كثيرون ـ أن إيران ليس لها استعداد للتضحية بحزب الله في معركة خاسرة، أو ذات عائد متدنٍّ، فحزب الله قيمته من قيمة الثورة نفسها، وأهميته تنبع من فرادته من حيث المنهج ومستوى التبعية ونجاح المسيرة، وبمعنى آخر: فإن إيران ترى في حزب الله كثيراً من النجاحات التي أخفقت هي في تحقيقها، ولذلك لن تفرط فيه بسهولة؛ لأنه استثمار طويل الأجل، والتاجر الحاذق لا يبيع تجارته الرابحة عند أول خسارة، فقط عندما تكون المسألة: حياة أو موتاً، أو عندما يرثه من لا يقدر قيمة الثروة ـ والله أعلم.

٦ـ وساطة الخصوم:

لأن الصفويين عاشوا في ظل حصار أطماعهم ورغبتهم في التوسع، إلى الداخل الإسلامي السُّني وليس إلى الخارج في اتجاه الصين أو روسيا، ولأن الصفويين الجدد يحملون المنهج نفسه، فإن اندفاعاتهم الثورية المتعصبة، والتي لم تكن دوماً ناجحة، جعلتهم يتمرسون على إيجاد بوابات للخروج من الأزمات التي كثيراً ما يقعون فيها.

وفي عالم السياسة ليس من السهل أن تتجاوز دولة أو حزب أزمة هو صانعها، ولكن الإيرانيين أتقنوا هذا الفن وعلموه أتباعهم، وبعد موت الخميني وموت جزء من الثورة بداخل النفوس، والهزيمة أمام العراق ـ الذي لم ينتصر ـ تغير النظام السياسي في طهران وتبدل إلى وضعية جديدة، وكمنت الثورة، وبرزت البرجماتية كما مرَّ بنا سابقاً، وعندما توترت الأجواء الدولية تجاه إيران تم تسريب رموز إصلاحية معروفة من مجلس «الفلترة» المعروف بتشخيص مصلحة النظام، ونجح

(١) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٢٨.

محمد خاتمي كأول رئيس إصلاحي، وكان دوره غير المعلن ـ الذي حدده المرشد علي خامنئي ـ تخفيف الضغوط على إيران.

وعندما ساءت العلاقات بين واشنطن وطهران عام ٢٠٠٢م، ولاحت في الأفق غيوم غير مطمئنة، عقد مجلس الأمن القومي اجتماعاً طارئاً برئاسة خامنئي، الذي وافق على تفويض خاتمي بتشكيل لجنة تجري اتصالات رسمية مع الأمريكيين لإبعاد الخطر، وسعى خاتمي في ذلك الاتجاه حتى هدأت التوترات، ووصل الأمر إلى احتمال عقد اجتماع بين كولن باول وزير الخارجية الأمريكي وكمال خرازي وزير الخارجية الإيراني، ولكن فجأة بدأ خامنئي يهاجم تلك الاتصالات علناً، وأعلن صراحة للإعلام أنه يرفض أي: اتصال مع أمريكا، واتهم صحف الإصلاحيين بأنها تخرج عن مبادئ النظام والثورة، وأصبح موقف خاتمي بالغ الحرج حتى أمام أنصاره(١).

إذاً؛ نحن أمام أسلوب له مواصفات ثلاث: وجود خصم سياسي قابل للاحتواء، تكليف الخصم بمهمة وساطة بعد ترطيب الأجواء معه في إطار المصلحة العامة، والتراجع في الوقت المناسب بعد أن تكون الوساطة قد أدَّت غرضها.

وعندما ننتقل إلى حزب الله في لبنان، سنجد نفس الأسلوب يطبق حذو القذة بالقذة، وتحديداً في الأزمة الأخيرة، اختار حزب الله خصمه اللدود نبيه بري لكي يصبح هو الوسيط، وذلك بعد أن تم احتواؤه من قِبَل إيران وسوريا في هذا الاتجاه الذي تتوافق فيه مصالح الطائفة. وبعد أن كان بري قد أدْمَنَ دور الوسيط اللبناني الذي يلجأ إليه جميع الأطراف لإخراجهم من الاشتباكات السياسية دون إصابات، احتكره حزب الله ليصبح وسيطاً خاصاً، ولعل ذلك يفسر ابتعاد بري جزئياً عن المشاركة بصفته الشخصية في مهرجانات الشوارع والتظاهرات والاعتصامات، والاكتفاء بمشاركة حركته، بحيث يبدو محتفظاً بكونه شخصية متوازنة متفقاً عليها ومحترمة من الطوائف اللبنانية ـ هكذا ـ، ومن ثم يمكن لبرّي أن يطرح مبادرات أو تصورات لإنهاء الأزمة عندما تتعقد الأمور ويشعر الحزب بالتورط،

(١) علي نوري زاده، صحيفة الشرق الأوسط، ٧/ ٥/ ٢٠٠٢م.

ويكون بري هو منفذ الخروج في هذه الحالة دون إراقة ماء الوجه، وكما يشير نصير الأسعد في المستقبل «الرئيس برّي هو الوحيد في البلد الآن الذي يمكنه أن يكون في النُّص، ولو وجدت مواقع وازنة في الوسط في العام ١٩٧٥م لما قامت الحرب اللبنانية أصلاً»، على الأقل هذا تقديره[(١)].

ولذلك مُنعت الأطراف الأخرى من تفعيل هذه الوظيفة المستدامة لنبيه بري، وحتى عندما حاولت تلك الأطراف «مغازلة» بري سياسياً لم تلقَ قبولاً، وقد حاول فؤاد السنيورة أكثر من مرة سحب بري إلى الوساطة العامة لكنه أخفق، وفي إحدى المرات اتصل السنيورة بنبيه بري وقال له مازحاً: «يا أخي! أنت لا تريد أن تدعوني لا إلى عشاء ولا إلى غداء، ولا تريدني أن أشرب الشاي أو القهوة أو الزهورات، أنا أريد أن آتي إليك ومعي طعامي ويجب أن نلتقي»[(٢)]، وبالطبع فشلت تلك المحاولات لأنها تمت في سياق سحب حركة أمل بعيداً عن حزب الله، وكان بري قد حُدد له الاتجاه، وإن كان الأمر لم يخل من صعوبة، نظراً للخلافات المتراكمة بين الحركتين، وفي أثناء الحرب الأخيرة، كان حسن نصر الله يصرح أن نبيه بري مفوض بالتفاوض باسم حزب الله، بينما كان بري يصرح للصحفيين بعكس ذلك[(٣)]، إلى أن جاءته على ما يبدو حسب تعبير نصر الله «التعليمة» من دمشق.

غير أن هناك تفسيراً آخر للأحداث، لا يسلب مثل سابقه عن بري مزية الدهاء السياسي، وينبني هذا التفسير على أن بري لا يريد توريط أمل لآخر الطريق مع حزب الله، بل يكفي المشاركة، على أن يقف بعيداً عن الحزب مسافة كافية تجعله وريثاً له في حالة تعرض الخمينيين للحصار أو التصفية أو التحجيم.

والأمر المستغرب هنا أن ترتهن القوى السياسية السُّنّية بعض حراكها السياسي بشخص بري، رغم أن ما يبديه من مقام توسطي لا ينفي عنه التبعية الكاملة للنظام السوري، فهو مقام مزعوم مبتكر من العقلية السورية صاحبة الخبرة العريقة في إدارة

(١) نصير الأسعد، صحيفة المستقبل، ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٢) صحيفة الحياة، ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٣) موقع حزب الكتائب اللبنانية، ٢١/ ٨/ ٢٠٠٦م.

الصراعات السياسية بين طوائف لبنان، وبذلك فقد جاءت معارضة حزب الله، ومقام بري الوسيط، بمثابة حاجزين دون الوصول إلى التيار الشيعي المعارض لكليهما ورعايته لينمو بعيداً عن سوريا وإيران.

٧ ـ الدهاء السياسي وعقلية التآمر:

العيش المنكفئ في إطار أقلية تتناوشها المصالح والمنافع، وتحول طبقة نخبوية داخل الأقلية إلى مركز استقطاب لخيرات المجتمع وأكبر نقطة تجمع مالي، أدى إلى تنامي ثقافة الصراع والتنافس ومهارات التآمر والمناورة السياسية.

بل إن الثورة الخمينية نفسها لم تكن إلا مؤامرة على الشاه، وكان لأمريكا وبريطانيا دور كبير فيها، وقد تكفلت بريطانيا بإعداد حرب نفسية ضد الشاه كلف بها مجموعة من الرجال الذين تمرسوا في أساليب حرب الجواسيس المتقدمة التي اتبعتها المخابرات البريطانية في أيام الحرب العالمية الثانية، من أمثال: مارفن زونيس الذي كتب كتابه «النخبة في إيران» وهو أستاذ بجامعة شيكاغو، وحرص على الحوار المطول مع «آية الله الخميني» ثم وصفه بأن ردوده على أسئلته تؤكد أنه رجل يفتقر إلى المنطق، ومع ذلك صنع منه أسطورة[١] رفعته إلى مرتبة الإمام «الثالث عشر».

وعندما تمكنت الثورة من إقامة الدولة للمرة الأولى منذ العهد الصفوي، تفتحت مجالات هائلة للنفوذ والمصالح والمكاسب أمام نخبة الحكم التي تنتمي في معظمها إلى طبقة رجال الدين، وكان طبيعياً أن تبرز مهارات التآمر في تعامل الأقطاب المتصارعة مع بعضها.

وتاريخ الثورة الإيرانية ممتلئ بالعلاقات المتشابكة والحوادث الغامضة والوفيات المريبة، بدءاً بأعضاء مجلس قيادة الثورة الذين أشرنا إليهم في فصل لاحق، ومروراً بأحمد الخميني ابن مؤسس الدولة والذي مات فجأة وبصورة غامضة في مطلع التسعينيات، مع توقعات بأن تكون المخابرات الإيرانية هي من قامت بتصفيته

---

(١) إيرن بين التاج والعمامة، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

لحساب اللوبي الحاكم وقتها: رفسنجاني - خامنئي[١].

ومن أبرز الشخصيات المتميزة في هذا المجال: هاشمي رفسنجاني، والذي يقال عنه أنه «رجل توازنات، يغير توازناته ويبدلها، فيرتبط بتيار خاتمي بقدر ما يرتبط بمناوئيه، ويختلف مع البازار في رؤيته الاقتصادية لكنه لا يقطع معه أبداً، وهو تلميذ الخميني النجيب ومحل ثقته، وممثله في المجلس الأعلى للدفاع في مطلع الثورة، تعلم منه كيف يكتل ويعبئ، وكيف يحيد ويعزل»[٢]، ويحترف رفسنجاني إبراز فتاوى ورسائل الخميني لتعزيز مواقفه حتى بعد وفاة الأخير بسبعة عشرة عاماً، فعندما احتاج خامنئي إلى تدعيم موقفه في منصب المرشد حكى رفسنجاني أن الخميني أشاد بخامنئي واستخلفه في منصبه، ثم أشار لاحقاً بأن الخميني أوصاه بتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، ثم كشف مؤخراً عن رسالة للخميني تشير إلى طلب الحرس الثوري إيقاف الحرب مع العراق.

ويأتي خامنئي في مواجهة دهاء رفسنجاني، وفي انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٥م التي شارك فيها الأخير، كان متوقعاً رفض مرشحي الإصلاحيين من قبل مجلس صيانة الدستور، ولكن أمر خامنئي بتمرير بعضهم حتى يشتت أصوات الإصلاحيين ولا يحظى بها رفسنجاني القريب إليهم ومن ثم لا يفوز بالرئاسة[٣]، ويفوز بها أحد المحافظين.

وقد أثبت حسن نصر الله استحقاقه لثقة الخميني، فبرع في حَبْك المناورات السياسية، يقول المحلل الإسرائيلي (عوفر شيلح) مبيناً كيف قضى نصر الله على صبحي الطفيلي: «نصر الله أثبت مرة ثانية براعته السياسية، بعد محاولات استرضاء إيرانية نجح نصر الله في الدفع إلى إبعاد الطفيلي من الحزب، وصفّى الجيش اللبناني بالقوة ثورة الجياع مطلع ١٩٩٨م، لكن نصر الله الذي تيقظ للادعاء أنه يميز بين البقاعيين وشيعة الجنوب رجال طائفته، أضاف إلى المجلس الأعلى

(١) صنع القرار في إيران، ص ١٨١.
(٢) المرجع السابق، ص١٦١.
(٣) حدائق الأحزان، ص ٣٠٣.

للحزب ممثلين عن البقاع وتبنى عدداً من أقوال الطفيلي عن التمييز ضد الشيعة، هذه كانت خطوة كلاسيكية من نصر الله: انفتاح ظاهري على الصفوف، لكن بعد توثيق سيطرته الكاملة»[١].

وأحبك نصر الله وضع الطفيلي تحت حصار مائع يجعله عاجزاً عن الحركة وفي الوقت نفسه لا يتحول إلى بطل بإلقائه في السجن، ويصف الطفيلي وضعه القضائي المعلَّق قائلاً: «صبحي الطفيلي:.. المطلوب تسليط سيف القضاء هكذا، لا القضاء يُبتّ به ولا تُحل القضية حتى تستخدم للإسكات، أكثر من هذا حتى لو كنت فيما مضى كنت أذهب لمثلاً تعزية بوفاة أحدهم أو مشاركة في مناسبة اجتماعية كان يُنزّل الجيش اللبناني إلى الشوارع ويُطلق النار على المارة حتى يتم الاتصال من قبلنا بالجهات المعنية ونخبرهم أننا أقلعنا عن زيارة الجهة الفلانية، أو القيام بالمسؤولية الفلانية حينئذ ينصرف ويتركوا الشارع..

جيزال خوري: يعني حالياً أنت تقريباً بإقامة جبرية»[٢].

ويحكي مفتي جبل لبنان نمطاً آخر من التآمر الشيعي في لبنان في مواجهة السُّنة أثناء الحرب الأهلية، وهو نمط من الحروب التي تسمى في العلوم العسكرية «حرب توريط» حيث ينشب صراع مسلح بين طرفين نتيجة لعمل عسكري قام به طرف ثالث ضد أحدهما[٣]، يقول المفتي: «لم تنته هذه الحرب إلا بعد ١٧ سنة، وكان المستهدف في هذه الحرب الفلسطينيين على الحدود من قِبَل الشيعة أنفسهم، حيث كانوا يقومون بقذيفة أو اثنتين على أرض فلسطين وبعد ذلك تقوم إسرائيل بهدم بيوتنا نحن، هذا كان منطق الشيعة. وحرب المخيمات معروفة.. وكلنا نعلم أن الشيعة وحركة أمل في فترة من الفترات كانت تضرب كل المخيمات الفلسطينية، ذلك كان بإرادة سورية محضة، التي دخلت بعد المقاومة اللبنانية

(١) عوفر شيلح، يديعوت أحرونوت، مقال: لغز نصر الله، منقول من موقع المقاومة الإسلامية، تاريخ المقال بعد الانسحاب عام ٢٠٠٠م بأسبوعين.
(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٦م.
(٣) موسوعة أنواع الحروب، ص ١٦٢.

مباشرة بحجة احتضان المقاومة، وبعد ذلك بدأت المؤامرة على المقاومة نفسها»[١].

٨ـ التحالفات المؤقتة المتناقضة مع الأيديولوجية:

مرت الثورة الإيرانية بمرحلتين أساسيتين من حيث أداؤها وخطابها السياسي: مرحلة ما قبل الثورة، ومرحلة ما بعد الثورة، وفي كل مرحلة كانت صيغ للتحالفات والأحلاف تختلف عن المرحلة الأخرى.

وقد تميزت مرحلة ما قبل الثورة بالانفتاح والتوسع في عقد التحالفات مع مختلف الأطراف دون أي: قيد، فقط يكفي عداء نظام الشاه، وكل ما سوى ذلك يتم التغاضي عنه رغم الثوابت الإيديولوجية التي تمنع ذلك.

وتحالف الخميني في بداية الثورة مع أحزاب علمانية يسارية وليبرالية وشيوعية، وكان حزب توده من أبرز أنصاره الأوائل، وقد تمازج الحزب مع التيار الخميني إلى درجة أنه جاء في قيادته بحفيد رجل دين مشهور اسمه «آية الله» فضل نوري، وذلك للتعبير عن تضامنه مع الخميني[٢].

ولم تدخر طهران ـ الخميني وسعاً في التحالف حتى مع «الشيطان الأكبر» الولايات المتحدة، وكان العداء بين الطرفين في بداية الثورة يبدو مفتعلاً؛ لتمكين واشنطن من الزجِّ بحاملات الطائرات في الخليج العربي، وحسب كثير من المحللين فإن حادث احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران من قِبَل الطلبة المؤيدين للخميني[٣] تم بمعرفة أمريكا، وكان الرئيس جيمي كارتر وقتها يتشاور مع مساعديه حول الخطوات القادمة، فيقول: «ماذا سنفعل عندما يأخذ الإيرانيون جماعتنا في طهران كرهائن»، وظلت طائرات النقل الأمريكية تقوم برحلات مكوكية لنقل قطع غيار الطائرات إلى طهران، وعمل أفراد من المخابرات الأمريكية

---

(١) حوار مع الشيخ محمد الجوزو، صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) صنع القرار في إيران، ص ١٥٣.

(٣) يطلق أول رئيس لإيران بعد الثورة أبو الحسن بني صدر على هذه الحادثة: «مسرحية الرهائن»، ويؤكد أنها تمت بالاتفاق بين الخميني ومسؤولين أمريكيين، ويشير إلى مسؤولين في فريق الرئيس الأمريكي ريجان والذي كان ينافس كارتر في انتخابات الرئاسة وتغلب عليه لاحقاً، انظر: حوار مع بني صدر في قناة الجزيرة ١١/ ١/ ٢٠٠٠م، الجزيرة نت.

كمستشارين في جهاز المخابرات الإيراني الجديد السافاما[١].

وفي لبنان كانت حركة موسى الصدر قد تبنت نهج التحالفات الموسعة في مرحلتها الأولى، حتى أنها ضمت أخلاطاً من البشر يتناقضون في كل شيء، «اتسع التشكيل الوليد لانتماءات ومواقع ينفي واحدها الآخر. فوراء الإمام وقف إسلاميون تؤرّقهم عودة الإمام الثاني عشر من غيبته، وإسلاميون غيرهم تعلموا في «فتح» أن تحرير القدس امتحان الإسلام. وقريباً من هؤلاء وقف ماويون وفدوا من تنظيمات اليسار، يحبون «الشعب» ويتلمّسون آثاراً لـ (صن يات صن) في عباءة الصدر، بينما على مبعدة منهم وُجد سياسيون تقليديون ورجال أعمال أرادوا انتزاع حصة أكبر لطائفتهم في الحياة العامة، وهذا فضلاً عن المشايخ ممن رأوا في الشارع بوّابتهم إلى موقع يستقلون به عن النفوذ المذهبي السُّنّي»[٢].

وجاء حزب الله في ذلك الوسط فاتخذ الاتجاه المعاكس وهو تطهير الصف وتحقيق النقاء الثوري للطائفة، ولما تحقق له ذلك داخل الطائفة وأصبح متفرداً في المجالات التي أراد، جاءت مرحلة جديدة لها حساباتها المختلفة وتحالفاتها المتناقضة أيضاً.

بدأت القصة بسوريا، وكان على حزب الله أن يتحالف معها خلافاً للعداء السابق بينهما على خلفية الصراع مع أمل، وجاء التسويغ الشرعي من المرشد خامنئي على الفور في صيغة فتوى «شرعية» تجيز التحالف مع سوريا، ثم تطور التحالف لمستوى القتال المشترك ضد ميشيل عون الذي تحصن في بيروت الشرقية[٣] رافضاً سوريا والطائف، وكان عون يتلقى الدعم من إسرائيل ومن العراق[٤]، وقاتل حزب الله ضد ميشيل عون حتى اضطر للذهاب إلى المنفى في فرنسا.

---

(١) إيران بين التاج والعمامة، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٢) حازم صاغية، الحياة، سلسلة مقالات: فصول من قصة حزب الله اللبناني ح١، ٤/ ١/ ٢٠٠٥م.

(٣) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، ص ٢٢٨.

(٤) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١٨٧.

وعندما دخل الحزب في معترك السياسة أعلن ثابتاً أساسياً في تحالفاته على لسان نائب زعيم الحزب نعيم قاسم: «إن إمكانية التحالف مع جميع الأحزاب غير المتعاملة مع إسرائيل واردة»[١]، ولكن كانت المفاجأة الكبرى في تحالف الحزب مع شخصيتين مسيحيتين، كانا يعاديهما في السابق ويقاتلهما، وكانا يتعاونان مع إسرائيل، وهما: إيلي حبيقة، وميشيل عون.

وحبيقة كان مسؤولاً بصورة مباشرة عن مجزرة صبرا وشاتيلا بحماية الإسرائيليين، ورغم تاريخه الدموي العميل لم يتوان الحزب عن التحالف معه في الانتخابات وترشيحه على قائمته إرضاءً للحليف السوري، يقول المحلل الإسرائيلي (دانييل سوبلمان) تعليقاً على هذا التحالف: «وبهذا يتضح أن حزب الله قَبِلَ المساومة على مبادئه وأيديولوجيته وتعاون مع شخص ذي علاقات مفضوحة مع إسرائيل»[٢].

عاد ميشيل عون إلى لبنان بعد اغتيال الحريري، وانضم عدة أشهر إلى التيار المعارض لسوريا، ولكنه بَدَّل ولاءاته وانتقل إلى التيار المؤيد لسوريا، ولم يجد حزب الله حرجاً في التحالف مع عدوه القديم الذي قاتل سوريا وتحالف مع الإسرائيليين ومع صدام حسين، وتَكَشَّف أن عون تعرض لعملية إغراق بالأموال «الحلال» لا يمكنه مقاومتها، فهو تلقى تمويلات سخية لإنشاء قناة فضائية تمثل تياره اسمها «أورانج تي ڤي»، وبدا واضحاً للعيان أن التيار ينفق بغزارة غير مسبوقة، كما قدم مساعدات كثيرة للنازحين الشيعة إلى المناطق المسيحية وكأن ثروة هبطت عليه فجأة، واعتبر بعض المحللين أن تمويل الفضائية ليس إلا غطاء لتمرير الدعم المالي من حزب الله، وكان ميشيل عون هو الشخص الوحيد الذي أثنى عليه نصر الله بصورة خاصة في حواره مع قناة الجزيرة أثناء الحرب (٢١/ ٧/ ٢٠٠٦م)[٣].

وتلقى أتباع حزب الله «التعليمة» أن يغيروا حساباتهم ويضعوا أيديولوجيتهم

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٩.
(٢) قواعد جديدة للعبة، ص ٥٠.
(٣) موقع إيلاف، ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٦م.

على الرفِّ مؤقتاً، ويهتفوا للحليف عون، واستجاب «أشرف الناس وأطهر الناس» للأمر فوراً، وهتفوا في تظاهراتهم في تداخل عجيب بين التشيع والمسيحية: حمتك العذراء يا أبا هادي وحمتك الزهراء يا جنرال.... طاق طاق طاقية حزب وحركة وعونية.... أصفر أخضر ليموني بدنا نسقط الحكومة.....»(١) ونشر موقع وعد ـ القريب من حزب الله ـ صورة لإحدى مؤيدات الحزب وهي ترفع لافتة كبيرة عليها ثلاثة صور لنصر الله وبري وعون، وقد كُتب عليها «سيدنا ورئيسنا وأستاذنا»(٢)، أي: أن شيعة حزب الله يعتبرون أن ميشيل عون هو «أستاذهم» ولا فخر.

ويعطي التأمل في تاريخ ميشيل عون ملاحظة حول ارتباطه سابقاً بمرحلة السيطرة السورية، فقد كانت مواجهته مع سوريا بعد اتفاق الطائف مؤذنة بتملك سوريا للبنان، وأخفق عون رغم كل المساعدات التي جاءته من العراق ومن أطراف أخرى في تحقيق أي: نتيجة، وكانت حصيلة معاركه تشتيت المسيحيين وتسليم لبنان إلى سوريا(٣)، والآن يعاود ميشيل عون أمجاده القديمة بتحالفه مع حزب الله وتأييده للموقف السوري وتشتيته للمسيحيين، فهل يعيد التاريخ نفسه ويتسبب عون للمرة الثانية في عودة النفوذ السوري إلى لبنان؟

على ضوء ما سبق يمكن تحليل استراتيجية حزب الله التحالفية إلى عدة مستويات تتغير حسب الظروف، فهو يدعو إلى النقاء العقدي والتطهير الثوري بحماسة في مرحلة ما، ثم مع تغير الظروف ينقل الاستراتيجية من الإقصاء والنقاء الثوري، إلى الاحتواء والاستيعاب السياسي، فهو يضيق نطاق تحالفاته أحياناً ويوسعها أحياناً أخرى، وهي ضاقت في وقت من الأوقات حتى عن استيعاب أمل، ثم اتسعت جزئياً فاستوعبتها، ثم اتسعت تالياً لتستوعب تيارات مسيحية ودرزية وسُنية، فهي إذاً استراتيجية تحرك ثلاثية الأبعاد، الأولى: وفق المفهوم الحزبي الثوري الضيق، والثانية: وفق المفهوم الطائفي، والثالثة: وفق المفهوم الوطني، ويحتفظ

---

(١) صحيفة المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٢) موقع وعد ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٦م: http://www.wa3ad.org/index.php?show=news&action=article&id=1948.

(٣) راجع مجلة الشراع، ٤/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

حزب الله دوماً بقدرته على الانتقال بين هذه الاستراتيجيات الثلاث، وهذه الثلاثية تشابه تماماً خط الثورة الخمينية في مرحلة ما قبل الثورة ثم مرحلة ما بعد الثورة، ثم مرحلة البراجماتية التي بلغت قمتها في رئاستي خاتمي.

٩ـ لعبة النسبة السكانية:

يمثل الشيعة أقلية في بعض الدول الإسلامية، بخلاف إيران وأذربيجان، وخلاف على البحرين.

ولذلك تحتل قضية النسبة السكانية مساحة هامة من المخططات السياسية للشيعة القدامى والجدد، وتاريخ الدولة الصفوية الأولى في حقيقته من أكبر عمليات التغيير القسري للتركيبة السكانية في التاريخ، حيث تحولت الأغلبية من السُّنة إلى الشيعة في سنوات قليلة.

وبنود مخطط التغيير السكاني معروفة ومطبقة في أكثر من بلد إسلامي، وهي تتكون من ثلاثة أساليب رئيسة:

أولها: تغيير الواقع الجغرافي، عن طريق تشجيع أبناء الطائفة على الهجرة إلى الأماكن المستهدفة، أو إجبار السكان الأصليين على الهجرة، أو شراء وتملك الأراضي على نطاق واسع.

وثاني الأساليب: تشجيع الزيادة الحقيقية عن طريق زيادة النسل والتشجيع عليه بكافة الوسائل.

وثالثها: ترويج الدعايات الزائفة عن «مظلومية» الإحصاءات السكانية وأن النسب المعلنة مجحفة وغير حقيقية، وبناء على ذلك تتلاقى المطالب السياسية مع النسبة الحقيقية المزعومة.

وإيران طبقت كل هذه الأساليب في الأقاليم السُّنية وغير الفارسية، وأبرز مثال على ذلك: إقليم الأحواز العربي، فقد عمدت إيران إلى نقل قبائل عربية بأكملها بالقوة إلى الشمال وإحلال فرس محلهم لتغيير التركيبة السكانية، ونجحت الخطة نسبياً بعد (٥٠ ـ ٦٠) عاماً في مدن مثل: عبادان والأهواز، حيث تغيرت النسبة

السكانية ليصبح الشيعة الفرس مكوناً رئيساً[١].

وفي أي: مكان تتواجد به أقلية شيعية لا بد أن تكون هناك مطالبات بتصحيح النسبة السكانية، وحتى الدول التي ليس بها شيعة ولكن تجري على أرضها محاولات تشييع نشطة، لا بد أن تكون هناك مبالغات وادعاءات كاذبة حول النسبة السكانية، وفي مصر يزعم أحد رموز التشيع أن الشيعة بلغوا هناك عدة ملايين[٢].

ويقول الباحث الإيراني والي نصر: «العدد الكبير للشيعة اليوم يجعلهم كياناً قويّاً وفاعلاً؛ حيث إن الشيعة أكثر من ٩٠٪ من سكان إيران، وأكثر من ٧٠٪ من السكان في منطقة الخليج الفارسي، وحوالي ٥٠٪ ممن يسكنون الدول من لبنان إلى باكستان -يعني: أكثر من ١٤٠ مليون شيعي العدد الإجمالي- والكثير منهم ممن ظلوا لفترة طويلة مهمشي الدور بدؤوا يطالبون بحقوق أكبر، ودور سياسي أكثر فعالية»[٣]، ويلاحظ تركيز الباحث المقيم في أمريكا على منطقة الأطماع الإيرانية، وهو ما يوحي بوجود توافق أمريكي إيراني على استغلال «الخلل» السكاني المفتعل لزعزعة الاستقرار في المنطقة بالتأكيد على صحة الادعاءات السكانية الكاذبة.

ويتبنّى حزب الله في لبنان الاستراتيجية السكانية الخمينية منذ تأسيسه، فقد سعى إلى تغيير الواقع على الأرض في اتجاه جميع الطوائف، حتى الشيعية منها.

وقد بدأت مطامع الحزب السكانية بمحاولة تغيير الواقع الجغرافي، وكانت الضاحية الجنوبية هي الهدف الأول، فبدأ ينفذ سياسة تهجير باستخدام التهديد والوعيد أولاً ثم عن طريق عروض شراء الأراضي والمنازل، وكان بالضاحية عدد كبير من المسيحيين الذين عادوا إلى منازلهم مطلع الثمانينيات بعد نزوحهم منها أثناء اندلاع الحرب الأهلية في سنتيها الأولين ١٩٧٥-١٩٧٧م، يقول حازم صاغية: «وقد تراءى لهؤلاء، ساذجين كما تبيّن لاحقاً، أن الوجه الوطني للسياسة،

---

(١) القضية الأحوازية، ص ١١٢.

(٢) المدعي هو صالح الورداني في إحدى زياراته إلى لبنان وأمام أحد المجالس الشيعية، حسبما صرَّح الشيخ محمد الجوزو مفتي جبل لبنان في حوار مع صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/١٢/٢٠٠٦م.

(٣) مقال: عندما ينهض الشيعة، مجلة الشؤون الخارجية، عدد يوليو-أغسطس ٢٠٠٦م.

وقد صارت إسرائيل هنا، سوف يغلب وجهَها الطائفي. وتلاحقت العودات الفردية إلى أن قُتل الشيوعي ميشال بعدما بذل كل جهده لردع مسيحيي حارة حريك والمريجة عن بيع أرضهم. هكذا انطلقت بُعيد مصرعه موجة بيع، فيما كان المال الشيعي المهاجر يشتري بأسعار زهيدة، رافعاً قيمة الأراضي والشقق. وعبر رساميل تربط معظمَ أصحابها صلةٌ ما بـ«حزب الله»، تكرّس التهجير المسيحي والقطيعة المفضيان إلى صفاء طائفي»[١].

وقد تعرضت الأقلية السُّنّية في الضاحية الجنوبية إلى الاضطهاد نفسه: «بيد أن هؤلاء، منذ رفع الحزب أعلامه في الضاحية، عانوا ويعانون إقامة مجالس عاشوراء بمكبرات الصوت على مقربة مئة متر منهم. ولم تفلح في تجنيبهم الاستفزازَ المشوب بالإزعاج محاولاتٌ متواصلة أُجريت مع قيادات الحزب التي اكتفت بتوزيع البسمات المطمئنة»[٢].

وقد تواصلت سياسة الحزب ضد السُّنة في مناطق أخرى وتحت غطاء الحرب الأهلية والفوضى، فوضعوا أيديهم على منطقة الأوزاعي السُّنية، وأخذوا كل أرضها وبنوا عليها وأصبحت حياً شيعياً، ووضعوا أيديهم أيضاً على حي «الجناح» وأصبح تابعاً لهم، كما سيطروا على طريق المطار وعلى المؤسسات الموجودة فيه[٣].

كما أن السُّنة في بيروت لا ينسَون أنّ الميليشيا الشيعية، استولت على أكثر أحياء بيروت على مدى الثمانينيات، واحتلَّ هؤلاء عشرات ألوف المساكن، وما خرجوا من بعضها بعد العام ١٩٩٠م إلاّ بمئات الملايين من الدولارات[٤].

وبعد الضاحية جاء الدور على الجنوب الذي يحظى بتواجد شيعي مكثف، يقول زهير كينج أحد رجال الدين في حزب الله موضحاً أهمية الجنوب الاستراتيجية للحزب: «إذا حررنا الجنوب نحكم لبنان، وما سوى ذلك كذب

(١) حازم صاغية ٦/ ١/ ٢٠٠٥م، الحياة، سلسلة مقالات: فصول من قصة حزب الله ح ٣.
(٢) المرجع السابق.
(٣) راجع: حوار الشيخ محمد الجوزو مع صحيفة روز اليوسف.
(٤) رضوان السيد، الشرق الأوسط، ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

وخداع»(١)، ولذلك تم تسعير الحرب مع حركة أمل صاحبة النفوذ في الجنوب ولم تتوقف الحرب وإلا والحزب قد فتح الطريق إلى الحدود الفلسطينية واحتكر المقاومة.

وبعد حرب تموز ٢٠٠٦م تبنى الحزب إسقاط حكومة الأكثرية معتمداً على استراتيجية النسب السكانية، وحتى يتوضح أمامنا طريقة أداء الحزب في هذا المجال، نشير إلى ثلاث طرق في حساب الأغلبية: عدد المقاعد في البرلمان، عدد الأصوات داخل الدوائر الانتخابية، ونسبة الطائفة قياساً بإجمالي السكان.

ولأن أغلبية عدد المقاعد في صالح فريق ١٤- آذار، فإن حزب الله يأخذ الطريقة الثانية وهي اعتبار عدد الأصوات في الدوائر، وهو ما يقصده الحزب وحلفاؤه بالحديث عن أغلبية للمعارضة، ويقومون بحساب أصوات الدوائر التي انتخبت ومن ثم يعتبرون أن المعارضة تمتلك ٧٠٪ من الأصوات، بينما الأغلبية تمتلك ٣٠٪ فقط، وقد صرَّح بذلك نعيم قاسم في بيان أصدره باسم الحزب، فقال: «برز تباين واضح في الساحة بين أكثرية نيابية مؤلفة من ٧١ نائباً تمثل ٤٠٪ من الواقع الشعبي ومعارضة نيابية تمثل ٦٠٪ من الواقع الشعبي»(٢).

ولأن هذا الأسلوب يخالف «الأعراف» الديمقراطية التي ارتضاها حزب الله عندما شارك في العملية السياسية، فقد أصبح موقف الحزب غريباً، حيث يُرجع الشرعية الانتخابية إلى عدد الأصوات بينما يهمل عدد المقاعد، وكأنه يريد أن تتحدد الأغلبية وفق الأصوات وليس المقاعد، وفي حوار مع نعيم قاسم بدا واضحاً أن الحزب مستغرق في عملية حسابية يبني عليها معارضته: «نعيم قاسم: أول شي أنا بدي صحح ما فينا نقول إنه مطلب إنهاء ولاية الرئيس لحود قبل انتهائها هو مطلب لبناني عام، فينا نقول بعض اللبنانيين يريدون إنهاء..

جيزال خوري: أديش يمثلوا بعض اللبنانيين؟

---

(١) دولة حزب الله، ص ٢٩٧.
(٢) المستقبل، ٨/ ١١/ ٢٠٠٦م.

نعيم قاسم: أنا برأيي يمثلوا حوالي التلت تقريباً.

جيزال خوري: بس؟

نعيم قاسم: وبدك اعملي حسابات بعمل حسابات.»[١].

ويسعى حزب الله إلى تعديل القانون الانتخابي لاستيعاب التوازنات الجديدة التي يريد فرضها، وتتضمن خطط الحزب المستقبلية إجراء تعديلات على نسب المحاصصة الطائفية قياساً على حدوث تغيرات في النسب السكانية بين الطوائف الثلاث الرئيسة: السُّنة، الشيعة، الموارنة، وقد صدرت دراسة فردية قام بها أحد الباحثين المسيحيين ـ يوسف شهيد الدويهي ـ، وأحصى فيها عدد السكان قياساً إلى بيانات مصالح حكومية، وبينت الدراسة أن هناك تغيرات في نسب السكان كالتالي: «عدد اللبنانيين بلغ في أيلول ٢٠٠٦م أربعة ملايين و٨٥٥ ألفاً و٦٧ نسمة، موزعين ما بين: ٣٥,٣٣٪ من المسيحيين، و ٦٤,٢٩٪ من المسلمين. وجاء في الدراسة التي نشرتها جريدة النهار الصادرة اليوم: اللبنانيون: ٤,٨٥٥,٦٧؛ المسيحيون: ٣٥,٣٣٪، الشيعة: ٢٩,٠٦٪، السُّنة: ٢٩,٠٥٪، الدروز ٥,٣٨٪»[٢].

وتبرز الدراسة حدوث تغيرات مهمة بالنسبة لعدد المسيحيين الذي تناقص بشكل كبير بسبب الهجرة إلى الخارج وتراجع أعداد المواليد، ورغم أن الدراسة تبين تساوي نسبة السُّنة والشيعة في المقابل، إلا أن القناعة الشيعية أنهم يمثلون الطائفة الأكبر في لبنان، يقول د. مسعود إلهي تعليقاً على نسب الطوائف الرئيسة في مجلس النواب وهي: ٣٤ موارنة، ٢٧ سُنة، ٢٧ شيعة: «وهكذا لا تزال حصة الأسد للموارنة، ولا يزال هناك إجحاف بحق الشيعة»[٣]، وبعد الانسحاب

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) صحيفة النهار، ١٣/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٣) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٤٢٠، وإجمالي عدد النواب ١٢٨ نائباً، وبخلاف الطوائف الثلاث، هناك: ٨ مقاعد للدروز، ومقعدان للعلويين، و ١٤ مقعداً للروم الأرثوذكس، ٨ مقاعد للروم الكاثوليك، ٥ مقاعد للأرمن الأرثوذكس، مقعد للأرمن الكاثوليك، مقعد للبروتستانت، مقعد لأقليات أخرىٰ.

الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠م صرَّح نصر الله بأن الشيعة سوف يطالبون بمزيد من حقوقهم[١].

وقد أعرب أحد زعماء الأقليات في لبنان عن تخوفه من أن يتم تعديل اتفاق الطائف بتحويل المناصفة بين المسلمين والمسيحيين في المقاعد النيابية والوزارات إلى مثالثة بين الطوائف الثلاث الكبرى[٢] وبغضٍّ النظر عن صحة تقدير التغييرات السكانية، فإن رهان حزب الله هو على بلوغ مستوى المطالبة بحصة أكبر من الكعكة السياسية تتجاوز نطاق الحزب والطائفة باعتباره الطائفة الأكبر، وربما يعني ذلك تجاوز منصب رئيس مجلس النواب الأقل أهمية، والمطالبة بأحد المنصبين الأهم: رئاسة الحكومة، أو رئاسة الدولة.

ولكن الطريق إلى هذه التعديلات ليس سهلاً أبداً، يقول رضوان السيد: «نحن المسلمين اللبنانيين عددُنا أكثر من عدد المسيحيين منذ عام ١٩٥٠م، ومع ذلك ما كان نصيبُنا في الصيغة اللبنانية حتى عام ١٩٩٠م أكثر من ٤٥٪. وقد احتاج الأمر إلى ثلاثة نزاعات أهلية مسلَّحة وغير مسلَّحة، وما أمكن في النهاية الوصول إلى نسبة ٥٠٪ للمسلمين في النظام إلاّ بالتفاوض في الطائف عام ١٩٨٩م»[٣] فأي: الطريقتين سيختار حزب الله لتحقيق استراتيجيته السكانية؟

في كلتا الحالتين فإن العمل على تغيير موازين القوى على الأرض حسب مفاعيلها الحقيقية هو أمر حيوي، وهو ما يفعله حزب الله حالياً، ولعل حالة الاضطراب هذه تكون أحد أسباب التغيير الإضافية للتركيبة السكانية، كما عبر عن ذلك حسن نصر الله بقوله: «عندما تتهدد الدولة بالمخاطر الأمنية والعسكرية السياسية والانهيار الاقتصادي لا قدر الله، فإن الناس الذين يملكون الدخل ورأس المال والشركات وأولئك الذين لديهم أولاد وقصور ومنازل في الخارج سوف يغادرون البلاد إنهم يتمتعون بجنسيتين، وهذا الأمر بسيط جداً بالنسبة لهم، سوف

---

(١) قواعد جديدة للعبة، ص ٥٠.

(٢) صحيفة النهار، ١٤/ ٩/ ٢٠٠٦م.

(٣) رضوان السيد، ٢/ ٧/ ١٤٢٧هـ، الاتحاد الإماراتية.

يأخذون باقي أفراد الأسرة هنا ويرحلون، ولكن بيوتنا قبورنا حياتنا موتنا شرفنا ذلنا، كلها أمور تبقى هنا فإلى أي: مكان آخر نذهب؟»[١].

١٠ ـ التحالفات الباطنية ـ النموذج السوري:

شكل التحالف بين إيران وسوريا قاعدة أساسية منذ قيام الثورة الخمينية في العام ١٩٧٩م، وقد وُلد حزب الله في لبنان من رحم الرعاية السورية، وفي قلب دمشق عقدت أول اجتماعات لتأسيس الحزب.

ولأهمية هذه العلاقة الثلاثية سنفرد لها فصلاً مستقلاً في نهاية الباب، بعنوان: حرب الفراغات.

(١) قواعد جديدة للعبة، ص ١٣٢.

الفصل الرابع: الغيبة والانتظار

أبرز مكونات العقيدة الشيعية تأثيراً في السلوك السياسي للتجمعات والأحزاب والدول الشيعية، هي: الغيبة، والانتظار، يظهر ذلك واضحاً في التخريج الفقهي لنظرية ولاية الفقيه، وفي إقامة الدولة «الإسلامية» التي تنتظر المهدي لتسلِّم له الإمامة، وفي ترقب الانتظار والتمهيد للظهور بميلشيات وأحزاب وحروب وصراعات.

وهذه أبرز المكونات الثقافية السياسية المترتبة على هذه العقائد الحائرة:

١- التمهيد لظهور المهدي:

الثورة الإسلامية في إيران وقيام حكومة إسلامية فيها تحت قيادة الولي الفقيه، هي مقدمة مرحلية لبناء الدولة الإسلامية العالمية التي يؤكد خامنئي على حتمية ظهورها بزعامة المهدي المنتظر، وهذه الحكومة ستقوم برسم المستقبل المشرق لكل «محرومي» العالم(١).

ويعتقد الشيعة أن من علامات ظهور المهدي وجود طليعة «مؤمنة» تمثل قاعدة عند ظهوره، ولما سئل حسين فضل الله عن صحة ذلك، قال: «ليس من الضروري أن يكون هذا هو الشرط الوحيد، هذا هو بعض الأمور التي تقرب أجواء الظهور»(٢).

وذكر عبد الهادي الدراجي أحد القياديين في التيار الصدري بالعراق أن الخميني قسَّم انتظار المهدي إلى نوعين: انتظار سلبي، يمتنع فيه الشيعة عن القيام بأي إجراء، وانتظار إيجابي، يقوم فيه الشيعة بمهاجمة النواصب ومساجدهم وغير ذلك من الأعمال(٣).

هذا المعتقد واقع ومتمثل بقوة في قادة حقيقيين يحركون مقدرات دول

(١) التحول العاصف، ص ١٦١.

(٢) فتاوى فضل الله، الفتوى رقم ١١١٦.

(٣) من درس ألقاه الدراجي في بعض أتباعه، وبثته قناة الزوراء الفضائية، ٩/ ٢/ ٢٠٠٧م.

وتنظيمات وأحزاب، ويقذفون بها في كل اتجاه لتحقيق طموحاتهم باسم «صاحب الزمان»، وفي أحد اجتماعات الوزارة الإيرانية برئاسة أحمدي نجاد، وقع الوزراء على ميثاق بينهم وبين المهدي المنتظر وكان نجاد بين الموقعين، وحتى يحصلوا على توقيع المهدي اتفق الجميع على أن يحمل وزير الثقافة الإسلامية صفار هارندي الرسالة ويذهب ويرميها في بئر في جامكاران القريبة من قم، حيث يلقي الحجاج طلباتهم كل يوم أربعاء، وتؤكد المجموعة القريبة من نجاد والمتوافقة معه فكرياً أن هناك مؤشرات إلى قرب ظهور المهدي، وهم يعتقدون بأن المسألة النووية الإيرانية مرتبطة بشكل مباشر مع ظهور إمام الزمان(١).

وتطالب هذه المجموعة الحكومة الإيرانية أن تأخذ موقفاً متشدداً من الملف النووي؛ لأن هذه المسألة في اعتقادهم من الأمور التي ستعجل بخروج المهدي، وقد كان «آية الله» مصباح يزدي ـ مرجع التقليد للرئيس الإيراني ـ يروج لانتخاب نجاد بالقول: إن المهدي قد اختاره رئيساً(٢)، إذاً نحن صرنا أمام «الولي الرئيس».

خَطب نجاد أمام حشد من الطلبة في قم، فأكد لهم أن عودة المهدي باتت قريبة، وعلى «المسلمين» أن يستعدوا لاستقباله، ونقل عنه مهدي كروبي الإصلاحي ورئيس الشورى السابق، أنه يتوقع ظهور المهدي في السنتين القادمتين، وعندما توجه نجاد إلى الأمم المتحدة في نيويورك ٩ ـ ٢٠٠٥م لإلقاء كلمته أكد أن هالة من النور أحاطت به، وقد تعرَّض لذكر المهدي في الكلمة(٣).

وتتشابه شخصية الزعيمين: نجاد ونصر الله في جوانب كثيرة، ومنها: قضية المهدي، فزعيم حزب الله «إيديولوجي من طراز رفيع، يجزم عارفوه بأنه مقيم على انتظار لحظة قدوم المهدي»(٤)، ويقول نصر الله: «لقد تحققت دولة العدل الإلهية في بقعة من الأرض، لا لتبقى في حدودها الجغرافية، وإنما ليكون الفجر الذي يمتد ليتصل بظهور المهدي لتقوم دولة الإسلام في الأرض»(٥).

(١) هدى الحسيني، الشرق الأوسط، ٣/ ١١/ ٢٠٠٥م.
(٢) المرجع السابق.
(٣) مفكرة الإسلام، عصام زيدان، ١٥/ ٤/ ٢٠٠٦م.
(٤) حازم صاغية، صحيفة الحياة، مقال: فصول من قصة حزب الله، ج ٥، ٨/ ١/ ٢٠٠٥م.
(٥) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٣٤.

ونصر الله لديه اعتقاد جازم بأن المهدي موجود وسط الناس حالياً وليس مختبئاً في سرداب أو غيره، فهو يؤمن أن المهدي موجود «في المدن وفي القرى وفي بلاد المسلمين وفي موسم الحج وفي موقف عرفة ويتحمل كثيراً من المسؤوليات»(١).

وتقديس شيعة الحزب للثورة الإيرانية وقادتها يأتي من هذا المنطلق، من اعتقادهم أن هذه «الثورة لم تكن ثورة إيرانية، وإنما هي مقدمة لظهور المهدي»(٢).

٢ ـ سيطرة رجال الدين:

يقدِّر أمير طاهري عدد رجال الدين في إيران بنحو ٣٩٩ ألف شخص(٣)، وهذا العدد الكبير ناتج عن نشاط الحوزات العلمية في إيران والتي تخرج أعداداً كبيرة من رجال الدين والدعاة والعلماء، ومع قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، جمع رجال الدين الشيعة سلطة الحكم إلى جانب سيطرتهم الدينية على المجتمع الإيراني، فتمت لهم السيطرة التامة على حياة المجتمع، يقول د. مسعود إلهي: «النفوذ الزائد للأصوليين الشيعة داخل طائفتهم، مقارنة بنفوذ الأصوليين السُّنة، يبدو مستمداً من سلطة العلماء الدينية والسياسية، التي هي أقوى في المذهب الإثني عشري، منها عند السُّنة»(٤).

وقد نتج عن هذه السيطرة سلبيات كثيرة، ليس أقلها الفساد المالي والسياسي، وكان ذلك مبكراً جداً في عمر الثورة، مما دفع أول رئيس وزراء لإيران مهدي بازرجان إلى مخاطبة الخميني قائلاً: «لقد قسمتم المجتمع الثائر الموحد إلى ثلاث طبقات: أنتم الطبقة الممتازة، ونحن الطبقة الحائرة، وبقية الشعب طبقة مطرودة»(٥).

وسيطرة رجال الدين ليس مجالها الدولة أو عموم الأمة فقط، بل إن الخطر

---

(١) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٧٠.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٣٦.
(٣) الشرق الأوسط، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٤) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢٦.
(٥) حدائق الأحزان، ص ١٦٠.

الأكبر على رجال الدين الشيعة يأتي من داخل طبقة رجال الدين نفسها، وقد عظمت نظرية ولاية الفقيه وفرضها على الجمهورية وعلى المرجعيات العلمية هذا الخطر، وقد اضطر الخميني في بداية الثورة أن يرسل تلميذه النجيب «آية الله» حسين منتظري إلى قم لكي يعمل على معالجة الأوضاع هناك، وأنشأ الخميني محكمة رجال الدين المخصصة لمحاكمة رجال الدين الذين يشكلون خطراً على نظام ولاية الفقيه[١].

وكما أن رجال الدين هم مصدر قوة النظام، يمكن أيضاً أن يصبحوا نقطة ضعفه في الخارج، إذ تكمن الخطورة في نشأة مرجعيات وعلماء كبار خارجين عن خط الجمهورية الإيرانية، ولو ركزنا على الوضع الديني في لبنان، فسنجد محمد حسين فضل الله ـ الذي عين نفسه مرجعاً شيعياً رغم اعتراض طبقة رجال الدين الموالية لإيران ـ يمثل خروجاً عن خط الثورة، وقد انقلب فضل الله على الثورة بعد وفاة الخميني تحديداً بعدما كان يؤيدها بحماسة، واتُّهم فضل الله من قِبَل أنصار حزب الله في لبنان بالخروج عن الإجماع الشيعي، ومخالفته الشيعة في بعض الفتاوى والمسائل المتفق عليها عندهم، وتعرض للسب والشتم من أجل ذلك، وقد اتَّهم فضل الله علناً إيران وحزب الله بمحاولة المساس بمكانته وقال: إن هناك جماعات معينة داخل وخارج إيران لا يرتاحون لتنامي السلطة الشيعية الدينية خارج إيران، وبأن حزب الله قد قرر مساندة إيران في هذا الشأن، وقال فضل الله: إنه لهذا السبب هنالك عناصر في لبنان تسعى إلى تشويه سمعته سياسياً من خلال تسميته منحرفاً عن المسار الشيعي[٢].

ويُعتقَد أن حزب الله يحظر قراءة كتب فضل الله وبيعها في مكتباته، لكن فضل الله يحاول تخفيف ذلك ويقول: «لا أتصور أن هناك منعاً بالمعنى التنظيمي لحزب الله حول كتبي؛ لأنها لا تزال تباع في مكتبات المناطق التي يملك حزب الله فيها نفوذاً، ربما قد يلاحظ في بعض الجهات الأخرى»، ثم يقول في تصريح واضح:

---

(١) انظر: صنع القرار في إيران، ص ١٢٥.
(٢) انظر: قواعد جديدة للعبة، ص ٦٣.

«أتصور أن الذين يحرِّمون قراءة كتبي قد يخافون أن يكتشف الناس الحقيقة في غير ما يقولون»، ويؤكد حزب الله مع ذلك أن جيل حزب الله الأول قد تتلمذ على يده: «الجيل الذي يمثله حزب الله قد تربى على يدي... كان كل شباب حزب الله يتتلمذون علي ويستمعون إلى خطبي وإلى أفكاري ويقرؤون ذلك»[١].

وتكمن خطورة المرجعيات «الخارجة عن النص» في غلبة المناخ الديني والثقافة الحوزوية داخل الحزب، حيث «معظم أعضاء شورى قيادة حزب الله منذ تأسيسه وحتى اليوم من علماء الدين، وكذلك رئاسة المجالس المهمة: المجلس التنفيذي والمجلس الجهادي في عهدة علماء الدين، كما كان يختار الناطق الرسمي باسم الحزب والأمين العام ونائب الأمين العام من بين علماء الدين»[٢]، يقول وضاح شرارة: «التوجه وجهةَ رجال الدين والإكثار منهم في صفوف الحركة أمرٌ يتفق مع أركان الحركة الإسلامية الإيرانية، إذ يولي ركنها الشيعي العلماء والسادة منهم من أبناء فاطمة ـ رضي الله عنها ـ خاصة، مكانة عالية وفريدة»[٣].

هذه البيئة الدينية ـ بالمفهوم الشيعي ـ يمكن أن تصبح مجالاً خصباً لأيٍّ زعامة دينية معارضة للنمط الخميني، نظراً للتواصل الديني والثقافي، وإذا كان من غير الممكن وَأْد طبقة رجال الدين داخل الحزب، فإن الخطر يُزال بإقصاء الطرف الآخر للأزمة، أو الحرص على عدم ظهوره أصلاً.

ولذلك كان ملاحظاً أن حزب الله لم يستطع ـ أو لم يُراد له ـ تطوير رجال دين بارزين إلى مستوى الرمزية، بل كان جلّ العلماء الذين أخرجهم أو تربوا في صفوفه أو أصبحوا من قياداته من الدرجة الثالثة أو الرابعة، و «حزب الله بدوره لا يخفي افتقاره إلى قيادات عالية الكعب في هذا المضمار، ولأنه لا مراجع لديه يُعتدّ بها وسيطاً لائقاً بين الولي الفقيه وجمهرة المؤمنين، أناط الحزب بالحوزات الكثيرة إيجاد رجال دين صغار يعادلون صغار الضباط في الأنظمة الانقلابية»[٤].

---

(١) حوار مع مجلة المشاهد السياسي، ٣٠/ ٥/ ١٩٩٩م.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢٢.
(٣) دولة حزب الله، ص ٥.
(٤) حازم صاغية، صحيفة الحياة، ٨/ ١/ ٢٠٠٥م، مقال: فصول من قصة حزب الله، ج ٥.

هذا التشبيه لرجال الدين في حزب الله بـ«صغار الضباط» في الأنظمة الانقلابية، يعطي إيضاحاً للسياسة الإيرانية في تكوين التجمعات التابعة لها، فهي تجمع ما بين الحرص على تخريج جيل من رجال الدين الثوريين، والحرص على أن يظل نموهم الديني قيد السيطرة فلا يتجاوز حد الأمان فيبلغ مستوى الرمزية الدينية فضلاً عن المرجعية، ويكفي أن يتم تفعيلهم -أو حرقهم- في النشاط التعبوي والدعوي والتعليمي بعيداً عن موارد الخطر.

وفقاً للرؤية الإيرانية يتحدد دور رجال الدين في حزب الله في أمرين: «الأول: إقامة جسر تواصل بين الولي الفقيه وبين أتباعه اللبنانيين، والثاني: ضمان ماهية حزب الله الإسلامية والمحافظة عليها، ويوضحون المسوغات الشرعية لممارسات حزب الله ومواقفه وأعماله، ومن بينها: استخدام العنف السياسي لتحقيق الأهداف المرجوة»[(١)].

٣- معيار النصر والهزيمة بين نصر الله والأسد وخامنئي:

في الذكرى الـ١٣ لموت الخميني وقف حسن نصر الله يتحدث عن «الإمام»، فقال مخاطباً أنصاره: «أنا أتذكر في تلك السنين بعض الكبار كانوا يقولون: من الذي سيجيب الله يوم القيامة ويتحمل مسؤولية هذه الدماء؟ ووصلت هذه التشكيكات إلى أذن الإمام الخميني، وكان يقول بكل ثقة: أنا سأقف يوم القيامة لأجيب عن هذه الدماء أنها سفكت في المكان الصحيح، وأنها سفكت في سبيل الله، وفي سبيل الحق، وفي سبيل كل القيم التي بعث الله من أجلها الأنبياء والرسل»[(٢)]. عن أي دماء يتحدث نصر الله؟ إنها دماء القتلى الإيرانيين في الحرب مع العراق، والتي كان يمكن أن تنتهي بعد عام واحد من بدايتها لولا إصرار الخميني على مواصلتها بعد تحقيقه نصراً مؤقتاً.

وهذه الدماء تحديداً تعود إلى ٢٢٠ ألف قتيل إيراني، بالإضافة إلى ٢٢٠ ألف معوق، وأما الخسائر المادية فقدرت بـ ٢٠٠ - ١٠٠٠ مليار دولار[(٣)]، وهناك

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢٧.

(٢) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٢٧.

(٣) حوار مع هاشمي رفسنجاني، قناة الجزيرة، ٢٧/ ١/ ٢٠٠٠م.

تقديرات أخرى للخسائر البشرية تصل إلى مليوني شخص حسب أمير طاهري الصحفي الإيراني المخضرم[١]، وكان من بين القتلى نحو مائة ألف لم يتجاوزوا الثانية عشر عاماً، كانوا يتقدمون قوات الجيش لتنظيف حقول الألغام[٢].

ومرة أخرى يرد حسن نصر الله على ما قد يخطر في الأذهان: «أنا أقول للذين تحبطهم أعداد الشهداء فيبدؤون بالويل والثبور وندب الصدور والدعوة إلى الانهيار والسقوط والاستسلام: في يوم واحد في ١٥ خرداد سنة ١٩٦٣م أمر الإمام الناس أن يخرجوا إلى الشوارع وخرجوا، وفي مدينة واحدة اسمها طهران قتل رجال الشاه خمسة آلاف إيراني من الرجال والنساء والأطفال في ساعة واحدة في يوم واحد، خمسة آلاف إيراني يقتلون ويستشهدون، وعلى الإمام أن يواجه هذا الرد الدموي العنيف، طبعاً خرجت أصوات لتقول للإمام: هذه نتائج خطبك هذه نتائج بياناتك وحركتك»[٣].

ولم يكن العراق قد احتل وقتها من قِبَل الولايات المتحدة، ولذلك لم يذكر نصر الله لماذا لم يَجُدْ الخميني - أو خليفته خامنئي - ببعض هذه الدماء ضد «قوى الاستكبار العالمي» التي طرقت أبواب طهران من بغداد!

لماذا وقعت حرب العراق؟ ولماذا وقعت حرب تموز يوليو في لبنان؟ سياق الأهداف قبل الحرب مختلف عن سياقها بعد الحرب، ومستوى التطابق في الذهنية الشيعية الخمينية في لبنان وإيران يبدو تاماً في هذه القضية، ففي العراق، كان الهدف واضحاً ومعروفاً ومعلناً: أن الطريق إلى القدس يمر عبر العراق، وأن تحرير المستضعفين منصوص عليه في الدستور، وأول قوى الاستكبار نظام صدام حسين، وفي لبنان كان الهدف المعلن تحرير الأسرى، وتحقيق توازن الرعب مع إسرائيل.

لكن عندما أوقف صدام الزحف الإيراني وأغلق الطريق إلى القدس - أو طريق

(١) الشرق الأوسط، ٣٠/ ٨/ ٢٠٠٣م.
(٢) هدئ الحسين، الشرق الأوسط، ٣/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٣) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٢٧.

الهلال الشيعي تحديداً ـ وأوشك أن يحول الثورة إلى ذكرى واضطرت إيران إلى الاستسلام، تبدلت الأهداف على الفور، وقال رفسنجاني: «هدف العراق كان هو القضاء على الثورة أو في القليل تقسيم إيران»، ومن ثم فإن «إيران منتصرة لأن أياً من أهداف العراق لم يتحقق»[١]، ويذكر موقع المقاومة ـ على الإنترنت ـ التابع لحزب الله توقف الحرب الإيرانية العراقية في سياق عرضه سيرة الخميني، فيقول: «وهكذا تنتهي حرب الثماني سنوات دون أن يظفر مشعلو فتيلها في تحقيق أي واحد من أهدافهم»[٢].

وفي لبنان عندما تغيرت دفّة الأحداث، تغيرت وجهة الأهداف، وقال نصر الله: «هذه الحرب كان هدفها القضاء على حزب الله. هذا هو الهدف الرئيسي والمباشر»[٣].

إذاً؛ هناك حيدة في مسار الأهداف في مرحلة ما بعد الحرب، وبدلاً من أن يقال: كان هدفنا هو كذا، ولم يتحقق، يقال: كان هدف العدو كذا، ولم يتحقق، وطبعاً يتم اختراع أو تضخيم هدف العدو، حتى يتناسب مع مقاس «الفشل».

وهذا الهدف المخترع ـ تدمير حزب الله ـ لم يقل به سوى قادة الحزب أنفسهم، وحتى الخبراء العسكريون الإسرائيليون صرَّحوا منذ بداية الحرب بأن القضاء على الحزب غير ممكن، ولو كان الأمر بهذه السهولة لكانت إسرائيل قضت منذ فترة طويلة على كتائب القسام أو شهداء الأقصى أو سرايا القدس، إنها حتى لم تقضِ على كتائب أبو الريش الفلسطينية أو تدمر قدراتها العسكرية رغم أنها تحتل غزة والضفة منذ عقود وجيشها ومخابراتها متوغلة في الداخل الفلسطيني الذي لا يملك عُشْر إمكانات حزب الله، فكيف يمكن الزعم أن إسرائيل كانت تسعى للقضاء على الحزب.. ثم فشلت؟ ما كانت تسعى إليه إسرائيل هو إضعاف قدرة الحزب العسكرية والصاروخية تحديداً، وتعطيل القدرة على تنفيذ عمليات مباشرة،

---

(١) حوار مع قناة الجزيرة، ٢٧/ ١/ ٢٠٠٠م.

(٢) موقع المقاومة، سيرة الخميني:

http://www.moqawama.org/_lekhosera.php?filename=20051123162741O.

(٣) حوار مع صحيفة السفير، ٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.

وإبعاد مقاتلي الحزب عن الحدود، وإثارة المجتمع اللبناني ضد الحزب بما يعوق قدرته على التحرك لصالح إيران وسوريا.

يقول الباحث الاستراتيجي ريشار داغر: «لا تقاس الانتصارات الاستراتيجية إلا بمقدار ما تتمخض عنه المواجهات، من فرض واقع جديد يكون لمصلحة طرف دون آخر، والانتصارات في الحروب لم تعد تترافق مع إعلانات الفوز وما يقابلها من ممارسات الإذلال وطقوس النجاح، ولم تعد تتطلب إزالة الخصم كلياً عن مسرح الأحداث، مثلما انتهت إليه الحرب العالمية الثانية في إبادة النازية والفاشية، بل - تكون الانتصارات - في فرض حال جديدة وإخضاع الخاسر لشروط الفائز وإملاءاته، ولو استمر اللاعبون الخاسرون على قيد الحياة وفي مواقعهم»(١).

ولدى أتباع الخميني عادة في الحروب، وهي تفجير صراعاتهم مع أعدائهم على ساحات الآخرين بعيداً عن إيران، فطهران تنافس أمريكا وتشاغبها في العراق ثم في لبنان، وحزب الله يشاغب إسرائيل في بيوت الناس ومنازلهم ويخبئ أسلحته ويطلق صواريخه من قرى السُّنة وبيوتهم ومساجدهم، ولذلك يفخر قادته أن الحزب لم يتأثر ولم يخسر ولم ينهزم ولم يفقد قوته الصاروخية التي - للعجب - زادت بعد الحرب.

إذاً؛ من الذي خسر؟ إنهم أولئك الناس الذين جرت الحرب في ميدانهم، وليس ميدان حزب الله، يقول حسين الحاج حسن النائب عن حزب الله: «طبعاً أمر يُؤسف له ونحن نحزن له كثير الحزن أن يكون هناك عدد كبير من الشهداء المدنيين والخسائر في البنى التحتية، لكن هل تحقق الهدف الإسرائيلي بالقضاء على حزب الله؟ كما قالوا في اليوم الأول تحطيم عظام حزب الله، لم يتحطم حتى ظفر واحد من حزب الله»(٢).. وتحطمت رقاب الناس.

وفي الحقيقة حزب الله لا يمكن اعتباره خاسراً أو فائزاً في هذه الحرب؛ لأن هناك نوعاً من الحروب التي يشعلها الرافضة يمكن تسميتها «حروب التقيّة» وهي

---

(١) موقع مجلة المسيرة: www.almassira.com.

(٢) برنامج (نقطة نظام)، قناة العربية، ٢١/ ٧/ ٢٠٠٦م.

حروب تشتعل على جبهة معينة؛ لتحقيق الانتصار على عدو في جبهة أخرى، وهي نوعية من الحروب تجمع ما بين: الحرب بالوكالة، وحرب التوريط، كما تبين تقسيمات الحروب السياسية في العلوم العسكرية(١).

وفي حالة حزب الله فإن هناك جبهتين، الأولى: الجبهة الإيرانية الأمريكية، وهي جبهة افتراضية، تتضمن الملف النووي، بالإضافة إلى انتقال العلاقة بين البلدين - إيران وأمريكا - من مرحلة تبادل المصالح، إلى مرحلة صراع المصالح، وحزب الله في هذه الجبهة يلعب دور الطليعة الانتحارية، التي تهدف إلى فتح موقع متقدم من أجل وضع مشروع الهلال الشيعي قيد التنفيذ، بما يضمن «تلاصقاً» شديداً للأوراق السياسية في منطقة الهلال، ويقدم تغطية سياسية كافية لخطوات إيرانية جريئة للأمام، بالإضافة إلى تحسين شروط التفاوض أو الصراع مع الولايات المتحدة، وتوسيع جبهة الصراع - أو تسخينها - في حال تعرض طهران لهجوم.

قيام حزب الله بهذا الدور تطلَّب تحقيق توازن «رعب» جديد وحقيقي، تم تفعيله في حرب ٢٠٠٦م بإرسال إشارات واضحة إلى إسرائيل والولايات المتحدة أن قوة الحزب العسكرية قد تنامت واكتسبت صلابة تمنعها من التصفية، وأما تدمير لبنان فلم يكن أكثر من محاولة إسرائيلية لتأليب الداخل اللبناني على الحزب، وتقليص قدرته العسكرية بإزاحة قواته إلى الشمال قليلاً بما يُحيد عدداً كبيراً من صواريخه قصيرة المدى، ولعكس معادلة التوازن التي حاول حزب الله تغييرها، لتُصبح إسرائيل قادرة على الفعل دون توفر قدرة للحزب على رد الفعل.

أي: أننا أمام حرب وقعت من أجل سعي طرف لتغيير معادلة التوازن، بينما الطرف الآخر كان يسعى إلى إبقاء المعادلة القديمة، فنتج عن ذلك معادلة ثالثة لا تزال في مرحلة الصياغة، وعادة ما تكون معادلات التوازن غير الواضحة أو غير المستقرة سبباً في اندلاع حرب أو حروب أخرى حتى يتم الوصول إلى معادلة مستقرة.

وكان رد حزب الله على المحاولة الإسرائيلية هو السعي إلى تخريب التركيبة

(١) انظر: موسوعة أنواع الحروب، الفريق ركن الدكتور محمد فتحي أمين، ص ١٥٧ - ١٦٢، دار الأوائل.

السياسية اللبنانية المؤهلة لمباشرة عملية ردع فعالة لأداء الحزب المتهور مستقبلاً، وإرغامه على الرجوع إلى معادلة التوازن القديمة، وبذلك يكون الموقف كالتالي: إسرائيل أفقدت الحزب الجبهة التي تسوغ له امتلاك السلاح، والحزب أفسد الأرضية السياسية التي يمكن أن ينبني عليها نزع سلاحه، فلم يعد هناك حكومة مركزية قوية أو مجتمع متماسك قادر على ردع الحزب.

وبفرض أن الأمور هدأت داخلياً فإن التوازن السياسي القادم لن يمكنه تجاهل ترقية سياسية للحزب الذي سيبقى محتفظاً بقوته العسكرية ـ أو جزءاً منها ـ، ومُمسكاً في أقل الأحوال بـ (كارت إنذار) للاعبين اللبنانيين.

وأما الجبهة الثانية، فهي الجبهة السورية الإسرائيلية، وكان حزب الله موكلاً من سوريا لشنٍّ حرب تهدف إلى تحسين شروط التفاوض مع الجانب الإسرائيلي، ولمعادلة انسحاب سوريا وتأمين نفوذها في لبنان، بالإضافة إلى تعويق المسار اللبناني للمحكمة الدولية الخاصة باغتيال رفيق الحريري.

ومما يؤكد بعض هذه الأهداف أن إسرائيل كان من أهداف انسحابها من لبنان سحب ورقة «المقاومة» من سوريا، وهو ما شكل بالفعل مفاجأة وهزَّة لدمشق، حتى أن ردود الفعل السورية على إعلان الانسحاب الإسرائيلي مثيرة للتأمل، فقد صرح عبد الحليم خدام تعليقاً على بوادر قرار الانسحاب: «إذا كانت إسرائيل تنوي وضع تغييرات لتتوصل بذلك إلى اتفاقيات منفصلة، فعليها أن تعرف بأن خدعاً كهذه ستفشل»[1]، كان تخوف دمشق من فصل المسارين اللبناني والسوري، وكان الخوف الحقيقي من فقد ورقة «المقاومة».

وكانت وجهة النظر الإسرائيلية تتلخص في التالي: من يمكنه خدمة سيدين، يمكنه خدمة ثلاثة أسياد، وبذلك أضافت إسرائيل نفسها عنوة إلى القائمة، وجعلت من حزب الله «حرس حدود»[2] ووفرت على نفسها ميزانية جيش (لحد) الجنوبي،

(١) قواعد جديدة للعبة، ص ٣٣.

(٢) وهذا وصف صبحي الطفيلي الأمين السابق للحزب، والأخبر بشؤونه، وقد سبق الإشارة إليه.

ولذلك يقول (دانييل سوبلمان): «مما لا شك فيه أن إسرائيل لو كانت ترغب لاستطاعت تصفية أغلب العناصر الهامة في حزب الله، ومنهم المسئولون عن تنفيذ العمليات، والحقيقة في حالة حدوث هذا فإنه تبعاً لمعادلة الربح والخسارة، لا يتفوق الربح، ومن ثم فهذا لا يبرر الخسارة»(١).

ويمكن القول: إن العلاقة بين حزب الله وسوريا قد أخذت سياقاً جديداً بعد تسلم بشار الأسد الحكم، حيث أتاح تقارب السن وعدم وجود تاريخ سياسي ممتد لشخص بشار المجالَ لتقوية علاقاتهما.

وقد التقى الاثنان في عدد من المناسبات قبل تولي بشار منصب الرئاسة، حيث كان مسؤولاً عن الملف اللبناني الذي تسلّمه في عام ١٩٩٩م من عبد الحليم خدام نائب الرئيس، وحالما أصبح بشار رئيساً استقبل نصر الله في دمشق، وتذكر تقديرات مخابراتية أنهما يلتقيان عدة مرات كل سنة، ويتم استقبال نصر الله بحفاوة بالغة في دمشق(٢).

ولكن عندما يجتمع الصفوي مع العلوي (النُصيري)، لا يمكن الاتّكال إلى هذه الابتسامات واللقاءات الحميمة، فوراء الأكمة ما وراءها دائماً، والأكمة يختبئ فيها التحالف الإيراني السوري، وهو تحالف موضع استهداف حالياً، والحسابات السياسية هي ما يقويه، واختلاف المصير هو ما يفرقه، وأصبح من المعروف أن إيران تخطط في سوريا لما بعد الأسد، ولذلك تؤمن نفسها بتأمين مجتمعها الخاص في سوريا عن طريق شبكة التشيع المتنامية!!

وتراهن القوى الغربية، أو على الأقل بعضها، على تحقيق «فصل مسار» بين طهران ودمشق عن طريق تجاوز الحسابات السياسية، والحديث أو التهديد بوحدة المصير، ولكن يبدو أن التورط السوري في لبنان مسألة من الصعب حلها، وإن كانت واشنطن راغبة في تأمين الوقت على الجانب السوري، ولذلك تغير مسار لجنة التحقيق في اغتيال الحريري، وبعد أن كان قاضي التّحقيق السابق (ديتليف ميليس) يتحدث بصورة مباشرة عن قرائن إدانة لسوريا؛ اتبع القاضي الجديد

(١) السابق، ص ١٢٦.
(٢) انظر قواعد جديدة للعبة، ص ٦٦.

(بيريميريتس)، مسلكاً جديداً ماراثونياً لا يكشف سراً ولا خبراً، يقول ميليس: «نحن واللجنة ذكرنا في تقريرنا أننا لمسنا أن هناك أدلة قاطعة على انخراط الاستخبارات السورية في عمليات الاغتيال»(١).

ويقول (توماس فريدمان) عن فصل المسارين السوري والإيراني على حساب حزب الله: «والآن هل يمكن للولايات المتحدة أن تستغل غباء نصر الله؟ إذ سيمثل التحرك الاستراتيجي الكبير من جانب واشنطن في الفصل بين سوريا وإيران وإعادة سوريا إلى ـ حظيرة ـ العرب السُّنة؛ تغييراً للعبة»(٢)، ويقول (فريدمان) أيضاً استناداً إلى التاريخ القريب: «عندما حاولت إدارة ريجان فرض معاهدة إسرائيلية الطبخ والتدبير على لبنان غير آبهة بالإرادة السورية؟ وبما أني كنت هناك وقتها فكيف لي أن أنسى ما حدث: فقد أقدم لحظتها حزب الله ـ مدعوماً من سوريا أو إيران ـ على إبراز عضلاته القتالية وعمد إلى تفجير السفارة الأميركية في بيروت وكذلك نسف ثكنات قوات المارينز المرابطة في لبنان، إضافة إلى هجومه على قوة حفظ السلام الفرنسية الموجودة حينها»(٣).

وما بين أمريكا وسوريا وإيرانِ وإسرائيل، يبقى حزب الله اللبناني مشتتاً غامضاً، وتبقى تصرفاته رهن الاتصالات المباشرة والوساطات العاجلة وقرارات غرف العمليات في طهران ودمشق، وإن كان الحزب يبدو منطقياً مع عقيدته وأيديولوجيته عندما يرضى بخدمة ملالي طهران، فإن العجيب هو تحول الحزب إلى مطية للنظام السوري، رغم معرفة واطلاع قادة حزب الله على حقيقة الموقف السوري منهم، وهذا ليس بالأمر المستور، فإن تعاون الحزب لأول مرة مع سوريا احتاج إلى تدخل من خامنئي وفتوى لإجازته، يقول أبو سعيد الخنساء من قادة الحزب القدامى: «إن بعض أصدقائنا كانوا ينظرون إلى سوريا كعدو، ولو لم يتدخل السيد القائد ـ الخامنئي ـ مباشرة لما صححت هذه النظرة»(٤).

---

(١) قناة الحرة، ١٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٢) صحيفة هيرالد تربيون، ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٦م، جريدة الجرائد العالمية، العدد ٩٩٢.
(٣) موقع أحرار سوريا، نقلاً عن نيويورك تايمز ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٤) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٤١٣.

ولذلك فإن استدراج سوريا للحزب في إطار التحالف مع طهران ربما يترتب عليه آثار سلبية داخل الحزب نفسه، خاصة لو حدث تغيير في بنية النظام السياسي الإيراني، سواء باختفاء المرشد علي خامنئي للموت أو لغيره، أو لأي تغيرات أخرى قد يشهدها النظام في طهران.

يقول حسن صبرا الصحفي اللبناني الشيعي: «نصر الله يعلم قبل غيره أن بشار الأسد متعطش لذبح حزب الله وقتل قياداته ومصادرة أسلحته وتدمير بناه التحتية والبشرية، شريطة أن يأخذ الضوء الأخضر من الولايات المتحدة الأميركية بعد صفقة يعقدها معها، كما عقد والده حافظ الأسد صفقة مشابهة مع أميركا كان ثمنها ذبح منظمة التحرير الفلسطينية بالمشاركة مع إسرائيل، مقابل احتلال إسرائيل لجزء من لبنان، واحتلال النظام السوري الجزء الأكبر منه»(١)، وبشار نفسه أبدى أكثر من مرة رغبته الصادقة للحوار مع أمريكا، وقال في مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية: «أنا لست كصدام حسين أنا أريد أن أتعاون»(٢) ولكن إدارة بوش كانت تريد المزيد.

وفي سياق رد الفعل السوري تجاه التصعيد في لبنان، تقول صحيفة ألمانية: «الرئيس السوري غير مستاء للتصعيد الذي تشهده لبنان، فسوريا تلمح إلى أنه لم يعد هناك من يسيطر على حزب الله بعد انسحابها من لبنان، ولذلك فقد تمكن الشباب من الشيعة الراديكاليين أن يعطوا الأفضلية لاستخدام القوة»(٣).

وتشير بعض التقارير الصحفية إلى أن دمشق تعتمد سياسة مركزية في إدارة معركة حزب الله الحالية مع فريق الأغلبية، فقد تم تشكيل غرفة عمليات خاصة مؤلفة من الرئيس بشار الأسد، وشقيقه ماهر الأسد ومديرالمخابرات وصهر الأسد آصف شوكت، بالإضافة إلى شخصيات لبنانية من حزب الله وبقية أحزاب المعارضة، ومن ضمن قرارات هذه الغرفة استخدام أعداد كبيرة من

---

(١) حسن صبرا، رئيس تحرير مجلة الشراع، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) نقلاً عن موقع: أحرار سوريا.
(٣) صحيفة فرنكفورتر الجماينه الألمانية، ١٧/ ٧/ ٢٠٠٦م، جريدة الجرائد العالمية، العدد ٩٩٢. وسيتم بحث علاقة الحزب بسورية تفصيلاً في الفصل السادس (حرب الفراغات).

السوريين والفلسطينيين الموالين لدمشق في دعم التظاهرات والاعتصامات والأعمال الأخرى[١].

ويبقى بعد ذلك كله، تعدد المسارات أمام حسن نصر الله، وهو ما يجعل الحديث عن النصر والانتصار أمراً معقداً ومثيراً للسخرية في الوقت نفسه، إذ من يمكن أن ينتصر على من في هذه التركيبة المعقدة؟

٤ - استراتيجية الفوضى والصراعات المفتوحة:

هناك مثل إيراني يقول: «يرمي المجنون حجراً في البئر، لا يقدر على إخراجه أربعون عاقلاً» والمعنى واضح، يكفي أن يرتكب شخص واحد أو جهة واحدة عملاً ذا دلالة، ليتورط فيه أربعون آخرون دون فائدة، وهو ما يمكن أن نسميه «استراتيجية الفوضى»، حيث يتم توريط دولة بأسرها نتيجة فعل تلك الجهة.

والثورة الإيرانية تأسست على شفا جرف هار، لا يستقيم فيها حجر على حجر، لا من حيث البناء النظري، ولا من حيث البناء السياسي، ولو لم توجد قضية عامة مشتركة تُجيِّش لها المشاعر وتُحشَد لها النفوس فإن الدولة تتعرض لاهتزازات داخلية لا تنتهي، وقد كانت الحرب العراقية الإيرانية غطاء نموذجياً لعدة أمور في وقت واحد: التطهير الثوري، بناء الدولة الموازية، الفساد المالي، التدهور الاقتصادي، وظهرت براعة النظام الجديد في توظيف التاريخ الشيعي ودلالاته الرمزية والاستشهادية في التعبئة للحرب[٢]، وقف هاشمي رفسنجاني ذات مرة يخطب في الذكرى الخامسة للثورة، وأثناء الحرب مع العراق، حيث أعلن أنه يقدم: «تقريراً موجزاً عن إنجازات الثورة إلى صاحبها أبي عبد الله الحسين وشهداء كربلاء»[٣].

وبعد انتهاء الثورة وإعلان مرحلة «إعادة الإعمار» دخلت البلاد من جديد في متاهات السياسة التي انتقلت بها من رفسنجاني إلى خاتمي، ليعود المحافظون

(١) صحيفة الحدث، ٣/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) حدائق الأحزان، ص ١٨٢.

(٣) دولة حزب الله، ص ٢٦٦.

المهديون من جديد لتسلم زمام الأمور عام ٢٠٠٥م، ولتعود استراتيجية الفوضى، أو ما أطلق عليه محمد حسين فضل الله، «مجتمع الحرب»، ومنذ أن أعلن نجاد دخول بلاده إلى النادي النووي، أُعدَّ «شبح» العدو الكبير الذي يتهدد البلاد، ليحل محل استراتيجية الحرب والفوضى، كبديل مؤقت يمكن أن يحقق بعض نتائجهما.

وفي غمرة حماسته واندفاعاته الثورية، وقف حسين فضل الله يخطب في جمهور المصلين من الشيعة في مسجد بلدة النبي عثمان، قائلاً: «وعلينا أن نخطط للحاضر والمستقبل لنكون مجتمع حرب»(١)، وقد يتساءل البعض من غير المصدقين: كيف يكون مجتمع الحرب أكثر ملاءمة لحزب الله؟

بداية نقولِ: إن تسمية «حزب» لهذا التنظيم موهمة إلى حدٍّ كبير، فهي تعطي إيحاء بصبغة سياسية غير حقيقية، فالتسمية مستنبطة دينياً من الآية القرآنية حسب المفهوم الشيعي لـ«حزب الله»، بينما يرسخ في أذهان السامعين دلالة واقعية سياسية للمصطلح، فيبدو الحزب في صورة معتدلة غير حقيقية، هذه واحدة، والثانية: أن مجتمع الحرب يعيد ترتيب القوى اللبنانية لتصبح القوة العسكرية أحد أبرز عناصر التوازن الجديد، وحزب الله لا يبخل في التصريح بعدد الصواريخ - وهو يجري تحديثاً مستمراً لعددها كل حين - باعتبارها محور قوته العسكرية الرئيس.

وهذا المعنى يؤيده شهادة مباشرة من قادة الحزب وليس تحليلاً أو استنتاجاً، إذ يقول النائب محمد رعد رئيس المجلس السياسي السابق للحزب، ورئيس كتلته البرلمانية: «قبل اتفاق الطائف، لم يكن في لبنان أي نوع من أنواع الحكم، بمعنى: أن الحكومة اللبنانية كانت الطرف الأضعف في المعادلات السياسية، وكان حزب الله يُعدّ الطرف الأقوى، وكانت لديه طروحات استراتيجية وأصولية»(٢).

وحزب الله هو الطرف الأقوى لأنه يملك ما لا تملكه بقية القوى، فإيران من خلفه تدعمه كما تدعم إحدى المحافظات الإيرانية، بل أكثر، «لذا لم يصرف

---

(١) دولة حزب الله، ص ٢٦٨.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٩٩.

الإسلاميون اللبنانيون ـ حزب الله ـ والقيادة الإيرانية من ورائهم، جهدهم إلى عمليات ضد الإسرائيليين في الأشهر الأولى التي أعقبت صيف عام ١٩٨٢م، فمصدر الخطر الأول على: مجتمع الحرب، ليس الاحتلال الإسرائيلي، كان المصدر الذي يتهددهم هو استقرار الدولة اللبنانية»(١).

ويقول د. وضاح شرارة: «يوجس الخمينيون خوفاً من أقلِّ تقاربٍ يلوح في الأفق البعيد بين أحزاب أو طوائف لبنانية، ولا ينفكون يدعون إلى القتال والحسم وتخطي الخطوط الحمر في كل الظروف والأوقات، فأشد ما يتهدد ولاية الفقيه إحصان المجتمعات بدولة وقوانين ومؤسسات»(٢).

وأي تنظيم عادة ما يسعى إلى تحقيق أهدافه من خلال الأدوات التي يتقنها ويمتلكها أكثر من غيرها، وحزب الله ماذا يتقن أو يمتلك؟ هل تنتهي طموحات الحزب عند محاصصة داخل الدولة ثم داخل الطائفة تقف به عند ١٢ نائباً على الأكثر من ١٢٨ نائباً في البرلمان؟ إن هذا لا يسمى طموحاً بل انتحاراً سياسياً، والولي الفقيه لا يجيز الانتحار، ولذلك تبقى الحقيقة التي لا مجال لإنكارها، وهي: قوة الحزب في أدواته العسكرية والأمنية، ومجتمع السلم والاستقرار السياسي لا يناسب هذه القوة، يقول (ماغنوس رانستورب) أحد المتخصصين في شؤون حزب الله: «أصبح إتقان حزب الله لأساليب العنف السياسية ولفنونه عنصراً أساسياً من عناصر سعيه إلى تحقيق أهدافه الإسلامية الشاملة»(٣)، ويقول المحلل الإسرائيلي (دانييل سوبلمان): «الواقع أنه لو أن إسرائيل انسحبت من جنوب لبنان في نهاية الحرب الأهلية اللبنانية لكان من الأصعب على حزب الله أن يُكَوِّن ويحافظ على قدراته العسكرية»(٤).

ولعلنا نفهم هذه الاستراتيجية بصورة أوضح من خلال صراع الحزب مع أمل، فحركة أمل كانت تملك نفوذاً وخبرة سياسية وسيطرة على الجنوب، والحزب

---

(١) دولة حزب الله، ص ٢٦٩.
(٢) السابق، ص ٢٩٧.
(٣) السابق، ص ٣٣٩.
(٤) قواعد جديدة للعبة، ص ١٤٩.

لم يكن يمتلك غير سلاحه، وسطوته على «المجتمع الخميني» الذي أسسه في الضاحية وبعض المناطق الشيعية[١]، وهذا يعني: أنه يجب سحب المنافس إلى ساحة الصراع الأكثر تلاؤماً مع قدرات حزب الله، وهذا ما تم بالفعل، وعندما اضطر قادة الحزب تحت ضغط سوريا إلى توقيف حربهم «التطهيرية» ضد أمل للمرة الأولى، لم يلبثوا بعد أشهر قليلة أن نفذوا عملية اغتيال لأحد مسؤولي الحركة لتشتعل الحرب من جديد، وعندما توقفت للمرة الثانية عام ١٩٨٩م، عادت من جديد عام ١٩٩٠م بسبب إصرار حزب الله على تنفيذ عمليات من الجنوب ضد إسرائيل كانت إسرائيل ترد عليها بقصف جوي وبري عنيف على المناطق المدنية مما دفع أمل إلى التدخل لمنع محاولات حزب الله لإعاقة حكم مركزي قوي في لبنان»[٢].

وعندما تلوَّن أداء الحزب تحت ضغط التطورات، واضطر للتشرنق سياسياً، ظل محتفظاً بخط الرجعة، أو بشعرة معاوية مع الاحتلال الإسرائيلي، واعتبرت «قشة» المقاومة هي السبيل الوحيد لمنع غرق الحزب داخلياً، وظلت القشة تراوح مكانها حتى انسحبت إسرائيل من الجنوب واضطرت سوريا إلى الانسحاب من الشمال، وتحولت «قشة المقاومة» من قشة تنقذ الغريق، إلى قشة تقصم ظهر البعير.

وكان ارتباك حزب الله واضحاً، وتزايدت حساسية الحزب تجاه اعتبار الانسحاب الإسرائيلي هو نهاية المطاف بالنسبة له.

وهناك قصة رمزية تقول: إن أحد الصيادين قضى جانباً كبيراً من حياته يطارد وحشاً هائلاً، ولما وقع الوحش في الأسر أخيراً، أحس الصياد بفراغ كبير، فتسلل ليلاً وأطلق سراح الوحش وعاد يطارده من جديد، وتثير هذه القصة تساؤلاً حول: ما إذا كان المقصود من الصراع القضاء على العدو، أم الصراع نفسه؟ وإذا كان الجواب هو الأخير فإن العدو يكون بهذه الصفة ليس عدواً حقيقياً بل شريكاً في لعبة سياسية، ولذلك لا يحب حزب الله من يقطعون عليه طريق معاودة الحرب.

هذا التحليل يفسر لماذا جاء رد حسن نصر الله حاداً وغير مسبوق، على وزير

---

(١) انظر: دولة حزب الله، فصل: بناء المعقل الإسلامي، وفصل: مجتمع الحرب.

(٢) انظر: الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١٧٨.

الخارجية الإيراني عطاء الله مهاجراني في حكومة خاتمي الإصلاحية، وكان الوزير قد قال للإعلام إن: «الانسحاب الإسرائيلي يعتبر أوج أهداف حزب الله»، فعلّق نصر الله على كلامه بالقول: «إن اعتقادنا منذ البداية هو أن الوزير مهاجراني يمثل حكومته وله الحق في أن يقول ما يريد، إن ما يقوله المسؤول الإيراني يعكس رأي بلاده ولا يعتبر ملزماً لحزب الله، إننا نعبر عن آرائنا نحن وهم يعبرون عن آرائهم هم»(١).

إذاً؛ في عام ٢٠٠٠م قرر الوحش ـ الإسرائيلي ـ من جانبه أن يتوقف عن اللعب، وكان لا بد أن يبحث حزب الله عن سيناريو جديد للعبة، وقد كان تحرير الأسرى الهدف القومي الكبير، ولذلك قام الحزب في نهاية العام ٢٠٠٠م ـ أي: بعد الانسحاب مباشرة ـ بأسر جنود إسرائيليين ـ تبين أنها جثث في النهاية ـ وعقيد متقاعد في الجيش الإسرائيلي، وعاش الرأي العام في لبنان أكثر من ثلاث سنوات تحت عنوان كبير هو: التفاوض من أجل تحرير الأسرى.

ولم يلبث الحزب أن استراح عامين حتى عاد من جديد لينعش قضية تحرير الأسرى ـ حتى ولو كانوا ثلاثة ـ فذلك يعزز «مزارع شبعا» المترنحة تحت ثقل المقاومة، و«يرنح» الحكومة تحت ثقل سلاح حزب الله غير القابل للنزع.

ولأجل «الوعد الصادق» بتحرير ثلاثة أسرى ـ أو هكذا يريدنا الحزب أن نقتنع ـ قتل نحو ١٠٨٤ مدنياً، و٤٠ من عناصر الجيش والدرك، واعترف حزب الله بمقتل ٦١ من عناصره(٢)، وأعلنت أمل عن مقتل ٧ من عناصرها، وقتل أربعة مراقبين تابعين للأمم المتحدة، وأحد عناصر اليونيفيل، وهذا بخلاف من كانوا تحت الأنقاض، كما بلغ عدد المصابين ٣٧٠٠ شخص، وعدد النازحين قرابة المليون (٩٧٣,٣٣٤) بينهم ٢٢٠ ألفاً غادروا البلاد، ومن بين الخسائر المادية تدمير ٣٠ منشأة حيوية بما فيها المطار والموانئ وخزانات المياه والوقود ومحطات الكهرباء،

---

(١) السابق، ص ٣٤.

(٢) تقول المصادر الإسرائيلية أن الحزب خسر نحو ٦٥٠ من عناصره، انظر: دراسة (أنتوني كورد سمان) على موقع المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، واشنطن، وعنوان الدراسة: الدروس الأولية في حرب إسرائيل على حزب الله.

ودمر ما يزيد على ١٠٠ جسر، و٦٣٠ كم من الطرقات، و٢٣ محطة توزيع وقود، و٧٠٠٠ مسكن، بخلاف مساكن أخرى في جنوب لبنان والضاحية الجنوبية وبعلبك، ودمّر ما يقرب من ٩٠٠٠ مصنع ومحل تجاري، منها أكبر مصنع لإنتاج مشتقات الحليب في لبنان، ودمرت أكثر من ٤٥٠ شاحنة، وعشرات المزارع، منها ثاني أكبر مزرعة دجاج في لبنان، وبلغت خسائر لبنان أكثر من ٦ مليارات دولار، تمثل حوالي (٢٣,٥٪) من الناتج الإجمالي المحلي، بينما بلغت خسائر إسرائيل نحو (٢٪) من إجمالي الناتج المحلي، وحوالي ١٤٦ قتيلاً مدنياً وعسكرياً[1].

قطعاً هذه ليست حرب تحرير الأسرى، وقطعاً هذا لا يسمى أبداً انتصار، إنها «استراتيجية الفوضى» التي يريد الحزب أن ينفذها في لبنان، وقد كان تعبير أحد الوزراء الإسرائيليين دقيقاً عندما قال: «إننا سنعيد لبنان ٢٠ عاماً إلى الوراء»، فهذا بالضبط ما يريده حزب الله، العودة إلى آفاق الثمانينيات الثورية، ولكن مع فارق كبير، فالآن هو يلعب لعبة السياسة والمقاومة معاً، بينما كان سابقاً يلعب لعبة واحدة فقط، أي: أن المطلوب المراوحة بين الحرب الأهلية السياسية والحرب الأهلية المسلحة، وأحياناً يقوم التهديد بالحرب مقام الحرب نفسها، وحسن نصر الله أكثر من يتقن تمرير التهديدات في سياق التطمينات.

ومن مكاسب مرحلة العمل السياسي لحزب الله ـ والتي منحته قدرات إضافية على إثارة الفوضى ـ تغلغله الأمني داخل مؤسسات الدولة، فالحزب تمكن من تسريب عناصره إلى المؤسستين العسكرية والأمنية ومخابرات الجيش تكاد تكون تابعة لحزب الله والأمن العام كذلك[2].

ويتمتع الحزب في هذه المرحلة أيضاً بمزية إضافية، وهي مشاركة سورية تدعم جهوده لإحداث الفوضى، ومن أجل تخفيف الضغوط على الحزب، فقد شكلت المخابرات السورية تجمعات تلفيقية من خلال عناصر مؤيدة لها داخل المخيمات الفلسطينية، وأيضاً بعض «المتطوعين السُّنة» للقتال والذين تم تعذيبهم

(١) الأرقام جمعتها وكالة فرانس برس اعتماداً على هيئات رسمية، العربية نت ٢٨/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٢) مدير مكتب قناة الجزيرة في الأردن، ياسر أبو هلالة، الموقع الشخصي ١٤/ ٧/ ٢٠٠٦م.

أو استيعابهم أو خداعهم أو تهديدهم، وهذه حقيقة تؤكدها مصادر سُنية لبنانية، وليس مصدرها وسائل الإعلام فقط، وتم من خلال هؤلاء كلهم تشكيل مجموعات هدفها تسخين الأوضاع وتهيئتها حتى لا تُلقى تبعات الأعمال المباشرة على الحزب، وقد مهد بشار الأسد لعمل هذه التجمعات بتكرار تحذيره من تسلل «القاعدة» إلى لبنان.

ومن هذه المجموعات ما يعرف بـ «فتح الإسلام» المنشقة عن «فتح الانتفاضة» المتمركزة أصلاً في دمشق، وقد ذكرت صحيفة (لوموند) الفرنسية أنها شُكلت بإدارة وإشراف من المخابرات السورية لتنفيذ مهمة محددة وهي اغتيال ٣٥ شخصية سياسية في لبنان، وصرح أمين سر منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان خالد عارف أن ٢٠٠ مسلَّح فلسطيني وعربي ولبناني انشقوا أخيراً عن حركة فتح - الانتفاضة ويتمركزون في نهر البارد في الشمال اللبناني[1].

لا تتوقف أساليب التسخين السورية الداعمة لحزب الله في استراتيجية الفوضى على الجهود الجماعية، فالتواجد السوري في لبنان ممثلاً في العمال السوريين الذين يبلغون عدة مئات من الألوف، وكثير منهم يمكن توظيفهم في التظاهرات والاحتكاكات، وقد أوقفت قوى الجيش اللبناني ثلاثة سوريين تبين أنهم يقومون باستفزاز مفتعل لمواكب التظاهرات التابعة لحزب الله وميشيل عون، وبعضهم كان يوجه شتائم إلى حسن نصر الله، مما أوقع اشتباكات وجرحى[2].

وتتحدث تقارير استخباراتية بريطانية وألمانية عن تسرُّب مئات من القوات الخاصة السورية وسط العمال السوريين العائدين إلى لبنان بعد توقف الحرب، ومعهم أيضاً مئات من الحرس الثوري، وقد انتشر السوريون في مراكز وقواعد حزب الله العسكرية، وفي مقرات تابعة لتيار المردة الذي يتزعمه سليمان فرنجية الموالي للرئيس بشار الأسد، وفي مقرات تابعة لمنظمات فلسطينية موالية في البقاعين الغربي والأوسط، وانتشر الحرس الثوري في قواعد الصواريخ والأسلحة المضادة للدروع والدبابات، وأقيمت غرفتي عمليات في الضاحية الجنوبية والبقاع

(١) صحيفة الحدث، ١٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٢) المستقبل، ٤/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

للتنسيق بين هذه القوات، وقد تراوحت تقديرات أعداد الجنود المتسللين ما بين عدة مئات وعدة آلاف، وبدأ تسللهم منذ توقف الحرب(١).

وحسب السيناريو القديم لتفريغ الساحة اللبنانية، فإن القوات الدولية سيكون لها نصيبٌ لا بأس به من التسخين، وكان إخراج القوات الدولية هدفاً للقوات السورية والشيعية في الحرب الأهلية السابقة، وحالياً لو تصاعدت الأحداث حتى مستوى حرب أهلية جديدة، فإن القوات الدولية لا بد من استهدافها، وهناك محاولات أو بروفات تتم حالياً في هذا المجال، وقد اضطرت قيادة القوات الفرنسية المشاركة في اليونفيل إلى طلب اجتماع طارئ مشترك مع مسؤولين من الجيش اللبناني ومن حزب الله لبحث شكوى القوات من عمليات التحريض المستمرة ضدهم في أوساط السكان(٢).

خلاصة الأمر أن نصر الله يقود معركة وعد فيها بنصر جديد، وهو لن يترك الدولة تلتقط أنفاسها، ولن يدع الجيش دون إرهاق وتمزق ما بين الجنوب والشمال، وما بين التفتيش عن مظاهر مسلحة في الجنوب، أو إطفاء الإطارات المشتعلة في شوارع المدن والبلدات، ولن يغفل عن زعزعة الأوضاع الاقتصادية؛ لأنه يعلم أن الأموال كما هي نقطة قوته، فهي نقطة ضعف الحكومة.

ويستخدم قادة حزب الله في سياق توظيف الفوضى اللبنانية لصالح إيران أسلوبَ «نفي ما لم يثبت»، فيؤكدون أن حزب الله لن يتدخل للدفاع عن طهران إذا ما تعرضت إيران لهجوم على مفاعلاتها النووية، وكأن المنتظر من حزب الله أن يصطف عسكرياً إلى جوار طهران في مواجهة أمريكا، يقول نعيم قاسم: «في حالة الهجوم الأمريكي المحتمل على المؤسسات النووية الإيرانية لن نتدخل للدفاع عن طهران، ولكن لو أن هذا الهجوم طال لبنان فإن حزب الله سوف يتدخل»(٣).

هذا الأسلوب «نفي ما لم يثبت» يُقصد به إبعاد الشبهة عن الهدف الحقيقي من تسخين الأوضاع في لبنان بهذه الاستراتيجية، وهذا الهدف هو فتح جبهة

---

(١) السياسة الكويتية، ٢٩/٩/٢٠٠٦م.
(٢) مجلة الشراع، ٤/١٢/٢٠٠٦م.
(٣) صحيفة اليوم، ٢٥/٥/٢٠٠٦م.

معضدة لإيران في لبنان، تكون تطورات الأحداث فيها انعكاساً للتطورات على الساحة الإيرانية، ولذلك هناك حرص لدى الحزب على إبقاء الأوضاع اللبنانية ساخنة، بحيث تصبح قابلة للانفجار في أي وقت، ثم هو يقدم عينات لما يمكن أن يحدث: اعتصامات، اشتباكات، قناصين، قطع طرقات، لجان وكمائن على الطريق، احتكاك طائفي... ويعطي الاحتجاج على فريق الأغلبية غطاء لهذا التحرك الإقليمي يجعله - ظاهرياً - مقيداً بالإطار اللبناني وليس الإيراني.

ولا يمنع اتباع الحزب هذا الأسلوب من عودته مرة أخرى إلى تفعيل عملياته خارج لبنان في إطار سري، وهو ما سبق أن نفذه في عدة دول عربية، منها: الكويت.

وتظل عقدة «النهاية» قائمة في هذه الاستراتيجية التي لا يعلم أحد - وربما حزب الله أيضاً - متى يمكن أن تتوقف، وقد انتقلت هذه العقدة للحزب من إيران التي أعلنت «حرباً مفتوحة» على صدام تمتد حتى إسقاط نظامه، كما أنها تمتد حتى آخر بيت وآخر شخص(١)، وتوعد نصر الله إسرائيل بحرب «مفتوحة» وهو يهدد بأن اعتصام أنصاره في بيروت اعتصام «مفتوح».

وهذا الاندفاع الشديد لإثارة الأزمات، والذي يقابله ضبابية واضحة في كيفية إنهائها، هي ثغرة يمكن أن يستثمرها من يتعرض لمواجهة الحزب أو للتفاوض معه.

٥- المشروع الشيعي لا يقبل الشراكة:

الحق واحد لا يتبدد، والولي واحد لا يتعدد، هذه حقيقة مسلَّم بها في الدولة الصفوية المعاصرة، لا رأي للشعوب ولا حكم لحكامهم، وكما يقول علي خامنئي مرشد إيران عن علاقة بلاده مع العالم الإسلامي: «إن الحكومة الإسلامية التي يقوم عليها نظام الجمهورية الإسلامية هي بشكل عام موضع الاتفاق النهائي للمسلمين»(٢)، ويقول «آية الله» مشكيني رئيس مجلس الخبراء الإيراني السابق: «الجمهورية الإسلامية هي استمرار لله على الأرض، وبالتالي فإن أي عصيان لقواعدها يرقى إلى التمرد على الله»(٣).

---

(١) حدائق الأحزان، ص ١٨٧.
(٢) صحيفة كيهان الإيرانية، ٢٦/ ٢/ ١٩٨٨م، التحول العاصف ص ١٦١.
(٣) الشرق الأوسط، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

ويمثل «آية الله» مصباح يزدي ـ مرجع التقليد لأحمدي نجاد، وملهمه الثوري ـ مثالاً حيوياً على الاحتكار والهيمنة التي يبديها المشروع الصفوي، حتى داخل إيران، وهو يقول في إعلان مشهور: «إذا ما أبلغك شخص ما أن لديه تفسيراً جديداً للإسلام، فإن عليك أن تلطمه على فمه»، وقد أطلق عليه أحد رسامي الكاريكاتير لقب «آية الله التمساح» لنشاطه في قمع الصحافة(١).

ويفرض حسن نصر الله على جميع المسلمين أن يستلهموا تجربة الخميني، فيقول: «الإمام الخميني بالنسبة إلينا يمثل مرجعاً دينياً وإماماً وقائداً بكل ما للكلمة من معنى، كما يمثل أي رمز ديني كبير في أي طائفة دينية في العالم، الإمام يمثل ذلك بالنسبة إلينا، ويمثل أكثر من ذلك أيضاً، يمثل رمز الثورة على الطواغيت والمستكبرين والأنظمة المستبدة، لقد بعث الأمل فينا أكثر من أي رمز ديني، إنه في الحقيقة ملهم ليس بالنسبة إلينا فقط، وإنما لكل الشعوب المستضعفة، هذه العلاقة الروحية والمعنوية، كانت قائمة قبل ١٩٨٢م، وقبل أن ينشأ حزب الله»(٢)، وهذا الكلام صرَّح به في العام ١٩٩٥م لصحيفة النهار، يعني: لم يكن في الثمانينيات أو أثناء الحرب الأهلية أو في بداية تأسيس الحزب، أو قبل اتفاق الطائف.

ويؤكد معنى حتمية الهيمنة السياسية لمشروع حزب الله في لبنان تصريحُ إبراهيم أمين السيد، في الاحتفال بذكرى الثورة الخمينية، فيقول: «إن الشعب المسلم في لبنان لا يرضى أن يكون جزءاً من برامج ومشاريع الآخرين، وإنما الآخرون ـ ومن بينهم السُّنة ـ يجب أن يبحثوا عن مكان لهم في المشروع الإسلامي»(٣).

وفي اختيار اسم «حزب الله» أحد معاني الهيمنة والاحتكار للإيمان والعمل الإسلامي، فمن المعروف أن قضية التعددية الحزبية من القضايا المثيرة للجدل في الفكر السياسي الشيعي الديني، وهناك رأيان في هذه القضية، الأول: يعتبر أن

(١) كارل فيك، الواشنطن بوست، صحيفة الشرق الأوسط، ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٦م.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢١٩.
(٣) السابق، ص ٢٨٠.

التعددية تعني التنوع، والآخر: يعتبر أن المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن يضم إلا حزب الله فقط، وبقية معارضيه جميعهم محشورون في خانة «حزب الشيطان»[١]، وبغضِّ النظر عن سماح الدستور الإيراني بالعمل الحزبي مع ضوابط مشددة، فإن الفكرة تبقى راسخة في الوجدان الشيعي، ويتماثل الحزب اللبناني مع سميّه الإيراني في هذه السِّمَة، حيث يعتبر الفرع الإيراني أنه وحده على حق والآخرين على الباطل[٢]، ويقول حسن حمادة مدير مؤسسة الشهيد التابعة للحزب في لبنان: «هناك حزبان منذ بداية العالم إلى الآن، أحدهما حزب الله، والآخر: حزب الشيطان، ولكل منهما صفات وعناصر مختلفة»[٣].

ولذلك كان «حزب الله» يحمل في أصل تسميته ومنهجه التفرد والهيمنة والاحتكار، وهذا كان مسلكه في لبنان حتى في الأوساط الشيعية، ولذلك لا يقبل الحزب أي شراكة سياسية لا تكون له فيها الكلمة الأولى والعليا، وهو ما يتضح في شراكته مع أمل، أو مع التيار العوني، لا يشك أحد في سيطرة الحزب، حتى وإن كان شركاؤه مستفيدين من شراكته مؤقتاً.

وتأتي مسألة تقبل الرأي الآخر أو المعارضة، لتمثل ثقلاً على العقل الخميني، فالذين يعارضون يعطلون المسيرة ويضطهدون الأغلبية الرشيدة، وفي لقاء أحمدي نجاد مع طلاب في جامعة أمير كبير، تظاهر أقلية منهم وهتفوا ضد سياساته، وقالوا: الموت للديكتاتور، فقطع نجاد كلمته ليردّ بوصف هؤلاء الطلاب بأنهم «الأقلية الجائرة»، وقال: إن «عدداً قليلاً من الناس الذين يزعمون وجود اضطهاد يخلقون الاضطهاد ولا يسمحون للأغلبية بسماع كلماتي»[٤].

ويتبنّى نصر الله موقفاً مشابهاً يجعله ضيق الصدر بسماع آراء مخالفة، وفي أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان كانت غالبية وسائل الإعلام اللبنانية تسير في ركاب الحزب، يقول دوري شمعون رئيس حزب الوطنيين الأحرار: «جميع الوسائل

---

(١) صنع القرار في إيران، ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) التيارات السياسية في إيران، حجت مرتجي، ص ١٧٢.

(٣) حزب الله حقائق وأبعاد، ص ٤٧.

(٤) صحيفة الحدث، ١١/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

الإعلامية كانت تتبنى وجهة نظره، وتخصص مساحات واسعة لحلفائه، وتقدم أخباراً غير واقعية كي لا تزعجه، إلى درجة أنه طلب من إحدى المؤسسات الإعلامية استبدال مراسلة في الجنوب لمجرد أنها تغطي الأخبار كما هي من دون مسايرة وتحريف، فكان له ما أراد»[(١)].

٦- التفاوض الصعب- الدقيقة تسعين:

«الوقت في مصلحتنا» صاحب هذا التصريح هو أحمدي نجاد الرئيس الإيراني، وهو تصريح يعبر بدقّة عن إحدى السِّمَات الإيرانية البارزة والتي يمتد تأثيرها بين مختلف مجالات الحياة في إيران.

وهناك حكاية طريفة يرويها أحد الصحفيين: «ونحن صغار، في المدينة المنورة، كنا ننتظر قبل موعد صلاة الظهر والعصر بدقائق لعرض ما لدينا من سجاجيد الصلاة لبيعها للحجاج، فمع جوِّ المدينة الحار، واستعجال الحجاج للحاق بمواعيد الصلاة لا يتسنى لهم المفاصلة حول السعر، فيشترون فوراً السجاد وفق السعر المعروض، إلا الحجاج الإيرانيين، كانوا الأكثر دهاء، حيث يشترون منا السجاد بعد الصلاة، فلا هم مستعجلون، ولا نحن قادرون على اللعب على عامل الوقت»[(٢)].

ولكن تطبيق هذا الأسلوب في السياسة قد تكون له مخاطر جمَّة، وعادة ما ينطلي على الأطراف قصيرة النظر ضعيفة الرؤية، وهم موجودون بكثرة في عالمنا، ولكن في العالم الغربي تبدو واشنطن منتبهة إلى لعبة طهران، بل وتجيد التعامل معها.

والشيعي - في نمطه الخميني - نتيجة لتركيبته النفسية ينحشر عادة بين مسارين عندما يكون في مواجهة ضغوط سياسية أو مفاوضات أو مبادرات، المسار الأول: يجعله يبدو متطرفاً ومتشدداً، ومصدقاً لما يطلقه من تهويمات عن قدراته وإمكاناته، وهذا المسار يجعله متمسكاً دون مرونة أو تعقل، بحيث يخسر في النهاية ما كسبه

---

(١) موقع حزب الكتائب اللبناني، ٢١/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٢) طارق الحميد، الشرق الأوسط، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٦م.

في البداية، كما حدث في حرب العراق، والمسار الثاني: يجعله يتراجع أو يتنازل أو يبدي مرونة في اللحظة الأخيرة خاصة إذا توفر المخرج المناسب، أو كان الطرف المقابل يفهم نفسيته المركبة فوفَّر له هذا المخرج منعاً لإحراجه ولاستمرار الأزمة.

ومشكلة الشيعة الثوريين أنه يصعب عليهم أن يتجاوزوا هذين المسارين، ولو تمكنوا من ذلك سيزداد خطرهم ولا شك، ومرد المسارين إلى فكرة محورية تتحلق حولها الاستراتيجية الإيرانية، وهي محور الزمن، فهم يعشقون إلى حدٍّ كبير لعبة الوقت، ولكن هذه اللعبة ذاتها كما أنها تسببت في إنجازات كبيرة لهم، فهي تسببت في تحقيق أغلب إخفاقاتهم، وهناك فرق بين ممارسة الانتظار وبين معرفة التوقيتات المناسبة، نعم قد يشترون السجاد بعد دنوّ ثمنه، ولكنهم قد يشترونه بعد انتهاء موسمه أيضاً.

يقول الكاتب الإيراني د. حسين باقر زاده: «اعتمدت سياسة قادة الجمهورية على سياسة الدقيقة تسعين، وطبقاً لهذه السياسة يمضي النظام ببرامجه حتى النهاية في أقصى سرعة، ولكنه مع هذا يغير مساره فجأة في اللحظة الأخيرة، القائد الماهر هو الذي يدرك الوقت الذي يتمكن فيه من التوقف ظناً أن لديه القدرة على تحديد الدقيقة تسعين، ومن ثم فلديه الإمكانية للتراجع والعمل من جديد»(١).

لكن واشنطن تفهم لعبة الوقت الإيرانية، ولذلك تضبط ساعتها مع إيران على الدقيقة ٩١، وبذلك تترك لإيران مجالاً واسعاً للتحرك وباباً مفتوحاً للرجوع، يقول (وارين كريستوفر)(٢) كاشفاً عن أسلوب تفاوضه مع الإيرانيين في بداية الثورة لإطلاق سراح الرهائن في السفارة الأمريكية بطهران: «الأمر يختلف مع الإيرانيين، فأسلوب المفاوضات معهم يشبه ذلك الأسلوب من المساومات الذي نشاهده عادة في البازار الشرقي حيث الطلبات المبالغ فيها، والتظاهر بعدم الرغبة في الاستمرار، ثم المساومة والمماحكة حول التفاصيل الصغيرة حتى آخر لحظة، فحتى بعد أن توصلنا إلى اتفاقية معهم في ١٩ يناير ١٩٨١م، تنصَّل الإيرانيون من ملحق فني

(١) صحيفة إيران اليوم «إيران أمروز»، ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٦م، مختارات إيرانية العدد ٧٢، يوليو ٢٠٠٦م.
(٢) وزير الخارجية الأمريكي الأسبق من (١٩٩٣ ـ ١٩٩٧م) والرئيس المشارك لمجلس الباسيفيكي للسياسة الدولي.

مهم، ولكي أعيدهم إلى الصراط مرة أخرى، اتصلت بقائد طائرتي وأنا أعلم أن خط الهاتف مراقب، وأمرته بأن تكون طائرته مستعدة للرحيل، وكان لذلك تأثيره إذ سرعان ما تخلى الإيرانيون عن دعواهم، وبعد ذلك بيوم أفرجوا عن الرهائن»(١).

وقد أثبتت إيران من قبل أنها يمكن أن تقع في المسار المكلف مادياً وبشرياً، كما حدث في حرب العراق حيث آثرت الثورية على البرجماتية، واضطرت في النهاية إلى «تجرّع السمّ»، ولكنها تجرّعته على مراحل أيضاً.

ومن لا يعرف الطبيعة الشيعية يمكن أن يخطئ التقدير كثيراً، إذ يبدي الخمينيون صلابة شديدة في التمسك بمطالبهم التي عادة ما تكون مبالغاً فيها، ولكنهم فجأة يتنازلون ويتراجعون، وفي الحقيقة لا يمكن أن نغفل في هذا الصدد تأثير التقيّة، ليس بمعناها المباشر ولكن بتأثيرها المتراكم، حيث أفقدت الصفويين القدرة على الشعور بلَسْعة التنازل بعد الصمود، والمرونة بعد الصلابة، ولذلك لا يبدو الأمر عندهم مقلقاً، ومن يفهم هذه الطبيعة لديهم هو وحده من يمكنه التفاوض معهم.

وعندما صدر قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ بخصوص إنهاء الحرب بين إيران والعراق، رفضت إيران القرار، واشترطت أن يتم تشكيل لجنة تحقيق لتحديد مسؤولية بدء الحرب مع إعلان نتائج التحقيق، ولكن الغريب أن الصحفيين عندما سألوا علي خامنئي رئيس الجمهورية وقتها: هل ستقبل إيران نتائج لجنة التحقيق أيّاً كانت؟ قال إن: «الجميع يعلم من بدأ العدوان، وبالتالي فإما أن تقر اللجنة بذلك وتكون نتائجها موضع احترام، وإما أن تقر العكس فتفقد حيادها ويسقط الالتزام بما تنتهي إليه»(٢)، أي: أنه إما أن تكون النتيجة لمصلحتنا أو لا.

وانطلقت التصريحات الثورية، وقال الخميني: «الآن وبعدما وصلنا إلى

---

(١) من مقال كتبه بعنوان: مساومات البازار، دليل الدبلوماسية الأمريكية مع إيران، صحيفة الاتحاد الإماراتية ١٦/ ٦/ ٢٠٠٦م، بالاتفاق مع نيويورك تايمز.

(٢) صنع القرار في إيران، ص ٢١٨.

مشارف تحقيق النصر الكامل واقتربنا من نهاية الحرب، بدأنا نسمع ذلك الصوت غير المألوف الذي يتحدث عن السلام»، بينما صرَّح رفسنجاني بلغة التهديد أن بلاده «تستطيع أن تنتج الألغام بكثرة مثل البذور»(١)، ولكن بعد فترة وجيزة فُوجئ العالم بأن إيران قدمت امتثالاً غير مشروط، وهو ما وصفه الخميني بتجرّع كأس السمّ، وانتهت القضية كما بدأت بقرار من الخميني.

ومن الغريب أن هذا الأسلوب انتقل إلى الحركات الشيعية الثورية التي أسستها إيران، يقول (بول بريمر) الحاكم الأمريكي السابق للعراق: «قادة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق معروفون بصعوبة التعامل معهم في أوساط الأحزاب العراقية، فهم يتقنون لعبة حافة الهاوية، ويبقون عادة على تهديداتهم حتى اللحظة الأخيرة»(٢).

وبالنسبة لحزب الله يتشابه الحال، فالحزب متميز في قضية التفاوض، وقد أطال أمد التفاوض مع إسرائيل حول ثلاث من الجثث وأسير حي نحو أربعين شهراً، وفي ذلك فوائد كثيرة للحزب، فهو يقوي علاقته مع الوسيط الأوروبي، ويبرز مكانة الحزب ويرسخها، ويتيح للمشاعر الشعبية أن تنمو، ويقدم مادة ثرية لوسائل إعلامه ليتحدثوا عنها ويبرزوها، وفي الأخير يكون منحنى الترقب والتشوق قد بلغ منتهاه عندما يتم تسليم الأسرى وقد تحولت قضيتهم إلى قضية رأي عام من الدرجة الأولى.

ويتّبع الحزب الاستراتيجية نفسها في معركته السياسية مع الأغلبية النيابية، فهو يراهن على عامل الزمن، ويتحدث عن تظاهرات واعتصامات مفتوحة، ويستخدم عبارات ومصطلحات توحي بالنهاية غير المرتقبة، مثل: مراحل التصعيد المتعددة.. لم نبدأ بعد... هناك اعتصامات أمام سراي الوزارة، ثم أمام بعض الوزارات، ثم إضراب ليوم واحد، ثم خطوات أخرى تصعيدية.... إلخ، ويستخدم الحزب أيضاً مصطلحات، مثل: ساعة الصفر، بيان المعارضة الأول ثم الثاني، المهم

---

(١) السابق، ص ٢١٨-٢١٩.

(٢) مذكرات بريمر، ص ٨٠.

إطالة أمد الاعتصام وتسلية المعتصمين من خلال إخراج «سينمائي» مشوق حتى لا يملوا، ولا أحد يستطيع مثلهم أن يلعب على مبدأ الانتظار، الذي يتقنونه منذ العام ٢٦٠ هـ عندما مات الحسن بن علي العسكري الإمام الحادي عشر ولم يعقب، ودخلوا في مرحلة الانتظار.

٧ـ الزعامة:

في دهاليز الثقافة الشيعية الصفوية، توجد مشكلة معقدة يمكن أن نسميها «أزمة النهايات».. من الصعب أن يضع الخمينيون نهاية للحروب أو المواقف أو الأزمات أو المشكلات، هناك «برمجة» نفسية داخلية على الاستمرار والهروب من النهايات، ربما لأنهم يخشونها، أو لأن النهاية الكبرى عندهم مرتبطة بظهور المهدي.

ومن القضايا التي آثر الشيعة الثوريون أن يتركوها بلا حل، قضية الزعامة، وقد استفاد الزعماء والرؤساء الشيعة من هذه الأزمة النفسية لدى طائفتهم، إذ مكّنتهم من البقاء إلى أمد الموت، وهو بغية كل زعيم ورئيس، ولم تحدد في الدستور الإيراني مدة محددة لبقاء الولي الفقيه، ولكن مجلس الخبراء يملك صلاحية عزله، بينما يملك المرشد صلاحية «غربلة» المرشحين لعضوية المجلس قبل انتخابهم.

وقد تكون «استمرارية» الزعامة بسبب انقسامهم الشديد الذي يجعل من قضية نقل السلطة من شخص إلى آخر قضية بالغة الصعوبة.

وكتب الخميني يحدد مواصفات من يصلح لخلافته فقال: «يجب أن ننتخب شخصاً يدافع عن وجودنا الإسلامي في عالم السياسة والمكر، وأنا منذ البداية كنت معتقداً وأصرُّ على عدم اشتراط المرجعية»، وكان متواضعاً وهو يلحظ مقاس خامنئي العلمي، فقال: «ويكفي المجتهد العادل الذي يؤيده الخبراء المحترمون في أنحاء البلاد»(١).

ولكن رغم ذلك كان على الزعيم الجديد أن يدافع عن وجوده هو في عالم

---

(١) حدائق الأحزان، ص ٢٤٤.

السياسة والمكر الداخليين، فلم تتوقف الصراعات والاعتراضات على أهلية المرشد الجديد لمنصب الولي الفقيه، لأنه دون رتبة المرجعية، ولم يحصل حتى على رتبة «آية الله» دون «العظمى»، ولكن الولي ـ الجديد ـ كان فقيهاً بدروب قومه، فتم تدبير الألقاب من خلال الأنصار في قم، وأصبح علي خامنئي في غمضة عين من المراجع السبعة الكبار في إيران، وأصبح نائباً ثانياً لـ «صاحب الزمان» بينما أصحاب زمانه لا يرضون به مرجعاً عليهم، رغم أنه يُفترض أنه مُعين من قِبَل «الإمام الغائب» وبوساطة نائب «الإمام الغائب» الأول، الذي غاب بدوره.

وكان خامنئي مفتقداً منذ البداية إلى «كاريزما» الخميني الطاغية، التي جعلت عدد مستقبليه لدى قدومه أول مرة يفوق الستة ملايين إيراني، وعدد مشيعيه آخر مرة يفوق تسعة ملايين إيراني(١)، رغم أنه تقريباً لم يبق بيت في إيران لم يفقد أحد أفراده في إحدى مغامرات الولي الفقيه السياسية، وكانت محصلة معركة الولاية في إيران أن بهت الدين لحساب السياسة، مما وضع نظرية ولاية الفقيه في مأزق حرج، ظل هو أيضاً غير قابل للإنهاء، فبقي «ملفاً مفتوحاً» قيد الانتظار بدوره.

وعلى الطرف الآخر من «الهلال الشيعي» جاء حسن نصر الله على حين غفلة من حرس عباس الموسوي الذين لم ينتبهوا إلى المروحية المتربصة بقائدهم فقتلته، وكما ألمح الخميني قبل موته إلى تعيين خامنئي بديلاً، ألمح أيضاً في عام ١٩٨٦م إلى ترقية نصر الله زعيماً، فبعد أن التقاه في طهران، أوعز إلى مساعديه قائلاً: «حافظوا على هذا الشخص واحموه لأن مستقبله باهر»(٢).

ولم يكن نصر الله قد أكمل تعليمه الحوزوي رغم زيارتيه إلى النجف وقم، وتوقف عند مرحلة البحث الخارجي ولم يحصل على رتبة علمية، ولكن الولي الفقيه كان كريماً معه، أو كان محدثاً بالنعمة، فمنح نصر الله لقب «حجة الإسلام والمسلمين» دون إنجاز علمي، وأيضاً بهت الدين لحساب السياسة في لبنان.

ورغم أن النظام الداخلي للحزب يتيح للأمين تولي المنصب لفترتين فقط. كل

(١) حدائق الأحزان، ص ٢٢١.
(٢) صحيفة النهار، ٣١/ ٨/ ٢٠٠٦م.

منهما ثلاث سنوات، إلا أنه في العام ١٩٩٨م تم إبطال النظام وتعطيل البند، وبقي «سيد المقاومة» أميناً عاماً دون نهاية تلوح في الأفق.

وحتى تكتمل كاريزما «الزعيم» كان على نصر الله أن يعيش تحت «وهم الاغتيال» المتوقع في أي لحظة، ومضى يوتر أعصاب أتباعه بهذا الوهم، سواء في تحركاته أو خطابه أو أدائه السياسي، يؤكد نواف الموسوي مسؤول العلاقات الدولية في الحزب في حوار مع قناة المنار: «أن نصر الله هو أكثر شخص مستهدف على وجه البسيطة...»(١)، وأصبح عذر «الظروف الأمنية» عذره المفضل للامتناع عن حضور ما لا يرضى عنه من اجتماعات أو لقاءات، بل حتى كان ذلك عذره للتغيب عن فريضة الحج تجاه الجنوب وليس إلى الشرق، فهل حقيقة أن نصر الله معرَّض للاغتيال منذ تسلّمه منصب الأمين العام؟!

لا توجد معلومات مؤكدة في هذا الشأن، لا بالنفي أو بالإثبات، وهذا في حد ذاته يضعف نظرية «انتظار الاغتيال»، كما أن هناك تحليلات كثيرة تتحدث عن وجود ما يمكن تسميته بـ«توازن الاغتيالات» بين نصر الله وإسرائيل، ويقول المحلل الإسرائيلي (عوفر شيلح): «تكوّن انطباع أن إسرائيل لم تنوِ أو لم تحاول مطلقاً تصفية نصر الله، تصفية الموسوي أدت إلى انتقام قاس بشكل خاص تفجير سفارة إسرائيل في الأرجنتين، ويحتمل أن إسرائيل لم ترد أن يتحول نصر الله إلى رمز إضافي، وسواء لهذا السبب أو ذاك فإن إسرائيل لم تعد ضد نصر الله»، ويدلِّل المحلل السياسي على كلامه ببعض الشواهد، منها: «نصر الله نفسه يحرص على إبداء استخفاف بأمنه الشخصي، إذ إنه يزور كل فترة عائلة شيعية بنفسه، وهو يزور بشكل متتالي عائلة أبيه في البازورية على الرغم من معارضة مرافقيه، وفي شباط من هذه السنة أصرَّ على الوصول بنفسه إلى ذكرى سلفه الموسوي والتي أقيمت في قرية النبي شيت التي كمنت قربها مروحية هجومية لأمين عام حزب الله السابق، على رغم أن المنطقة جرداء: ظهر نصر الله في المهرجان وهاجم في خطابه إسرائيل بكلمات لاذعة(٢).

(١) المنار برنامج (ماذا بعد)، ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٧م.
(٢) عوفر شيلح، يديعوت أحرونوت، مقال: لغز نصر الله، منقول من موقع المقاومة الإسلامية، تاريخ المقال بعد الانسحاب عام ٢٠٠٠م بأسبوعين.

فهل لا يزال هذا التوازن موجوداً؟ أم تغيرت المعادلة؟ أو غيَّرها حزب الله؟

حتى الآن ورغم حرب يوليو ٢٠٠٦م، لا توجد معلومات تؤكد أو تنفي. وقصف مقرات الحزب أو منازل القادة ليس دليلاً على قصد الاغتيال، إذ لا يتوقع أحد أن يكون داخلها أصحابها، وقد كانت إسرائيل لا تبالي عند اغتيالها قادة حماس بوجود أعداد من الأهالي بجوارهم، فلماذا لم تحاول قصف منصة الخطاب التي يتحدث فيها نصر الله إلى أتباعه؟ إن إسرائيل كانت تتباهى دوماً بقتلها لقادة الفصائل الإسلامية، وكانت تتخذ من أي عملية مسوغاً كافياً لتنفيذ الاغتيالات، وكانت هناك قوائم اغتيال معدَّة ومعروفة، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لحزب الله، رغم أن قادة الحزب أنفسهم يعترفون بأن عملاء الموساد منتشرون في كل مكان في لبنان، فهل أن مخابرات الحزب المدعومة من سوريا وإيران قادرة على مواجهة التغلغل الإسرائيلي؟

إن كل عملية اغتيال تتم لأحد أعضاء فريق الأغلبية النيابية أو مؤيديهم من الإعلاميين، يوجه حزب الله فوراً أصابع الاتهام إلى المخابرات الإسرائيلية والأمريكية؛ فهل يصل عملاء هذه الأجهزة فقط إلى الآخرين ولا يصلون إلى عناصر حزب الله؟

في جميع الأحوال فإن سياسة الاغتيالات الإسرائيلية تتغير حسب مصالح الكيان الصهيوني، وقد كان ياسر عرفات عنصراً مهماً لتمرير سياسات تل أبيب في فلسطين المحتلة، ولما ثقل حراكه السياسي، وتباطأ في تنفيذ طلبات الحكومة الإسرائيلية تمت تصفيته، ولذلك يبقى السؤال بالنسبة لوضع نصر الله الحالي: هل يمثل وجوده مصلحة للكيان الصهيوني باعتباره شخصية ثورية مثيرة للفوضى السياسية والعسكرية، وباعتباره أداة استدراج لمن خلفه إلى الساحة اللبنانية؟ أم أن المصلحة الأكبر في التخلص منه؟ هذه قضية توازنات يختلف تقديرها من جهة إلى أخرى، وستكشفها الأيام القادمة إن شاء الله، ولكن ما يهم هنا هو أن «توازن الاغتيال» كان موجوداً على الأغلب سنوات طويلة لم يتعرض فيها نصر الله للأذى.

٨- التطهير الثوري:

وقد أشرنا إلى قبس من ذلك في فصول سابقة، كما أننا تكلمنا عن حرب حزب الله مع حركة أمل - في فقرة سابقة - تمثل نموذجاً صارخاً على التطهير الثوري داخل الطائفة الشيعية، وهو تطهير كان مواكباً للثورة في سنواتها الأولى، ولا يزال قابلاً للتكرار عندما تتوفر الظروف المحفزة، مثل: اختلال توازن القوى بين الطرفين؛ إما لتدهور علاقة الحزب مع سوريا، أو تدهور العلاقة بين سوريا وإيران نتيجة تطورات سياسية مغايرة، وإما لتزايد القوة السياسية والعسكرية لحزب الله وتطلُّع الحزب للاستحواذ على حصة أمل السياسية داخل الطائفة...، أو يكون ذلك لتغير التوازنات داخل القوى اللبنانية وإعادة تشكيل تحالفات جديدة.

٩- التحريك عن بُعْد:

حزب الله متأثر إلى درجة كبيرة بوضعية «الإرشاد» الإيرانية، حيث يجلس المرشد في مستوى مترفع فوق الجميع، ولا يعتبر منصبه ضمن بنية السلطة التنفيذية أو التشريعية أو القضائية، بل هو دور مبتكر لا سابق له، يملك الصلاحيات المطلقة ويتدخل لتحديد العناوين الرئيسة أو لإدخال تعديلات وإضافات دون أن يبدو له تدخل في التفصيلات اليومية لإدارة الدولة.

وهذا هو الدور الذي يريد حزب الله أن يمارسه في لبنان، ليس لأسباب التقمُّص النفسية فقط بالطبع، ولكن لأن الحزب يتنازعه أمران متناقضان؛ فهو من جهة يمتلك طموحاً سياسياً يتجاوز لبنان كما سبقت الإشارة، ولكنه من جهة أخرى مجرد حزب ضمن طائفة ضمن دولة طائفية، فحصته قليل من قليل من كثير، ولا تبدو هناك إمكانية في الوقت الحالي لتجاوز حصة الإثني عشر أو الأربعة عشر مقعداً التي يحصل عليها الحزب من خلال قائمته المشتركة مع طوائف أخرى، وحصة الشيعة من المجلس كله - الذي يبلغ تعداده ١٢٨ نائباً - لا تتجاوز ٢٧ نائباً، وفي مجلس الوزراء حصة الشيعة خمسة وزراء من أصل ٢٤ وزيراً، (انظر الفصل الخامس: لعبة السياسة).

وهذه البيانات تعني أن الحزب سيظل رهين القدرة السياسية المحدودة، ولا حلَّ

إذاً إلا في استحضار دور «الإرشاد» من التجربة الإيرانية، والسعي إلى تطبيقه في لبنان من خلال التحالفات وفرض الوصاية واستخدام التهديد المبطن بالقوة العسكرية والحرب الأهلية، ومحاولة توظيف النفوذ السوري في الاستحواذ على مناصب الدولة الثلاثة الكبرى من خلال فرض الحلفاء عليها، ولذلك يقول فؤاد السنيورة رئيس الوزراء: «إن لهجة السيد نصر الله تحمل كل التهديد وكل بذور الشقاق والفرقة بين اللبنانيين، وإنه ينصب نفسه على كل لبنان ويحدد من هو الذي سيكون رئيساً للحكومة وكيف سيعينه وكيف سيصنعه»(١)، ويشير السنيورة إلى تصريحات لنصر الله تحمل هذا المعنى، مثل: تصريحه لأنصار حزبه بثقة تامة: «هذه الحكومة ستذهب... وستأتي حكومة جديدة.. ستكون أصدق من هذه الحكومة؛ لأن مصداقية الحالية صفر... حكومة نظيفة ستأتي وتعمر لبنان»(٢).

ويقدم لنا نعيم قاسم نائب نصر الله صورة تقريبية لما يمكن أن يمارسه حزب الله في إدارة الدولة من خلال وضعية «الإرشاد»، وكيف يمكن للحزب أن يتجاوز حق الطوائف الأخرى في الاختيار والقرار، يقول نعيم في حواره مع العربية: «بالأمن العام نحن اقترحنا ثلاثة أشخاص للأمن العام وقلنا لهم نقّوا اللي بدكم ياه من الثلاثة، نقّوا شخص هذا الشخص اللي نقوه هو كان مدير مكتب العماد ميشال سليمان وبالتالي إذا بدنا نحكي بالتصنيف السياسي هو محسوب على العماد سليمان.

جيزال خوري: بس أنتم عطيتوا اسمه.

الشيخ نعيم قاسم: نحن أعطينا اسمه بس لا محسوب لا على حزب الله ولا محسوب على حركة أمل، يعني بمعنى آخر نحنا وافقنا على وجوده وطرحنا ٣ أسماء همّ نقوّا اسم من الأسماء وحقنا نحنا إنه نكون مشاركين..»(٣).

ويعبر أسعد هرموش القيادي في الجماعة الإسلامية عن تعدّي حزب الله على

---

(١) إسلام أون لاين، ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) موقع القناة، ١٤/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٣) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.

التوازن الطائفي بين المناصب الثلاثة من خلال رغبته في فرض شخصية سُنّية موالية لرئاسة الحكومة، فيقول: «نحن احترمنا في الماضي مطلب سيد بكركي - نصر الله صفير - بعدم المطالبة بإسقاط رئيس الجمهورية في الشارع، واحترمنا بالمقابل الإجماع عند الإخوة الشيعة في تقديم دولة رئيس مجلس النواب ليكون رئيساً للمجلس ومرشحاً أوحد، وبالمقابل نحن نطلب باسم ساحتنا أن تُحترم خصوصية مجتمعنا الإسلامي الوطني بعدم إسقاط موقع رئيس الحكومة في الشارع»(١)، وطبعاً لم يستجب الحزب لهذا المطلب وانطلق في مخططه «الإرشادي» للسيطرة على الحكومة باسم «الثلث المعطل» الذي يعطي نصر الله إمكانية إدارة الحكومة بـ«الريموت كنترول».

(١) المستقبل، ١٢/١٢/٢٠٠٦م.

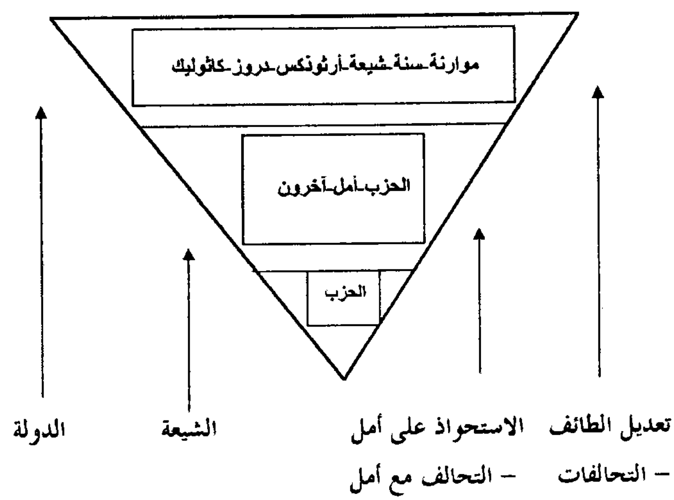
الفصل الخامس: لعبة السياسة

الهرم السياسي المقلوب:

كان سلاح المقاومة يرفع حزب الله إلى قمة الدولة، ويجعله قادراً ومنفرداً بقرار الحرب والسلم، وكانت المظلة السورية تبقي الحزب على رأس الأحزاب الأخرى ولو من وراء ستار.

ومع تزايد الجدل حول دور المقاومة وسلاحها، ومع انسحاب سوريا، كان لا بد من تعزيز مكانة الحزب بمشاركة سياسية واسعة المجال تمكنه من تلبية مصالح «السيدين» في دمشق وطهران، وتمثلت مشكلة الحزب في كون مستقبله السياسي يتشكل في صورة «هرم مقلوب» يجعله مقيدا بأُطر متعددة متتالية تحول بينه وبين التأثير في القرار السيادي للدولة.

فحزب الله جزء من طائفة، والطائفة ـ حسب الدستور ـ جزء من المسلمين، والمسلمون يمثلون نصف الدولة والحصص السياسية بالتبعية. (انظر: الشكل المرفق):



ولكي يصل الحزب إلى قمة الدولة عن طريق السياسة، لا بد أن يتحرك داخل الطائفة ثم داخل الديانة ثم داخل الدولة، وهذا طريق بالغ الصعوبة. ويمكن أن تتحدد مساحات التحرك أمام الحزب لتنفيذ استراتيجيته «الاستحواذية» في ثلاثة مجالات:

١ - توحيد الطائفة من خلال إقصاء أمل، أو استيعابها، واختار الحزب الخيار الثاني؛ لأنه لن يتمكن من متابعة المرحلة التالية انطلاقاً من صراع شيعي شيعي.

٢ - الخروج من أَسْر «الديانة» بترسيخ الحق الشيعي المباشر باعتبار الزعم أنه الطائفة الأكبر في لبنان، ومن ثم هناك حاجة إلى إحصاءات وإعادة توزيع الأنصبة السياسية من جديد بعيداً عن معادلة: النصف للمسيحيين والنصف للمسلمين، لتصبح (٤٠٪) للشيعة، والباقي بين المسيحيين والسُّنة.

٣ - الانطلاق إلى رحاب الدولة من خلال شراء الحلفاء وتكوين تكتُّل يضم ممثلين عن كافة الطوائف ليكون قاطرة الحزب إلى القمة، ومن ثم يمكن لاحقاً إجراء عمليات الاستبدال والإحلال بين الحلفاء حسب المصالح المتجددة.

وأعاد منظّرو حزب الله توجيه مصطلحات المقاومة لتخدم في الميدان الجديد، معتبرين أنهم يواجهون معركة «حربية» بأسلحة سياسية، وكما ذكر نعيم قاسم، فإن الحزب يمارس السياسة بالبَدْلة المرقطة، وعندما زار محمد يزبك - عضو شورى حزب الله - إيران وذهب إلى قم، خطب في جمع من رجال الدين الشيعة العرب، وطمأنهم بقوله إن: «النصر آت آت آت، وأن التغيير سيكون في غضون أسابيع وتوقعه مع بداية العام الجديد ٢٠٠٧م»[1]، ولم يأت النصر، وطالت المعركة.

ويحمل حزب الله إرثاً يتعارض جذرياً مع الدولة اللبنانية، وهو بالأساس يرفض الدولة وشكلها ونطاقها الجغرافي، يقول د. مسعود إلهي: إن الحزب في الثمانينيات كان «يرى أن هذا النظام يصعب إصلاحه أو ترميمه، ومن الواجب أن يتم تغييره جذرياً، ولم تنته المسألة هنا، وإنما رفض حزب الله في الثمانينيات الاعتراف بوجود بلد اسمه لبنان، وقد اعتبره من صنع المستعمرين بعد سقوط

(١) قناة المنار، ٤/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

الدولة العثمانية»(١)، ولا يقبل الحزب أن يصطف إلى جوار الأحزاب الأخرى، بل على رأسها، يقول محمد إيراني القائم بالأعمال في السفارة الإيرانية في بيروت عام ١٩٩٧م،: «إن حزب الله بتلبننه أصبح قادراً على تولي قيادة الأحزاب المختلفة»(٢).

ويؤكد حسن نصر الله على أن حزبه هو الأكبر بين الأحزاب اللبنانية، ولا يقبل الجدال حول هذه الحقيقة أبداً، فيقول: «حزب الله اليوم، من دون نقاش، أكبر حزب سياسي في البلد، بغضِّ النظر عن عدد النواب؛ لأن هذا له علاقة بقانون الانتخاب، أو هو على الأقل من أكبر الأحزاب السياسية وقوة لا يستهان بها على كل صعيد»(٣)، ونصر الله يغضّ «البصر» عن عدد النواب؛ لأنه يكشفُ حجمه الحقيقي الذي تأطر من خلال اتفاق الطائف، وهو عدد مرتهن بتحالفه أو تصارعه مع أمل، ولا يمكن أن يتجاوز سقف ١٢ نائباً شيعياً، أو حتى ٢٧ نائباً لكل الطائفة الشيعية(٤).

لهذا ظل الحزب حانقاً على اتفاق الطائف منذ الإعلان عن تطبيقه، ولم تتغير نظرته الأيديولوجية لهذا الاتفاق الذي عقد في الطائف بالسعودية وليس في طهران أو دمشق، وأيديولوجية الحزب لا تتغير، كما يؤكد د. مسعود إلهي: أن «الواقعية في المواقف السياسية ـ للحزب ـ ليست ناجمة عن تغيير آراء الحزب الأيديولوجية، وإنما هي نتيجة ضرورات فرضها واقع المجتمع اللبناني بعد الحرب»(٥).

بالعودة إلى الهرم السياسي «المقلوب» فإن الحزب سيكون عليه اختراق أمل ـ وقد حدث ـ ثم اختراق اتفاق الطائف، ثم تكوين التحالفات.

وسبق الحديث عن صراع الحزب مع أمل في أكثر من موضع، ونتناول المجالين الآخرين:

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٧٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٥.
(٣) حوار مع صحيفة الحياة، يناير ٢٠٠٦م.
(٤) تضم كتلة تيار المستقبل ٧٢ نائباً، وتيار عون ٢١ نائباً، وتحالف يجمع أمل وحزب الله وحلفاءهم ٣٥ نائباً، والمجموع ١٢٨ نائباً.
(٥) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٤٢٨.

ا ـ اتفاق الطائف:

جاء تكليف من خامنئي عام ١٩٨٩م إلى حزب الله بوجوب إسقاط النظام في لبنان وعدم السماح بتطبيق اتفاق الطائف، وكان السبب الرئيس أنه اتفاق لم تشهده طهران ولم تُدع إليه.

هذه ليست اتهامات دون دليل، ودليلها هو كلام حسن نصر الله نفسه الذي وقف متحمساً ـ كعادته ـ يخطب باسم «المقاومة» في حسينية الرمل في برج البراجنة في احتفال «تأبيني» لمقتل مقاتل الحزب عبد الله عطوي، فقال: «إن اتفاق الطائف مشكلة؛ لأنه يكرس النظام الطائفي الماروني، إن مشكلتنا في لبنان هي النظام الطائفي الذي سيبقى في ظله الحرمان، والبديل كما قال آية الله علي خامنئي أن هذا النظام يجب أن يسقط والناس هم يحددون صيغة النظام الجديد، وما نتمناه أن يختار الناس والشعب في لبنان النظام الذي يريدونه بعيداً عن الضغوط.. إن البديل من مقرّرات الطائف هو المقاومة»(١).

ولم يسكت الحزب عن الطائف إلا بأن تميز طائفياً، وظل الاتفاق قيد التلاعب والتشويه في أيدي سورية وحزبها اللبناني، حتى أن نعيم قاسم لم يستطع ـ في حوار متلفز ـ أن يقدم وصفاً للدولة مع بداية الانسحاب السوري، فتحدث عن القرار ١٥٥٩، قائلاً: «نحنا هذا القرار الدولي ما رح ننفذه..

جيزال خوري: إنتو ما رح تنفذوه، الدولة اللبنانية؟

نعيم قاسم: لنكفّي.. والدولة اللبنانية لن تنفذه أيضاً لأنه في تنسيق بينا وبين الدولة اللبنانية..

جيزال خوري: الدولة المتمثلة بمن؟ شيخ نعيم..

نعيم قاسم: الدولة اللي عم تتشكل... المشكّلة.. اللي هلأ عم تتشكل...!»(٢).

---

(١) مقال فارس خشان، صحيفة المستقبل، ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م، العربية نت.

وعندما انسحب الراعي السوري، عزم حزب الله على تغيير قواعد اللعبة وتعديل الاتفاق، أو بعبارة أكثر دقّة: تحويل التعديلات الشفوية التي تمت بالتوافق مع دمشق إلى تعديلات حقيقية حالياً ثم مكتوبة لاحقاً.

بدأ نصر الله يتحدث عن تحفظاته حول الاتفاق، ويطلق العنان لحلفائه لطعنه صراحة، يقول ميشيل عون: «ليست قصة ثلث معطل، بل ثلث مشارك فإذا لم تملكه فما قيمة المشاركة إذاً. فلنجعل النظام أكثريّاً وليس وفقاً للطائف. وأنا عندي تحفظات عن الطائف يمكن أن يكون هذا أحدها»(١).

ولم يخالف حزب أو طائفة في لبنان اتفاق الطائف كما خالفه حزب الله وشيعته، وبخلاف انفراد الحزب بسلاح وميلشيا دون بقية الطوائف، فإن الحزب لم يتقيد يوماً بأغلبية الثلثين التي يعتبرها الدستور في إقرار القرارات السيادية المهمة، إلا إن جاءت لصالحه، ويفتخر نصر الله بأن الحكومة لا تستطيع نزع سلاح الحزب ولو بأغلبية ثلثين، بل قال: «هناك قرارات نحن منعناها ليس بسبب وجودنا القانوني الدستوري في الحكومة وإنما بسبب تهيبهم هم من تبعات اتخاذ أو تنفيذ قرارات من هذا النوع»(٢)، لا عبرة إذاً بدستور أو اتفاق، طالما يفرض الحزب خياراته السياسية عن طريق «توازن الرعب».

وانفرد الحزب بقرار الحرب والسلم رغم أن دستور الطائف ينص في الفقرة (٥) من المادة (٦٥) على أن المواضيع الأساسية ينبغي اتخاذ قراراتها بموافقة أغلبية الثلثين، ومن بينها «الحرب والسلم»(٣).

وانسحب الوزراء الشيعة الخمسة من الحكومة، وأراد الحزب أن يفرض وضعاً دستورياً جديداً يجعل من انسحاب وزراء الطائفة سبباً لإسقاط الحكومة، رغم أن الدستور ينص في الفقرة المشار إليها سابقاً على أن الحكومة تنعقد بالثلثين، وتسقط باستقالة الثلث، ويتم اتخاذ القرارات بالتوافق فإن تعذر ذلك فبالتصويت واعتماد قرار أكثرية الحضور.

---

(١) برنامج (مختصر مفيد)، قناة (إن بي إن) التابعة لحركة أمل، ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٢) كلمة نصر الله في لقائه بأعضاء اللجان المخولة بالإشراف على التحرك الشعبي للمعارضة، موقع شبكة الشيعة، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٣) مجلة الحوادث، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٦م.

ولو كانت استقالة خمسة وزراء من الحكومة سبباً كافياً لعدم دستوريتها كما يدعي الحزب؛ فلماذا الإصرار إذاً على الثلث المعطل بينما هم يسلبون الحكومة مشروعيتها بـ«الخمس المعطل»؟!

لا مفرَّ من التسليم بأن حزب الله دولة متكاملة تعيش داخل دولة مفككة، وتسعى الأولى إلى السيطرة على الثانية، وقد عبَّر صحفيو وكُتّاب الحزب عن هذه الحقيقة بوضوح لا يدع مجالاً للشك لدى أحد، ومن أبرز الأمثلة: مقال كتبه «وسام سعادة» في صحيفة السفير الموالية للحزب، تحت عنوان «شيعة لبنان، طائفة التسيير الذاتي»، وهو في مقاله هذا قدَّم توصيفاً دقيقاً لحال الحزب مع الدولة، وهو ما ابتدع له مصطلح «التسيير الذاتي»، وهو يختلف عن الحكم الذاتي في أمور من أهمها: أنه يستقل عن الدولة الأم ولكنه لا يتركها في حالها، يقول سعادة: «نجح خيار حزب الله في تحويل شيعة لبنان إلى طائفة كلية قادرة على التسيير الذاتي لأمورها، دون الحاجة إلى الدولة، ودون الحاجة أيضاً إلى الاعتكاف عن الدولة، بدليل المشاركة في الحكومة الفدرالية مع الأكثرية».

ويطبق الكاتب مفهومه عن «التسيير الذاتي» على قرار الحرب والسلم، ليخرج لنا بنتائج مثيرة: «خيار حزب الله هو خيار التسيير الذاتي لشؤون الشيعة في الحرب والسلم، ولا يمكن لخيار كهذا أن ينيط قرار الحرب والسلم بالحكومة الفدرالية. يعيد خيار حزب الله إذاً تشكيل مبدأ الفدرالية واقتراحه على النحو التالي: للولاية أو الطائفة اللبنانية الأكثر قدرة على التسيير الذاتي لأمورها حق الصدارة في قرار الحرب والسلم»، ولكن قد يتساءل البعض: هل هذا الحق في «التسيير الذاتي» متاح لبقية الطوائف؟ يفاجئنا سعادة بمنطق احتكاري إقصائي، فيقول: «والمفارقة أن نجاح حزب الله في تحقيق مثال الطائفة الكلية، ذات اللحمة الإثنية، هو من النوع الذي يعيق الاقتداء به في الطوائف الأخرى، فهذا الكمون الفدرالي الذي يوحي به أداء حزب الله، هو من النوع المحلَّل على فريق والمحرَّم على آخر»، ويقطع الكاتب مسافة أخرى في تقريب المعنى المقصود، وهو صلاحية الحزب لحكم طوائف لا تملك حكم نفسها، فيقول: «التسيير الذاتي... هو مبلغ تمنّت كل

الطوائف الأخرى لو تحققه في دخيلتها. ولم تتوصل إليه إلا طائفة الشيعة، فتحققت هي من خلال تحقيقه وصارت طائفة كلية، أي: طائفة إثنية. الطوائف الأخرى بقيت طوائف غير محدّدة المعالم الإثنية بشكل كاف وتام، وغير منطوية على ذاتها بشكل مطبق، وإنما مستندة في عملية إنتاجها وإعادة إنتاجها إلى إطار الدولة الطائفي»(١).

إذاً المطلوب إثباته هو: حزب الله الأصلح والأقدر على تسلّم حكم لبنان، بدليل أنه استطاع أن يحقق اكتفاء واستغناء ذاتياً عن الدولة بينما عجز الآخرون، أي: أن الحزب من حقه امتلاك الدولة؛ لأنه لفظها واستقل عنها، بينما الآخرون الذين تمسكوا بها لا حقَّ لهم في حكمها؛ لأنهم اعتمدوا عليها... هذه المعاني «المقلوبة» لا يمكن أن تستنبطها طائفة أو حزب ما لم يكن مستندهم في ذلك نظرية «ولاية الفقيه».

- قنبلة التوطين:

في خطابه الذي أعلن فيه قرار الانسحاب السوري، أعطى بشار الأسد وصاياه لـ«الشعب اللبناني» فحذرهم من تضمُّن القرار ١٥٥٩م بنوداً سرية، فقال: «القرار يتضمن بنوداً خفية تتناول عملية توطين اللاجئين الفلسطينيين»، ثم أصدر «التكليف» السياسي للحزب: «فاستعدوا لمواجهته كما فعلتم قبل عقدين»(٢).

ويبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين في لبنان نحو ٣٠٠ ألف فلسطيني، يعيشون في ١٣ مخيماً، وبعض التقديرات الميدانية من مصادر فلسطينية مطلعة تذكر أن العدد الحقيقي يفوق ٥٠٠ ألف فلسطيني، ومصير هؤلاء مرتبط بمصير القضية الفلسطينية والحل النهائي، وتصرّ إسرائيل على عدم السماح بالعودة للاجئين، وأعطى أبو مازن إشارة بالتهاون في حق العودة قبل سنوات.

ويتخوف اللبنانيون من حل شامل يقضي بتوطين الفلسطينيين في لبنان ومنحهم الجنسية، وهو حل توجد بالفعل مشاريع متعددة لتحقيقه، وينص بعضها

---

(١) صحيفة السفير، ١٧/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٢) العربية نت، ٥/ ٣/ ٢٠٠٥م.

على منح الجنسية لـ ١٥٠ ألف فلسطيني، والباقون يعطون أوراق سفر لأي دولة غربية من بينها الدنمارك وكندا والسويد، مقابل مساعدة لبنان في سداد ديونه، وتجنيس بعض المهاجرين المسيحيين لتحقيق التوازن، ومن أبرز المشاريع: مشروع الأمريكية (إليانا روس ليتنن) الذي أقره الكونجرس في ٢٨ / ١٠ / ٢٠٠٣م، ومشروع المدير العام السابق لوزارة الخارجية الإسرائيلية (رون بروسور) الذي أعلن عن إعداده عام ٢٠٠٤م(١).

ويرفض حزب الله وسوريا قضية التوطين أكثر من أي طائفة أخرى؛ لأنها سوف تغير التركيبة السكانية لحساب السُّنة باعتبار الانتماء الديني للفلسطينيين، وسيؤدي ذلك بالتبعية إلى إجراء تعديلات جذرية في اتفاق الطائف، خاصة وأن الجنوب تحديداً مرشح ليكون أبرز مناطق التوطين، ويشير الدكتور وليد فارس -مؤلف كتاب «مستقبل الجهاد» وأحد مهندسي القرار الدولي ١٥٥٩ والزميل في مؤسسة الدفاع عن الديموقراطيات في واشنطن- إلى أن عام ٢٠٠٧م ربما يشهد تطوراً في هذا المجال، وربما يكون التوطين أحد مفجرات الأزمة في لبنان المرحلة المقبلة(٢).

ويترافق مع توطين الفلسطينيين قضية عودة جنود أنطوان لحد من إسرائيل بعد انتشار القوات الدولية والجيش اللبناني في الجنوب، ويأتي ذلك في سياق عملية «خنق» ديمغرافية لمناطق نفوذ حزب الله في الجنوب وإعاقة عملياته العسكرية مستقبلاً عن طريق حواجز بشرية.

وقد فرَّ جنود لحد وعناصر من حزب «حراس الأرز» العملاء لإسرائيل إلى الكيان الصهيوني ودول أوروبا وأمريكا عندما نُفِّذ الانسحاب أحادي الجانب عام ٢٠٠٠م من الجنوب اللبناني، ويقدر عددهم بحوالي ١٧٠٠ عنصر مع عائلاتهم البالغ عدد أفرادها ٤٣٠٠، أي: إجمالي ٦٠٠٠ شخص، وتبذل اللجنة العالمية لمتابعة تطبيق القرار ١٥٥٩ والمتنفذة داخل الكونجرس الأمريكي جهوداً

(١) علي باكير، إسلام أون لاين، ٨/ ٨/ ٢٠٠٥م.
(٢) موقع الحدث، ٧/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

سللسماح بعودة هؤلاء إلى مُدنهم وقُراهم في الجنوب في حماية القوات الدولية والجيش اللبناني(١)، ولا توجد تقديرات دقيقة عن انتماءات هؤلاء الدينية، ولكن تشير بعض التقارير إلى أن (٦٠٪) منهم من الشيعة، وكان تيار ميشيل عون قبل انفصاله عن الأغلبية يطالب بتسوية أوضاعهم وإعادتهم إلى لبنان حتى لا ينشأ في إسرائيل جيل لبناني كامل يحمل الجنسية الإسرائيلية حسب قوله(٢).

وقد أثمرت الحرب النفسية التي شنَّها حسن نصر الله ضد جنود لحد عام ٢٠٠٠م في تسريع فرارهم خارج لبنان، إثرَ تصريحه الناري أن «المقاومة سوف تدخل إلى منزل كل عميل وستذبحه في سريره» وعندما تم الانسحاب وفرَّ جنود لحد، قال نصر الله: «لقد جزع إخواننا ـ في الحزب ـ مما كنت قد قلته وخشي أن يلطخ هذا صورة حزب الله، ولكن هدفي مما قلت كان نشر الهلع والارتباك بغرض التأثير النفسي لكي تتبعثر مليشيات لحد، إننا لا نفكر حتى بمجرد الانتقام»(٣)، وهذه الأساليب النفسية جديرة أن ينتبه إليها أهل السُّنة، خاصة مع اعتماد حزب الله سياسة طويلة الأجل في تغيير الحقائق على الأرض بمختلف الوسائل، لترسيخ حقيقة «الدولة الشيعية» في المستقبل.

٢ ـ الأحلاف الطائفية:

مطالب طائفية يتم إعادة صياغتها صياغة وطنية، ثم يُكوَّن لها تحالف متعدد الطوائف، ثم يصار إلى التظاهرات والإضرابات حتى يتم تلبية المطالب، ومن ثم يمكن تفكيك التحالفات لاحقاً والانفراد بالمكاسب.

هذا السيناريو الذي يطبقه حزب الله الآن، نفذه حرفياً موسى الصدر قبل ٣٧ عاماً في لبنان.

وللمقارنة؛ كان حدث البداية: عدوان إسرائيلي في ١٢ / ٥ / ١٩٧٠م نتج عنه خسائر جسيمة، وكانت خطوة البداية: الدعوة إلى حل مشكلات الجنوب

---

(١) صحيفة السياسة الكويتية، ٥/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) علي باكير، إسلام أون لاين، ٨/ ٨/ ٢٠٠٥م.
(٣) قواعد جديدة للعبة، ص ٤٨.

وأبرزها: النازحون الذين بلغ عددهم أكثر من خمسين ألفاً.

وكان الحليف الرئيس: المطران أنطونيوس خريش الذي أصبح لاحقاً بطريرك الطائفة المارونية[١]، وكان الأسلوب الرئيس: إعلان الإضراب الشامل في جميع لبنان لمدة يوم واحد[٢].

حدث البداية، خطوة البداية، الحليف الرئيس، والأسلوب الرئيس.. مطابقة شبه تامة بين شيعة ١٩٧٠م وشيعة ٢٠٠٦م، وما يفعله حزب الله حالياً هو إعادة بعث لأفكار الصدر القديمة، مع توسيع نطاقها الزمني والمكاني.

-تحالف على جمر النار:

بدأت العلاقة التحالفية بين حزب الله والتيار الوطني بقيادة ميشيل عون بتوقيع ورقة التفاهم بين الطرفين في ٦ / ٢ / ٢٠٠٦م،، وكان التيار العوني قد قدَّم خدمات متعددة للحزب أثناء العدوان الإسرائيلي، وتمثلت أبرز الخدمات في إيواء النازحين وتوفير مستودعات بديلة للأسلحة والصواريخ كما سيأتي لاحقاً.

ولذلك يقول غالب أبو زينب مسؤول العلاقات المسيحية في حزب الله: إن العلاقات بين حزبه والتيار «تبلورت بصيغة أكثر نضوجاً حين العدوان الإسرائيلي على لبنان.. كان هذا التيار يقاوم مدنياً عبر مساعدة النازحين وأمَّن غطاء سياسياً واجتماعياً»[٣].

ويعتبر التحالف بين القوتين السياسيتين مثيراً للتأمل، فميشيل عون كان دوماً العدو الأول لسوريا، بينما حزب الله هو الحليف الأول لها.

ولم تتقادم العداوة مع مرِّ الزمن، فلا يزال ميشيل عون يعتبر نفسه «أبو القرار ١٥٥٩» وقانون محاسبة سوريا الذي أصدره الكونجرس الأمريكي، وسئل نعيم قاسم عن تكييف التحالف مع عون وهو صانع هذين القرارين ضد سوريا: «جيزال خوري: العماد عون كان يقول إنه أنا عاملهم - القرار والقانون - كيف هيدي زبطت معكم؟

(١) يلاحظ دائماً أن الحليف الأساس يكون مارونياً، بينما الوجود السُّني من باب «إكمال العدد».

(٢) موقع «الإمام موسى»: http://www.imam-moussa.com/sirah.htm.

(٣) حوار مع غالب أبو زينب، إسلام أون لاين، ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م.

نعيم قاسم: أول الشي العماد عون لما كان يصرح ويقول أنا أبو ١٥٥٩ وأنا عاملهم.. هذا سبّب اختلافاً بيننا وبينه بالانتخابات النيابية اللي حصلت وكنا نحنا بتحالف رباعي في مقابله.

جيزال خوري: هو غيّر رأيه بعدين؟

نعيم قاسم: هلأ هو بيعبّر عن رأيه إذا غير أو ما غيره»[١].

لا يوجد ما يدل على تغيير عون لرأيه، وأقصى ما هنالك قول نعيم قاسم إن عون يقول: لست معنياً بأن أنفذ المطلب المتعلق بسلاح المقاومة في القرار١٥٥٩م[٢]. ويبقى الجزء المتعلق بسوريا جمراً متقداً تحت الرماد قابلاً للاشتعال مع تبدل الظروف والمصالح وموازين القوى ونضوب الأموال.

ويقدم كلام لوليد جنبلاط قاعدة لفهم مغزى التحالف العوني الشيعي، فيقول: «المجيء بلحّود في العام ١٩٩٨م تحت نظريّة المسيحيّ القويّ في مواجهة السنّي القويّ تمّ بقرار من الحلقة المخابراتية العائلية المذهبية ـ يقصد: عائلة الأسد ـ»[٣]، وقد تم إجراء تحديث جوهري في هذه المعادلة، لتصبح: المسيحي والشيعي القويان لإزاحة السُّني القوي.

وفي بداية العام ٢٠٠٦م قبل تفاهمه مع حزب الله بشهر واحد، كان عون يطالب سوريا بترسيم الحدود مع لبنان، ومنع التهريب وترسيم الحدود في شبعا وتقديم ما يثبت لبنانيتها[٤]، وهي مطالب يعارضها حزب الله.

وتشير الدلائل إلى أن عون ينتظر بفارغ الصبر انتهاء فترة التمديد الرئاسية لإميل لحود في نهاية العام ٢٠٠٧م حتى يترشح لمنصب الرئاسة حلمه القديم، وهو مطمع جعل عناصر قيادية تنفصل عن تياره محدثة انشقاقاً ينذر بأداء ضعيف للتيار في أي انتخابات قادمة، ويصف بسام آغا ـ رئيس الحركة اللبنانية الحرة، والقيادي

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٦م، العربية نت.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المستقبل، ٢١/ ١/ ٢٠٠٦م.

(٤) حوار مع وكالة فرانس برس، نقلاً عن صحيفة البلد، ١٦/ ١/ ٢٠٠٦م.

السابق في تيار عون ـ تقلبات زعيم التيار: «أدعوكم لكي تراجعوا الخطاب الشهير في أول جلسة برلمانية حيث انبرى النائب عون مهاجماً منتقداً حزب الله وسلاحه وكيف أنه انتقد ما يسمى المربعات الأمنية، بالله عليكم أين أصبح ذاك التصريح، وهل ذهب مع الريح كغيره من الخطابات؟... أعطى ـ عون ـ حزب الله كل شيء خاصة التغطية المسيحية التي كان حزب الله بأمسِّ الحاجة إليها، فيما لم يأخذ النائب عون سوى ما نسمعه من هنا وهناك عن وعد حزب الله بدعمه للرئاسة، عدا الأقاويل التي تتردد عن الأموال الإيرانية التي وصلت إلى بعض قيادات التيار»(١).

قيادي آخر هو خالد المراد، يتهم عون بنسيان قضيته الأولى ضد سوريا، وأنه: «اختزل كل نضالنا بشخصه الكريم وبصهره العزيز وبعض المهاجرين الذين أسسوا تياراً أساسياً على مقاساتهم الشخصية ونسفوا من أجلها قضية اسمها لبنان، هؤلاء عادوا إلى من أعطاهم الاسم والمنصب، والمال الحلال»(٢).

هل تغيب هذه الحقيقة عن حزب الله وزعيمه؟ على العكس من ذلك فقد حذَّر نصر الله من عون وهاجمه قبل ١٨ عاماً، عندما قال البعض: إن الحزب وعون يتوافقان على رفض الطائف، فرفض نصر الله هذا الجمع بين طرفين متناقضين، وقال في نوفمبر ١٩٨٩م: «في خضمِّ الأحداث في لبنان تبرز مشكلة اسمها اتفاق الطائف، ومشكلة اسمها ميشيل عون، وليس صحيحاً أن من يرفض اتفاق الطائف هو مع ميشيل عون...أما أن ميشيل عون مشكلة، فلأنه حالة إسرائيلية صدامية تدميرية ولا يرى إلا مصالحه الشخصية»(٣).

لم يكن انفصال عون عن تيار الأغلبية والتحاقه بتيار دمشق ـ طهران ناتجاً عن مصالح أكبر لدى التيار الثاني فقط، فهناك حالة احتقان مسيحية مسيحية، طرفاها الرئيسان، سمير جعجع زعيم القوات اللبنانية، وميشيل عون زعيم التيار الوطني.

وعون يرى أن كتلة نوابه ـ ٢١ نائباً ـ تعطيه قدرة على التحكم إذا كانت في

(١) المستقبل، ٨/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٢) المستقبل، ٦/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٣) فارس خشان، صحيفة المستقبل، ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

صف الطائفة الشيعية وحلفائها الأصاغر، والذين لا تكاد نسبتهم مجتمعين في مجلس النواب تتجاوز الربع، وهو معتقد بقدرته على سحب المسيحيين معه إلى قاعدته بجوار حزب الله، ولكن اغتيال الوزير الكتائبي بيير الجميل شتَّت الأحلام، وتعرض أنصار عون لاعتداءات وانتقادات في أعقاب الاغتيال نظراً لتوجه أصابع الاتهام إلى الحزب وسوريا بتصفية الحكومة التي يطالبون بإسقاطها «وهذا التكامل بين قتل الوزراء وإسقاط الحكومة يغري بالربط، ويسمح للبعض بالقول: إنّ صلةً ما تجمع بين طلب الموت الماديّ للوزراء وطلب الموت السياسيّ للحكومة»(١).

وتحدث بصورة دورية احتكاكات بين القواتيين والعونيين في المناطق المسيحية، والاشتباكات يمكن اندلاعها لأبسط الأسباب، مثل: تعليق صور الزعماء أو لافتات التأييد، ويقول البطريرك نصر الله صفير تعليقاً على هذه الحالة: «القيادات المسيحية تفرقت ويبدو من الصعب جداً جمعها»(٢).

ولا يخفى عن قادة حزب الله أن المسيحيين بصفة عامة ينظرون بتوجس إلى مشروعه السياسي الذي يتجاوز لبنان، وفي ظل بلد طائفي فإن الأحلام القديمة تصبح قابلة للتجدد مع تفاقم الصراع الطائفي، وكان الحلم المسيحي يتمثل في دولة يسيطرون عليها، بل إن لبنان كدولة يعتبرونه إنجازاً فرنسياً مسيحياً بامتياز، يقول الشيخ محمد الجوزو: «الزعماء المسيحيون في لبنان كلهم يتربصون لهذا الأمر، فلبنان بالنسبة للمسيحيين يعتبرونها الدولة التي أقامتها فرنسا لهم، فهم سيدافعون عنها بكل قوة، وبالتالي حزب الله بتصرفاته يحرض المسيحيين في لبنان على أن يحملوا السلاح من جديد كي يحاربوه»، ويقول: «المسيحيون كانوا ينتظرون خروج سوريا من لبنان، ولا يمكن أن يسمحوا لحزب الله أن يقوم بدور البديل»(٣).

أرسل الكيان الصهيوني أثناء حرب يوليو ٢٠٠٦م شيمون بيريز إلى الولايات

---

(١) حازم صاغية، الحياة، ٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٢) صحيفة الأنوار اللبنانية، ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٣) حوار مع صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

المتحدة لكي يشرح وجهة نظر الحكومة الإسرائيلية، وفوجئ المراقبون بأنه يتحدث عن دولة مسيحية في لبنان(١) مستحضراً الأفكار القديمة إلى بساط البحث، وهذه الحقائق تدفع إلى التساؤل حول: مَن يقود مَن إلى مصالحه؟ ميشيل عون أم حسن نصر الله؟ ومتى يحدث الافتراق بينهما؟

عندما تصاعد القصف الإسرائيلي على الجنوب ورحل مئات الألوف من الشيعة إلى الشمال في رحلة الصيف، اضطرت بعض البلدات المسيحية إلى استقبالهم لاعتبارات سياسية واجتماعية، وإن كانوا يبدون تبرُّماً من الاستضافة الثقيلة، وفي بكفيا التي يعيش بها ٢٠ ألف مسيحي تواجد مئات اللاجئين بعضهم من الضاحية الجنوبية، وتقول امرأة مسيحية من البلدة لمراسلة (بي بي سي): «هذه بلدة مسيحية والكثير من السكان غير سعداء بقدوم المسلمين إلى هنا، إذا توجهت مجموعة كبيرة من المسيحيين إلى بلدة مسلمة فعلى الأرجح لن يكون مرحَّباً بهم أيضاً»، ويقول مواطن مسيحي آخر: «إننا ندفع ثمناً باهظاً لأفعال حزب الله، هذه حرب ليست من اختيارنا، وليست من اختيار الحكومة اللبنانية، أعتقد أن (٩٥٪) من الناس في هذه البلدة يوافقونني الرأي»(٢).

- تفكيك السُّنَّة:

يسيطر تيار دمشق - طهران اللبناني على رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس النواب، والأولى مستمرة حتى نهاية العام ٢٠٠٧م، وبعدها هناك احتمال بفوز عون في انتخابات رئاسية، والثانية شيعية دوماً فلا فرق بين انتخابات سابقة أو لاحقة، وتبقى رئاسة الحكومة السُّنية من نصيب فريق الأغلبية تحت الحصار والاعتصام رغبة في سرقة الطائفة السُّنية سياسياً.

ويرفع تيار عون ونصر الله شعار «سُني آخر» للتأكيد على أنهم لا يحملون دوافع طائفية، ومصطلح «سُني آخر» لم يطرح إلا بعد حرب يوليو ٢٠٠٦م وقبلها كان نبيه بري يؤكد أنه «لا بديل للرئيس فؤاد السنيورة في رئاسة الحكومة.. ما دام

(١) مجاهد خلف، صحيفة الجمهورية المصرية، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) موقع بي بي سي، ٢١/ ٧/ ٢٠٠٦م.

الرئيس لحود باقياً في سدّة الرئاسة»، ويقول في ثقة: إن «التفكير في حكومة جديدة ليس سوى قفزة إلى المجهول، وأن الأمر لا يعدو محاولة هرب من مواجهة الواقع»[١]، فماذا حدث بعد الحرب؟ وما الذي حفز بري للقفز إلى المجهول والهرب من الواقع على حدِّ تعبيره؟

هناك احتمالان، أولهما: أن بري تشيّع أكثر من اللازم في الفترة الأخيرة، وأنه يتبنى المشروع الشيعي على الأقل في جزئه اللبناني وهو مع انتفاش الطائفة وتمددها داخل الدولة اللبنانية، وهذا أمر يتفق مع رؤية وتصور الحركة ولا يتعارض معها.

والاحتمال الثاني: أن الحركة مجبرة على الانضواء ضمن ركاب حزب الله تحت الضغط السوري، وقد اختلفت الاجتهادات في كنه الضغط، هل هو في سياق تبعية الحركة القديمة للنظام في دمشق؟ أم أن السير في قافلة نصر الله تطلب مستوى أكبر من ضغط الروابط القديمة؟

تذكر صحيفة السياسة الكويتية حادثتين في هذا السياق، الأولى: نشرت بتاريخ ١٢ / ٩ / ٢٠٠٦م: وتكشف تلقي بري تهديداً بالقتل من ماهر الأسد شقيق الرئيس السوري وقائد الحرس الجمهوري إن هو دعا إلى عقد جلسة لمجلس النواب للتصويت على قرار تشكيل المحكمة الدولية المرسل من حكومة السنيورة.

وأما الحادثة الثانية: فقد نشرت بتاريخ ١٦ / ١٠ / ٢٠٠٦م: انفجار قنبلة على بعد أمتار قليلة من منزل بري في حي الرملة البيضاء الراقي وسط بيروت، وهو ما اعتبر رسالة تحذيرية لبري الذي كان على وشك طرح مبادرة جديدة للحوار الوطني، وقد تبلغ الرسالة وجاءت مبادرته متناسقة مع رغبات عون ونصر الله.

في جميع الأحوال تمخّض الصراع عن اصطفاف شيعي «نصف» مسيحي في مواجهة الطائفة السُّنية، وبرزت الأطماع السورية في امتلاك المناصب الثلاثة الكبرى في لبنان لتكون قد أعادت احتلاله عن بُعْد هذه المرة.

واستخدم حزب الله خطاباً غير مسبوق في الحديث إلى السُّنة بلهجة لا تخلو

---

(١) مجلة الحوادث، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٦م.

من الوصاية والاستعلاء والاحتكار، وتحدث نعيم قاسم من فرط حماسته مخاطباً حشود المعتصمين حول السرايا الحكومية، فقال مخاطباً الطائفة السنية: «اتركوهم -أي: جنبلاط وجعجع- وعودوا إلى بلادكم، إلى وطنكم، إلى طائفتكم، إلى أحبائكم، إلى الله، معنا تربحون ومعنا تخسرون» وهذا اتهام واضح للسُّنة في لبنان أنهم خارجون على بلدهم وعلى طائفتهم وعلى دينهم، وخاطب نعيم رئيس الحكومة ورأس الطائفة السُّنية بحكم القانون، عارضاً عليه العفو المشروط برضى الشعب -الشيعي العوني-: «قدِّم استقالتك إلى ساحات الشرف في وسط بيروت، عند ذلك نستأذن شعبنا العظيم ونمدُّ اليد إليك»[١].

وكان إعلان «العصيان» الذي قدمه نصر الله بين يدي استراتيجية «الشوارع» يتضمن تشكيل حكومة تقودها «شخصية سُنية وطنية شريفة نظيفة نزيهة يعرف العالم كله نزاهتها»[٢] وهذا اتهام آخر يعني: أن السنيورة ليس وطنياً أو شريفاً أو نظيفاً أو نزيهاً، واتهام ممثل أغلبية السُّنة هو في حد ذاته اتهام للسُّنة الذين انتخبوه، وكما يزعم نعيم قاسم، فإن تيار الحريري يمثل ٧٥ - ٨٠٪ من الطائفة السُّنية[٣]، وبذلك فإن هذه الاتهامات موجهة لأغلبية السُّنة في لبنان.

وقد تمكن حزب الله من اختراق الطائفة السُّنية من عدة مواضع:

تمثل الموضع الأول في: الاختراق الديني عن طريق استمالة شخصيات ذات طابع ديني بواسطة المال، وقد أشرنا إلى بعض ذلك في الفصل الثالث.

والثاني: الاختراق السياسي، من خلال دعم تكوين وتفعيل جبهات تتحالف مع معارضة حزب الله، وأيضاً استغلال رؤساء الحكومة السابقين في العهد السوري، واستمالة المنشقين عن الحركات الإسلامية.

وتأتي جبهة العمل الإسلامي مثالاً على الاختراق السياسي، فقد تأسست بعد انتهاء حرب ٢٠٠٦م وأعلنت تأيدها لحزب الله، ويرأسها الداعية فتحي يكن وهو

(١) صحيفة النهار، ٥/ ١/ ٢٠٠٧م.
(٢) موقع إسلام أون لاين، ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٦م، العربية نت.

يحتفظ بعلاقات قوية مع حسن نصر الله، وتحرص وسائل الإعلام التابعة لحزب الله على إبراز لقاءاته مع زعيم الحزب، وتنقل صحيفة الأخبار اللبنانية قصة لقاء غير معلن ـ لا أدري كيف وهي تعلن عنه ـ بين يكن ونصر الله، وتتحدث الصحيفة وكأن الرجلين في مستوى النّدية من حيث قوة حركتهما وإمكاناتها، وتتحدث الصحيفة عن الأحلام المشتركة للرجلين والتي تتجاوز حدود لبنان «ما يحلم به الرجلان هو (جبهات) للعمل الإسلامي في المنطقة تلغي الوضع الشاذ للحركات الإسلامية في العراق وفي سوريا، والتحاق هذه القوى بالمشروع الذي يمثله الإسلاميون في لبنان ومصر وفلسطين»، وتنقل الصحيفة عن أحد المقربين من حسن نصر الله وَصْفَه للجبهة بأنها «بارقة أمل»، ثم تصف هذا المقرَّب بأنه «ممن عملوا طويلاً لدعم هذه الجبهة من بعيد»(١)، هذا ولا تحظى الجبهة بأي نائب في البرلمان اللبناني.

التحالفات التي تتجاوز الثوابت العقدية عادة ما تحفل بكثير من التناقضات في المواقف، وعندما استضيف الدكتور يكن في قناة العربية انتقد بشدة موقف تيار المستقبل لأنه تحالف مع سمير جعجع ذي التاريخ الدموي في الحرب الأهلية، فكان أن سأله المذيع عن تحالفه هو مع حركة أمل، فاضطر يكن مع حرج الموقف إلى تجاوز حقائق التاريخ والدماء التي لم تجف:

«حسن معوض: لكن دكتور يكن أنت أطنبت في الحديث عن ذلك الطرف في مجموعة ١٤ آذار، المحللون يتحدثون عن طرف آخر في جهتكم يعني لديه علاقة بما حدث في المخيمات أليس كذلك؟

د. فتحي يكن: ما حصل في المخيمات لم يكن واضح المعالم كما كان واضح المعالم تصرف الآخر. الفريق الآخر نحن أساساً طلبنا كشف حقيقة ما جرى في المخيمات، وهنالك في وقتها وفي حينها شكلت لجان من أجل الكشف عن الحقيقة، وعندما يتبين.

حسن معوض: وما هي الحقيقة دكتور يكن؟ ماذا كانت الحقيقة؟ ماذا كانت الحقيقة تفضل؟

(١) صحيفة الأخبار، ٥/ ٢/ ٢٠٠٧م، موقع المقاومة التابع لحزب الله.

د. فتحي يكن: عندما يتبين لنا، نعم، عندما يتبين لنا بأن هذا الفريق بقيادته وتخطيطه لأن الفريق الآخر قيادة وقراراً وتخطيطاً فعل هذا، وعندما ندرك ونعلم يقيناً بأن الفريق الآخر فعل هذا من خلال القيادة والزعامة والقرار والتنفيذ لنا نفس الموقف ولنا نفس القرار»(١).

هذه هي نتيجة التحالف مع حزب الله، لم تكفِ ٢٠ عاماً لمعرفة أن حركة أمل سفكت دماء آلاف الفلسطينيين على مرأى ومسمع من حزب الله نفسه الذي كان يستنكر وقتها مذابح أمل في المخيمات، فما الذي سيتبين بعد ٢٠ عاماً؟

في المقابل كان عدة أشهر فترة كافية من عمر حكومة السنيورة لتتبين جبهة العمل أنها حكومة «فيلتمان» ويجب إسقاطها في الشارع، وخطب الدكتور يكن في جمهور المعتصمين الشيعة يوم جمعة مطالباً السنيورة بالاستقالة، داعياً إياه إلى وقفة «ترضي الله أولاً وتطفئ نار الفتنة ثانياً»، كما أكد أن المعارضة «لا تتلقى أوامر من سوريا أو إيران»(٢).

وقد سبق أن ذكرنا قبسات من التكليفات الصادرة من دمشق وطهران إلى حزب الله، كما يصف صبحي الطفيلي العلاقة بين حسن نصر الله وخامنئي بأنها «علاقة بالضبط من يؤمن بأن قائده الذي يجب أن يطيعه هو السيد خامنئي»(٣).

الأمر المثير للأسى أن هذه المنهجية المتسعة في التحالف تمددت في كل اتجاه إلا حيث تقف التيارات السلفية، وقد نُشر للدكتور يكن عبارات انتقاد لهذه التيارات أثناء لقاء ودّي مع عبد الله هرري زعيم الأحباش في لبنان ـ وهي جماعة منحرفة عقدياً ـ عام ٢٠٠٤م، حيث قال عن الوهابية: «حاشا أن تكون هذه الحركة حركة سلفية، نحن نعتبر أنفسنا سلفيين، أما الحركة الوهابية فأحدثت في الأمة بالفعل فجوة كبيرة، وفتناً لها أول وليس لها آخر»(٤).

(١) برنامج (نقطة نظام)، قناة العربية، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٦م، العربية نت.
(٢) الجزيرة نت، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) برنامج (نقطة نظام)، قناة العربية، ٩/ ٢/ ٢٠٠٧م، العربية نت.
(٤) الشرق الأوسط، ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٦م، مقال: فتحي يكن.. من يمين سيد قطب إلى يسار حسن نصر الله.

الوضع الثالث للاختراق: هو النشاط العسكري، وقد أشرنا إليه في مواضع متفرقة، حيث تمكن حزب الله من حجب المقاومة السُّنية تماماً عن الحدود الإسرائيلية، ثم سعى إلى السيطرة على أعمال التدريب والتجهيز لبعض الفصائل الفلسطينية، ومن ناحية أخرى سمح لبعض الجماعات السُّنية أن تقاتل تحت قيادته وتوجيهاته، وعندما انسحب اليهود عام ٢٠٠٠م من الخط الحدودي وحاولت الجماعة الإسلامية أن تقيم قاعدة لها في شبعا، جاء الجيش وقال: «هذا موقع فقط لحزب الله وليس لأحد غيره من المنظمات»(١).

ويروي الأستاذ إبراهيم المصري نائب الأمين العام للجماعة الإسلامية في لبنان: «كان الاتفاق بين حزب الله وسوريا للإشراف على منطقة الشريط الحدودي وحدهم... وبهذا الشكل انفرد حزب الله بالمقاومة... وليكون لنا مشاركة في المقاومة قررت الجماعة أن تنسق مع حزب الله... وبعد الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠م تم ترتيب الأمور مع الحزب بنمط جديد وهو أن يرابط إخواننا في مناطقهم وقراهم بالتنسيق مع حزب الله تحت اسم المقاومة الإسلامية...وقد بدأ هذا الأمر بعد جلاء العدو مباشرة واستمر الإخوة يرابطون ولا سيما في منطقة العرقوب وهي المنطقة الأكثر سخونة طيلة الفترة الماضية، والتي تشرف على مزارع شبعاً».

ويحدد الأستاذ المصري مناطق المقاومة السُّنية من خلال الانتشار السُّني في الجنوب، فيقول: «التواجد السُّني يتمركز في منطقتين، المنطقة الأولى: في القطاع الغربي ويتشكل من مجموعة قرى صغيرة: مروحين، مرياغين، الضهيرة... لكن هذه المنطقة لا يمكن الدفاع عنها عسكرياً، وقد كان إخواننا يرابطون فيها منذ فترة من الزمن ولكن تخلّوا عنها بسبب تلاصق وتداخل المنازل للشريط الحدودي، المنطقة السُّنية الأخرى في الشريط الحدودي هي العرقوب، المنطقة الأكثر سكاناً والأصعب جغرافياً، والمشكّلة من شبعا والهبارية وغيرهما... والإخوة في هذه المنطقة يدعمهم الكثير من الإخوة خارج هذه المناطق أيضاً»(٢).

(١) الشيخ محمد الجوزو، برنامج (نقطة نظام)، قناة العربية، ١٧/ ١١/ ٢٠٠٦م، العربية نت.

(٢) حوار مع الأستاذ إبراهيم المصري، موقع رابط الطلاب المسلمين التابع للجماعة الإسلامية، ١٥/ ٨/ ٢٠٠٦م.

هكذا يقاتل السُّنة في الخفاء تحت راية حزب الله اللبناني الشيعي، والذي يحصد الثناء والتقدير، بينما يتساءل الرأي العام العربي عن اختفاء المقاومة السُّنية.

ـ مسارات حزب الله:

من خلال دراسة مكونات الثقافة السياسية للشيعة المعتقدين بنظرية ولاية الفقيه(١)، سيتم بناء نموذج تحليلي يمكنه تفسير أداء حزب الله السياسي والعسكري، داخل لبنان وخارجها، كما يمكن من خلال هذا النموذج ـ إن شاء الله ـ تحديد المسارات الرئيسة التي يُحتمل أن يسلكها الحزب في الفترة القادمة.

لتحقيق مستوى عالٍ من الدقة، سيتم توزيع المكونات المشار إليها على ثمانية محاور يتوزع عليها نشاط الحزب وأداؤه بصورة عامة، مع ملاحظة أن هذا التقسيم والتوزيع موضوعي بالدرجة الأولى ولا يسلم من التداخل بين المحاور والمكونات.

ويوضح الجدول التالي توزيع المكونات على المحاور الأقرب لها:

ثوابت الحزب	أوراق القوة	التكيف	أدوات سياسية	الخصوم	الرأي العام	نقاط ضعف	خيارات ـ مسارات
تمهيد للمهدي	البناء الصعب	ثوابت متغيرة	تحالفات مؤقتة	الغموض	المظلومية	التفكك	الفوضى
لا شراكة	الدولة الموازية	معايير النصر	التفاوض الصعب	المغالطات	وعود صادقة	المال	التحريك عن بعد
رجال الدين	المال	الوساطة	لعبة التناقضات	متحدثون بدلاء	خطاب الأمة	الزعامة	النسبة السكانية
التعصب	تعبئة الجماهير	ثورية نائمة		التعصب	فلسطين	التقلبات	الدقيقة تسعين
التآمر				التآمر	التقية		برلجماتية ـ ثورية
				التطهير الثوري			
				الاغتيالات			
				التخوين			

(١) سواء تمثل الفقيه في شخصيته الحقيقية أي: المرشد الإيراني، أم في شخصيته الاعتبارية أي: إيران الدولة، وهذه الشخصية الاعتبارية مثلت مخرجاً يستخدمه من يريد التهرب من الاعتقاد ـ الفقهي ـ بنظرية ولاية الفقيه، بينما يتماهى معها ـ واقعاً ـ من خلال الانتماء السياسي لإيران، ويتضح الفارق بين الحالين في أن استخدام «الانتماء الفقهي» يُخرج أكثر التجمعات الشيعية من المظلة الإيرانية، بينما في الحالة الثانية «الانتماء السياسي» تدخل أغلب تلك التجمعات تحت المظلة الإيرانية.

١ـ ثوابت الحزب:

التمهيد للمهدي، المشروع الشيعي لا يقبل الشراكة، سيطرة رجال الدين، التعصب، عقلية التآمر..

هناك ثوابت ينطلق منها الحزب في تحركاته، وهي مرتبطة بأساس وجوده كحزب شيعي إيراني تمت صياغته بأحرف لبنانية، وطالما ظل الحزب متمسكاً بأصله الإيراني فإن هذه الثوابت لا يمكن تجاوزها عند التعامل معه؛ بحثياً أو واقعياً.

٢ـ أوراق القوة:

البناء الصعب، الدولة الموازية، المال، والتعبئة الجماهيرية..

يعتمد الحزب في أدائه على امتلاكه أوراق قوة، نحسب أن أهمها هذه الأربعة، وهي التي أكسبته قوته وتأثيره في الساحة اللبنانية، خاصة عند المقارنة بين الأحزاب اللبنانية من حيث امتلاكها هذه الأوراق.

وبنظرة تأمل يمكن ملاحظة أن الثلاثة الأُول يعتمد فيها الحزب على إيران اعتماداً كبيراً، كما أن المستوى الحاد للخطاب الإيديولوجي الذي يمارسه الحزب داخل الطائفة الشيعية يجعله بحاجة مستمرة إلى هذه المكونات الأربعة، بمعنى: أن حزب الله لا يستطيع إلا أن يكون قوياً، فهو ليس كأي حزب، وعندما تتراجع قوته أو يضعف، يصبح بناؤه معرضاً للانهيار بمعدلات أكثر من بقية الأحزاب.

٣ـ التكيف مع الضغوط:

الثوابت المتغيرة: البرجماتية ـ الثورية، معيار النصر والهزيمة، ووساطة الخصوم..

انطلاقاً من ثقافة التقيّة بمعناها الواسع، فإن الحزب يمتلك دوماً حالين أو وجهين، وهو ينتقل بينهما حسب مستوى الضغوط التي يتعرض لها، وهذه القدرة «الزئبقية» على التحرك المرن تعطي الحزب إمكانية هائلة لتجاوز خصومه والتشويش عليهم، كما تمكنه من «تسكين» مؤقت لثوابته، وتمرير «بطولي» لهزائمه، بل وتحويلها إلى انتصارات، وهي معايير لا يمكن تطبيقها إلا من جانب

واحد، بمعنى: أنه لا يمكن تحديد هزيمة أو انتصار الطرف الآخر بواسطة المعايير نفسها؛ لأنها معايير خاصة تستخدم لمرة واحدة فقط.

٤ـ أدوات اللعبة السياسية:

اللعب على المتناقضات، التحالفات المؤقتة، والتفاوض الصعب.

يستخدم الحزب بمهارة أدوات اللعبة السياسية المفضلة دوماً لدى «الأقليات» التي تتحرك في بيئة طائفية معقدة، هذه البيئة المعقدة تعتبر لدى بعض الأقليات عائقاً وحاجزاً للتقدم، لكن بالنسبة لحزب الله فقد أفادته ثقافته الشيعية في تحويل هذه البيئة إلى عنصر قوة يجعله قادراً ومؤثراً، مقارنة بالبيئة الطائفية البسيطة ـ أغلبية واحدة، أقليات متعددة ـ،ولذلك كان الحزب حريصاً على أن يتحالف داخل الطائفة، ويصدر الانشقاقات إلى الطوائف الأخرى.

٥ـ مواجهة الخصوم:

الغموض المتعمد، المغالطات، المتحدثون البدلاء، التعصب، عقلية التآمر، التطهير الثوري، الاغتيالات، والتخوين..

لا توجد قيود أمام حزب الله في تعامله مع خصومه، فالضرب مسموح به تحت الحزام وأعلاه، وتتبُّع تاريخ الحزب منذ نشأته يعطي دلالات واضحة حول استراتيجية التعامل مع الخصم، وهي ناجحة إلى حدٍّ كبير، ويكفي أن رموزاً كثيرة وشخصيات مؤثرة اختفت من طريق الحزب على مرِّ السنين، والباقون يكون عليهم استنزاف قدر كبير من طاقتهم في مواجهة «أبو الحرب النفسية» وحزبه، الذي تعلم من مقاومة إسرائيل كيف يحتل لبنان.

٦ـ التأثير في الرأي العام:

المظلومية، الوعود الصادقة، خطاب الأمة، توظيف القضية الفلسطينية، والتقية.

الحزب الثوري لا بد أن يمتلك آلة قوية ومهارات متميزة في التعامل مع الرأي العام، ولأنه ثوري فإن أزماته ومشكلاته التي يثيرها كل حين لا تنتهي، ولذلك

يحتاج إلى صياغة خطابه بأسلوب يقلب الحقائق ويزيفها ويمرر تداعيات أدائه الثوري على الرأي العام.

والرأي العام العربي يتعرض منذ عقود لعملية «تربية» مشوهة جعلته عاجزاً في أحيان كثيرة عن تلمّس ملامح الدهاء والمكر في الخطاب السياسي، وبات يستدل على التآمر من ملامحه الشكلية واللفظية الصريحة، ويصعب عليه أن يجمع بين وجهين متناقضين لجهة واحدة في وقت واحد، وعادة ما يُحيل المتشابه من خطاب الحزب وقادته إلى ما يتخيل أنه محكم، إذ لو أحكم حزب الله خطابه لتفرق الجمع من حوله في لحظات.

٧- نقاط الضعف:

التفكك وفقدان الرؤية، المال، الزعامة، والتقلبات الجذرية.

عندما يصبح الحزب خادماً لسيدين، ويجهد في سبيل ذلك لضبط تحالفات متناقضة طائفياً وعقدياً وسياسياً، ماذا يبقى له في النهاية من رؤية أو تصور، حزب على هذه الشاكلة يتحول إلى حزب يعمل بـ«اليومية» ينتظر التكليفات الآتية، أضف إلى ذلك أن الحزب أسس دعائمه على ركائز متدحرجة، ترتبط بالمال وولاية الفقيه وإيران، وهو ما يجعل التطورات الخارجية أكثر تأثيراً في الحزب من الداخلية، وعندما يتدهور الدعم الإيراني فإن الحزب سيتقلص من الداخل أولاً، ثم يتبعه خطابه لاحقاً، إذ الأحزاب الثورية يبقى خطابها مدوياً بالقصور الذاتي.

لكن الحزب مع ذلك يملك أدوات قوية تمكنه من تجاوز أزمة تراجع الدعم الإيراني، فهو يملك استثمارات واسعة، ويتميز تنظيمه بالقوة والتطور، ولا يفتقد الحزب كوادر قيادية من المستويين الثاني والثالث، ومن الأمور التي يمكن أن تدعم وضع الحزب حتى لو توقف الدعم الإيراني: ضعف الدولة اللبنانية، وعجزها عن اتخاذ قرارات سيادية تتجاوز الحسابات الطائفية.

وتبقى للحزب مشكلات المال، وهو رغم كثرته إلا أن التعود على الغنى ينذر دوماً بصعوبة أيام الفقر، والبترول تتذبذب أسعاره، كما أن الخمس يبقى مرتهناً

بخريطة المرجعيات وهي قابلة للتبدل.

وتلوح أزمة الزعامة، في الضاحية وطهران، كأزمة قابلة للتفجر في أي وقت، ماذا بعد خامنئي، وماذا بعد نصر الله؟ لا توجد إجابات واضحة، وإن كانت آلية تسليم السلطة لدى كليهما واضحة وتحظى بتنظيم جيد، ولكن مشكلة إيران أنه في كل مرة يموت الزعيم سيُطرح مع موته مطلب «موت ولاية الفقيه»، وفي لبنان فإن حزب الله تمدد بفعل كاريزما نصر الله إلى مساحات واسعة، وتغيّر الزعامة قد ينذر بتفكك داخلي، أو تقلص خارجي.

وأدت تقلبات الحزب الكثيرة والمتابعة الإعلامية الدقيقة مع تطور آلة الإعلام إلى تراجع مكانة الحزب، أو بمعنى أدق: لم يعد من السهل تجاوز سقطات الكلام والفعل، وتحتاج المعالجة إلى جهود كبيرة.

٨- الخيارات المتاحة:

الفوضى، التحريك عن بُعْد، النسبة السكانية، الدقيقة تسعين، والبراجماتية- الثورية.

هذه المكونات تشير إلى مسارات محتملة للحزب في الفترة القادمة- إن شاء الله-، وتأتي الفوضى بمعناها الشامل في مقدمة المسارات؛ لكثرة تطبيقاتها، مع بقاء الهدف واضحاً، وهو إضعاف الدولة وإضعاف قدرتها على اتخاذ القرار، وظل ضعف لبنان دائماً هو مدخل سوريا إلى بيروت وأهم مسوغات بقائها، وعندما تتماسك الدولة يتراجع النفوذ السوري، ويقع حزب الله تحت الحصار، ومن ثم يصبح الحل إما استمرارية الفوضى- ولا مانع من فترات استراحة قصيرة- وإما توسيع نفوذ الحزب.

ورغم أهداف الحزب الثابتة داخل لبنان، إلا أن هناك أهدافاً مرحلية لا يشترط بالضرورة أن تتماهى مع الثابتة، وأبرز تلك الأهداف المرحلية: التخلص من مأزق المحكمة الدولية، ومناورة الضغوط الأمريكية على إيران.

مع ذلك؛ فإن استراتيجية الفوضى تكون أحياناً مقصودة لذاتها، إذ يمكن أن

تنتهي الأزمة كما بدأت دون مكاسب حقيقية للحزب، ولكن تستخدم الفوضى كغطاء زمني لتمرير مشاريع وتجاوز أزمات.

وتأتي النسبة السكانية في مقدمة المسارات المتاحة أمام الحزب، وهو يعلم أن احتفاظه بالسلاح قضية يشوبها الغموض والخطر، ولذلك يجب المسارعة في تفعيل السلاح للحصول على تعديل في المحاصصة الطائفية، أو أقله مكاسب سياسية معقولة، مع أهمية الالتفات إلى أن الحزب نجح في تجزئة قضية السلاح إلى ثلاثة مكونات يفصلها عن بعضها، وهي: التزود بالسلاح، الاحتفاظ بالسلاح، واستخدام السلاح، ونظراً لمهارة الحزب التفاوضية فإن أي اتفاق لنزع سلاحه لا يُتوقع أن يعتبر - واقعاً - نزعاً بالمعنى المفهوم، وسيبقى الحزب على الأقل محتفظاً بأسلحته الخفيفة ونصف الخفيفة - مع اختلاف في التفسير - وستطرأ تفصيلات حول الدواعي الأمنية والاستخباراتية واحتياجاتها من الأسلحة، وربما يقتصر النزع في النهاية على الصواريخ، التي لا يعرف أحد عددها دقّة حتى ينزعها بدقّة، كما لا يعرف أحد ما إذا كان نزع الموجود يعني وقف الإمداد بالجديد، وقد يتحول نزع السلاح في النهاية إلى خدعة كبيرة يبيع فيها نصر الله صواريخه القديمة بمكاسب سياسية جديدة، ريثما ترسل له طهران دفعات مطورة تُخبّأ في الأنفاق.

كما أن نزع السلاح لن يتضمن نزع المهارات القتالية والتدريب العالي، والذي يمكن متابعته تحت ستار أمن القادة والرموز أو الشركات الأمنية الخاصة.

وتقدم الثقافة السياسية الشيعية للحزب مسارات لخروج من الأزمات، منها: التفاوض الصعب الذي يتحول إلى أزمة بحدٍّ ذاته، وأيضاً طول النفس ومهارة الانتظار، وتقدم الثقافة حلولاً إنقاذية من الأزمات، تتراوح بين «تجرّع السم» والاستسلام بلا شروط، وبين التحول البرجماتي الذي يعيد «أدلجة» المفاهيم وتمريرها في سياق الانتصار.

الفصل السادس: حرب الفراغات

اعتاد حسن نصر الله في مهرجانات انتصاراته أن يوجه الشكر والتحية والتقدير لثلاثة أشخاص تحديداً: المرشد علي خامنئي، الرئيس حافظ الأسد، الرئيس إميل لحود، ومن بعد حافظ ورث بشار نصيب أبيه في الثناء.

وعندما تستقر الأوضاع السياسية في العراق لصالح إيران، لا شك أن الشكر سيتوجه للقطعة الرابعة في الهلال، خاصة أن الطريق سيكون مفتوحاً بلا أدنى رقابة، من طهران إلى: بغداد، دمشق، بيروت.

ومن المعروف أن إيران تستخدم حاليا ممرات جوية فوق تركيا لعبور طائراتها إلى سوريا، وفي الأشهر الأخيرة أُجبرت طائرتين إيرانيتين على الهبوط في جنوب شرقي تركيا للاشتباه في حملهما صواريخ صينية الصنع إلى حزب الله في لبنان(١).

في جميع الحالات تحظى سوريا بمكانة استراتيجية بالغة كونها المنفذ البري الوحيد إلى حزب الله، خاصة عندما يشتد الحصار، ولم يكن بناء هذا الطريق الاستراتيجي إلى الحزب سهلاً أبداً بالنسبة إلى طهران، فقد مرَّ بعدة مراحل توافقت فيها المصالح وتعارضت حتى استقرت على وضعها الحالي، ويمكن تقسيم أبرز المراحل التي مرت بها العلاقة الثلاثية بين إيران، سوريا، وحزب الله في لبنان، إلى ما يلي:

تفريغ لبنان:

لا توجد دلائل تشير إلى أن النظام السوري كان مدركاً للجهود الإيرانية في تأسيس حزب خميني بديل لحركة أمل في لبنان قبل عام ١٩٨٢م وعلى الصورة التي اتضحت لاحقاً، ورغم ذلك عندما استغلت إيران الاحتلال الإسرائيلي في ذلك العام لإرسال وحدات من الحرس الثوري الإيراني بدعوى مساعدة الشيعة في مواجهة الاحتلال، لم يكن السوريون متحمسين حتى مع المغريات والامتيازات التي سيحصلون عليها من طهران، وكانت دمشق تريد منع إيران «من التقوي أكثر من

(١) مجلة الحوادث، ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٦م.

اللازم في الساحة الداخلية اللبنانية أو تستقل هي ومن تدعمهم بالقتال ضد إسرائيل، وذلك حتى لا يحدث اختلال للتوازن داخل الطائفة الشيعية ضد حركة أمل، وبالتالي سيؤدي ذلك إلى إضعاف النفوذ السوري في لبنان»[١].

ولم يتمكن الحرس الثوري من المرور إلى لبنان إلا بعد اشتراط إبعاده عن القتال المباشر واقتصار دوره على التدريب والتعبئة وتقديم الدعم، وكانت تلك المصيبة الكبرى.

وبعد نشأة الحزب ـ بصورة سرية ـ في العام نفسه بدأ التململ يظهر في أداء دمشق التي شعرت أن إيران تستغلها للعب دور «البوابة» فقط، ولذلك بدأت في التضييق على الحزب من أجل ترقية العلاقة مع إيران إلى مستوى الشراكة، وبدأت مرحلة الصراع بين الطرفين على الاستئثار برسم الصراع في الساحة اللبنانية.

لعب حزب الله دوراً كبيراً في إخراج القوات متعددة الجنسيات والتي كان وجودها يمنع سوريا من بسط نفوذها، وبعد عدة عمليات تفجيرية خرجت القوات عام ١٩٨٤م وتركت فراغاً في لبنان عادت سوريا لتملأه من جديد، وقد أصبحت موقنة بأهمية الحزب.

كانت استراتيجية سوريا في لبنان تختلف عن مثيلتها الإيرانية، فنظام الأسد كان يمارس عملية إضعاف لكافة الأطراف بحيث يختل التوازن بينها ويحتاج أغلبها إلى الوجود السوري، بينما كانت إيران تمارس عملية تقوية للطرف الذي تؤيده ـ حزب الله ـ حتى يبسط نفوذه داخل الطائفة أولاً ثم على الساحة الداخلية من خلال غطاء المقاومة.

وفي سياق التصور السوري، كافأت دمشق الرئيس اللبناني أمين الجميل على إلغاء اتفاقية ١٧ مايو مع إسرائيل بأن ضربت عدوه حزب الله الشيعي وكان ذلك صيف عام ١٩٨٤م، فأغلقت مقر قيادة الحرس الثوري الإيراني في بعلبك، وطردتهم من مقر قيادة الدرك اللبناني في المدينة، واعترضت شاحنات عسكرية محملة بالسلاح، وأقفلت إذاعة «صوت الإسلام» الناطقة باسم الحرس الثوري الإيراني في لبنان[٢].

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٤١.

(٢) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ٩/ ٨/ ٢٠٠٦م.

وصلت الرسالة السورية إلى طهران التي استوعبتها جيداً، وأوفد الخميني من فوره رئيس الجمهورية علي خامنئي إلى دمشق، الذي استطاع ضبط الأوضاع فلم تمضِ فترة قصيرة حتى عاد الحرس إلى ممارسة أعماله في بعلبك كما كانت.

إلا أن حادثة أخرى وقعت في العام نفسه أضرت بالعلاقة بين البلدين، فقد سرَّبت إيران عن طريق سفيرها في دمشق علي محتشمي - عرّاب حزب الله - مسؤولاً أمريكياً في سفارة بيروت كان حزب الله قد اختطفه سابقاً، ونُقل من دمشق إلى طهران باعتباره من ضمن جرحى الحرس الثوري في لبنان وبإشراف قائد الحرس نفسه اللواء محسن رفيق دوست الذي زار دمشق لهذا الغرض، ولما اكتشفت دمشق الخدعة طردت السفير بلا رجعة[١].

تفريغ الطائفة:

بدأ حزب الله سياسة إقصاء ضد حركة أمل منذ الإعلان الرسمي عن الحزب عام ١٩٨٥م، انتهت بإخراج الحركة من الضاحية الجنوبية عام ١٩٨٨م، ثم السعي لمنافستها في الجنوب حيث النسبة الأكبر من الشيعة.

لم يكن هذا الوضع ليرضي سوريا، والتي كانت علاقتها مع إيران متوترة رغم كميات النفط الإيراني المخفض الذي لم يُدفع ثمنه[٢]، وقد حاولت سوريا التدخل المباشر بحذر، فقامت في عام ١٩٨٧م بضرب ثكنة «فتح الله» الخاضعة لسيطرة حزب الله، فقتلت ٢٣ شاباً من الحزب[٣].

وصلت الرسالة إلى إيران المترنحة أمام العراق، فأرسلت من فورها إلى الحزب باتباع سياسة ضبط النفس، وخطب خامنئي الجمعة في طهران، فقال: «لقد أعلنا لشعبنا أن حادثة مذبحة الأبرياء في بيروت ناتجة عن قرارات فردية، لا عن سياسة الحكومة السورية.... إنني أوصي الإخوة في بيروت وفي كل لبنان

(١) صنع القرار في إيران، ص ٢٤١.

(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١٧٥.

(٣) لِبَيان تَحَيُّز مؤلف كتاب «الإسلاميون في مجتمع تعددي» إلى حزب الله، يلاحظ وصفه قتلى الحزب بأنهم «شهداء» ولا يفعل ذلك مع قتلى حركة أمل أو حتى عندما يذكر الأعداد المشتركة للقتلى، راجع: الجزء الخاص بالحرب بين أمل وحزب الله بدءاً من ص ١٦٩.

بالتأكيد.. أن يتعاملوا مع الأحداث بصبر وتوكل وأن لا يفقدوا الأعصاب»[(١)].

وانتهى الصراع بين الحزب والحركة بانتصار الأول واستحواذه على مكانة متقدمة داخل الطائفة، مع إدراك سوريا أن عليها التجاوب مع الواقع الجديد على الأرض، خاصة وأن حزب الله لم يطرح نفسه أبداً ضد الوجود السوري، بل أبدى استعداداً واضحاً للتعاون خاصة بعد مجيء فتوى خامنئي بأهمية التحالف مع دمشق[(٢)].

ويقدم صبحي الطفيلي الأمين العام الأسبق تقديراً استراتيجياً قوياً لدور سوريا في التصور السياسي للحزب، يقول: «نحن في لبنان السوري قادر أن يدمرنا اقتصادياً وعسكرياً وقادر أن يحرق كل بيت، وله شئنا أم أبينا شرائح كثيرة مؤيدة، هذا واقع، لهذا علينا أن نفكر بوسيلة عملية ناجحة، خاصة وأن الحدود كلها مع سوريا نحنا ما عنا حدود أخرى برية، يعني معقولة نعمل حدود مع الإسرائيليين ليس وارداً الأمر هذا، فإذاً ما عندنا خيار، علينا أن نفتش عن الوسيلة لتبريد الأمور، تهدئة الأمور»[(٣)].

وكان اتفاق الطائف هو أهم نقطة التقاء للمصالح الإيرانية السورية مع حزب الله في لبنان، حيث تم توظيف الاتفاق لمصلحة الحزب لإعطائه أكبر مساحة ممكنة من الحركة داخل لبنان المستقر سياسياً، من أجل تلبية مصالح الدولتين.

تفريغ الدولة:

كانت إيران وحزب الله يرفضان اتفاق الطائف صراحة، وانتقد رئيس إيران هاشمي رفسنجاني الاتفاق في أكتوبر ١٩٨٩م، ولكن إثرَ زيارة قام بها وزير الخارجية علي أكبر ولايتي إلى دمشق وتشاوره مع المسؤولين السوريين والتقائه مع قادة حزب الله وأمل ورئيس المجلس الشيعي مهدي شمس الدين، تم التراجع عن

(١) السابق، ص ١٦٨ـ ١٦٩.

(٢) انظر: الفصل الرابع من الباب الثاني.

(٣) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٦م.

رفض الاتفاق دون تأييده بالضرورة[١].

وتمثل احتفاظ حزب الله بسلاحه كأول إجراء لتفريغ الاتفاق من مضمونه، وكان الإجراء الثاني هو بقاء التواجد العسكري السوري دون آفاق للانسحاب، ولم يبقَ من الاتفاق إلا المحاصصة الطائفية وتوزيع الأنصبة الرئيسة في إطار عملية سياسية يهيمن عليها الوجود السوري اللصيق عسكرياً وأمنياً واستخباراتياً، والوجود العسكري الدائم لحزب الله على الحدود الجنوبية، في استحواذ واضح على حق الدولة في إدارة صراعاتها الخارجية.

وأصبح حزب الله كتلة عسكرية وسياسية مستقلة، وهي تصطفُّ في سياق منفرد ومُوازٍ للبناء السياسي في الدولة، بما يجعلها تتجاوز أُطر الطائفة الشيعية وسائر الطوائف الأخرى على نحو مثير.

وتُرك لرئيس الوزراء السُّني - رفيق الحريري - القيام بدور «إعادة الإعمار» المستوحى من التجربة الإيرانية بعد حرب العراق، مع الإشراف السوري الذي أحدث ثقباً في الاقتصاد اللبناني يجعل عوائد الإعمار تصب في دمشق لدى أقطاب النظام.

وكان الاحتلال الإسرائيلي للجنوب يقدم أعظم خدمة للمقاومة التي أتقنت استجلاب تدمير إسرائيلي لجهود الإعمار في حروب خاطفة دورية تعيد إغراق البلاد في دوامة الإعمار من جديد، فكانت عملية «تصفية الحساب» ٢٥ يوليو ١٩٩٣م، والتي نتج عنها مقتل أكثر من ١٥٠ شخصاً وإصابة ٥٠٠، وتهجير ٢٥٠ ألفاً من الجنوب إلى بيروت.

وفي ١١/٤/١٩٩٦م شنَّت إسرائيل عملية «عناقيد الغضب» في ردٍّ على عمليات لحزب الله، وكان الهجوم واسعاً هذه المرة وشمل بيروت والبقاع وهُجِّر أغلب سكان الجنوب إلى الشمال، ونفذت إسرائيل مجزرة قانا التي راح ضحيتها أكثر من ١١٨ شخصاً من المدنيين.

---

(١) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، ص ٢٢٨.

وفي إثر كل عملية اعتداء إسرائيلية كانت تتكرر المشاهد نفسها: حزب الله يعلن نفسه منتصراً، دمشق تتحول إلى مزار للوفود السياسية من كافة الدول المعنية عربياً وغربياً لأجل حل الأزمة، مطالبة الحكومة بتكثيف جهود الإعمار، دخول الحزب على خط تعويض المتضررين كبديل للحكومة.

وخلال هذه المرحلة كان التوازن بين الحزب وسورية قائماً من خلال التوافق في أداء دور المقاومة، ولكن كانت دمشق تسعى إلى ضبط الحزب كلما شعرت أنه سيخرج عن الإطار المرسوم، ففي انتخابات عام ١٩٩٦م أراد الحزب توظيف انتصاره «المزعوم» بعد عملية عناقيد الغضب، ليوسع حصته النيابية على حساب أمل، وذلك كعادته عند نهاية كل حرب، إما أن يصطدم مع الحكومة لتجاوزه الخطوط الحمراء[1] وإما أن يصطدم مع أمل لتجاوزه الأطر داخل الطائفة، وتركت دمشق الحزب يخلُّ بالتوازنات السياسية داخل الدولة، ولكنها تدخلت عندما أراد أن يتجاوز حركة أمل، ومنعته من توسيع حصته داخل الطائفة الشيعية[2].

وعندما تسلَّم إيهود باراك رئاسة الوزراء في الكيان الصهيوني، وظهرت بوادر مفاوضات بين سوريا وإسرائيل، نشط الحزب في بعض العمليات العسكرية ذات الإيحاء، مما اضطر وليد المعلم سفير دمشق في واشنطن - وزير الخارجية الحالي - إلى التصريح بالقول: «إن حزب الله حركة مقاومة وطنية لسوريا ولبنان، وقيادة حزب الله تفهم أن كل اتفاقيات تقبلها سوريا وإسرائيل ولبنان لا بد أن تكون ملزمة للحزب أيضاً»[3].

واضطر الحزب على لسان قائده أن يؤكد إذعانه للرغبة السورية، فقال حسن نصر الله في حوار مع صحيفة الحياة معتبراً أن التسوية هي أيضاً بمثابة «انتصار»:

(١) بعد حرب عام ١٩٩٣م بشهر ونصف الشهر أصرَّ الحزب على القيام بتظاهرة معارضة لاتفاق غزة أريحا رغم حظر الحكومة للتظاهرات، وهو ما نتج عنه مقتل وإصابة خمسين شخصاً بعد تدخل إحدى وحدات الجيش، وعاد شبح الحرب الأهلية من جديد ولكن تدخلت الدول المعنية فانتهت الأزمة، وأعلن الحزب مقاطعته لحكومة الحريري.. انظر: الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٠٠.

(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٠٨.

(٣) قواعد جديدة للعبة، ص ٣٧.

«إننا ندرك الجهود المبذولة للتوصل إلى تسوية في المنطقة، وسوف نبتكر لنا سياسة وتكتيكات إذا أخذنا هذا الاحتمال بعين الاعتبار.. إننا مقتنعون بأن توقيع تسوية سلمية سوف يكون نصراً للمقاومة»[١]، وكانت الدولة اللبنانية بعيدة تماماً عن هذه السجالات والمناورات حول قرار الحرب والسلم... في لبنان.

ومن العجب أن تأكيد وصف هذه المرحلة بأنها «تفريغ للدولة اللبنانية» جاء من بشار الأسد، الذي اضطر بعد انشقاق عبد الحليم خدام إلى رسم خط فاصل بين الرئاسة السورية والمسؤولين السوريين، ومضى يرسخ هذا الفصل بقوة لمواجهة أي احتمالات يمكن أن تسفر عنها التحقيقات في اغتيال الحريري، وفي حوار مع صحيفة الأسبوع المصرية الناصرية، تحدث بشار في وضوح عن: «الاستراتيجية السورية التي طرحها الرئيس الراحل حافظ الأسد، والتي نجحت في لبنان وكانت قد ارتكزت على أن لبنان عمقه عربي وجذوره عربية، كما ارتكزت أيضاً على منع تقسيمه.. وهذه الاستراتيجية نجحت من خلال توحيد لبنان في عام ١٩٩٠م وارتكزت في اتفاق الطائف، ولكن بعد اتفاق الطائف فإن التكتيكات التي استُخدمت من قبل بعض المسؤولين السوريين لم تخدم هذه الاستراتيجية، وبالتالي أوقفوا النجاح السوري عن توحيد لبنان، وفي الحقيقة فقد تحولت هذه الاستراتيجية الكبيرة الهامة في تاريخ لبنان إلى علاقات شخصية أوصلتنا إلى ما أوصلتنا إليه بعد فترة من الوقت»!!![٢].

وعندما اتهم عبدُ الحليم خدام الرئيسَ اللبناني إميل لحود بالفساد والتربح غير القانوني، ردَّ لحود ببيان رئاسي جاء فيه أن ما ذكره خدام: «يشكل وقاحة تتجاوز كل المقاييس، لاسيما وأن السيد خدام هو آخر من يحق له اتهام غيره بما هو فيه.. خدام هو عنوان للفساد والإفساد، ويكفي الحديث عن ممارساته في لبنان للتدليل على ما تميز به لاسيما لدى تسلُّمه ملف العلاقات اللبنانية ـ السورية»[٣].

---

(١) السابق، ص ٣٨.

(٢) صحيفة الأسبوع القاهرية، ٧/ ١/ ٢٠٠٦م.

(٣) موقع سوريا نيوز، ١٤/ ١/ ٢٠٠٦م.

ومن الشهود أيضاً على أن مرحلة التسعينيات كانت عملية «تفريغ» للدولة من مضمونها، حسن نصر الله نفسه، فهو الذي قال عن احتمالات عودة النفوذ السوري إلى لبنان في الفترة القادمة: «إذا كان النفوذ سيركّب حكومة ويأتي بنواب ويتدخل بالتفاصيل، نعم أعارضه. وأنا أعتقد بأن الرئيس بشار الأسد عندما تحدث عن أخطاء، وعن استراتيجية جديدة كان يقصد ذلك، لذا عندما قلت في إحدى المقابلات: إن سورية لا تريد أن تعود إلى لبنان كما كانت عليه في الماضي، كنت أعني وأعرف ذلك»(١).

وظلَّ عبد الحليم خدام مسؤولاً عن الملف اللبناني طيلة فترة التسعينيات حتى تسلمه بشار الأسد عام ١٩٩٩م قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية عام ٢٠٠٠م.

الفراغ الإسرائيلي:

كانت دمشق تترقب مباحثات ثنائية للتوصل إلى تسوية سلمية شاملة مع إسرائيل، لكنها تفاجأت بإعلان الأخيرة نيتها الانسحاب أحادي الجانب من لبنان، فأسقط في يد دمشق وحزب الله، إلى حدٍّ وصف الإجراء الإسرائيلي بـ«الخدعة» من أجل فصل المسارين السوري واللبناني، وصرّح عبد الحليم خدام «خدعاً كهذه ستفشل»، وقال نبيه بري زعيم أمل ورئيس النواب اللبناني: إن إسرائيل تسعى إلى تفكيك وحدة المسار اللبناني السوري(٢).

ويوضح (دانييل سوبلمان) أن سوريا كانت تخشى تهرب إسرائيل من تسوية سلام شاملة في المنطقة، وأن تحرمها بانسحابها من لبنان من النفوذ الذي يمنحها إياه وجود حزب الله، ولذلك سعت دمشق مع حزب الله جاهدين إلى سد الطريق أمام انسحاب إسرائيلي أحادي الجانب في ٢٠ أيار ١٩٩٩م، وفي سياق هذه المحاولات تم الزجّ بالجبهة الشعبية القيادة العامة بقيادة أحمد جبريل، وأرسلت دبابات إلى أحد معسكرات التدريب التابعة للجبهة على الحدود اللبنانية السورية فقامت إسرائيل بتدميرها(٣).

(١) حوار مع صحيفة الحياة، يناير ٢٠٠٦م.
(٢) قواعد جديدة للعبة، ص ٣٣.
(٣) السابق، ص ٣٥.

وتمثل مأزق سوريا وحزب الله في أن مبرر التواجد العسكري السوري في لبنان هو حمايته، والحفاظ على استقراره كدولة محتلة، وكان الحزب يتخذ من احتلال الجنوب اللبناني مبرراً لاحتفاظه بالسلاح، ويجمع حسن نصر الله العلّتين في سياق واحد فيقول: «الوجود السوري في لبنان كان يعني لنا شيئين، أولاً: هو عامل رئيسي في تأمين الاستقرار الداخلي؛ بسبب هشاشته، ثانياً: كان هذا الوجود يشكل حضناً حامياً للمقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي»(١).

وفجأة تلاشى الاحتلال وتلاشى معه أساس الوجود السوري وأساس المقاومة نفسها، وكان لا بد من البحث عن مخرج سريع للأزمة المحدقة، فتم إخراج قصة مزارع شبعا من الملفات القديمة.

يقول صبحي الطفيلي: «حينما انسحب الإسرائيلي وجعل السوري أمام أمر واقع، السوري أراد أن يحتفظ بشيء، فأخرج موضوع مزارع شبعا اللبنانية لأجل أن يُبْقي مبرراً لبقاء سلاح ممكن أن يصير مقاوماً في أي لحظة قريب من الحدود الفلسطينية.

جيزال خوري: إذاً؛ هي اختراع سوري؟

الشيخ صبحي الطفيلي: إيه نعم هو محاولة سورية للإبقاء على سلاح»(٢).

وبعد الانسحاب صار الموقف كالتالي: لبنان يحتوي مقاومة دون أرض محتلة، وسوريا أرضها محتلة ولا مقاومة، وهو ما دفع البعض إلى القول: «فليتوجه حزب الله إلى الجولان، بهذا تعمُّ الفرحة الجميع، سوريا تتحرر والحزب يمارس شوقه إلى الشهادة، ولبنان يستأنف حياة طبيعية»(٣)، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث؛ لأن سوريا لا تريد أن تتحرر وحزب الله لا يريد مقاومة الاحتلال، والطرفان هدفهما الأول ألا يمارس لبنان حياة طبيعية.

---

(١) حوار مع صحيفة الحياة، يناير ٢٠٠٦م.

(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٦م.

(٣) حازم صاغية، صحيفة الحياة، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٦م.

- علاقات جديدة:

وبالتزامن مع الانسحاب الإسرائيلي وإشكالية سلاح المقاومة، تسلَّم بشار الأسد الرئاسة بعد موت والده في يونيو عام ٢٠٠٠م، وانتقلت العلاقة بين سوريا ولبنان إلى مستوى آخر، وكذلك العلاقة بين سوريا وإيران، يصف عبد الحليم خدام هذه الانتقالة، فيقول: «كانت العلاقات السورية - الإيرانية علاقات تحالف مبني على المصالح المتبادلة من أجل الحفاظ على الاستقرار في منطقة الخليج العربي، وكانت علاقات سورية العربية خطاً أحمر، أما اليوم فالعلاقات السورية الإيرانية علاقات ارتباط»(١).

وفي مؤتمر صحفي عقده الرئيسان بشار الأسد وأحمدي نجاد في دمشق، أكد الرجلان أهمية تحالفهما، فقال نجاد: «نحن على قناعة بأن كلاً من الجمهورية العربية السورية باعتبارها الصامدة في الجبهة الأمامية أمام العدو الإسرائيلي... والجمهورية الإسلامية الإيرانية باعتبارها حاملة لواء الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، كلا البلدين يلعبان دورًا هاماً ومصيرياً في الساحة وفي المنطقة»، وركَّز بشار الأسد على المنحنى الزمني لتطور العلاقة ماضياً ومستقبلاً، فقال: «لا نستطيع أن نفصل مستقبل العلاقة عن ماضيها، هذه العلاقة تتحرك منذ قيام الثورة الإيرانية باتجاه الأعلى وبشكل مستمر، ولا نذكر تراجعات أو توقفات لهذا التقدم في هذه العلاقة، الآن هذه العلاقة أو تقدم هذه العلاقة يتسارع بشكل أكبر من السنوات أو العقود التي مرت بكثير»(٢).

لقد تنازل بشار الأسد عن مستوى الندية مع إيران السائد في رئاسة والده، لتتحول العلاقة إلى ارتهان مصيري، وفُتِحَت سوريا على مصراعيها أمام الحرس الثوري ودعاة التشيع ورجال الحوزات، وانطلقت إيران في مشروع مستقل مستقبلي يهدف إلى إيجاد أقلية شيعية قوية في سوريا يمكن أن تتكئ عليها طهران مستقبلاً في ترسيخ الدور السوري في المحور الهلالي، وأعادت إيران إرسال دعاة

---

(١) موقع سوريا الحرة، ٢١/ ١/ ٢٠٠٦م.

(٢) وكالة سانا للأنباء، ١٩/ ١/ ٢٠٠٦م.

التشيع القابعين في قم منتظرين تحديد المهام الجديدة في بلادهم الأصلية، وبرز من هؤلاء «زيدان الغزالي» ابن عم العميد رستم الغزالي، آخر مدير للاستخبارات السورية في لبنان، وهو شخصية نشطة جداً في مجال التشيع بمحافظة درعا السورية، ويأتيه دعم هائل من إيران، كما تساهم الحكومة في دعم المدارس التي تعلِّم اللغة الفارسية، ومن ثم يُرسل طلابها إلى قم لإتمام دراستهم، وتلقى دعوات التشيع انتشاراً متزايداً حيثما تنتشر البدع الصوفية، وفي مناطق العلويين حيث يتم تجاوز الخلافات العقدية بين النصيرية والإثني عشرية[١]، بينما يُضيق على دعاة السُّنة، وخاصة من التيارات السلفية.

وتطورت العلاقة بين سوريا وحزب الله لتتجاوز حالة الشك والتعالي التي كانت غالبة في عهد حافظ الأسد، ليصبح الحزب شريكا استراتيجياً وليس مجرد أداة، وقويت العلاقة بين بشار ونصر الله[٢] واستغل الأخير ضعف خبرة الرئيس السوري في إعطاء حزبه مجالاً أوسع في الحركة واتخاذ القرار، وتمدد الحزب داخل الطائفة لتتحول أمل إلى المرتبة الثانية.

وشمل التطور المجال العسكري، حيث ترسخ مبدأ يقول: إن أفضل وسيلة لإعاقة نزع سلاح حزب الله هو: تحويله إلى ترسانة ضخمة لا يمكن نزعها أو إزالتها.

ولم تعد سوريا مجرد محطة لنقل إمدادات إيران العسكرية، بل زودت الحزب بنوعيات مختلفة من الصواريخ قصيرة المدى والتي يصل مداها إلى مدن يهودية في شمال فلسطين[٣].

وفي المقابل اضطرت سوريا بعد العام ٢٠٠٠م أن تسحب (٦٣٪) من قواتها، فانخفض عددها من ٤٠ ألف جندي إلى ١٤ ألف جندي على مدار خمس سنوات كما أكد ذلك بشار الأسد في خطاب الانسحاب بعد اغتيال الحريري، وقال:

---

(١) راجع: تقرير مركز الدراسات الإسلامية في بريطانيا عن التشيع في محافظة درعا السورية، موقع الحملة العالمية لمقاومة العدوان.

(٢) راجع: الباب الثاني، الفصل الرابع.

(٣) مركز استخبارات الإرهاب، موقع إسرائيلي، د. رؤوفين أرليخ، ٦/ ٨/ ٢٠٠٦م.

«لا يوجد من يقول هذه الحقيقة؛ لأنهم يريدون تقديم انطباع أن سوريا تنسحب تحت الضغط وليس بسبب قناعتها بأهمية الانسحاب»(١).

ولكن لا تعطي أرقام العسكريين الرسمية معلومات حول رجال الأمن والاستخبارات والذين يُقدّر عددهم بالألوف، ولا تُقدم معلومات عن انسحابهم أو بقائهم، كما أن مقرات الاستخبارات السورية في لبنان متعددة، وكان مركزها الرئيس في بلدة عنجر في البقاع اللبناني، والتي كان لبنان يُدار منها عن طريق غازي كنعان ثم رستم غزالي.

ـ أهداف جديدة:

وتفاعلت عملية توليف أهداف جديدة تُسَوِّغ الاحتفاظ بسلاح «المقاومة»، وتمت إعادة تأهيل المتحدثين باسم الحزب بالأهداف الجديدة، التي تتسم بالهلامية مكاناً وزماناً وظرفاً، يقول نصر الله عن أهمية سلاح المقاومة للبنان عام ٢٠٠٢م: «يوماً ما سوف تحتاج لبنان إلى البنى الأساسية للمقاومة وإلى أسلحتها»(٢)، ويقول محمد رعد: «الموضوع هو تحصين لبنان ضد أي محاولة إسرائيلية لمصادرة قراره السيادي»(٣).

واتَّسع نطاق «جيش المقاومة» وتمدَّد في الوقت نفسه الذي ضاق فيه مجال «جيش الدولة» وتقلّص، ولم يشعر قادة الحزب بأي شذوذ سياسي وهم يتحدثون عن عجز الجيش وحرصهم ألا يتعرض للأذى، وللمرة الأولى في تاريخ حركات المقاومة، تصبح المقاومة غير مرتبطة بالاحتلال، بل تعين نفسها لحماية الدولة إلى أجل مفتوح، وفي حوار مع نعيم قاسم: «جيزال خوري: يعني أنتو حتى لو رجعت مزارع شبعا أنتو في صراع مع إسرائيل؟

نعيم قاسم: بدي سلّم جدلاً أنو رجعت مزارع شبعا، ما هيك؟ من بيحمي لبنان من الطيران الإسرائيلي ومن البحرية الإسرائيلية؟

---

(١) العربية نت، ٥/ ٣/ ٢٠٠٥م.
(٢) قواعد جديدة للعبة، ص ١٤٠.
(٣) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٢٤/ ٨/ ٢٠٠٦م.

جيزال خوري: المفروض الجيش؟

نعيم قاسم: ما فينا نحشر الجيش بمحل هو رح يكون غير قادر بشكل كافٍ على صدّ العدوان، لكن لما منكون نحنا كمقاومة منريح الجيش من كتير من اعتبارات سياسية هو ما بيقدر يدخل فيها[(١)].

وبذلت قناة المنار جهداً كبيراً في تمرير الأهداف الجديدة للمقاومة، وعلى سبيل المثال: قدمت القناة «فلاشات» ترويجية لإبراز هدف «تحرير مزارع شبعا»، ويظهر في الفلاش رجل متأنق تركز الكاميرا على جسده دون رأسه وهو يرتب هندامه، ثم تنتقل الكاميرا بغتة إلى يده لتبدو ممزقة عند الكوع، ويرتفع صوت المعلق: «إذا بتقبلها عحالك بتقبلها عوطنك»، ثم تظهر خريطة لبنان يُقتطع منها مزارع شبعاً[(٢)].

ـ السلاح، الأمن، الفساد:

وفي لبنان اتسمت الفترة بين الانسحابين الإسرائيلي ثم السوري بارتفاع مستوى الرقابة الأمنية من قِبَل سوريا وأعوانها في لبنان، يقول خدام: «منذ تسلم بشار الأسد الملف اللبناني في التسعينات، ولم يكن بعد رئيساً، بدأت الأمور تختلف، قبله كانت إدارة الأمور في لبنان تتم سياسياً ومعه أصبحت إدارة هذه الأمور تتم بالسبل العسكرية وبواسطة عسكريين، بواسطة ضباط الأمن والاستخبارات بعدما كانت تعالج الأمور بين السياسيين في البلدين، هناك فارق كبير بين الحالتين»[(٣)]، ولا يتسم خدام قطعاً بالمصداقية، ولذلك يمكن إعادة صياغة عباراته هنا بأن: لبنان كان يُدار أمنياً قبل بشار، وبعده تزايدت وطأة التحكم الأمني والاستخباراتي.

وعاني السياسيون اللبنانيون في هذه الفترة من تحكم المسؤولين الأمنيين السوريين وفسادهم، وقد بلغ التدهور حداً تعرض فيه المسؤولون اللبنانيون للشتم

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م.

(٢) إسرائيل وحزب الله، الحرب النفسية، عبد الحليم حمود، دار الهلال بيروت، ص ٥١.

(٣) موقع إيلاف، ١/ ٩/ ٢٠٠٦م.

من رستم غزالي المسؤول الأمني الذي خلف غازي كنعان في لبنان، ويروي خدام بعض حوادث الإهانة، فيقول: إن رفيق الحريري عندما كان رئيساً للوزراء «تعرض للشتم من طرف رستم غزالي، وحين علمت بذلك اتصلت بالرئيس بشار، وأثرت الأمر معه، وأخبرته أن بري شُتِم هو الآخر من طرف غزالي، قلت للأسد: إن هذا يسيء لك ولسوريا، ومن المعيب السكوت على شتيمة غزالي لرئيس وزراء لبنان ورئيس مجلس النواب ووليد جنبلاط ووزراء آخرين، هذا ما لم يفعله الأجنبي عندما كان عندنا، هذه القصص منتشرة في الشارع وسوف تثير المسيحيين والمسلمين... كان جواب بشار سوف نقوم بتنبيهه، اتصل به فاعتذر، لكن ذلك لم ينه المشكلة»(١).

وتحول حزب الله في هذه الفترة إلى مركز قوة بسبب علاقته القوية مع نظام بشار، وأصبح حسن نصر الله وسيطاً رسمياً في خلافات الأقطاب السياسية مع دمشق، يروي نصر الله قبساً من ذلك فيقول: «الحريري كان يقول لي: أنا لديّ مشكلة في أن أشكل حكومة من دون وليد جنبلاط، وفي ظل المناخ الصعب بين جنبلاط والسوريين سيكون صعباً تشكيل حكومة، فأريدك أن تساعدني بموضوع جنبلاط وعلاقته مع السوريين.. دخلت أنا إذاً في الوساطة»(٢).

كما زادت حدة الفساد إلى درجة كبيرة وتورط مسؤولون سوريون كبار في فضائح اقتصادية كان من أبرزها: فضيحة بنك المدينة وكازينو لبنان، وهي قضايا لا تزال حبيسة الأوراق على الأقل في بُعْدها السوري، ولو فُتحت كافة الملفات لهزَّت الفضائح قصر الشعب في جبل قاسيون.

وكان حلفاء سوريا في لبنان من ضمن المنتفعين مالياً، ويذكر أحد التقارير المفصلة حول فضائح كازينو لبنان معلومات مهمة، منها: وجود ما يُعرف بـ«الصندوق الأسود» وهو مخصص للتوزيع على بعض المسؤولين، وحصته ٦٠ ـ ٨٠ مليون دولار سنوياً، وكان من بين المنتفعين شهرياً ـ حسب التقرير ـ

(١) حوار مع موقع شفاف الشرق الأوسط، موقع فرنسي، ٢٣/١/٢٠٠٦م.
(٢) حوار مع صحيفة الحياة، يناير ٢٠٠٦م.

الرئيس إميل لحود، وابنه النائب إميل إميل لحود، والوزير السابق سليمان فرنجية زعيم تيار المردة الماروني، ونبيه بري، والحزب السوري القومي، وحزب البعث وغيرهم(١).

ويتهم عبد الحليم خدام المسؤول الأمني السوري السابق في لبنان رستم غزالي بأنه كان يدير الفساد: «عرفت اختلاسات غزالي عن طريق بعض المسؤولين الكبار، لكن بعض التحقيقات القضائية تشير إلى ٦٣ مليون دولار، أما ما فُقِدَ من بنك المدينة فهو مليار دولار... غزالي كان يعمل جابياً، وجابي الضرائب يمنح في العادة نسبة معينة من التحصيل، لكن الحصة ليست له، وبالتالي فإن المليار الذي نُهِب لم يذهب لغزالي وإنما لمسؤوليه»(٢).

وبذلك تجمعت ثلاثة روافد تولد منها المأزق السوري في لبنان، وهي: الانسحاب الإسرائيلي الذي خلف فراغاً جعل من قضية سلاح المقاومة مسألة قد تؤجل أعواماً ولكنها لن تقفل أبداً، وغلبة الطابع الأمني على إدارة لبنان وتصاعد حدة المعارضة للوجود السوري الذي فقد مسوغاته، وتنامي مستويات الفساد الاقتصادي وتوسع النخبة الحاكمة السورية في الاستفادة من خيرات لبنان.

- بداية النهاية:

شعرت دمشق بالخطر وخاصة بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، فسعت إلى امتلاك أوراق قوة من خلال لعب دور البوابة من جديد، فصارت ترخي العنان ليتجمع المتطوعون العرب للمقاومة في العراق على الحدود، ثم تغضُّ الطرف عن تسلّل بعضهم، وتعتقل بعضاً آخرين وتسعى إلى توظيفهم في اتجاهات أخرى بعد تعريضهم للتعذيب والضغوط النفسية والبدنية، وتحولت قضية «البوابة السورية» إلى مثار مفاوضات ومساومات بين سوريا والولايات المتحدة، ولكن مع رعونة المفاوض السوري، وارتهان السياسي للأمني أو بعبارة خدام: «تسلم جماعة الأمن للعمل السياسي»، تحولت تلك الورقة إلى نقطة ضعف وأصبحت سوريا مهددة

(١) صحيفة السياسة الكويتية، ٥/ ٤/ ٢٠٠٥م.

(٢) حوار مع موقع شفاف الشرق الأوسط، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٦م، وفي حوار آخر بتاريخ ١٤/ ١/ ٢٠٠٦م يقدر خدام حجم أموال الفساد في سوريا ولبنان بـ ٢٠ مليار دولار.

بالخطر في عرينها اللبناني، حسب وصف نصر الله للبنان بأنه «عرين الأسد»(١)، أو في «بيتها» حسب وصف نعيم قاسم نائب نصر الله(٢).

وصلت الأحداث إلى ذروتها عندما سعت دمشق إلى الضغط على مجلس النواب اللبناني لإصدار قرار بالتمديد للرئيس لحود عام ٢٠٠٤م ثلاث سنوات أخرى تنتهي في عام ٢٠٠٧م، ويروي خدام أن لحود ذهب إلى الرئيس بشار وقال له إن: «رئيساً آخر ـ غيره ـ سيفتح بالضرورة ملفات بنك المدينة أو ملف تحويل أموال صدام حسين إلى لبنان»(٣).

ونتج عن قرار التمديد صدور القرار ١٥٥٩ من مجلس الأمن والذي يدعو إلى الانسحاب السوري من لبنان ونزع سلاح حزب الله.

وبذلك تكون إسرائيل قد نجحت بعد أربع سنوات من انسحابها في تفجير الأوضاع ضد سوريا وحزب الله، بعد أن تركتهم: جيشاً ومقاومة بلا احتلال.

ـ تفريغ لبنان من جديد:

صدر القرار ١٥٥٩ في سبتمبر ٢٠٠٤م يدعو سوريا إلى الانسحاب من لبنان ويدعو لبنان إلى نزع سلاح حزب الله، وكانت المفاجأة في إعلان سوريا قبولها تنفيذ القرار مع اعتبار أنه لا يتضمن آجالاً محددة للتنفيذ.

ومن خلال تحليل المعطيات المتوفرة عن تلك المرحلة، يمكن تقدير الموقف كالتالي:

١ ـ منذ الانسحاب الإسرائيلي أدركت دمشق أنها لا بد أن تنسحب جزئياً أو كلياً من لبنان، لذلك تم تقليص القوات العسكرية ـ العلنية ـ مع تكثيف التواجد الأمني المكثف ـ غير الظاهر ـ.

٢ ـ بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، أصبح نظام البعث السوري أمام معطيين

(١) النهار، ٥/ ١/ ٢٠٠٧م.
(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م.
(٣) موقع شفاف الشرق الأوسط، ١٤/ ١/ ٢٠٠٦م.

مهمين، أولهما: أن القوات الأمريكية أصبحت على مرمى حجر من دمشق، والثاني: أن إيران قدمت نموذجاً مثالياً لكيفية التحكم في دولة مفككة طائفياً دون احتلال مباشر، بل عن طريق العناصر الأمنية والاستخباراتية والحلفاء في الداخل.

٣ ـ سعت سوريا إلى محاكاة النموذج الإيراني في العراق، ولكن وفق آلية طويلة متدرجة طويلة الأجل، لا تنتهي بالضرورة إلى الانسحاب التام، ولذلك سعت إلى التمديد للرئيس لحود، وقبلت بالقرار ١٥٥٩ معتقدة أنه سوف يمدها بغطاء زمني فترة كافية من الوقت.

٤ ـ بقيت العقبة الرئيسة متمثلة في أقوى المعارضين لسوريا في لبنان، وفي مقدمتهم «الرأس السُّني» رفيق الحريري، الذي بدأ يتحول إلى موقف المعارضة للوجود السوري مستقوياً بقرار مجلس الأمن، وأطلق قولته المشهورة: لبنان لن يحكم من سوريا ولن يحكم ضدها، وهي التي اعتبرت مسوغ الاغتيال لاحقاً بالنسبة لكثير من المحللين، كما بدأ الحريري يتجهز للمشاركة في الانتخابات النيابية مايو ٢٠٠٥م، والتي كان متوقعاً أن يعود من خلالها رئيساً للوزراء، مع تلميحه بفتح ملفات الفساد وفي مقدمتها ملف بنك المدينة.

لا يتمتع فريق الحكم المسيطر في سوريا بخلفية سياسية قوية، ولذلك يسيء تقدير المواقف في مواطن كثيرة منذ تسلّم بشار الحكم، وقد اعتُبِر اغتيال الحريري ـ على افتراض اتهام سوريا بتدبيره ـ من أمثلة الرعونة السورية وسوء تقدير ردود الأفعال، والتي جاءت في سياق متسارع لم تتوقعه دمشق.

ويؤيد خدام كون التغطية على فضائح الفساد المالي هي السبب في تسلسل الأحداث على هذا النحو: التمديد ـ القرار ١٥٥٩ ـ اغتيال الحريري ـ الانسحاب، فيقول: «لقد استولد قرار التمديد للحود قرار مجلس الأمن ١٥٥٩م... ما الذي نتج عن هذا القرار؟ نتج عنه اضطراب العلاقات السورية اللبنانية، واغتيال الرئيس الحريري، وخروج وذل الجيش السوري من لبنان، تولدت عنه عزلة عربية ودولية لسوريا وبالتالي لماذا يتم اتخاذ قرار بهذه الخطورة، إلا إذا كان هناك

حجم من المصالح التي لا علاقة لها بالدور السوري، دفعت إلى اتخاذ هذا القرار. س: هل يمكن أن توضح ما هي هذه المصالح، وبماذا تتعلق؟ ـ تتعلق بالفساد»(١).

ـ اغتيال الحريري:

وقبل اغتيال الحريري، راجت إشاعات وتوقعات قوية تتنبأ بالاغتيال لمنع تقلده رئاسة الحكومة، وقد تلقى الحريري تحذيرات من عدة شخصيات، أبرزها: عبد الحليم خدام نفسه، الذي ذكر أنه التقى الحريري ونصحه مراراً بمغادرة لبنان، وقال: «قبل عشرة أيام من اغتياله، التقيت الحريري في بيروت وقلت له: قدِّم استقالتك وغادر إلى الخارج، فأجابني: لدي انتخابات، لا أستطيع...»، ويبرز خدام بعض أسباب الاغتيال، فيقول: «كانت الانتخابات تقترب والحريري القريب من المعارضة يكرر: إن لبنان لا يمكن أن يحكم ضد سوريا لكنه لا يحكم منها.... تلك الجملة هي التي قتلته»(٢).

ويروي مفتي جبل لبنان واقعة مماثلة: «كانت هناك حرب عصابات كانت تتم على أرض لبنان حتى مقتل الحريري الذي دعاني قبل أن يتولى منصبه كرئيس لوزراء لبنان، فنصحته بعدم الموافقة؛ لأن على الأرض مافيات وعصابات، ولكنه ظن وقتها أنه يستطيع أن يحل المشكلة الموجودة؛ لأن لديه مالاً، فكانت النتيجة أن قتل»(٣).

وذكر (تيري رود لارسن) مبعوث الأمم المتحدة أنه التقى الحريري على العشاء قبل مقتله بأيام، وقال: «استنتجت بعد الزيارة وجود مخاطر عالية بحدوث أعمال عنف، تحدثت بوضوح عن هذا مع الحريري الذي عملت معه بشكل جيد جداً»(٤).

ولم تكن الاغتيالات غريبة على الأسلوب السوري كوسيلة مثلى لتصفية الخلافات وإقصاء المخالفين، وهذا ما يشهد به الذين يصطفون اليوم للدفاع عن دمشق

---

(١) حوار مع موقع شفاف الشرق الأوسط، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٢) حوار مع مجلة لو نوفيل أوبسرفاتور، موقع شفاف الشرق الأوسط، ١٤/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٣) حوار الشيخ محمد الجوزو مع صحيفة روز اليوسف المصرية اليومية، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٤) حوار مع سي إن إن، نقلاً عن صحيفة الشرق الأوسط، ١٧/ ٢/ ٢٠٠٥م.

تحت راية حسن نصر الله، مثل: ميشيل عون زعيم التيار الوطني الحر، والذي يتهم خدام إبان مسؤوليته عن الملف اللبناني بأنه وراء عدد من الاغتيالات، يقول عون: «خدام، مهندس الهيمنة السورية على لبنان طوال ثلاثة عقود، مسؤول أيضاً عن كثير من عمليات اغتيال سياسيين وعن الفساد خلال الحرب اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠م).... حصلت اغتيالات الرئيسين بشير الجميل ورينيه معوض ومفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد والنائب ناظم القادري وكمال جنبلاط... أتمنى لو تعود به الذاكرة الآن إلى تلك الأيام ويخبرنا كيف وقعت تلك الأحداث»(١).

- النموذج الإيراني:

وبدأ استلهام النموذج الإيراني في العراق، مع تصاعد الأحداث في اتجاه معاكس للمصالح السورية، وبدأ حزب الله يتجهز للدور الجديد، وهو: تفريغ الدولة اللبنانية للمرة الثانية، مع انفراد الحزب بالمهمة هذه المرة.

وعندما سُئِل نعيم قاسم - بعد القرار ١٥٥٩م وقبل اغتيال الحريري - عن سبب قبول نظام بشار بالانسحاب من لبنان، كان رده واضحاً: «معه حق لأنّو رح يتحلل من مشكلة عملت أزمة دولية، وبالتالي هذا الانسحاب إجا بظروف له علاقة بالضغط الدولي... أنا بعتقد أن سوريا لما بتتخفف من هذا الضغط الدولي بيصير قدرتها على التعاون مع لبنان أكبر؛ لأنه ما بيعود فيه عندها عليها مؤاخذة دولية تواجهها»(٢).

- طمأنة سوريا:

وانطلقت تصريحات متزامنة تحمل معنيين مختلفين من قِبَل أنصار سوريا في لبنان، النوع الأول من التصريحات: هي من قبيل تطمين سوريا ومعاهدتها على السير في درب الحماية وإعاقة المحكمة الدولية، وهذا النوع من التصريحات لا يزال قادة الحزب يطلقونه بصورة دورية لطمأنة دمشق، وعندما خطب الرئيس بشار الأسد فقال مخاطباً حلفاءه في لبنان: «١٧ أيار أخرى تلوح في الأفق فاستعدوا

(١) موقع إيلاف، ١٤/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م.

لمواجهته كما فعلتم قبل عقدين»(١)، جاء رد نعيم قاسم لاحقاً مطمئناً: «أريد أن أطمئن سيادة الرئيس بشار الأسد أننا نراقب ولن نسمح لمشروع السابع عشر من أيار أن يمرّ»(٢).

والنوع الثاني من التصريحات: كان يشير إلى توقع - في سياق التهديد - مستقبل مضطرب في لبنان بسبب الغياب السوري، فحذر محمد حسين فضل الله المرجع الشيعي والقريب من سوريا في إحدى خطب الجمعة: «لبنان يواجه احتمالات الفراغ الحكومي والفوضى السياسية والخلل الأمني»(٣).

وقد تأيدت هذه التصريحات بأخرى مشابهة لها من الرئيس السوري نفسه، بل كانت أكثر وضوحاً في الإشارة إلى النموذج العراقي، يقول وليد جنبلاط: «أذكر بكلام سيد النظام في دمشق في إحدى خطبه عندما قال: إن لبنان قد يتحول إلى ملجأ للقاعدة، وكلام وزير خارجيته عندما قال: إن لبنان قد يتحول إلى عراق ثانٍ، فهذا أمر يخيفني»(٤).

واستخدام التهديد بالقاعدة والحركات الإسلامية الجهادية، هو أسلوب قديم مارسه من قبل حافظ الأسد، وهو أسلوب يتعمد إرسال رسالة واضحة للولايات المتحدة «إما نحن وإما الإرهاب»، وفي لقاء جمع بين حافظ الأسد ووزير الخارجية الأمريكي الأسبق (وارين كريستوفر)، قال الأسد: «إذا استمرت الولايات المتحدة على هذا الانحياز لإسرائيل ضد العرب وقضيتهم المركزية في فلسطين، فإنك ستأتي لي مرة لتجدني مطلقاً لحيتي، وأحمل سبحة بين يدي»(٥).

وقد حاول النظام السوري تقديم نموذج عملي لواشنطن من خلال «مسرحية»

---

(١) العربية نت، ٥/ ٣/ ٢٠٠٥م.

(٢) موقع الحزب التقدمي الاشتراكي. وإيراد اتفاقية ١٧ مايو - هو على سبيل المجاز - في إشارة إلى الاتفاقية التي عقدت عام ١٩٨٣م لتطبيع العلاقات بين لبنان وإسرائيل ولكنها ألغيت لاحقاً، ولعب حزب الله دوراً في إلغائها، فكأن نعيم قاسم يذكر بشار بالدور القديم المتجدد.

(٣) موقع سيريا نيوز، ٤/ ٣/ ٢٠٠٥م.

(٤) صحيفة المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٥) مجلة الشراع، ٢/ ٧/ ٢٠٠٦م.

الهجوم على السفارة الأمريكية في دمشق من قِبَل عناصر «إرهابية»، في حين أعرب علي صدر الدين البيانوني المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا عن دهشته «من تسلل مسلحين إلى منطقة يفترض أنها بأعلى مستويات التأمين»(١).

ولكنها كانت رسالة وصلت واشنطن وحصلت على ثناء وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس.

وتقدر إسرائيل هذا الجانب من المعضلة السورية، وتعطيه اهتماماً لائقاً، ناتجاً عن إدراك الفروقات الهائلة بين المعارضة العراقية ومثيلتها السورية السُّنية، ويتفق السياسيون الإسرائيليون على أن وصول الإسلاميين للحكم في سوريا لن يحل الصراع العربي الإسرائيلي إلا عن طريق الحسم العسكري، وبذلك لا مجال للحديث عن حلول ديمقراطية في العالم العربي كما يؤكد على ذلك البروفيسور (يحزقيل درور)، والذي يوصف في الكيان بأنه أبو الفكر الاستراتيجي السياسي(٢).

- الحزب «المعطل»:

نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله، له تصريح مشهور أطلقه في العام ٢٠٠٤م، يقول فيه: «حزب الله يعمل في السياسة بالبدلة المرقطة» (٣)، أي: البدلة العسكرية، وهو تصريح بالغ الدقة.

فحزب الله يمارس أسلوباً عسكرياً تعبوياً مزدوجاً في تفريغ الدولة من داخلها، الأول: من خلال إشاعة أجواء فوضى سياسية مقننة بإرباك التوازن الطائفي السياسي الهش في لبنان، والقابل للاختلال أصلاً بأدنى محاولة، والثاني: عن طريق التورط في حروب مع الكيان الصهيوني للتأكيد على سحب قرار الحرب والسلم من الدولة لحساب الحزب.

وكانت خطوة الحزب الأولى: المشاركة في «الوحل» السياسي الحكومي الذي

---

(١) الجزيرة نت.

(٢) صالح النعامي، مقال: هل إسرائيل معنية بإسقاط النظام في سوريا؟ الجزيرة نت. وموقع صفحات سورية، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٦م.

(٣) مقال: هدى الحسيني، الشرق الأوسط، ١٧/ ٦/ ٢٠٠٦م.

أربأ بنفسه عن الولوغ فيه طيلة ١٥ عاماً تقريباً، وحاول نصر الله تبرير هذا العزم المفاجئ على المشاركة في الحكومة، ولكنه أساء لحليفه السوري من حيث لا يقصد، فقال: «شاركنا في الحكومة بعدما قيل لنا: إننا شركاء وسنتفاهم على الأمور الأساسية، ولدينا فرصة لنبني البلد. هذه هي الحيثية الأساسية وعلى أساسها شاركنا في الحكومة. فنحن لم نشارك في الحكومات السابقة؛ لأننا لم نكن مقتنعين بالطريقة التي تُدار بها الأمور، لذا لم نكن نعطي ثقتنا. وكان يطلب منا ولم نقبل»(١)، ولكن هذه المبررات التي ذكرها نصر الله لصحيفة الحياة تختلف عن مبررات ساقها في مقام آخر يسمح بصراحة أكبر، في لقاء مع بعض أنصاره في اللجان المنظمة للاعتصامات والتظاهرات، حيث قال لهم: «تحولات كبرى حصلت في المنطقة، فرضت علينا وألزمتنا أن ندخل إلى الحكومة، وإلا نحن لم نكن نطلب الدخول إلى الحكومة، ولم نكن نهوى الدخول، ولسنا طلاب سلطة ولا نبحث عن منصب»(٢). إذاً؛ ليست عملية اقتناع بوجود فرصة شراكة أو غيرها.

وتجهز الحزب للمنازلات السياسية ولعب دور «الحزب المعطل» الذي حاول تطويره لاحقاً إلى «الثلث المعطل» بعد أن أخفق في جهوده داخل الحكومة.

وحاول تيار ١٤ آذار أن يفوت الفرصة على الحزب، فدخلت الأطراف في مناورات سياسية معقدة كان محورها تمرير المحكمة الدولية والتسريع بها، فأعلنت الحكومة أنها ستؤجل تنفيذ القرار ١٥٥٩م، وتحديداً ما يتعلق بسلاح الحزب؛ لأنه قضية داخلية تحل بالتشاور، وأعلن السنيورة أن المقاومة «شرعية» وتمارس دورها الوطني، ودعا الجميع «سيد المقاومة» إلى تشريف مؤتمر الحوار الوطني لتجاوز الأزمة الداخلية، ولكن نصر الله عندما حضر سعى إلى تحويل المؤتمر إلى «منصة لدعوته إلى وضع استراتيجية دفاعية لبنانية تحول لبنان وجيشه وشعبه ودولته إلى مقاومة يقودها حزب الله»(٣).

---

(١) حوار مع الحياة، يناير، ٢٠٠٦م.
(٢) كلمة في لقائه بأعضاء اللجان المخولة بالإشراف على التحرك الشعبي للمعارضة، موقع شبكة الشيعة، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٦م: http://www.shiaweb.org/hizbulla/news/9.html.
(٣) صحيفة النهار، ٥/ ١/ ٢٠٠٧م.

واتبع الحزب أسلوب الانسحاب والتهديد بالاستقالة كلما حاولت الحكومة طرح قرار يتعلق بالمحكمة الدولية، وفي نهاية العام ٢٠٠٥م اغتيل الصحفي في جريدة النهار الموالية لفريق الأغلبية جبران تويني، عشية جلسة إقرار إنشاء المحكمة الدولية، وانسحب وزراء أمل وحزب الله غاضبين واعتكفوا سبعة أسابيع، وخطب الرئيس السوري بشار الأسد ووصف السنيورة بأنه «عبد مأمور لعبد مأمور»، وصرَّح نصر الله في عبارات صريحة: «شئنا أم أبينا نحن وغيرنا، لسورية نفوذ في لبنان لا يستطيع أحد أن يستأصله، بحكم ما يُقال عن واقع التاريخ والجغرافيا وشبكة المصالح وتشابك العلاقات العائلية والاجتماعية»[(١)].

- الخيار شمشون:

قبل موسم صيف العام ٢٠٠٦م تمنَّى النائب سعد الحريري على الأمين العام لحزب الله ألا تقوم «المقاومة» بعمليات «تذكيرية» من شأنها أن تدمر الموسم السياحي، واستنكر نصر الله هذا التمنِّي لأنه يشكك ضمناً في حرصه على لبنان واقتصاده الوطني[(٢)].

لكن وعود نصر الله «الصادقة» منتهية الصلاحية، وتُعدّ ضمن الحرب النفسية التي يفتخر الحزب باقتدار زعيمه على ممارستها، حتى أن موقع المقاومة التابع للحزب حريص على نشر المقالات التي تمتدح نصر الله في هذا السياق، وآخرها مقال منسوب لخبير إسرائيلي يصف زعيم الحزب بأنه «أبو الحرب النفسية»[(٣)]، وهي حقيقة لا نجادله فيها كثيراً، ولكن يبقى أن حسن نصر الله يخوض غمار حروب نفسية لا تنتهي، بما يثير تساؤلاً عن: كون هذه «النفسية» لديه أم لدى خصومه؟

تدمرت لبنان في ٣٢ يوماً، وتزايد الفراغ داخل الدولة التي عجزت حكومتها عن مَلْئه بتعويضات تداوي بعض الخسائر، وسارع الحزب إلى ملء فراغ الدولة

---

(١) حوار مع الحياة، يناير، ٢٠٠٦م.
(٢) النهار، ٥/ ١/ ٢٠٠٧م.
(٣) الخبير الإسرائيلي في علم النفس السياسي أودي ليبل، والخبر لصحيفة معاريف، ومنشور في صحيفة الأخبار اللبنانية، ٣/ ٢/ ٢٠٠٧م، وموقع المقاومة التابع لحزب الله.

بـ «المال الحلال» القادم من الولي الفقيه، وما إن توزع المال حتى بدا أن الفراغ داخل الدولة يحتاج إلى من يملؤه أيضاً، ولما عجز الحزب بقامته «الطائفية» القصيرة عن ملء الفراغ السياسي، ساهم «المال الحلال» أيضاً في إطالة قامة الحزب حتى تحولت إلى: سيدنا وأستاذنا ورئيسنا، وترجمتُها: نصر الله، وعون، وبري، وارتفع شعار «الثلث المعطل» في مطالبات القادة، وارتفع في هتافات العامة شعار «هللي هللي هللي نصر الله وعون وبري»(١).

وانتقل الحزب إلى المرحلة التالية، أي: محاولة إسقاط الحكومة بالاستقالة، ثم عندما لم تُجدِ نفعاً، انتقل إلى سيناريو العميد «رستم غزالي» أي: إسقاط الحكومة في الشارع.

هذا السيناريو ورد ذكره في التقرير الأخير لرئيس لجنة التحقيق الدولية في اغتيال الحريري (ديتليف ميليس) وقد رسمه مدير الاستخبارات السورية في سوريا رستم غزالي في يوليو ٢٠٠٤م لإسقاط رفيق الحريري، ونسب ميليس المعلومات إلى شخصية لم يصرح باسمها أطلق عليها «السيد إكس»، وحسب إفادته فإن غزالي قال لـ «إكس» عن الحريري: «دعه يكون أضحوكة، ويشار إليه بكونه الرجل الذي دمّر البلاد وأوقعها في الديون، دع الناس ينزلون إلى الشارع في سوليدير وقريطم، ودع التظاهرات تستمر حتى يضطر إلى الاستقالة كالكلب»(٢).

لم ينفذ السيناريو ولكنه بقي في أرشيف التجارب والأفكار، وتم استدعاؤه بعد حرب يوليو ٢٠٠٦م، ليتولى تنفيذه حزب الله بالتحالف مع أحزاب أخرى.

- مسارات سورية:

يرتسم أمام النظام السوري حالياً مساران رئيسان، أحدهما: يدفع باتجاه المضي قُدماً حتى النهاية مع محور الهلال الشيعي، والثاني: يدفع باتجاه التحلل من الالتزامات الإيرانية تدريجياً والاندفاع باتجاه واشنطن، أو التوقف وسطياً

---

(١) صحيفة المستقبل، ٢/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٢) فارس خشان، المستقبل، ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

لضمان التواصل مع كافة الأطراف من ناحية، ولضمان تغطية الفضائح والعورات من ناحية أخرى.

وتعطي دمشق مؤشرات تخدم كلا المسارين.

فعلى المسار الإيراني:

أرسل بشار الأسد وزير دفاعه إلى طهران في يونيو ٢٠٠٦م ليوقع اتفاقية دفاع عسكري، وبعدها مباشرة وقعت عملية الاختطاف ثم العدوان الإسرائيلي(١).

ويتبنى الرئيس الإيراني أحمدي نجاد استراتيجية «انتظار» تعتمد على رحيل جورج بوش - الجمهوري - ومجيء رئيس ديمقراطي يقلص من التمدد الأمريكي الخارجي ويقلل الخطر على المحور الشيعي، ويفسح المجال لتمدده لاحقاً، ولا يبدي بشار الأسد اعتراضاً ملحوظاً على هذه الاستراتيجية التي طرحت بين الرئيسين في يناير ٢٠٠٦م أثناء زيارة نجاد لدمشق، ولذلك يستقبل الأسد المساعدات الإيرانية المالية والهبات النفطية التي تجاوز مجموعها ٤٠٠ مليون دولار، مع دعم وخبرات الحرس الثوري(٢)، وقد تدعمت هذه الاستراتيجية بتحقيق الديمقراطيين فوزاً كبيراً في انتخابات الكونجرس وتقليص مساحات الحركة أمام البيت الأبيض في نهاية العام ٢٠٠٦م.

وترتكن إيران في تدعيم محورها إلى روسيا التي تسعى إلى تشكيل تكتل يواجه مشاريع التوسع الأمريكية دون أن تتورط بصورة مباشرة، ولذلك لا تمانع موسكو من تقديم دعم إلى مواقف سوريا شرط أن تبقى المواقف السورية قابلة لأن تدعم، أي: أن تكون على شيء من الاعتدال والمرونة يسهّلان على الروس الدفاع عنها(٣)، ولدى الروس طموح في استبدال قاعدتهم في أوكرانيا على البحر الأسود والتي ينتهي عقدها في العام ٢٠١٧م، بقاعدة في ميناء طرطوس السوري ذي الأغلبية العلوية(٤).

(١) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٢) راجع: مقال: أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٣) حازم صاغية، صحيفة الاتحاد الإماراتية، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٦م، موقع: صفحات سورية.
(٤) أمير طاهري، الشرق الأوسط، ١٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.

ويتفق كل من نجاد والأسد على أن حزب الله عقبة في طريق المشروع الأمريكي، وأن انهيار الحزب سيتبعه انهيار قوى أخرى في المنطقة من بينها سوريا، ولذلك يتم إخراج سيناريو الثمانينيات من الأرشيف، على الأقل من أجل المذاكرة واستحضار الفوائد، ولعل وزير الخارجية السوري وليد المعلم كان «يراجع» دروس الماضي عندما هدد القوات الدولية بقوله: إن سوريا «لا تريد أن تلقى هذه القوات نفس المصير الذي لاقته القوات المتعددة الجنسيات في العام ١٩٨٣، إذا لم يكن هناك اتفاق لبناني على وجودها»(١)، فقط احذف لبناني، واكتب «حزب الله».

أما الحزب؛ فهو يتابع الموقف الداخلي مع سوريا أولاً بأول، ويذكر تقرير نشرته السياسة الكويتية أن حزب الله أرسل توصيفاً استخباراتياً لاستراتيجيته في جنوب لبنان خلال الفترة القادمة، وجاء فيه أن عناصره تمكنت من عقد تفاهمات مع عدد من كبار الضباط الشيعة في الجيش اللبناني من المسؤولين عن منطقة الجنوب بغيةَ خرق القيود المفروضة على عمل الحزب العسكري، وذكرت الصحيفة نقلاً عن التوصيف الاستخباراتي أن هناك تعاوناً ممتازاً مع العميد رفيق حمود قائد اللواء ١١ الذي يزود الحزب بتقارير دورية عن عمل اللواء مقابل ألف دولار شهرياً ـ حسب الصحيفة ـ،وأبرز التقرير تمكُّن الحزب من تأمين عدد كبير من الوثائق الخضراء لعناصره، وهذه الوثائق تتيح لحامليها عبور حواجز الجيش اللبناني مع سلاحهم خلافاً لتعليمات الحكومة اللبنانية.

وقد أعربت المخابرات السورية ـ حسب الصحيفة ـ عن ارتياحها، وأوصت بتجنيد المزيد من ضباط الجيش وعدم الاكتفاء بالشيعة فقط، كما أوصت بتدعيم شبكة عملاء تنتشر في المعابر البرية والبحرية من أجل تيسير عمليات التهريب(٢).

وعلى المسار الآخر:

تعطي دمشق إشارات تفيد المرونة مع الاستعداد للأكثر، والهاجس الماثل في

(١) صحيفة الحياة، ١/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٢) صحيفة السياسة الكويتية، ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٦م، نقلاً عن موقع الكتائب اللبنانية:
http://www.al-kataeb.org/News06/060929-03.html.

مخيلة النظام هو المحكمة الدولية والفضائح المالية في لبنان، وبينما يبذل حزب الله جهوداً خارقة لإعاقة المحكمة أو لامتلاك القرار السياسي اللبناني، فإن بشار الأسد يرسل - كعادته - رسائل إلى الولايات المتحدة من خلال وسائل الإعلام الغربية التي يلتقي معها، وفي لقائه مع صحيفة نيويورك تايمز، قال: «أنا لست كصدام حسين، أنا أريد أن أتعاون»(١).

وفي لقائه مع (كريستيان أمانبور) مراسلة (سي إن إن)، تحدث عن موقفه من تورط سوريين في اغتيال الحريري: «بالنسبة لهذه القضية إذا كان فعلاً هناك شخص سوري متورطاً فيها فهو يعتبر في القانون السوري خائناً... ومن الطبيعي أن نحاكمه أو أن يحاكم في مكان آخر» استوقف التصريح المفاجئ مراسلة (سي إن إن)، فقالت: «دعني أتأكد مما قلت، إذا كان هناك أي سوريين متورطين فستسلمهم لمحاكمة دولية؟!»، وجاء رد بشار الأسد واضحاً: «إذا كانوا متورطين فيجب أن يعاقبوا دولياً أو سورياً حتى لو لم يعاقبوا دولياً فسيعاقبون في سورية»(٢)، هذا يعني: أن الأسد بات يستحضر التجربة الليبية في خلفيته الذهنية.

وعندما زار (نايجل شينوالد) - مستشار توني بلير الخاص للشؤون الخارجية - دمشق، واجهه الرئيس السوري دون مواربة: «تريدون منا مساعدتكم في العراق، ووقف التدخل في لبنان، وتسهيل عقد صفقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين.. ثم تلاحقوننا في مسألة الحريري وجعل المحكمة الدولية الخاصة بها مقصلة فوق رؤوسنا، إن هذا يعني أن نسلمكم رقابنا بعد أن تكبلوا أيدينا»(٣).

واشنطن لا ترسل - عمداً - إشارات تطمين كافية إلى دمشق، وتُبقي السيف مسلطاً؛ لأنه يحقق فائدة تفوق الضربَ به أو وضعَه في غمده، وهذه استراتيجية أمريكية معروفة، وربما يفسر ذلك البطءَ المفاجئ الذي طرأ على مسار المحكمة الدولية، والإبهام بعد الإيضاح فيما يتعلق بالأشخاص والأدلة الواردة في تقارير رئيسَيْ لجان التحقيق (ميليس) ثم (بريميريتس)، هناك معادلة تزامن تسعى

---

(١) موقع أحرار سوريا، مقال: حافظ الأسد هل وصل مشروعه العائلي إلى النهاية؟
(٢) موقع بوابة العرب، نقلاً عن صحيفة تشرين السورية.
(٣) مجلة الشراع، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٦م.

واشنطن إلى تحقيقها في المنطقة، ولذلك تبذل جهداً واضحاً في ضبط مؤشرات كل دولة لتتوافق مع هذه المعادلة، فتُصَعِّد ضد إيران في العراق بعد أن حولت الملف النووي تالياً، وتعطل المحكمة الدولية أو تبطئ سيرها، وتترك الأطراف المتصارعة في لبنان دون ترجيح مؤقتاً.

هذا الأسلوب الأمريكي ـ في خنق سوريا ـ لا يلقى ترحيباً تاماً في الأوساط الإسرائيلية الاستخباراتية، وخاصة لدى الجهات المختصة بالتقويم الاستراتيجي لمواقف الدول العربية، مثل: شعبة الاستخبارات العسكرية «أمان»، فهذه الجهات تعتبر أن أفضل تسوية يمكن الحصول عليها مع سوريا سوف تكون مع نظام الأسد، ويدفع بعضهم في اتجاه تشجيع بشار على الاقتداء بالرئيس الليبي معمر القذافي، ويشير الجنرال المتقاعد (داني روتشيلد) الذي شغل في السابق منصب رئيس قسم الأبحاث في (أمان) أن «الأسد قد يتحول إلى نسخة أخرى من القذافي الذي خرج عن طوره من أجل استرضاء أميركا خوفاً من مصير كمصير صدام»(١).

ويخشى حلفاء سوريا من انقلابها عليهم لو عُرض عليها حزمة إغراءات وضمانات كافية، وتذكر بعض المعلومات أن سوريا تعرقل (٩٠٪) من الأسلحة التي ترسلها إيران إلى حزب الله حتى تدفع لها طهران مقابلاً مالياً، وهو ما يشكو منه قادة الحزب(٢)، ويقدم صبحي الطفيلي الأمين العام الأسبق نصيحة إلى رفاقه القدامى: «صراعنا مع سورية مثل صراع الخروف مع الذئب، النهاية واضحة الخروف سيؤكل»(٣).

لكن قيود الماضي ـ في لبنان ـ تمثل عائقاً أمام سوريا للتحلل من المحور الشيعي؛ لأن حجم الفضائح والمشكلات القديمة يصعب تجاوزها، وهو ما يطرح بُعْداً آخر للمسارات السورية المحتملة، وهو: أن يتبرأ منها حلفاؤها تباعاً عندما يجفّ حليبها

---

(١) مقال صالح النعامي، هل إسرائيل معنية بإسقاط النظام في سوريا، الجزيرة نت، موقع صفحات سورية، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٦م.
(٢) مجلة الشراع، ١٦/ ١١/ ٢٠٠٦م.
(٣) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٦م.

أو يتلوث، يقول حازم صاغية: «سوريا لن تستطيع إلا أن تتطرّف في الأمد المنظور إدراكاً منها أن الفواتير المتراكمة يستحيل دفعها، كما يستحيل التفاوض بشأن إلغائها أو تأجيلها، وقد نشهد في الفترة المقبلة بعض الانفكاك عنها من قِبَل حلفاء لها، لبنانيين أو إقليميين أو دوليين، إما لشعورهم بالعجز عن مواكبة مواقفها الهائجة وإما لرغبة في القفز من المركب قبل غرقه»(١).

أضف إلى ذلك أن الداخل السوري يتلون بصورة غير مسبوقة، فهناك براكين تغلي في الصدور، فالسُّنة يترقبون ويبحثون عن زعيم وزعامة، ودعاة التشيع لا يتوقفون عن توزيع الأموال «الحلال» على «المستبصرين» إلا ليبنوا بها حوزات دينية، والعلويون بعضهم يتململ من تفرغ بشار الأسد لـ«الهم العائلي» الذي يمنعه من التفرغ لمشكلات الطائفة ومصالحها كما كان أبوه، وينقل الصحفي الفرنسي (جورج مالبرونو) عن أحد الناشطين العلويين في اللاذقية: «مع الأب حافظ الأسد، كانت الطائفة العلوية محمية من رجل قوي، اليوم ترى الطائفة أن الابن لا يملأ مركزه، هذا ما يدفعها للخوف من فقدان السلطة، وما سيتبعه من أعمال ثأرية.. الأب كان يعرف كيف يمتص الضغط والاحتقان الموجود دائماً بين عشائر الطائفة العلوية، كان يحميها ويشتري ولاءها، أما مع بشار الذي لا يزور المنطقة إلا نادراً، فالعلويون يدركون أنه لا يدافع عن الطائفة، بل أن ما يهمه هو أسرته وحدها»(٢)، إذا كانت هذه شكوى العلويين ذوي الحظوة والسطوة، فكيف يكون حال السُّنة؟

مقابل هذا التململ، هناك حالة احتقان متزايدة بين السُّنة والعلويين، وبخاصة داخل أوساط الجيش، حيث يتبادل ضباط تسمية أنفسهم بكُنى تحمل طابعاً ذا دلالة، فالعلوي يُكنّى بـأبو علي، أبو سليمان، أبو حسين، والسُّني يُكنّى بـأبو عمر، أبو معاوية، ويبالغ مؤيدو الأسد في مفاصلة الناس على الولاء له، رافعين الشعار: أنت مع الأسد أنت مع نفسك، أنت ضد الأسد أنت ضد نفسك(٣).

---

(١) صحيفة الاتحاد الإماراتية، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٦م، مقال: سوريا والخيارات الصعبة.

(٢) جورج مالبرونو، وهو الصحفي الذي خطف في العراق سابقاً، صحيفة لوفيجارو، ٣٠/ ١/ ٢٠٠٦م، نقلاً عن موقع مجلة ليلي اللبناني.

(٣) راجع مقال: هوية الأقليات بين الدولة والمجتمع المدني، عمران الرشق، موقع مجلة جسور، العدد ٩، نوفمبر ٢٠٠٥م: http://www.josor.net/index.php?catid=59&numjosor=9.

وفي الأخير: تبقى الصورة الطائفية المغرقة في السوء ماثلة في لبنان، وهي ليست غائبة عن حزب الله، بل حاضرة يتحدث بها قادته في سياق التحذيرات والتطمينات التي تنذر بما هو آتٍ، يقول حسن نصر الله: «من نفّذ هذا الاغتيال ويُتبعه باغتيالات أخرى يهدف إلى تخريب لبنان، وإحداث فتنة طائفية ومذهبية وتفتيت لبنان، هذا هو هدف الاغتيالات، فغداً يشعر المسيحي أن الدولة غير قادرة على حمايته فيعيش في كانتون، والدرزي أيضاً، والشيعة يتقوقعون في مناطقهم والسُّنة كذلك، هذا إن لم يحملوا السلاح في وجه بعضهم بعضاً. وهذا خطر جداً»[1]، ونحن نصدق نصر الله هذه المرة تماماً، مع إضافة تساؤل بسيط: ماذا لو كانت سوريا هي الفاعل؟

المشكلة التي تواجه حزب الله أنه يركب سفينتين؛ إيرانية وسورية، قَدَمٌ هنا والأخرى هناك، ولو غرقت إحداهما أو تلكأت، فلنا أن نتخيل ما سيكون عليه الحزب!

(١) صحيفة الحياة، يناير ٢٠٠٦م.

الباب الثالث: حزب الله

- الفصل الأول : الزعيم.
- الفصل الثاني : الحزب.
- الفصل الثالث : إيران الصغرى.
- الفصل الرابع : اختراق الشارع السُّني.

الفصل الأول: الزعيم

سيرة و مسيرة:

ولد حسن عبد الكريم نصر الله في بلدة البازورية قرب صور في جنوب لبنان في ٣١ أغسطس عام ١٩٦٠م، وتقع صور وما حولها ضمن نطاق جبل عامل حسبما ذكر المؤرخ ورجل الدين الشيعي محسن الأمين، وهو الابن البكر لأبيه بالإضافة إلى ثمانية من الإخوة والأخوات، حسين ومحمد وجعفر وزينب وفاطمة وزكية وأمينة وسعاد.

انتقلت العائلة إلى الكرنتينا ـ بيروت، حيث كان أبوه يبيع الفاكهة والخضار مع إخوته حتى افتتح محل بقالة صغير، وكان حسن يتردد إليه لمساعدته، وحسبما يقول نصر الله فقد كان أول معرفته بموسى الصدر من خلال صورة معلقة في محل أبيه كان ينظر إليها بإعجاب شديد.

نشأ نصر الله مرتبطاً بعقيدته الشيعية، وأتم دراسته الابتدائية في مدرسة حي النجاح وكان ضمن آخر دفعة حصلت على شهادة «السرتفيكا» والتي ألغيت عام ١٩٧٠م، ثم درس في مدرسة سن الفيل الرسمية حتى اضطرت عائلته إلى العودة إلى البازورية بسبب اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٧٥م، فأكمل دراسته الثانوية في مدرسة صور الرسمية، وتجلى تحمّسه الديني في تأسيس مكتبة صغيرة كان يعطي فيها دروساً دينية مبسطة لبعض المترددين عليها.

انضمَّ إلى حركة أمل بعد أن أنهى الصف الأول الثانوي، حيث عين مسؤولاً تنظيمياً في بلدته وكان عمره ١٥ عاماً وكان معه في الحركة أخوه حسين، وقد تعرف في هذه الفترة على الدكتور مصطفى شمران أحد مؤسسي حركة أمل، والذي كان يجمع المتطوعين الشيعة ويدرّبهم على القتال وحرب العصابات، والذي أصبح بعد الثورة وزيراً للدفاع في إيران.

وعندما بلغ عمره ستة عشر عاماً عام ١٩٧٦م رغب في السفر إلى النجف

لتلقي العلوم الدينية الشيعية، فالتقى مع «الشيخ» محمد الغروي أحد رجال الدين الشيعة التابعين لخط موسى الصدر وكان يدرس في أحد مساجد صور، وطلب منه توصية لأحد علماء النجف، فأعطاه توصية مكتوبة إلى محمد باقر الصدر، فجمع نصر الله بعض المال اللازم للرحلة وتوجه من فوره إلى النجف بعد أن نفذ منه المال تماماً، وسأل في أوساط الطلبة اللبنانيين الشيعة الذين كانوا يدرسون في النجف عن كيفية مقابلة باقر الصدر فدلّوه على أحد تلامذة الصدر المقربين وهو عباس الموسوي الذي أصبح لاحقاً ثاني أمين عام لحزب الله.

استقبله الموسوي ونشأت بينهما علاقة قوية في رحاب باقر الصدر الذي طلب من الموسوي رعاية نصر الله وتأمين غرفة ومصروف شهري له من عطايا الصدر، وأمره أن يتولى تدريسه في المرحلة العلمية الأولى «المقدمات»، وكان الموسوي في المرحلة الثانية والتي تعرف باسم «السطوح».

وكان الخميني في هذه الفترة مقيماً في النجف حيث يدبّر للثورة القادمة، ورغم عدم ورود معلومات واضحة عن التقاء نصر الله بالخميني في النجف ـ نظراً لصغر سنّه وقتها ـ إلا أنه من المتوقع أن يكون قد حضر بعض محاضراته ودروسه، خاصة وأن الخميني كان واسع الشهرة وقتها ولا يعقل ألا يدفع الفضول شاباً متحمساً لعقيدته إلى حضور بعض دروس المرجع الإيراني الثوري القابع على مرمى حجر.

ونتيجة حماسة الموسوي في التدريس أنهى نصر الله المرحلة الأولى في عام ١٩٧٨م، حيث بدأ النظام البعثي في التململ من الخميني وانعكست الحرب الأهلية في لبنان على الدارسين في النجف وكان معظمهم بالتبعية ينتمون إلى حزب الدعوة التابع لباقر الصدر أو حركة أمل التابعة لموسى الصدر، وكان العراق يتبنى وقتها موقفاً داعماً لمعارضي سوريا، وكان هؤلاء ضمن حلفاء سوريا في لبنان.

ترك حسن نصر الله النجف وعاد إلى لبنان حيث أنشأ الموسوي حوزة دينية في بعلبك التحق بها نصر الله وأكمل المرحلة الثانية «السطوح».

وخلال الفترة من عام ١٩٧٨م إلى عام ١٩٨٢م تولى «الزعيم» مسؤوليات

تنظيمية في حركة أمل، حيث يقبع الحركيون الخمينيون بداخلها وهم ينتظرون توقيت التحرك للانشقاق عنها، وتولى مسؤولية «مندوب» الحركة في البقاع عام ١٩٧٩م، ثم عُيِّن عضواً في المكتب السياسي المركزي للحركة عام ١٩٨٢م، وهو ما يوحي بمدى الثقة التي كانت قيادات الحركة توليه إياها، بينما كان هو يخطط للانشقاق عليها في العام نفسه.

وقد كشف موقع إيراني على الإنترنت ـ بازتاب، ويديره القائد العام السابق للحرس الثوري اللواء محسن رضائي ـ عن وثيقة مهمة تبين أن نصر الله قد زار إيران عام ١٩٨١م مع وفد من أعضاء أمل ـ الخمينيين ـ حيث التقى الخميني في حسينية جماران قرب طهران، وكان عمره ٢١ عاماً وقتها.

وخلال اللقاء تم التباحث حول الأوضاع اللبنانية، ومنح الخميني نصر الله إجازة «شرعية» لتلقي أموال الخمس والزكاة والكفارات والتصرف بالأمور الحسبية والشرعية حسبما يراه مناسباً، وهو أمر لم يكن مألوفاً عن الخميني الذي كان يحتاط كثيراً في منح الوكالات والإجازات إلى رجال الدين الشيعة، وهو ما يشير إلى ثقته البالغة بنصر الله الذي خاطبه الخميني بلقب «حجة الإسلام»، وبعد عودة الوفد بقليل تم الانشقاق عن أمل وتأسس حزب الله عام ١٩٨٢م، وكان لافتاً أن شقيق نصر الله «حسين» لم ينشق عن أمل وبقي فيها حتى اليوم وتولى بعض المسؤوليات قبل أن يمرض، كما كان أغلب أشقاء نصر الله ينتمون إلى حركة أمل باعتبار تفردها على الساحة، ولكنهم تركوها لاحقاً وانضموا إلى أخيهم.

لم يكن نصر الله عضواً في شورى الحزب عند تأسيسه بسبب صغر سنّه، ولكنه تولى عدة مسؤوليات، فكان مشاركاً في مجموعة تعبئة المقاومين، ثم مسؤول الحزب في بعلبك، وفي عام ١٩٨٥م عُيِّن مسؤولاً للحزب عن البقاع ثم بيروت، وفي عام ١٩٨٧م كان عضواً في شورى القرار، بالإضافة إلى منصب استحدث وهو المسؤول التنفيذي الذي ينفذ قرارات مجلس الشورى.

وقد شارك نصر الله في الحرب بين حزبه وأمل، وكان قد تدرَّب على أيدي الحرس وحصل على دورات عسكرية وأمنية متتالية لعدة أشهر، وتعرض لمحاولة اغتيال مع

عدد من قادة الحزب بينهم إبراهيم السيد نهاية الثمانينيات بتدبير من حركة أمل.

وفي عام ١٩٨٩م وهو العام الذي تسلم فيه صبحي الطفيلي الأمانة العامة، حدثت خلافات داخلية بخصوص الحرب مع حركة أمل، وسافر على إثرها نصر الله إلى إيران بحجة إكمال مسيرته العلمية، ولكنه عاد بعد عام تقريباً، وبعد عودته بأشهر تمت تنحية الطفيلي الذي غضبت عليه إيران بسبب تبعيته لخليفة الخميني المعزول «آية الله» حسين منتظري، وكان من المقرر عقد مؤتمر العزل في نوفمبر ١٩٩٠م إلا أنه تأجل من قِبَل طهران لعدة أشهر، ورقي نصر الله إلى منصب رئيس المجلس التنفيذي.

اتخذ نصر الله موقفاً متصلباً في الحرب مع أمل، وعندما ضربت القوات السورية المناصرة لأمل ثكنة فتح الله بالبسطة عام ١٩٨٧م حيث قُتِل نيف وعشرون من عناصر حزب الله، خطب نصر الله في مجلس العزاء وقال: «سنبقى هنا، سنبقى في بيروت الغربية، سنبقى في الضاحية ولن يستطيع أحد أن يقتلعنا».

وشارك حسن نصر الله مقاتلي حزبه معركتهم ضد أمل، عندما حوصروا في إقليم التفاح من قِبَل الحركة، وبقي مُحاصَراً معهم ٣ أشهر، وقتلت أمل من حزبه نحو ١١٠ أشخاص بخلاف المصابين أثناء الحصار.

ذكر مثقفون لبنانيون أن حسن نصر الله كان مسؤولاً عسكرياً للحزب في الثمانينيات، وفي هذه الفترة كان معارضون شيعة لخط الخميني يتعرضون لإرهاب الفتاوى التي تكفرهم، ومنهم مهدي عامل وحسين مروة اللذَيْن تم اغتيالهما على يد نصر الله كما تؤكد بعض المصادر(١).

تولى نعيم قاسم منصب نصر الله كمسؤول تنفيذي بعد سفر الأخير إلى قم، وعقب عودته منها بقي عضواً في الشورى فقط، ولكن أستاذه عباس الموسوي بعد أن تسلم الأمانة العامة، أزاح نعيم قاسم عن منصب المسؤول التنفيذي وعيّنه نائباً للأمين العام، واحتفظ لنصر الله بالمنصب الأهم الجديد وهو رئيس المجلس التنفيذي عام ١٩٩١م، وكان يقال في أوساط الحزب أن «عباس وحسن هما وجهان لعملة واحدة».

---

(١) أشرف عبد القادر، موقع إيلاف، ٤/ ٩/ ٢٠٠٦م.

زعيم حزب الله متزوج منذ العام ١٩٧٨م وكان عمره وقتها ١٨ عاماً، وزوجته «فاطمة الياسين» من قضاء صور، وله ثلاثة أولاد ذكور وبنت واحدة، ولده هادي قُتل عن عمر يناهز ١٨عاماً سنة ١٩٩٧م في عملية لمقاتلي الحزب، بالإضافة إلى محمد الجواد ٢٦ عاماً، ومحمد علي ١٦ عاماً، وزينب ٢١ عاماً(١).

كاريزما الزعيم:

جمع نصر الله في زعامته لحزبه بين شخصية رجل الدين والسياسي الفاهم والزعيم القريب من قاعدة حزبه، وقد مهّد لذلك في أوساط الحزب ثم في الطائفة لتأسيس شعبية تنامت مع الأيام ودعمتها حوادث مثل مقتل ابنه هادي في عملية عسكرية عام ١٩٩٧م.

لم يكن نصر الله نفسه متنزهاً عن ممارسة وسائل «التزعم»، فهو يمارس الخطابة بشكل متواصل وبأسلوب متنوع ومتلون يقرن ما بين التهديد والوعيد والسخرية واللطف والحدة واللين بطريقة مدروسة ـ سنتناولها لاحقاً إن شاء الله ـ، ولم يقصر الإعلام في حزبه عن مشاركته هذه الممارسات، فأُعدّت له فرق الإنشاد ومن بينها فرقة الإسراء الموسيقية التابعة للحزب والمسؤولة عن الأناشيد الحماسية التي ترسخه بطلاً وسيداً للمقاومة بلا منازع، وصيغت له هتافات من قبيل «يا ألله يا ألله، احفظ لنا نصر الله»(٢)، وأنعمت عليه بألقاب عديدة، مثل «سيد المقاومة، الأمين العام على الدماء... إلخ».

صياغة السيناريوهات البطولية بإخراج مسرحي مهيب من الأمور التي يجيدها زعيم حزب الله، مثلما فعل عندما كان مختبئاً في مكان مجهول ـ تردد أنه قصر الرئاسة في بعبدا أو مربع السفارة الأمريكية حيث حليفه المفضل عون ـ، ليخرج فجأة مبشّراً: «الآن في عرض البحر البارجة الإسرائيلية.. انظروا إليها تحترق»(٣)،

---

(١) المعلومات ـ دون التحليل ـ مستقاة من: هكذا تكلم نصر الله، الإسلاميون في مجتمع تعددي، حازم صاغية، فصول من قصة حزب الله صحيفة الحياة، العربية نت، دولة حزب الله، صحيفة النهار، ٣١/ ٨/ ٢٠٠٦م.

(٢) حازم صاغية، فصول من قصة حزب الله، ح ٥، صحيفة الحياة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٥م.

(٣) مجلة المجلة، ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

وأيضاً عندما خرج في مهرجان «انتصاره» ليحكي قصة طويلة عن اتخاذه القرار الشجاع بالمجيء لمواجهة شعبه في يوم احتفالهم بـ«نصر» الله.

ويجيد نصر الله استخدام «منظومة» اليدين والعمامة والعرق، لكي يزيد من حرارة كلماته، وقد أجاد إخراج مشهد وصول الأسرى المحررين على طائرة خاصة عام ٢٠٠٤م، وظهر بجوار رئيس الجمهورية إميل لحود، ليترك انعكاسات واضحة للرأي العام حول مكانته الحقيقية في النظام اللبناني(١).

إلا أن نصر الله يتصف ببعض السِّمات التي تضفي عليه تأثيراً قوياً وسط أتباعه، فهو جدّي ودقيق ويمتاز بالدأب، ولا توجد أدلة واضحة على فساده المالي(٢)، كما أنه يتبسط مع أبناء طائفته ويزورهم في بيوتهم، ولم يتردد في تزويج ابنته لأحد المقاتلين في الحزب «حسن قصير» وهو شقيق أول انتحاري في تاريخ حزب الله «أحمد قصير» رغم أنه من عائلة متواضعة مادياً، وقال نصر الله في توظيف مباشر لا يفوته أبداً: «أتشرف بأن أعطي ابنتي لعائلة شهيد»(٣).

وهو أيضاً ذو ذكاء حاد وقدرة على إقناع الطرف الآخر في الجلسات التنظيمية كما يذكر عارفوه، ولديه قدرة على تسويق آرائه لدى الطرف المقابل(٤).

ويحرص حسن نصر الله دوماً على أن يبدو في صيغة فوقية عند تعامله مع القيادات السياسية ـ وهو يستوحي في ذلك مكانة المرشد في إيران بالنسبة لرؤوس النظام وأجهزته ـ فهو لا يحضر بعض الاجتماعات التي يحضرها زعماء المعارضة، مثل: دعوة بري للحوار الوطني بعد عيد الفطر ١٤٢٧هـ، وحضرها بدلاً عنه ممثلون عن الحزب، والحجة معروفة سلفاً: لدواعي أمنية، ويحرص ممثلو الحزب على الحديث عن نصر الله وكأنه في مستوى فوق الجميع، وبينما يقذفون كل الزعماء السياسيين بشتى التهم، لم يتحمل أنصار «الزعيم» أن يوجه لزعيمهم نقد في برنامج تقدمه قناة «إل بي سي» المارونية ـ برنامج: بس مات وطن ـ فخرجوا

---

(١) هكذا تكلم نصر الله.
(٢) حازم صاغية، فصول من قصة حزب الله، ح ٥، صحيفة الحياة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٥م.
(٣) صحيفة النهار، ٣١/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٤) السابق.

يتظاهرون ويكسرون، وكانت القناة نفسها تمارس انتقاداً وسخرية دائمة لرفيق الحريري دون اعتراض من أحد.

التعصب ذو وجهين:

في كثير من الأحيان يصبح ما يصنفه البعض مغالاة أو تعصباً لرمز ديني أو سياسي، بمثابة مظاهر الزعامة والمحبة لدى أشخاص آخرين، وهذا ما ينطبق بدقة على شأن حسن نصر الله، فهو من جانب يوصف بالتعصب الديني، يقول حازم صاغية: «له تمثّل إيران ـ ولاية الفقيه ـ ما كانته موسكو للشيوعيين وما عليه الفاتيكان للكاثوليك، فما يربطه بها إذاً ليس العمالة بالتأكيد، بل الإيمان والعقيدة.. وفي هذا بذل الرجل كثيراً، فرأى أن: إيران القلب ونحن اليد، ولم يتردد في الانحناء، في احتفال شهير بطهران، وتقبيل يد علي خامنئي على مرأى كاميرات التلفزيون»(١)، وقد اعتبره الشيخ يوسف القرضاوي من المتعصبين دينياً(٢).

ويتحدث نصر الله عن الخميني بمبالغة واضحة لا نسمعه يتحدث بها عن النبي ﷺ، فيقول: «الإمام الذي لن تغيب شمسه على الإطلاق... سوف يبقى الحاضر الأكبر في العقل والقلب ومع الدم في الشرايين حتى تتحقق كل الأهداف العظيمة»(٣).

ولكن على الجانب الآخر، يحظى نصر الله بمحبة كبيرة من أتباعه، ويمتلك تأثيراً واضحاً عليهم، يقول أحد الشيعة المتضررين من القصف الإسرائيلي: «أؤيد السيد نصر الله، أثق به، إنه لا يقول كلمة خاطئة، يحافظ على الوحدة الوطنية ولا يريد شيئاً لنفسه... تهدّم منزل شقيقي ومنزل شقيقتي ومنزلي صار مصدّعاً، لكننا لا نريد منه إيجارات ولا منازل، نريد أن نموت من أجله فحسب»(٤).

---

(١) حازم صاغية، فصول من قصة حزب الله، ح ٥، صحيفة الحياة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٥م.
(٢) صحيفة المصري اليوم.
(٣) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٣٢.
(٤) صحيفة النهار، ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٦م.

ويتحدث عنه المسؤول الإعلامي في الحزب عبد الله قصير، بفخر ومبالغة في التقدير: «بدأت في اكتشاف شخصيّة السيّد منذ العام ١٩٨٥م، ولاحظت كم أنه شخصية قيادية متميّزة جداً... لا يكفّ السيد عن التخطيط لأي موضوع يختص بالقضية، يجيّر له طاقاته كلّها وفكره وأحاسيسه»، ويضفي قصير على زعيمه نوعاً من «القداسة» فيقول: «ففي عقيدتنا الإيمانية الشيعية الإثني عشرية أن من خلص لله ـ سبحانه وتعالى ـ أربعين يوماً وليلة يجري الله الحكمة على لسانه، أي: أنه يصبح إنساناً مسدّداً وملهماً»، ويضيف المسؤول الإعلامي: «اكتشفت مع الوقت أن السيد حسن هو من هذه الطينة في طريقة أدائه وتعاطيه الأمور»(١).

أي: أن نصر الله أصبح: مخلصاً، مسدَّداً، وملهماً، وتجري الحكمة على لسانه، وهي أوصاف تصل بمعتقدها إلى التعصب لشخص القائد الذي يتصف بالإخلاص والحكمة والسداد والإلهام، ومرة أخرى نجد أنفسنا في مواجهة ملامح العصمة، ولا غرو فـ«سماحة» السيد، هو بمثابة «نائب» نائب الزمان.

خطاب: حزب، نصر الله:

حزب الله يتبع دوماً استراتيجية معقدة فيما يتعلق بالمزاوجة بين الخطاب والأداء، بحيث يصح القول على جهة التبسيط: بأن الحزب يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول.

ويمكن من خلال تحليل خطابات وحوارات حسن نصر الله ورموز الحزب استنباط عدة أنماط متباينة تلقي الضوء على استراتيجية الحزب وزعيمه تحديداً فيما يتعلق بمنظومة الخطاب، حيث يبدو أن الخطاب موظَّف بقوة لخدمة الأداء، فهو يستخدم من قبل رموز الحزب لأجل: التمهيد أو الترويج أو التغطية أو التشويش أو التخفيف لأداء الحزب وأنشطته بطريقة مدهشة، ولا توجد صعوبة في تحليل خطاب الحزب وزعيمه؛ لأنه بواقعه حزب «صوتي» يكثر من الخطب والأحاديث والتصريحات، وكما قال نصر الله نفسه: «يمكن أكثر حزب يخطب هو حزب الله»(٢).

(١) صحيفة النهار، ٣١/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٢) حوار مع صحيفة السفير بعد انتهاء حرب تموز ٢٠٠٦م، يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، ص ٢٨٠.

ومن أبرز هذه الأنماط المتكررة للخطاب:

١ ـ الخطاب التناقضي: ففي كثير من الأحيان يكون الخطاب متناقضاً مع الفعل، فمثلاً: يركز الحزب في خطابه على التحذير من الطائفية والمذهبية، بينما أداء الحزب يرسخ الطائفية والمذهبية بقوة، سواء في استراتيجية المقاومة أو في توزيع الدعم على متضرري الحرب أو حتى في علاقته بشريكه في المعارضة حركة أمل، وهذا الخطاب التناقضي يشتّت المراقبين للحزب ويُصعِّب عليهم استنباط الموقف الحقيقي له.

٢ ـ الخطاب التحضيري أو التبريري: الذي يهيِّئ لفعل متهور ويقدم له المسوغات ويتخذ صفة التكرار، كما حدث في الوعد بتحرير الأسرى الذي ظل يتردد فترة قبل تنفيذ عملية الخطف، مع تضخيم قضية الأسرى حتى تحول إلى موقف جماهيري ملحّ، بينما لم يكن هناك سوى ثلاثة لبنانيين فقط، وهم لا يمثلون قطعا مطلباً ملحاً للرأي العام، ولكنها أصبحت كذلك بتأثير خطاب الحزب...

٣ ـ الخطاب التصعيدي: الذي يهيئ الرأي العام لأعمال تصعيدية قادمة، ويسعى بذكاء إلى إلقاء تبعة التصعيد على الطرف الآخر المتعنت، بينما يصبح الطرف الذي يتبنى هذا الخطاب مرناً، ومثاله: تهديد حسن نصر الله في إحدى خطبه بأنه بعد مرحلة معينة لن يصبح مطلب المعارضة حكومة وحدة وطنية، بل سيكون الهدف هو إسقاط الحكومة والدعوة لانتخابات مبكرة، ولن تقبل حكومة الوحدة عندئذ ولو عرضتها الحكومة، وبذلك يكون منطقياً التدرج إلى الخيارات الصعبة التي أصبح الرأي العام مهيَّأً لها.

٤ ـ الخطاب التكويني: حيث يتم تكوين مسلَّمات ذهنية لدى الرأي العام حول زعامة حزب الله، منظومة مزدوجة، مثل: التركيز على ثنائية: الوعد ـ الوفاء وتكرارها حتى تترسخ لدى الرأي العام، ويمكن استخدامها بعد ذلك كأداة سياسية للتأثير في الرأي العام ولإضعاف معنويات الخصم، وهكذا يصبح من المسلَّم به تحقق النصر؛ لأن «سماحة السيد» إذا وعد أوفى بوعده.

٥ ـ الخطاب المثالي: حيث يزعم قادة الحزب اتخاذهم لمواقف مثالية بعيداً عن السلطة والنفوذ والمصلحة، وتركيزاً لمعاني الوطنية والوحدة، مفترضاً حالات خيالية لا أساس لها من الواقع، مثل: الاستعداد لعدم التمثل في الحكومة لو نُفذت مطالب الحزب السياسية، وأيضاً فإن الحزب يحرص دوماً على إعادة صياغة أهدافه صياغة مثالية لتبدو أهدافاً وطنية لا غبار عليها، ولا تشوبها أية طائفية أو مذهبية.

٦ ـ الخطاب التلغيزي: يحرص حسن نصر كثيراً على أن يكرر لازمة ثابتة في معظم خطبه، وهي أنه يحتفظ بمعلومات ولكنه لن يكشفها في الوقت الحالي، بل في وقت قادم، وهو دوماً يعطي إيحاءات للمستمعين بأنه يمتلك معلومات أكثر مما يبوح به، كما يحرص على تلغيز خطوات الحزب القادمة، كما حدث في توقيت النزول للشارع، بحيث أصبح وكأنها مسابقة: ساعة الصفر اقتربت، ساعة الصفر حانت، النزول في أي لحظة قادمة، كما أعلن نصر الله عن خطوات قادمة لم يصرح بها لإسقاط حكومة السنيورة بخلاف النزول للشارع، ثم الإضراب الإجباري لمدة يوم.

٧ ـ الخطاب الاحتكاري الفوقي: الذي يرسخ مواقف احتكارية أخلاقية للحزب وأنصاره، مثل: احتكار المقاومة والشرف والتضحية والمصداقية، كما تعود حسن نصر في خطاباته الأخيرة على مخاطبة الحشود قائلاً: يا أشرف الناس! يا أطهر الناس!...، وهو خطاب رغم ما يبدو عليه ظاهرياً من مثالية، إلا أنه في الحقيقة خطاب طائفي بلغة لا يفهمها ولا يستقبلها إلا أبناء طائفته وحزبه؛ لأنهم هم الذي قاوموا وقاتلوا وانتصروا في حسبانه، ولن يقصد نصر الله أبداً أن يخاطب النصارى أتباع عون بأنهم أشرف وأطهر الناس، وكذا لن يخاطب أنصار أمل بذلك.

٨ ـ الخطاب التضليلي: حيث يتعمد قادة الحزب إعطاء تصريحات مرنة يكون هدفها تجاوز موقف صعب، ثم بعد ذلك يتم إثارة لبس حول فهم هذه التصريحات بعد أن تكون قد أدت غرضها، ومثال ذلك: تصريح حسن نصر الله أنه لو كان يعلم بنسبة (١٪) ردة فعل إسرائيل ما كان اتخذ قرار العملية، فبعد أن تلقفت وسائل الإعلام التصريح وعلقت عليه كما يفهم من معناه المباشر،

وتحدث الناس عن شجاعة الاعتراف، خرج نصر الله مرة أخرى ليقول: إن الناس لم تفهم مقصده.

٩ ـ الخطاب البطولي: حيث ينفذ زعيم الحزب سيناريو مسرحياً يصور من خلاله أحد أعماله أو أعمال الحزب على أنها بطولة وتضحية عظيمة، كما كان يصور للناس صعوبة اتخاذ قرار مشاركته في مهرجان الانتصار، وحكى عن النقاش والجدل بين قادة الحزب حول ذلك، حيث انتهى أخيراً إلى الإصرار على الحضور ليخاطب «أشرف الناس وأطهر الناس» وأخبر الحاضرين أن سبب تردده خوفه عليهم وليس على نفسه، ومثاله أيضاً مشهد تدمير البارجة الإسرائيلية.

١٠ ـ الخطاب الترحيلي: الذي يعلق تنفيذ الحزب لمطالب الأكثرية على تحقق أمور مبهمة تخضع لتوصيف الحزب نفسه، كما أنها ترحل المشكلة إلى المستقبل دونما أي سقف زمني، كما تحدث عن أن الحزب لن يسلم سلاحه إلا للدولة القوية العادلة، وطبعاً لا أحد يعرف مواصفات هذه الدولة تحديداً ولا كيفية إقامتها إلا الحزب نفسه.

الفصل الثاني: الحزب

أولاً: حزب الله ـ جيش شبه نظامي:

يعتبر باحثون في شؤون حزب الله أن قوته العسكرية ليست مستقلة بالمعنى الكامل، وإنما هي بمثابة أحد فروع الحرس الثوري الإيراني، قاعدته البشرية من شيعة لبنان، ويبقى التدريب والتسليح والتجهيزات العسكرية، وحتى إدارة العمل العسكري، من صلاحيات الحرس الثوري، أو على الأقل له الكلمة العليا، ونعرض فيما يلي أهم المعلومات المتوفرة عن «جيش» حزب الله في لبنان.

بداية الحرس:

قرَّر الخميني إرسال وحدات من الحرس الثوري إلى لبنان تحت غطاء المشاركة في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٨٢م، وكان الهدف الحقيقي هو بدء الجانب العسكري من تجهيز حزب الله للظهور العلني على الساحة اللبنانية، وتحديداً: إقامة «مجتمع الحرب» الذي ستُبنى عليه «ملحمة» حزب الله طيلة السنوات التالية وحتى الآن.

وعندما دخلت القوات إلى لبنان عن طريق سوريا ـ التي اشترطت عليها عدم المشاركة المباشرة في الحرب ـ تفرغت بصورة كاملة لعملية: التعبئة الجماهيرية، وبناء مجتمع عسكري، وتقوية المهارات العسكرية لعناصر الحزب القادم، وكان أفراد الحرس قد تم اختيارهم من العناصر «المعبَّأة» بمبادئ الثورة الخمينية، وكان الدعاة الخمينيون القادمون من طهران حريصين على أداء دورهم الثوري قبل العسكري؛ لأنهم يعلمون أن تسليح المجتمع بـ«الثورة» أهم من تسليحه بالعتاد، ولذلك يقول حسن فضل الله أحد الكوادر «الوسطى» في حزب الله: «أدَّى دخول الحرس إلى لبنان في الواقع إلى ثورة ثقافية؛ لأن عناصر الحرس نقلوا معهم أفكار الخميني والثورة الإسلامية إلى اللبنانيين الشيعة بالخصوص، وجذبوا بسلوكهم

وتصرفاتهم الجميع إليهم.... مما أدَّى إلى اجتذاب عطف المشاركين وإلى تأثرهم الشديد بهذا السلوك، مما جعله يمتد إلى خارج مخيمات التدريب، بخاصة أيام العطل الأسبوعية، عندما كان عناصر الحرس يتوجهون إلى القرى لتقديم المساعدة للفلاحين وللمزارعين، مما أكسبهم حب المواطنين واحترامهم، فكانوا يتدافعون للتبرك بهم مما ساهم في انقلاب روح الناس المعنوية بعد أن أصبحوا على تماس مباشر مع الثورة الإسلامية»[(١)].

ويذكر إبراهيم أمين السيد انطباعاته عن تأثر حزب الله بالحرس الثوري: «لقد نقل الإخوة الحرس من الجمهورية الإسلامية إلى لبنان، الروح الثورية والاستشهاد وخط الثورة وقيادة الإمام الخميني، إلى حدَّ أنه بدا وكأننا مرتبطون جغرافياً ارتباطاً مباشراً بالجمهورية الإسلامية، ولا نرى حدوداً تفصلنا عنها»[(٢)].

كان اضطلاع الحرس الثوري بهذه المهمة يعني: أنه سيكون له التأثير الأكبر في أداء حزب الله وتوجهاته وإدارته، يقول (ماغنوس رانستورب) الخبير في شؤون حزب الله: «الحرس الثوري الإيراني في لبنان، كان المؤسسة التي استطاع الحزب أن يعتمد عليها في أوقات الشدة؛ سواء في وجه التحدي السياسي والعسكري للميليشيات اللبنانية، أو في مقاومة الجيش الإسرائيلي، ومن قبلُ سوريا، أو مواجهة الضغوطات التي كانت تمارسها العناصر المختلفة داخل الحكومة الإيرانية»[(٣)].

ولا يعلم عدد مقاتلي حزب الله تحديداً، إذ هناك متفرغون للعمل العسكري والأمني، وهناك مقاتلو احتياط، وقدرت بعض المصادر عدد المتفرغين العسكريين بـ ٣٠٠ مقاتل، وألفي احتياط، وذكرت مجلة دير شبيجل الألمانية أن حزب الله لديه ٢٣٠٠ مقاتل، بينما يقدر عدد الأعضاء في الحزب بـ ٢٠ ألف عضو[(٤)].

(١) حسن فضل الله، الخيار الآخر، نقلاً عن الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١٢١.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٣١.
(٣) المرجع السابق، ص ١٢١.
(٤) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

وهي معلومات قديمة نسبياً، وتوحي المؤشرات بأن عدد المقاتلين أكبر من ذلك استناداً على الأقل إلى عدد من تلقوا التدريب في إيران على مدار السنوات الماضية، بالإضافة إلى المتفرغين للأعمال الأمنية واللوجستية، والحزب يدعي أن عدد المقاتلين الذين شاركوا في العمليات منذ العام ١٩٨٢م إلى عام ٢٠٠٠م هو ٨٢٠٠ مقاتل[١].

التدريب:

مرَّ تدريب عناصر حزب الله بعدة مراحل، أولها: الفترة الأولى لقدوم الحرس الثوري والذين تجاوز عددهم الألفي شخص، وكانوا يتولون فيها التدريب العسكري المباشر، بعد انتشارهم في عدد من القرى والبلدات في سهل البقاع، وأقام الحرس مركزهم الرئيس الذي أطلقوا عليه اسم «عشاق الشهادة»، وبدؤوا في استقبال المتطوعين وعقد دورات تدريبية أولية[٢]، يتم بعدها إشراك المتدربين في مهام قتالية صورية، وقد أدخل الحرس الثوري أسلوب حرب العصابات ودرَّب عليه مقاتلي الحزب، وشملت التدريبات في مرحلة الثمانينيات أساليب خطف الطائرات ونسف المنشآت، وهي التي نفذها الحزب في دول عربية أبرزها الكويت[٣].

وأما المرحلة الثانية: فهي بعد اتفاق الطائف وخروج أغلب قوات الحرس من لبنان، حيث اعتمد الحرس على ١٥٠ إلى ٢٥٠ من خيرة مدربيه، ممن بقوا في لبنان، ومنهم من تزوجوا من بنات الأسر الشيعية في الجنوب أو أرامل قتلى حزب

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٨، ويلاحظ أن الحزب يدمج ما بين المشاركين في عمليات ضد إسرائيل والمشاركين في الحرب الأهلية، وقد أعلن نصر الله في خطاب التحرير في بنت جبيل عام ٢٠٠٠م أن الحزب فقد ١٢٧٨ قتيلاً و٦٥٠٠ جريح، ويشار هنا إلى أن صراعه مع أمل استحوذ على العدد الأكبر من القتلى، إلا إذا كان الحزب يدخل ضمن عدد القتلى المعلن قتلاه مع أمل فيفهم الناس أن الجميع ضحايا المقاومة، ولا يُستبعد ذلك لما ثبت من قيام الحزب بالتدليس في أغلب المعلومات التي يوردها عن الحرب الأهلية، ويعضد ذلك تصريح نصر الله السابق ذكره أن حزبه لم يشارك في الحرب الأهلية بأي صورة، فإذا لم يكن هؤلاء القتلى من الحرب الأهلية فهم إذاً من المقاومة!

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٣) الشرق الأوسط، ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.

الله، واختاروا ألقاباً وأسماء لبنانية، ولكن بعد ١٩٩٠م قررت قيادة الحرس الثوري في طهران استبدال معظم المدربين في لبنان كل ستة أشهر، عقب اكتشاف ارتباط ثلاثة من عناصر الحرس مع الاستخبارات الإسرائيلية[١]، وذكرت تقارير أخرى أن نحو ثمانين شخصاً من استخبارات الحرس وفيلق القدس كانوا موجودين في لبنان عام ٢٠٠١م، ومؤخراً أشارت تقارير إلى أن عددهم يتراوح ما بين ١٠٠ إلى ١٣٠، بمن فيهم استخبارات الحرس[٢].

وكان يتم انتقاء بعض العناصر من الحزب وإرسالها إلى إيران لتلقي دورات تدريب خاصة في طهران وأصفهان ومشهد والأحواز[٣]، حيث شارك أكثر من ثلاثة آلاف من رجال حزب الله في تلك الدورات حتى الآن، وشملت التدريبات: حرب العصابات، وتوجيه الضربات الصاروخية، وسلاح المدفعية، وإرشاد طائرات بلا طيار، واستخدام طائرات بلا محرك ـ كايت ـ، وفنون القتال البحري، والحرب الإلكترونية، وقيادة الزوارق السريعة، والعمليات الحربية التقليدية[٤]، وتدرب حوالي مائة شخص على تنفيذ عمليات انتحارية باستخدام طائرات الكايت، وكان من بينهم عناصر من حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية[٥].

التسليح:

يتنوع سلاح الحزب إلى الدرجة التي يعتبره فيها بعض الخبراء العسكريين بمثابة جيش نظامي صغير، وهو ما ينفي عن الحزب اتباع أسلوب حرب العصابات، فهو يمارس أسلوباً قتالياً يجمع بين الحرب النظامية وحرب العصابات.

والسلاح الأهم في ترسانة حزب الله هي الصواريخ، ويمكن تصنيفها كالتالي:

المستوى الأول: القذائف الصاروخية أو ما يعرف عادةً باسم صواريخ

---

(١) الشرق الأوسط، ١٦/ ٧/ ٢٠٠٦م.

(٢) الشرق الأوسط، ٩/ ٧/ ٢٠٠١م، ١٦، ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٦م.

(٣) الشرق الأوسط، ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.

(٤) السابق.

(٥) الشرق الأوسط، ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٣م.

الكاتيوشا، وأبرز ما يمتلكه حزب الله منها نوعان: قذائف حاسب ويصل مداها إلى ٨,٥ كم، وقذائف آراش ومداها ٢٩ كم، وهي أكثر نوع تم إطلاقه على المناطق الشمالية في فلسطين المحتلة أثناء حرب تموز ٢٠٠٦م.

المستوى الثاني: القذائف الصاروخية المتطورة والتي تعرف أيضاً باسم الجيل الثالث من الكاتيوشا، ويمتلك منها حزب الله ٤ أنواع: قذائف شاهين ٢ ومداها ٣٠ كم، وقذائف إم ٢٢٠ ومداها ٣٠ كم، وقذائف فجر ٣ ومداها ٤٣ كم، وقذائف فجر ٥ ومداها ٧٥ كم، وسلسلة فجر هي صواريخ إيرانية بدعم الصين وكوريا الشمالية، ومنها صواريخ «رعد»، وهي صواريخ إيرانية الصنع، وهي تقليد لصواريخ «فرو» الروسية، ويصل مداها إلى ٧٠ كيلومتراً، وتم إنتاجها عام ٢٠٠٤م، وتبلغ نسبة دقتها في إصابة الأهداف (٧٥٪)، ويمكنها حمل عبوة متفجرة تتجاوز ١٠٠ كجم، وقد أعلنت قناة المنار أن الصواريخ التي سقطت على حيفا، هي من نوع «رعد ٢» و«رعد ٣».

المستوى الثالث: ويضم صواريخ «زلزال»، وقد ذكرت مجلة «جينز» العسكرية المتخصصة أن حزب الله يمتلك فيما يبدو ١٠٠ صاروخ إيراني من نوع «زلزال ١»، يبلغ مداها ١٥٠ كيلومتر تقريباً؛ وهو ما يعني أنه قادر على ضرب العاصمة الإسرائيلية تل أبيب، وهناك أيضاً صواريخ نازويت ١٠ أو زلزال ٢ ومداها ٢٠٠ كم، وهي لم تستخدم أيضاً في الحرب، ويقوم الحزب بتغيير أسماء صواريخ فجر وزلزال حتى لا يعرف مصدرها الحقيقي(١)، ولا تحمل هذه الصواريخ أجهزة توجيه ذاتية ولذلك تقل نسبة دقتها.

وقد تم تزويد حزب الله بقواعد صاروخية متحركة، وهي عبارة عن شاحنات متوسطة قادرة على حمل الصواريخ وإطلاقها، ويمتلك الحزب أكثر من ٤٠٠ مدفع صغير ومتوسط المدى، وراجمات صاروخية من فئة آراش ونور وحديد، كما تسلم راجمات «عقاب» العملاقة ذات القذائف ٣٣٣م، وقد أنشأت قوات الحرس الثوري

---

(١) المعلومات مصدرها مجلة جينز العسكرية المتخصصة، والمرصد الدولي للإرهاب في فرنسا، انظر: قناة العربية، برنامج (العين الثالثة)، الحرب بين إسرائيل وحزب الله هل كانت مدبرة؟ ٣/ ١١/ ٢٠٠٦م. وموقع إسلام أون لاين، ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٦م.

أول وحدة صاروخية لحزب الله في عام ١٩٨٥م، وتم تدريب عناصر هذه الوحدة في لبنان بثكنة الشيخ عبيد الله في البقاع(١).

ويمتلك الحزب صواريخ مضادة للدروع، روسية الصنع من طراز (Sagger AT-3) و(SpigotAT4)، كما أنه يمتلك صواريخ تو(TOW) أمريكية الصنع، وقد أرجع خبراء عسكريون نجاح مقاتلي الحزب في تدمير الدبابة «ميركافا ٤» والتي تعد الأحدث عالمياً، إلى استخدام نظام إيراني مطور من صاروخ «تو» و«دراجون» الأمريكي عبر إضافة حشوة مزدوجة تمكن الصاروخ من اختراق الدروع الجديدة والقوية للدبابات(٢).

وقد أعطت سوريا حزب الله أكثر أسلحتها المضادة للدبابات تطوراً التي بيعت إلى الجيش السوري من جانب روسيا، وتشمل هذه الأسلحة «متيس» و«آر بي جي ٢٩»، و «سلاح آر بي جي ٢٩» المضاد للدبابات والمدرعات ومضاد للأشخاص، غير أن صاروخ «متيس» أكثر تطوراً ويوجه بالأسلاك مع مدى أطول وسرعة أعلى ويمكنه أن يطلق ما يصل إلى أربع إطلاقات في الدقيقة، ويعتقد أن سوريا زودت الحزب بصاروخ «كورنيت» الروسي الصنع الذي يوجه بالليزر ويبلغ مداه ثلاثة أميال(٣).

وقد تسلم الحزب من إيران عدداً من صواريخ سام الروسية، أو تقليداً مصغراً عنها، ويمكن إطلاقها من الكتف وتتميز بأنها ذات توجيه ذاتي(٤)، بالإضافة إلى صواريخ بحرية طراز سي ٨٠١ وسي ٨٠٢، وهي مقلدة عن أصلها الصيني، والطراز الأول مداه ٤٠ كم ويحمل رأساً متفجراً زنته ١٠٠ كجم، والثاني مداه ١٢٠ كم ويحمل رأساً متفجراً زنته ١٨٠ كجم، وهو مزود بأجهزة تشويش تجعله يتجاوز الصواريخ الاعتراضية، وقد استخدم الحزب اثنين من هذه الصواريخ لإصابة البارجة الإسرائيلية في الحرب الأخيرة(٥).

---

(١) الشرق الأوسط، ١٦/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٢) نقلاً عن مجلة جينز العسكرية، إسلام أون لاين، ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٣) ستيفن آلانجر، ريتشارد أويل، الشرق الأوسط، ٨/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٤) الشرق الأوسط، ١٦/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٥) الإسلام اليوم، علي باكير، ٢٧/ ٦/ ١٤٢٧هـ.

ولدى الحزب وحدة الغواصين ووحدة من الكوماندوز البحري تمتلك زوارق سريعة من نوع هودونغ الصينية، قادرة على توجيه ضربات إلى أهداف بحرية[١].

وقد سلمت إيران إلى حزب الله عدداً من الطائرات بدون طيار لا يعلم عددها على وجه التحديد، وهي من طراز اسمه مهاجر ٤، وغيَّر الحزب اسمها إلى مرصاد ١، وهي تحمل ٣ كاميرات ورادار ديجيتال ونظام إرسال إلكتروني، وتستطيع التحليق على ارتفاع ٦ آلاف قدم، وتصل سرعتها القصوى إلى ١٢٠ كيلومتراً في الساعة، وتعمل إيران حالياً على طراز مطور من هذه الطائرات هو مهاجر ٦، ويمكنه الطيران على ارتفاع ١٠ آلاف قدم بسرعة ١٦٠ كيلومتراً في الساعة[٢]، وقد تم إطلاق ٤ طائرات منها في حرب تموز ٢٠٠٦م وتم إسقاطها جميعاً بطائرات إف ١٦، وكانت إحداها متجهة نحو تل أبيب وتحمل عبوة ١٠ كجم من المتفجرات[٣].

وأغلب الصواريخ ذات المدى الأبعد يحصل عليها الحزب من إيران، ويصرُّ قادة الحزب على أنهم يشترون كل هذه الأسلحة من السوق العالمية، يقول حسين الحاج حسن في حوار مع العربية: «حسين الحاج حسن: نحن لا نتزود من السلاح من أي دولة.

حسن معوض: ومن أين تأتون بالسلاح إذاً؟

حسين الحاج حسن: سوق السلاح العالمي مفتوح وأنت تعرف ذلك»[٤].

وتذكر مصادر دبلوماسية غربية أن الحزب يمارس بعض عمليات التصنيع مثل تجميع أجزاء البنادق الكلاشنكوف، وتحسين وتطوير أداء صواريخ الكاتيوشا، ويصنع قذائف مضادة للدروع آر بي جي، وهذا طبعاً تحت إشراف الحرس الثوري[٥]، ويتوقع أن مخططي الحزب لديهم تصورات عن تأمين عملية تسليح

(١) الشرق الأوسط، ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٢) الشرق الأوسط، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٤م.
(٣) مجلة الحوادث، ٩/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٤) النائب عن حزب الله، قناة العربية، برنامج (نقطة نظام)، ٢١/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٥) دولة حزب الله، ص ٣٧٦.

الحزب في حال تعرضه لحصار يعطل الإمداد الإيراني.

واعتاد زعيم الحزب حسن نصر الله أن يطلق كل فترة تصريحات حول عدد الصواريخ التي يملكها حزبه، ولكن من خلال تحليل تلك التصريحات فإنها ـ لو صدقت ـ تكون دليلاً فقط على الحد الأدنى الذي يمتلكه الحزب وليس الأقصى، وقد قال نصر الله قبل الحرب: إن الصواريخ عددها أكثر من ١٢ ألفاً، ولكن بعد الحرب قال: أكثر من ٢٠ ألف صاروخ، وقال عن الصواريخ التي أطلقت في الحرب: إنها أكثر من أربعة آلاف صاروخ، وقال نصر الله في هذا الصدد موضحاً طريقته: «عندما أقول أكثر من ١٢ ألف صاروخ، فهذا لا يعني ١٣ ألفاً بالتحديد، لأن ٢٠ ألفاً و٥٠ ألفاً هما أكثر من ١٢ ألفاً أيضاً، وبقدر ما تريدون يمكن التكهن صعوداً»[١].

ـ التجهيزات:

يعتمد حزب الله طريقة الأنفاق والمناطق العسكرية، وهي مشابهة لأسلوب الفايتكونج في فيتنام، وتقدر عدد المناطق أو النقاط العسكرية بحوالي ٧٥ نقطة عسكرية تمتد من جنوب لبنان إلى الضاحية الجنوبية لبيروت، ويتم تنظيمها في شكل وحدات مستقلة[٢].

وقد تمكَّن الحرس الثوري من استقدام المئات من المهندسين والتقنيين الإيرانيين وخبراء من كوريا الشمالية، ممن أدخلهم الدبلوماسيون الإيرانيون والعاملون في المكاتب والملحقيات التابعة لإيران في لبنان على أنهم خدم، وقام هؤلاء جميعاً ببناء حزام تحت الأرض طوله حوالي ٢٥ كيلومتراً. وكل خانة (أو ثغرة) في الحزام سعتها حوالي ١٢ ـ ١٨ متراً مربعاً، ولها أرض متحركة وسقف نصف متحرك، وكل أربع ثغرات مرتبطة مع بعضها البعض عبر ممر يدخله المقاتل بسهولة ليصل إلى ثغرة ثانية، وهكذا[٣].

كما بنى الحرس أيضاً مستودعات تحت الأرض في البقاع لتخزين الصواريخ

(١) حوار مع تلفزيون (نيو تي في)، يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، ص ٢٦٧.
(٢) قناة العربية، برنامج (العين الثالثة) الحرب بين إسرائيل وحزب الله هل كانت مدبرة؟ ٣/ ١١/ ٢٠٠٦م، العربية نت.
(٣) الشرق الأوسط، ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.

والذخائر تصل إلى عمق ٨ أمتار، وأنشؤوا نحو ٢٠ قاعدة صاروخية ثابتة في البقاع والشريط الحدودي مع إسرائيل، وهذه القواعد يغلب أنها دُمرت في الحرب بسبب ثبات مواقعها(١)، وكان مقاتلو حزب الله يستخدمون منازل ومساجد السكان السُّنة في تخزين الأسلحة والذخائر وفي إطلاق الصواريخ من أسطحها سعياً لإبعاد الرد الانتقامي عن منازل وقرى الشيعة كلما أمكن ذلك، وقد حدث هذا في أكثر من قرية سُنية بالجنوب ومنها قرية مروحين، بل كان بعض المقاتلين يتعمدون إطلاق الصواريخ من سياراتهم قرب قوافل النازحين من السُّنة حتى يتوجه الرد الإسرائيلي إلى تلك القوافل بدعوى اختفاء مقاتلي حزب الله بينهم(٢).

وأثناء القصف الإسرائيلي كانت شاحنات تابعة لحزب الله تحمل مئات الصواريخ وتدخل خلسة إلى مناطق مسيحية قريبة من الضاحية مثل المتن، وذلك بمساعدة التيار العوني، من أجل إخفائها بعد انكشاف بعض المستودعات وتفجيرها من قِبَل الطائرات الإسرائيلية، وهو ما أسفر عن تدمير عدد كبير من المنازل(٣).

- إدارة العمل العسكري:

يتركز عمل الحرس الثوري الأهم في الإشراف على وحدات الصواريخ، والتي تضم نحو ٢٠٠ فني وتقني متخصص ممن تلقوا تدريباتهم في إيران، والحزب لديه ثلاث وحدات صاروخية، يشرف عليها هيئة مكونة من ٢٠ شخصاً(٤).

كما يدير أربعة من ضباط الحرس غرفة عمليات مركزية في البقاع بالمشاركة مع أربعة من حزب الله، ويوجد لكل منطقة غرفة عمليات وقيادة(٥)، وقد أكدت مصادر أمنية مصرية وأردنية مشاركة الحرس الثوري في إدارة حرب يوليو ٢٠٠٦م.

ويوجد حوالي عشرين خبيراً في مجال الرصد والتنصت والاستطلاع من ضباط الحرس الذين يديرون مراكز الرصد الأربعة الرئيسية في الجنوب

(١) الشرق الأوسط، ١٦/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٢) انظر: مفكرة الإسلام، ماذا صنع حزب الله بقرىٰ أهل السنة في الجنوب؟
(٣) موقع الكتائب اللبنانية، ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٤) الشرق الأوسط، ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٥) المرجع السابق.

والبقاع[١]، ويقوم رجال الحرس عادة بسحب الصواريخ وإخفائها في المستودعات عند الشعور بالخطر عليها كما حدث في الحرب الأخيرة، وكان يتم إخفاؤها أحياناً في مستودعات مؤقتة تجنباً لسهولة قصفها من الطائرات الإسرائيلية.

وقد قتل عدد من رجال الحرس في الحرب قدر عددهم من ٦ إلى ٩ أشخاص، وتم نقل جثثهم إلى إيران من خلال عملية تمويهية مع الآلاف اللبنانيين الذين نزحوا إلى سورية هرباً من تبعات القصف المتبادل[٢]، وكان الحزب قد نفى تلقيه أي نوع من الدعم من إيران خلال إطلاقه الصواريخ على شمال فلسطين.

وقد صرَّح نصر الله بأنه لا يتخذ قرارات عسكرية مهمة، مثل: «عملية خطف الجنديين الإسرائيليين» بمفرده، «فهناك قيادة سياسية وعسكرية خبيرة تتألف من ١٥ شخصاً تقريباً»[٣].

ثانياً: المخابرات والأمن:

درج حسن نصر الله في خطبه على ذكر معلومات أمنية واستخباراتية بالغة الخطورة، ودون أن يحدد مصدرها، فهو يتحدث عن اجتماعات واتصالات سرية للسفير الأمريكي مع قادة الأغلبية، وعن مكالمات وتعليمات سرية عاجلة متبادلة بين الأكثرية النيابية، كما ينقل معلومات مستقاة من لقاءات سرية بين أشخاص معارضين له، وهذه المعلومات التي يذكرها نصر الله باعتبارها ذات مصداقية لا يرقى إليها الشك، تشير إلى وجود جهاز أمني قوي يقدم خدماته إلى حزب الله، وهذا الجهاز ليس لبنانياً خالصاً، بل هو ثمرة تعاون استخباراتي سوري إيراني مع حزب الله يمتد سنوات طويلة.

وعندما اضطرت القوات السورية للانسحاب من لبنان، تم إنشاء جهاز مخابرات مشترك يضم شبكة العملاء السوريين والتي كانت تابعة للواء جميل الأسد، بالإضافة إلى ضباط الحرس الثوري الإيراني مع رفاقهم من حزب الله[٤].

---

(١) الشرق الأوسط، ٩/ ٧/ ٢٠٠١م.
(٢) الشرق الأوسط، ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٣) حوار مع تلفزيون (نيو تي في)، يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، ص ٢٦٦.
(٤) مجلة الوطن العربي، ٩/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

ويدّعي حزب الله ـ رغم سماحه بتسرب الإشاعات عن قوة نظامه الأمني ـ أن جهازه الأمني مخصص فقط للتعامل مع الإسرائيليين ولحماية المقاومة، يقول نعيم قاسم في حوار مع العربية: «شوفي يا ست جيزال، نحنا لأن اهتمامنا بالموضوع الإسرائيلي إمكاناتنا، معلوماتنا، تنصتنا، كل الأمور اللي نحنا عم نشتغل فيها منصرفة للموضوع الإسرائيلي»(١).

ويتناقض هذا التصريح مع طبيعة المعلومات التي يذكرها نصر الله في خطبه والتي لا علاقة لها بالعدو الصهيوني، بل هي شؤون داخلية، والغريب أن نعيم قاسم رغم إصراره على التقيّة في هذه القضية، إلا أنه يذكر في الحوار نفسه إشارات توحي بقوة ذلك الجهاز واستعداده للعمل داخلياً بطلب من الحكومة، ما يعني امتلاك حزبه قدرة «إعارة» في مستوى تقديم خدمات للدولة، يقول: «مرة طرح سماحة السيد عبر وسائل الإعلام إنه إذا الدولة تعتبر إنه هيّ بحاجة لخبراتنا بالموضوع خليها تقول بشكل رسمي... يعني يأخذوا قرار بمجلس الوزراء إنه نحنا والله بدنا منكم ٥٠٠ عنصر، ١٠٠٠ عنصر يشتغلوا بالموضوع الداخلي ونحنا نساعدهم بالموضوع»(٢) فهل تبلغ قوة ذلك الجهاز لدرجة أن الحزب يمكنه إعارة ١٠٠٠ عنصر إلى الدولة، ودون أن يتأثر عمل الجهاز الأصلي بالطبع؟!

والجهاز الأمني لحزب الله ـ والذي يتبع نصر الله مباشرة ـ ليس قوياً وكبيراً فقط، بل هو على مستوى الأداء يمتلك كفاءة كبيرة وفعالية عالية، ويشير حسن صبرا إلى ذلك بقوله: «ليس في لبنان من لا يعرف أن أمن حزب الله كان أول جهاز أمني في لبنان يصل إلى مكان جريمة اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري في الساعة الواحدة إلا خمس دقائق من بعد ظهر الاثنين في ١٤ / ٢ / ٢٠٠٥م» ولكن هذه الكفاءة لم تكن فقط في سرعة الوصول، لكن أيضاً كفاءة التنفيذ، ويتهم صبرا الجهاز الأمني للحزب بأنه شارك في عملية اغتيال الحريري، ويقول: «ليس في لبنان من لا يعرف أن ترتيب اغتيال الرئيس الحريري ورفاقه تم في أحد

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) المرجع السابق.

مباني حي معوض في الضاحية الجنوبية حيث كلها تحت القبضة الأمنية الشاملة لحزب الله»(١).

ويشير وليد جنبلاط إلى معنى مشابه بالقول: «لا أستطيع أن أقتنع بأن أمن حزب الله لا يستطيع أن يرصد في أوج الوصاية السوريّة ـ أي: في وضع أمنيّ رُكّب لمصلحته آنذاك ـ سيّارة محمّلة بألف كيلوغرام من المتفجّرات وسيارة مفخّخة لاغتيال مروان حمادة»(٢).

ولا تنبع إمكانات الحزب الأمنية من جهازه الخاص فقط، ففوق المحاصصات الطائفية ناضل حزب الله لكي يتغلغل في الجيش وفي قوى الأمن، ويعتبر حزب الله إلى حدٍّ كبير مسيطراً على جهاز الأمن العام من خلال مديره وفيق الجزيني الموالي للحزب ولحركة أمل، وقد أدَّى تغلغل الحزب الأمني والممتد منذ عهد الوصاية السورية، أن يحاول فريق الأكثرية كسر هذه السيطرة الأمنية، فقام وزير الداخلية بالإنابة أحمد فتفت بتنفيذ مشروع لتبادل المعلومات الأمنية بين مختلف الأجهزة الأمنية بناء على ربط إلكتروني يتيح لكل جهاز الاستفادة من معلومات باقي الأجهزة وهي: الأحوال الشخصية، وإدارة السير والمركبات وفرع المعلومات الذي تسطير عليه الأكثرية وشؤون اللاجئين الفلسطينيين، ولكن المشروع أثار حزب الله وأمل وجعلهم يلوحون بـ«الطائفية والمذهبية» كالعادة، ورفضوا أن يشاركهم أحد في كنز المعلومات المتوفر لديهم(٣)، وتذكر تقارير صحفية أن الأمن العام يقدم للحزب خدمة كبيرة في مجال تسهيل الحصول على الأسلحة الإيرانية المهربة للحزب(٤).

وكان الحزب يتلقى معلومات هائلة أثناء فترة النفوذ السوري تصله من كافة الأجهزة الخاضعة للسيطرة السورية، وهي معلومات متعلقة بكل ما هو ساكن ومتحرك في لبنان، وقد ورث الحزب شبكة من العملاء المباشرين أو المتسترين

(١) مجلة الشراع، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) حوار مع صحيفة المستقبل، ٢١/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٣) مجلة المجلة، ديانا سكيني، ١/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٤) الشرق الأوسط، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

بشركات أمنية أو عمال نظافة، وقام بتدعيمها وتقويتها لتصير متغلغلة في كافة الأجهزة والمؤسسات والنقابات والهيئات في لبنان(١).

ومن أبرز تلك المعلومات: قوائم المسافرين والقادمين عبر مطار رفيق الحريري الدولي في بيروت، والتي يحصل عليها الحزب إذا أراد عن طريق عملائه، ويعمل في مطار ومرفأ بيروت عدد كبير من الموظفين تابعين لحزب الله وحركة أمل يشرفون على عمليات الدخول والخروج والشحن والتدقيق في المسافرين وحمولات الطائرات والسفن، وتؤكد جهات أمنية تابعة لتيار ١٤ آذار أن أجهزة المطار والمرفأ الخمسة: الجيش، وجهاز أمن المطار، والأمن العام، وقوة الأمن الداخلي، والجمارك،بالإضافة إلى الاستخبارات وأجهزة الاستقصاء وجمع المعلومات السرية، كلها ما زالت على ما هي عليه منذ العهد السوري في لبنان دون أن يتمكن فؤاد السنيورة وقوى ١٤ آذار الداعمة له من تغيير مسؤول واحد في هذه الأجهزة المخترقة(٢).

وتتجمع كافة المعلومات لتصل «في تقرير يومي بعشرات الصفحات وربما أكثر إلى حسن نصر الله الذي يعطيها جزءاً مهماً من وقته الثمين، مستعيداً فيها قدرته على التحليل الأمني - السياسي كمختص بدأ حياته في جهاز أمني ثم أصبح رئيسه، وظل هذا الجهاز تحت سيطرته الكاملة ليتمكن عبره من الاستمرار أميناً عاماً لحزب الله لنحو ١٥ سنة متتالية دون منازع أو شريك»(٣).

ويعتمد حزب الله في نظامه الأمني، ليس على جهازه الخاص فقط، بل ويجيش أنصاره جميعهم في منظومة متكاملة لأداء خدمات أمنية للحزب، خاصة في الضاحية الجنوبية، «فهو مثلاً يوزّع بقدر من الخفاء عناصره على مداخل الأحياء التي يقطنها قادته وكوادره مما يُصطلح على تسميته «المربّعات الأمنية»، أما الشوارع الداخلية فتتم السيطرة عليها عبر العائلات المنضوية فيه، حيث تتحول كل واحدة

---

(١) مجلة الشراع، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) السياسة الكويتية، ١٠/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٣) حسن صبرا، المرجع السابق.

منها وحدةً أمنية، ودمج كهذا للبُنيات العائلية في البنية الحزبية يوشّح القمع برداء أهلي يتيح للسكان قدراً ملحوظاً من الشعور بالحرية والمبادرة»[١].

ويحظى التعامل مع قادة الحزب بإجراءات أمنية مشددة، يقول (ماغنوس رانستورب): «اللقاء يجري في واحد من خمسة أو ستة مكاتب لحزب الله جنوب بيروت منطقة خارج نطاق الشرطة اللبنانية، في هذه الأحياء يميزون فوراً الغريب أياً كان، وكل من يبدو مشبوهاً يتم فحصه فوراً، المكاتب نفسها غير موسومة بأية يافطة، وكبار مسؤولي حزب الله يدخلون إليها من أبواب خلفية»[٢].

ويفتخر أنصار حزب الله بإمكاناتهم في استخدام تقنيات متقدمة في أعمال الأمن، ومن ذلك قيام الجهاز الأمني للحزب بتدبير نقل كلمة نصر الله للمتظاهرين في ساحة رياض الصلح عن طريق شبكة معقدة من الموجات ونقاط إعادة البث المنتشرة في أكثر من مكان وباستخدام جهاز «ميكروويف لينك» لبثٍّ موجة ضعيفة لا يمكن تتبعها عن طريق القمر الصناعي، وتحتاج إلى عمل أرضي استخباراتي، ومن ثم يتم إعادة توزيعها عن طريق نقاط متعددة بحيث لا يمكن رصد المكان الحقيقي الصادرة منه، أي: مقر حسن نصر الله[٣].

وحتى لو سلّمنا بأن حسن نصر الله مطلوب حياً أو ميتاً بهذه الصورة، فإن هذه التقنيات العالية الجودة والإمكانات الخطيرة، بالإضافة إلى ادعاء التخصص في مواجهة العدو الإسرائيلي فقط، هذه كلها تثير بواعث من الريبة حول وجود دور محتمل للحزب أو للأجهزة المتعاونة معه في اغتيال الحريري، والتي لا شك تملك أجهزة وتقنيات أكثر حداثة، تجعلها على الأقل تستشعر نوايا إسرائيل باغتيال الحريري كما يذكر بعض قادة الحزب، ولكن هذا لم يحدث.

وعلى الجانب الإسرائيلي فإن الحزب بمساعدة إيرانية سورية تمكّن من تكوين شبكة قوية من العملاء من خلال توظيف بدو النقب في فلسطين وتجار المخدرات من

---

(١) حازم صاغية، مقال: فصول من قصة حزب الله ح ٣، ٦/ ٥/ ٢٠٠٥م، صحيفة الحياة.

(٢) مقال: لغز حسن نصر الله، المحلل الإسرائيلي عوفر شيلح، صحيفة يديعوت أحرونوت، مرجع سابق.

(٣) موقع إنباء الإخباري الشيعي، ٩/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

الجانبين، وقد كشفت السلطات الصهيونية في سبتمبر عام ٢٠٠٢م عن خلية تجسسية خطيرة تتكون من ١٠ أفراد من البدو وأحدهم يعمل ضابطاً في جيش العدو واسمه عمر الهيب، وكان يعمل لحساب حزب الله عن طريق تاجر مخدرات لبناني يعمل وسيطاً، ونقل الضابط معلومات عسكرية تتعلق بخرائط وتحركات لقادة عسكريين(١).

وقد اعترفت مصادر إسرائيلية أن وحدة الهندسة التابعة لحزب الله تمكنت من اختراق اللاسلكي التابع لجيش الاحتلال واستمعت إلى الأحاديث التي دارت بين الجنود والضباط في أرض المعركة، لافتة إلى أن هذه الوحدة على مستوى عالٍ ورجالها يجيدون اللغة العبرية بطلاقة.

وتحدثت معاريف الإسرائيلية عن كتيبات معلومات عسكرية وأمنية عن الكيان يستخدمها مقاتلو حزب الله وتم العثور عليها في بعض المواقع أثناء الحرب، وهي تحتوي وصفاً مفصلاً ودقيقاً عن الجيش الإسرائيلي وعن كل وحداته وطرق التعرف عليها من خلال رموزها، وخاصة الوحدات السرية التي لا تتوفر عنها معلومات، وكذلك معلومات عن الاستخبارات العسكرية (أمان)، ويتناول فصل كامل أنواع الأسلحة التي يستخدمها الجيش الإسرائيلي، من أبسط الأسلحة حتى الأسلحة الخاصة المتطورة.

وهو ما جعل أحد الضباط الكبار في الجيش الإسرائيلي يقول: «لقد وصلت إلينا معلومات استخباراتية كثيرة، ونعمل على دراستها، توجد كراسات فيها معلومات تقلقنا، لأسفي الشديد، وقد أشعلت المعلومات التي وصلت إلينا الأضواء الحمراء»(٢).

كل هذه الإمكانات والمعلومات عندما يتم إيرادها في سياق إمكانات حزب محدودة مهما تطورت، تثير الدهشة والإعجاب، ولكن عند مقارنتها بما تمتلكه دول مثل سوريا وإيران من أجهزة استخباراتية ومعلومات تفصيلية عن الجيش

---

(١) إسلام أون لاين، ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٦م.
(٢) صحيفة القدس العربي، ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٦م.

الإسرائيلي، يبدو الأمر طبيعياً جداً، ولا يوجد أي سبب يجعل كلتا الدولتين لا تقدمان ما لديهما في هذا المجال للحزب، مع الشكر مقدماً.

ثالثاً: النظام الداخلي ـ القادة والمسؤولين:

تطور الهيكل التنظيمي لحزب الله منذ نشأته عام ١٩٨٢م حتى الآن ليعبر عن قدرة تنظيمية كبيرة مكنت الحزب من تجاوز عدد من الأزمات التي أحاقت به، وقد بدأ الحزب بهيكلية تنظيمية سرية في سنواته الأولى، ثم تم الإعلان عن الحزب رسميا في عام ١٩٨٥م من خلال بيان إبراهيم أمين السيد الذي وصف وقتها بأنه الناطق باسم الحزب، فيما كان الأمين العام الأول.

عقد مؤتمر الحزب الأول في أكتوبر ١٩٨٩م وانتخب فيه تسعة أعضاء في مجلس الشورى، وهم: صبحي الطفيلي، عباس الموسوي، حسن نصر الله،حسين كوراني، نعيم قاسم، محمد يزبك، محمد رعد، محمد فنيش، محمد ياغي، وتم انتخاب الطفيلي أميناً عاماً، ونعيم قاسم نائباً للأمين العام، وحسن نصر الله رئيس المجلس التنفيذي، ومحمد فنيش رئيساً للمكتب السياسي.

وكان هناك عدة مجالس أساسية داخل الحزب، وهي: المجلس التنفيذي، والمكتب السياسي، ومجلس قضائي، ومجلس جهادي، ويتألف المجلس التنفيذي من أقسام إدارية متعددة تعنى بشؤون العمل الاجتماعي والمالي والمهني والتعليم والصحة والإعلام، وتشرف على المناطق الثلاث: البقاع وبيروت والجنوب، ويكون مسؤول المنطقة هو المتصل بالمجلس التنفيذي، ويكون لكل منطقة مجلس شورى يشرف على احتياجاتها وسياسة الحزب فيها.

وفي المؤتمر الثاني اتخذ قرار بتخفيض عدد أعضاء مجلس الشورى إلى سبعة بدلاً من تسعة، وتمت تنحية الطفيلي من منصب الأمين العام قبل أن يكمل فترته بعدة أشهر، وانتخب عباس الموسوي أميناً عاماً، وبعد اغتيال الموسوي انتخب نصر الله أميناً عاماً في فبراير عام ١٩٩٢م، ومددت الولاية من سنتين إلى ٣ سنوات، ثم تم التمديد المفتوح لنصر الله في مؤتمر لاحق للحزب.

في المؤتمر الثالث تم انتخاب أعضاء الشورى، وهم: حسن نصر الله، نعيم قاسم، محمد يزبك، هاشم صفي الدين، حسين خليل، محمد رعد، عبد الله قصير، وتم تعيين هاشم صفي الدين مسؤولاً عن المجلس التنفيذي، وهو من رجال الدين الشباب الذين تعلموا في قم، وتم إنشاء مجلس التخطيط الذي ضم عدداً من الأعضاء القدامى وتولى رئاسته حسين الموسوي، ولكنه ألغي بعد سنوات، وسمي المكتب السياسي بالمجلس السياسي، وتولى رئاسته محمد رعد.

ويتبع الأمين العام مباشرة: المجلس الجهادي، ويتكون من الجناح العسكري، والأمن، كما يتبعه نائب الأمين العام، والأمانة العامة.

وبذلك تكون المجالس الأخرى التابعة لرئاسة الأمين العام: التنفيذي، السياسي، القضائي، النيابي، والتخطيط.

ويترأس المجلس السياسي إبراهيم أمين السيد، ويشمل ملفات: الأحزاب الإسلامية، الأحزاب الوطنية، الأحزاب المسيحية، المنظمات الفلسطينية، الإعلام، الإذاعة والتلفزيون، وحدة النقابات والعمال، ووحدة المهن الحرة، وحدة العلاقات الخارجية...

والمجلس الجهادي يضع السياسة العامة للمقاومة تحت إشراف الأمين العام، ويضم المسؤولين العسكريين، ويضم المجلس عضوية كل من: رئيس المجلس التنفيذي، المسؤول العسكري، مسؤول الأمن، وممثل من الشورى، وتم تشكيل مجلس للعمل البرلماني، يضم النواب السابقين والحاليين(١).

من يتحكم - نظامياً - بحزب الله هو مجلس الشورى، الذي يبلغ عدد أعضائه سبعة، وتؤكد المعلومات الاستخبارية أن من بينهم اثنين من إيران، وفي المجلس عماد مغنية ويترأس مجلس الجهاد ويعتبر بمثابة نائب للأمين العام، وإن كان دوره القيادي متشعباً في المجال العسكري بسبب روافد مغنية القوية مع الأجهزة الإيرانية مباشرة نتيجة تنقلاته المستمرة، ومن ضمن أعضاء الشورى رؤساء المجلس الاجتماعي

---

(١) انظر: كتاب الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ١٨٨ - ١٩٢ - ١٩٣ - ٢٠١ إلى ٢٠٤.

والعسكري والسياسي، وحسن نصر الله الأمين العام[١].

وللحزب مركز دراسات متخصص هو: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، يرأسه الدكتور علي فياض الذي يلقبه البعض بأنه «منظر حزب الله»[٢].

وقد شغل منصب الأمين العام للحزب بعد إبراهيم السيد، ثلاثة أشخاص: صبحي الطفيلي انتخب عام ١٩٨٩م وتمت تنحيته عام ١٩٩١م، عباس الموسوي انتخب عام ١٩٩١م واغتيل بعد أشهر قليلة، ليتم تعيين حسن نصر الله عام ١٩٩٢م وحتى الآن.

وهذه القيادات العلنية لحزب الله، وإن كانت الأنظمة واللوائح تبين أنهم من يتخذون القرار دون تدخل خارجي، إلا أن الواقع والشواهد والمُشاهَد، أن قرارات الحزب -المهمة على الأقل- يتم اتخاذها وفق آلية أخرى غير معلنة، وليس هذا بغريب، فقد كانت الثورة الإيرانية في بداياتها تُدار من طرف خفي لا يعلمه أحد، ولم يكن أعضاء مجلس الثورة معروفين إلا للقلّة.

وتوجد داخل الحزب قيادة أمنية لها تحكم كبير، ويقول وضاح شرارة: «للوجه الأمني أو للقيادة الأمنية الخفية دور بارز اضطلعت به، وما زالت تضطلع به، من غير أن يعقل إشراف المؤتمر العام عليها، فمعظم العسكريين -في حزب الله- وكل الأمنيين لا يُرون، لا على المنابر؛ حيث يخطب السياسيون الظاهرون من غير كلل ولا ملل، ولا في الحملات الانتخابية أو في التظاهرات والمؤتمرات، وهذا الجزء من نشاط الحزب الخميني لا زال يتعاظم منذ أوائل العقد العاشر»[٣].

ويبرز من بين القيادات الأمنية الخفية للحزب -حسب مجلة الشراع القريبة من حركة أمل- عماد مغنية، وصهره مصطفى بدر الدين الذي كان معتقلاً في الكويت

---

(١) انظر مجلة الوطن العربي، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٦م، تحقيق: الكونجرس يناقش ذراع حزب الله العالمية - دولة حزب الله، ص ٣٣٧.

(٢) حزب الله حقائق وأبعاد، ص ٥٠.

(٣) دولة حزب الله، ص ٣٣٧.

لتنفيذه محاولة اغتيال لأمير الكويت، وإبراهيم عقيل[١].

كما يلعب السفراء الإيرانيون في بيروت دوراً كبيراً في اتخاذ القرارات، وأغلبهم من الحرس الثوري أصلاً، وقد أدى اتفاق الطائف إلى تواري رجال الحرس الثوري عن الأنظار، كما أنه من المعروف وغير المنكر لدى حزب الله أن عيسى الطبطبائي كان يشغل منصب رئيس مؤسسات إيران في لبنان، وهي لجنة الإمداد، ومؤسسة الشهيد، ومؤسسة جهاد البناء وغيرها، وكان الطبطبائي يشرف على إعداد كوادر حزب الله وتدريبهم وترقيتهم، وكان موجوداً في لبنان منذ العام ١٩٧٤م[٢].

وذكر حسن نصر الله أن الحزب من حيث التسلسل القيادي لديه «أربعة مستويات وصولاً إلى المجاهدين»[٣]، وزعم أن من قُتل في حرب تموز كان ثلاثة من المستوى التنظيمي الثالث، بالإضافة إلى المستوى الأخير، بينما لم يقتل أي من المستويين الثاني والأول، كما أشار إلى أن الحزب يفصل بين الجهاز العسكري وبنيته التنظيمية، وبين الجهاز السياسي الشعبي[٤].

ويقوم الحزب بمراجعة تنظيماته وأجهزته من خلال مؤتمر داخلي، ويقوم بتعديل ما يراه قادته مناسباً مع تطورات الأحداث الداخلية والدولية[٥]، ويُعقَد المؤتمر العام كل ثلاث سنوات، ويضم الكوادر الأساسية وأعضاء المجالس المركزية ـ ٣٠٠ عضو ـ، وينتخب المؤتمر مجلس الشورى، ثم يتولى المجلس انتخاب الأمين العام ونائبه والمسؤولين الأساسيين، ويحق للأمين العام تجديد ولايته[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٥.
(٢) السابق، ص ٣٣٧.
(٣) حوار مع تلفزيون (نيو تي في)، ويوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، ص ٢٦٧.
(٤) حوار حسن نصر الله مع صحيفة السفير، ٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٥) المرجع السابق.
(٦) أيمن المصري، إسلام أون لاين، ١١/ ٧/ ٢٠٠٥م.

ومن أبرز مسؤولي الحزب:

- نعيم قاسم: نائب الأمين العام منذ عام ١٩٩١م، ولد عام ١٩٥٣ في بلدة كفر فيلة في جنوب لبنان، دراستهُ الدينية وتعمقه بالتعليم الحوزوية تزامناً مع دراسته الجامعية، إذ حصل على شهادةٍ في الكيمياء وهي المادة التي درّسها لاحقاً في الصفوف الثانوية، وظهر قاسم كقيادي بارز منذ أن عمل مع موسى الصدر في بداية تأسيس حركة المحرومين قبل أن يساهم في تأسيس حزب الله عام ١٩٨٢م، ويتولى متابعة العمل النيابي في الحزب، ويظهر دائماً كواجهة الحزب الإعلامية[١]، وصلاحياته أقل من صلاحيات رئيس المجلس التنفيذي، وله كتاب يمثل رؤية الحزب اسمه «حزب الله، المنهج التجربة المستقبل».

- هاشم صفي الدين: رئيس المجلس التنفيذي، المنصب الأهم بعد الأمين العام، وهو منصب نصر الله قبل تسلّمه الأمانة العامة.

- إبراهيم أمين السيد: رئيس المجلس السياسي.

- محمد يزبك: عضو شورى الحزب ووكيل شرعي للمرشد الإيراني.

- محمد رعد: رئيس كتلة الوفاء للمقاومة في البرلمان، الممثلة لحزب الله.

- الحاج حسين خليل: المعاون السياسي للأمين العام.

- النائب حسن فضل الله: عضو كتلة الوفاء، وكان يعمل مدير الأخبار في قناة المنار.

- محمود قماطي: عضو المجلس السياسي.

- غالب أبو زينب: عضو المجلس السياسي، ومسؤول العلاقات المسيحية.

- نبيل قاووق: مسؤول الجنوب في الحزب.

- حسين رحال، حسن عز الدين، عبد الله قصير: المسؤول الإعلامي.

- عبد الله صفي الدين: ممثل الحزب في إيران.

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤م، العربية نت.

- د. بلال نعيم: معاون رئيس المجلس التنفيذي ومسؤول إعادة الإعمار.

- نواف الموسوي: عضو المجلس السياسي، كان مسؤول الملف المسيحي، وهو حالياً مسؤول العلاقات الدولية.

- النائب محمد فنيش: وزير الطاقة المستقيل.

- حسن حمادة: مدير عام مؤسسة الشهيد.

- د. علي فياض: مدير عام المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق.

- حسن حدرج: عضو المجلس السياسي ومسؤول الملف الفلسطيني.

- مصطفى قصير: مدير عام مدارس المهدي.

- إبراهيم إسماعيل: مدير عام مؤسسة جهاد البناء.

- عبد الحليم فضل الله: نائب رئيس المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق.

رابعاً: حزب الله من الداخل:

- مكونات الحزب:

بعد اختفاء موسى الصدر عام ١٩٧٨م في ليبيا، تعرضت حركته لهزات متتالية أفقدتها مكانتها وتفردها داخل الطائفة الشيعية في لبنان، وفي ذلك الوقت كان حسين فضل الله يمارس نشاطه السري من خلال مجموعات حزب الدعوة التي أسسها برعاية باقر الصدر، ثم من خلال ما سُمّي تمويهاً بـ (اتحاد الطلبة المسلمين)، وكانت توجد مجموعات شيعية متفرقة متعصبة دينية بدرجات متفاوتة، بالإضافة إلى مجموعة إيران الخمينية التي بدأت تتبلور منذ نهاية السبعينيات، ويمكن تحديد أهم المجموعات التي تشكل منها حزب الله عام ١٩٨٢م في التالي:

١ - بعض قوات الحرس الثوري التي أرسلها رافسنجاني للمساهمة في مواجهة قوات الاحتلال الإسرائيلي والتي انضمت إلى وحدات سابقة كان أرسلها محمد منتظري - ابن آية الله حسين منتظري - في مطلع الثورة الإيرانية مستفيداً من وجوده في لبنان.

٢ ـ بعض المنشقين عن حركة أمل، وقاد حسين موسوي الانشقاق تحت غطاء مشاركة نبيه بري زعيم أمل بعد اختفاء الصدر في اجتماعات هيئة الإنقاذ اللبنانية التي شكلت لبحث قضية الاحتلال وبرعاية أمريكية، وكان الانشقاق بترتيب مع مسؤولين في إيران.

٣ ـ فلول حزب الدعوة الذي تأسس في العراق ثم انضم بعضهم إلى حركة أمل.

٤ ـ لجان دعم الثورة الإسلامية التي كان قد كوَّنها شيعة الجنوب.

٥ ـ تجمّع العلماء الشيعة.

٦ ـ بعض الشخصيات المستقلة(١).

وتُوضح هذه التركيبة المعقدة أنها جمعت من الناحية الفكرية عدة تيارات متداخلة: تيار يحمل أفكار موسى الصدر، تيار يحمل أفكار باقر الصدر من خلال حزب الدعوة، تيار يحمل أفكار الخميني، تيار يحمل أفكار حسين فضل الله، وتيارات لا تتبنّى رؤية فكرية محددة.

وكانت هذه التيارات متلاقية مع هدف واحد وهو البحث عن تنظيم جديد بديل لحركة أمل، وكانت إيران تمارس دوراً أساسياً في نظم حبات العقد المختلفة، بحيث أن تواجد الحرس ـ بصورة غير معلنة ـ داخل التنظيم منذ بدايته، جعل إيران تمثل عامل التوازن والدمج الأساسي داخل الحزب، فكان الولاء لإيران هو العنصر الأكبر الذي يجعل هذه التيارات المتفاوتة فكرياً تتجمع مع بعضها سياسياً ودينياً، وهي نقطة يمثل إدراكها أهمية كبيرة في تحديد سيناريوهات المستقبل أمام حزب الله، كما تبين أن الشيء الوحيد الذي يتفق عليه من يبقون داخل الحزب هو الولاء لإيران ـ ولاية الفقيه ـ، والشيء الوحيد الذي يدفع بالبعض خارجه، هو: تراجع الولاء لإيران.

يقول د. مسعود إلهي: «إن الحضور المكثف لإيران في لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي في حزيران من العام ١٩٨٢م، مهّد الأرضية لاندماج مجموعات

(١) بتصرف عن صنع القرار في إيران، ص ٢٤٠.

إسلامية شيعية صغيرة، وتأسيس تنظيم موحد باسم حزب الله اللبناني، وقد أظهر هذا التنظيم استعداده الفائق لاستيعاب تعاليم الثورة الإيرانية والإيمان بقيمها، وبرز في مدة قصيرة كأحد أهم إنجازات سياسة تصدير الثورة»[١].

وقد ضمت إجراءات تأسيس الحزب الأولية لقاءات عام ١٩٨١م بين علي أكبر محتشمي بور سفير إيران في دمشق، وعماد مغنية، وحسين موسوي، وعباس الموسوي، عقد أولها في دمشق، ثم سافر الجميع إلى طهران حيث اجتمعوا في مكتب حركات التحرر التابع للحرس الثوري في طهران، حيث وضعت اللبنات الأساسية للتنظيم[٢].

أدوات السيطرة:

كان يلزم للحزب الوليد أن يمتلك أدوات للسيطرة المطلقة على أتباعه حتى يستطيع قيادتهم وتحريكهم وسط أمواج متلاطمة ما بين الطائفة الشيعية المترقبة، والطوائف الأخرى الغارقة في حرب أهلية، واستخدم مؤسسو الحزب الإيرانيون استراتيجية متعددة الأبعاد لإحداث الأثر المطلوب، وتشمل:

١ - استنساخ تجربة موسى الصدر في إقامة مؤسسات اجتماعية تتركز مهمتها في رعاية عناصر الحزب وعائلاتهم، والتغلغل داخل الطائفة الشيعية لحشد الأنصار، وكان أبرزها: «مؤسسة الشهيد» **١٩٨٣**م، و«جهاد البناء» **١٩٨٤**م، و «الهيئة الصحية العالمية» **١٩٨٥**م، و «جمعية الإمداد» **١٩٨٧**م.

٢ - تأسيس منظومة تعليمية دينية تتولى حشر الأفكار الثورية في العقول وتخريج أجيال من رجال الدين «الثوريين» الذين سيحملون عبء «التعبئة» الدينية والسياسية داخل الشيعة لحساب ولاية الفقيه التي تحولت إلى فارق بين الحق والباطل، أو حزب الله وحزب الشيطان.

٣ - عسكرة المجتمع الشيعي من خلال فتح باب التطوع لمقاومة «هلامية» غير محددة الأبعاد، من خلال تنفيذ عدد هائل من دورات التدريب العسكرية.

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣١٥.
(٢) دولة حزب الله، ص ٣٧٥.

٤ ـ تأسيس منظومة إعلامية تحمل أفكار المؤسسين وتروج لرموز الثورة الخمينية وتضمن «الولاءات» وتُجَنِّب «اللاءات»، فظهرت إذاعات النور والبشائر والبصائر والإيمان والمستضعفين، ثم تلفزيون المنار، وتعددت مؤسسات الإنتاج الفني ما بين أناشيد وأهازيج ولطميات.

٥ ـ نشر ثقافة «الاستشهاد» على نطاق واسع، وهو استشهاد كان ظاهره مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وباطنه يحدد الاتجاه حسب بوصلة «الفقيه الولي» في طهران، وتم تخريج برامج هذه الثقافة استمداداً من تراكمات الفكر «الحسيني» الذي تتحول فيه الدماء إلى غاية يُستخدم فيها الدين كوسيلة، ولذلك قال الخميني لوفد الحزب الأول الذي زار طهران «مرحلتكم كربلائية»(١)(٢).

ومن الأمثلة التي تقدم تصويراً إجمالياً لهذه الأبعاد وتأثيرها داخل المجتمع الشيعي كما تريده إيران، بث قناة المنار فيلماً دعائياً عن دور «مؤسسة الشهيد»، يصف مساندة المؤسسة لطفل منذ مقتل والده ـ أحد مقاتلي حزب الله ـ حتى أصبح طالباً في الجامعة ومن ثم يتدرب كطبيب في أحد المستشفيات التابعة ربما للحزب(٣)، أي: أنها استراتيجية تستلم «عضو الحزب» من المهد إلى اللحد، وتعتمد على وضعية الفقر بصورة أساسية، حتى أنه لا يمكن تخيل وضع مستقر للحزب داخل الطائفة من دون التلازم بين أمرين: فقر الشيعة، وغنى الحزب... وبقاء الحزب غنياً مسيطراً يتطلب بقاء الدولة عاجزة والشيعة فقراء من دونه، يقول (ماغنوس رانستورب): «حزب الله يستفيد من اليأس والعوز، وإذا كانت الناس أوضاعها جيدة فإلى أين يتوجه»(٤).

ويتم صياغة هذه الحياة «الخمينية» الاستحواذية من خلال «رمزيات» الشيعة

---

(١) انظر: الباب الأول، الفصل الثاني.

(٢) من أجل معلومات وافية عن تنفيذ إيران هذه الاستراتيجية، انظر: دولة حزب الله، وهو أفضل من كشف هذه الأساليب، وكتاب: الإسلاميون في مجتمع تعددي، ومقالات: فصول من قصة حزب الله، حازم صاغية.

(٣) قواعد جديدة للعبة، ص ١٢٨.

(٤) مقال عوفر شيلح، لغز حسن نصر الله، يديعوت أحرونوت، منقول من موقع المقاومة، وتاريخ المقال بعد الانسحاب عام ٢٠٠٠م.

المتوارثة عبر الأجيال، -والتي أشرنا إلى تطبيقاتها السياسية في الباب الثاني - والتي تقدم تبريراً دينياً لعضو الحزب كي ينعتق تماماً من دولته وطائفته وينتمي إلى «حزب فقط حزب الله»(١)، ولذلك يقول د. مسعود إلهي: «إن رمزية حزب الله واستخدامه لرموز المذهب الشيعي، كان من نتيجتها أن العناصر المنخرطين في هذا الحزب نفضوا أيديهم من كونهم لبنانيين، أو أعضاء في إحدى الطوائف المحرومة في بلد مزّقته الحرب الأهلية شر ممزق، فقد تحول القروي الفقير، أو الشاب الشيعي الفقير المقيم في ضاحية بيروت الجنوبية إلى مسلم ثوري، عضو في مجتمع ديني - سياسي يمتد على امتداد القارات الخمس، وجندي في حركة عالمية بقيادة الإمام الخميني»(٢).

وهذه الرمزيات - البصرية والسلوكية - أصبح أنصار الحزب أسرى لها لا يستطيعون التحرك إلا في إطارها، حتى المهجرين منهم ارتحلوا إلى مدن وقرى وأحياء السُّنة أو المسيحيين وهم يحملون بين أيديهم متاعهم ورموزهم وعاداتهم، وهو ما أحدث خللاً طائفياً استدعى أن يخرج نصر الله - في بيان عملي آخر على قدرته التعبوية - ليطلب من أنصاره: «مراعاة المحيط الذي توجدون فيه، إن لجهة بعض الشكليات أو العادات أو التقاليد أو الأنشطة أو الشعارات أو الأعلام»(٣)، وفي اليوم التالي كانت الأعلام قد أزيلت والعادات قد ضبطت.

ولأن الحزب صار يضمن لأتباعه «الغذاء والكساء والكفن والفتوى والبندقية وتعويض البيت المهدم» كان واجباً أن ينصاع الأتباع للحزب بالكيفية نفسها التي انصاع بها الحزب لإيران، إنها الثلاثية نفسها «المال والدين والسلاح» تتكرر من أعلى لأسفل لتمثل استراتيجية الاستحواذ الخمينية الثابتة، والتي في طياتها تكمن أيضاً استراتيجية الانهيار.

ولا غرو إذاً أن يفخر الحزب بانضباط أتباعه، ذلك الانضباط الذي يُخرق فقط

(١) أحد الشعارات التي كان الحزب يرفعها.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٣٧.
(٣) صحيفة النهار، ٢٩/٨/٢٠٠٦م.

للتعبير عن مجازفة أكبر في نصرة الحزب، وهو الخرق الذي يحلو لنصر الله دوماً أن يتركه حتى يتسع قليلاً، ومن ثم يتخذ مقام الآمر المُطاع، سيد قومه.

تيارات داخلية:

الأحزاب «الاندماجية» تتصف دائماً بأنها أكثر الأحزاب عرضة للانقسام والتشرذم، وكان حزب الله اللبناني قد «تشكل من اندماج عدد من المجموعات الإسلامية الشيعية الصغيرة التي كانت تعمل منفردة، هذه المجموعات المختلفة على الرغم من اتفاقها على القضايا المحورية والأساسية، كان لديها في كثير من المسائل الفرعية آراء مختلفة وأحياناً متناقضة»(١).

ولكن «العقد السياسي» للحزب، يقوم على توريث التبعية لإيران جيلاً بعد جيل، وبينما تصبح هذه التبعية عنصر قوة تحول دون تشتت الحزب، فإنها تبقى سيفا مسلّطاً على الرقاب والألسنة وذوي الحاجات.

وقد أدت هذه التبعية إلى حدوث أكبر انشقاقين عن الحزب، وهي انشقاقات رأسية، تمثلت في الأمين العام، والمرشد «الروحي»، وبخلاف هذه الانشقاقات، فإن الحزب يبقى شاملاً أخلاطاً سياسية ودينية تجعله سائراً في درب الولاية بقوة المال والسلاح وكاريزما الزعيم.

ا ـ حروب الزعامة:

صبحي الطفيلي:

ولد في منطقة بريتان عام ١٩٤٧ درس العلوم الدينية في العراق ثم فرَّ عائداً إلى لبنان بعد طرد البعث للطلاب الشيعة اللبنانيين، بعدها تابع دراسته في قم في إيران وشارك في الثورة ضد نظام الشاه، في عام ٨٢ شارك في تأسيس حزب الله، عام ٨٩ انتخب أميناً عاماً للحزب، عام ٩١ ونتيجة لخلافاته مع قيادات الحزب تمت تنحيته من منصب الأمين العام، في العام ٩٧ وبعد إعلانه «ثورة الجياع» والعصيان

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣١٣.

على الدولة تم فصله من عضوية مجلس شورى الحزب(١).

كان صبحي الطفيلي متأثراً بحسين منتظري الذي عيّنه الخميني خليفة له، ثم عزله، وترتب على عزل منتظري حملة تطهير داخلية في إيران لإبعاد أنصاره والمتأثرين بأفكاره من دوائر الحكم القريبة، وكان طبيعياً أن تصل حملة التطهير إلى لبنان، وكانت الحرب مع حركة أمل مستعرة، وتبنّى الطفيلي في تلك الحرب موقفاً حاداً ضد أمل، وكان السبب ـ للعجب ـ هو أن أمل «أنكرت على إيران الإسلامية حق قيادة المسلمين على امتداد العالم»(٢).

ولكن جاءت «اللطيمة» للطفيلي من إيران نفسها، فقد أحدث موت الخميني وتولية خامنئي زلزالاً داخل إيران وخارجها، وبلغت توابعُ الزلزال حزبَ الله في لبنان ليتم توظيف موقف الطفيلي من أمل على أنه يتعارض مع قادة الحزب الآخرين، والذين ـ للعلم ـ كانوا يستميتون في قتال أمل طيلة خمس سنوات حتى نهاية الثمانينيات، وهو القتال الذي اندلع ـ إيرانياً ـ في الأصل قبل تولية الطفيلي أميناً عاماً.

وكانت قضية الرهائن الأجانب الذين خطفهم الحزب في لبنان مدخلاً آخر للتخلص من الطفيلي الذي كان يرفض الإفراج عنهم، بينما كان هاشمي رفسنجاني يعقد صفقة مع الأمريكيين لمقايضة الرهائن، ولما اعترض الطفيلي أوعز رفسنجاني إلى بقية الأعضاء في شورى حزب الله ليقوموا بتنحيته(٣).

وتم تصنيف الطفيلي على أنه «راديكالي» في مواجهة الواقعيين، وتم إبعاده في اجتماع للشورى ليصبح عضواً فيه بدل منصب الأمين العام.

وظل الطفيلي مدة ست سنوات في حالة شدّ وجذب داخل الحزب، خاصة في قضية المشاركة في الانتخابات النيابية والتي دعمها خامنئي بفتوى دينية، ولما بلغ سيله الزبى، وزّع أتباعه داخل حزب الله بياناً باسم «أتباع خط الخميني في

---

(١) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٦م، العربية نت.
(٢) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢٩.
(٣) السابق، ص ٣٨.

حزب الله» وهددوا فيه بإشعال النار في مراكز الاقتراع ولكنه لم يفعل[١] ونجح الحزب في الانتخابات.

وفي مايو ١٩٩٧م، فوجئ اللبنانيون بألف مقاتل يقودهم الطفيلي يعلنون «ثورة الجياع»[٢]، ودخل الطفيلي في معارك مع قوات حكومية حتى فبراير ١٩٩٨م، وصدرت مذكرة باعتقاله ولكنها لم تنفذ أبداً حتى الآن.

واتهم الطفيلي حزب الله بأنه يحرض على أعمال تساوي «الانشقاق عن الإسلام»، وقال عن مشاركته السياسية في الانتخابات: «يؤلمني جداً أن يكون هناك من يحيد عن الإسلام»، ووصف الطفيلي حزب الله اللبناني بأنه «أحد دعائم الفساد في النظام اللبناني»، وحاول الطفيلي أن يحث إيران على التدخل لصالحه، ولكنها تدخلت لصالح الحزب وأعطت موافقتها على ضرب الطفيلي، واكتشف الجيش في مقر الطفيلي كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر، وتم تدمير محطة إذاعة كان قد أقامها في بلدة دورس.

مكث الطفيلي ساكناً بضع سنوات ثم عاد ليهاجم الحزب بشدة منذ عام ٢٠٠٣م، وقال: «أين المقاومة؟ لقد ذهب لحد ـ قائد جيش لبنان الجنوبي الموالي لإسرائيل ـ وها هو حزب الله قد حلَّ محلّه وأصبح خفر حدود، يطلقون رصاصة واحدة كل بضعة أشهر»، ودعا الطفيلي أعضاء حزب الله صراحة إلى التمرد على نصر الله، فقال: «إنني أدعو إخواني في حزب الله إلى الثورة، وأن يرفضوا الأوامر الصادرة لهم بأن يكونوا مجرد حراس للحدود»[٣].

وكان الطفيلي يرتكن في ثورته على «مظلومية» اجتماعية يتداولها الشيعة من أهل البقاع في مواجهة حزب الله والدولة، فأما الدولة فقد كان البقاعيون الشيعة يزرعون «الحشيش» التي كانت تدرُّ عليهم مبالغ طائلة تصل إلى مليار دولار

(١) السابق، ص ٣٥٦.
(٢) يبدو استنساخ الأنماط والمسالك الثورية «الصدرية» واضحاً بقوة لدى كل من جاؤوا بعد موسى الصدر وباقر الصدر، والطفيلي هنا يعيد إنتاج مصطلح «المحرومين» الذي استخدمه موسى الصدر لتسمية حركته في ثوبها الأول قبل العسكرة.
(٣) قواعد جديدة للعبة، ص ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧.

سنوياً[١]، ومع انتهاء الحرب الأهلية عام ١٩٩٠م تقلصت العوائد كثيراً، ونفذ برنامج للأمم المتحدة لا تتجاوز قيمته ٢٢ مليون دولار لاستبدال النشاط.

وأما الأحزاب فقد انتزع نبيه بري رئاسة مجلس النواب من البقاعي حسين الحسيني، وكان أول ثلاثة أمناء لحزب الله من البقاع: إبراهيم السيد، عباس الموسوي، وصبحي الطفيلي، ولكن جاء نصر الله من صور بالجنوب، وتعرض شيعة البقاع داخل الحزب إلى تهميش قيادي في عهد نصر الله، أبرزه لحق حسين الموسوي، والذي عين في منصب ضئيل حجماً كبير لفظاً «معاون تنفيذي للأمين العام ومستشاره للشؤون البلدية»، ولم يرشح أمين الحزب الأول إبراهيم السيد في انتخابات ٢٠٠٠م النيابية، وكان البقاع قد استقبل حزب الله عند تأسيسه واحتضنه قبل الجنوب[٢].

وهدّد الطفيلي في أثناء ثورته بالزحف إلى بيروت، وكان نصر الله متخوفاً من استغلال الجيش لهذا التمرد ليكثف تواجده في البقاع، وهو ما سيضيق على تحركات مقاتلي الحزب ومخازنهم ومستودعاتهم، ولكن تم القضاء على الثورة.

وانكمش الطفيلي وصار يصدر كل فترة بيانات باسم «أبناء الشيخ الطفيلي» ودعا في واحد منها إلى العودة إلى حزب الله شرط أن يتم إعادة تحديد لأدائه، واتهم الطفيلي نصر الله بأنه يزرع «الفتن في جنبات البيت الشيعي، عبر سيطرته الكاملة والمطلقة على مقدرات الحزب»[٣].

ويعيش الطفيلي حالياً محاطاً بأتباعه المسلَّحين، وهو يعتبر نفسه لم يخرج من حزب الله، بالمنطق نفسه الذي يحتكر به الحزب الحق والإيمان عن الآخرين، فيقول: «حتى لو أصدرت القيادة الرسمية لحزب الله بياناً أني أخرجت نفسي من حزب الله، حزب الله ليس هناك إنسان يدخلك في حزب الله ويخرجك من حزب الله، حزب الله يعني الانتماء إلى الله جل وعلا شأنه»[٤].

(١) وهذا يوضح جانباً من مصادر تمويل الشيعة للحرب الأهلية.
(٢) انظر: مقال: فصول من قصة حزب الله ح ٤، حازم صاغية، صحيفة الحياة، ٧/ ٥/ ٢٠٠٥م.
(٣) المرجع السابق.
(٤) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٦م، العربية نت.

ويشعر الطفيلي بالأسى الشديد كما يبدو من كلامه نتيجة تعرضه لخيانة أتباعه ورفاقه، فيقول: «أنا مؤسس حزب الله، أنا المسؤول عن طرد الأمريكان من لبنان، مسؤول عن هزيمة الإسرائيليين في لبنان»، ويقول عن سلاح الحزب: «تحول سلاح المقاومة من سلاح يرهب العدو اليوم إلى سلاح نرهب بعضنا فيه»، ويقول: «لن يقبل أحد أن تكون في لبنان طائفة مسلحة والآخرون عُزل، هذا أمر مستحيل القبول به، ولن يصل إلى نتيجة، نعم سيوصلنا إلى حرب أهلية»(١).

حسين فضل الله:

تمثل أزمة فضل الله مع حزب الله أحد تداعيات موت الخميني وتولية خامنئي، فقد كان مؤيداً للأول بقوة ومتحمساً لثورته مدافعاً عنها في كل محفل إلى درجة المبالغة والشطط، وكان الخميني قد منحه وكالة عامة في الأمور الشرعية، يقول فضل الله: «الإمام الخميني يتميز بأنه قاد الأمة الإسلامية إلى النصر، ويجب تأييده ممن يقلّده وممن لا يقلّده»(٢)، وسئل فضل الله عن تعاون الخميني مع أمريكا: «ما معنى قول الإمام الخميني حفظه الله: إن صفقة السلاح الأمريكية إلى إيران إنها انتصار كبير للإسلام؟»!! فقال فضل الله وهو يلوي عنق الحقيقة: «باعتبار أن إيران فرضت شروطها على أمريكا من موقع القوة ولم تستطع أمريكا أن تحصل على شيء كبير في مقابل ذلك.. إيران استطاعت أن تربك السياسة الأمريكية»(٣).

ولكن بعد تولية خامنئي اعتبر فضل الله أن المرشد الجديد ليس مؤهلاً لمنصبه علمياً، وعلى ذلك شقّ عصا الطاعة وأعلن تمرده كما أعلن نفسه مرجعاً وصار يفرز أتباعه عن أتباع حزب الله الذين انقلبوا عليه بأمر المرشد وعاثوا خبطاً في سيرته ومسيرته وآرائه، بحيث كفّره بعضهم وأخرجه بعضهم من الإثني عشرية.

وجاءت أزمة الطفيلي لتشير أصابع الاتهام الإيرانية إلى قيام فضل الله بتمويل الأخير بمبلغ ٢٥ مليون دولار لتحريضه على الحزب، ونجح فضل الله في استقطاب

---

(١) المرجع السابق.
(٢) انظر: فتاوىٰ فضل الله، فتوىٰ رقم ٢٥٤٠.
(٣) فتاوىٰ فضل الله، فتوىٰ رقم ٢٥٦١.

عشرات الآلاف من تلامذته وأتباعه، وكان جزء منهم من داخل حزب الله[١].

ولما انسدَّ الأفق الإيراني في وجه فضل الله، اختار التوجه صوب الاعتدال واحتراف «التقريب بين السُّنة والشيعة» ومضى يستنكر ممارسات شيعية «لطمية» اجتلبها الحرس الثوري معهم من إيران.

وبدا لفضل الله المنقطع عن منهج باقر الصدر العراقي أن يتواصل مع منهج موسى الصدر اللبناني في محاولة لتمييز مساره عن مسار حزب الله، الذي انطلق في حملة تطهير داخلية من أتباع فضل الله، وكان أبرز هؤلاء: نايف كريم مدير قناة المنار، الذي تم فصله من عمله اتّكاء على جدل ثار بسبب مقال كتبه في صحيفة السفير يردِّد فيه أفكار رجل الدين «مرتضى مطهري» ـ من رفاق الخميني المصنفين خارج الصف لاحقاً ـ، واتّهم نايف بأنه «خاتمي الفكر والتفكير.. فضلي الأسلوب»[٢].

وفي الفترة الأخيرة ورغم كمون العداء بين فضل الله وحزب الله ومن ورائه إيران، فإنه يحرص على ألا يصطف في مواجهة المشروع الشيعي الكبير، كما أن إيران من جهتها تحرص على إبقاء التواصل معه من خلال سفارتها في بيروت، وفي عام ٢٠٠٥م وحده استقبل فضل الله ١١ زيارة من مسؤولين إيرانيين، ما بين خاتمي وكمال خرازي وسفراء بيروت ودمشق عدة مرات[٣].

٢ ـ أخلاط دينية:

توجد داخل بنية حزب الله الجماهيرية الواسعة عدة تيارات دينية شيعية تتبنى أفكاراً متطرفة ـ قياساً بأصلها الشيعي ـ، وهذه التيارات تمثل مصدر خطر على توحد الحزب داخلياً، ومن أبرزها:

ـ أتباع جعفر مرتضى العاملي: ويسميهم البعض «القمّيون» نسبة إلى قم، وهو من رجال الدين ودائم السفر إلى قم في إيران، ومن أشد الناقمين على

(١) مقال: فصول من قصة حزب الله ح ٤، حازم صاغية، صحيفة الحياة، ٧/ ٥/ ٢٠٠٥م.
(٢) انظر: المرجع السابق.
(٣) انظر: موقع بينات، الموقع الشخصي لفضل الله، المقابلات.

فضل الله، رغم أنه من تلامذته السابقين، ويدعو إلى تكفيره ويصدر بيانات متتابعة في ذلك، وهو مشغول كلياً بإعداد الطائفة لعودة «الإمام الغائب»، كما يدعو للابتعاد عن القدس باعتبارها ليست قضية مناسبة للشيعة في الوقت الحالي.

ـ أتباع عباس دراهم: ويسميهم البعض «الأميريون» ويلقب زعيمهم بـ«أبو بشار»، وينتشرون في الضاحية الجنوبية في عين الدلبة، ويتصفون بقلة العلم والجهل والموقف المتزمّت من النساء، والذي يمنع تعليمهن بعد التاسعة، ويعتقد أتباعه أنه يجتمع كل فترة مع «المهدي» ومن بينهم كوادر تنظيمية في حزب الله.

ـ أتباع عباس نور الدين: ويسميهم البعض «العرفانيون»، وشيخهم يوزع كتباً يؤلفها في الضاحية والجنوب، وهو متطرف جداً في التعصب لآل البيت، كما يرفض وصف رموز سُنية بالشهداء، ولو كانوا في مكانة «أحمد ياسين» رحمه الله.

ويتفق هؤلاء جميعهم على شيء أساس وهو الولاء المطلق لإيران ونظرية ولاية الفقيه، إذ هي ما يجمعهم وقد فرقتهم أفكارهم عن الدين(١).

ويبرز بعض المحللين تأثير هذه التيارات في مقامات الحشد الجماهيري لحزب الله، ولفت الأنظار أن تظاهرة الأكفان التي خرجت للاحتجاج على القصف الأمريكي للنجف عام ٢٠٠٤م، كانت المشاركة فيها بمئات الألوف، بينما التظاهرة التي خرجت قبلها بيسير تأييداً لسوريا، حظيت بعدد أقل بشكل لافت.

وهذا بدوره يشير إلى حقيقة بالغة الخطورة، وهي أن الحشد الديني داخل الحزب يتفوق في مجمله على الحشد السياسي بخلاف ما يبدو للعيان من خلال تصريحات وبلاغات قادة الحزب، أي: أن استعدادات كوادر الحزب وجماهيره من المتدينين كبيرة في مواجهة أي أزمة طائفية أو حرب أهلية يمكن اشتعالها، والخطر الأكبر يتهدد بالطبع أهل السُّنة، ولذلك لن يكون مستغرباً ـ لو قُدِّر لذلك أن يحدث ـ تكرار سيناريو جيش المهدي العراقي في لبنان ـ وحفظ الله أهل السُّنة.

---

(١) انظر: مقال: فصول من قصة حزب الله، حازم صاغية، ح ٤، صحيفة الحياة، ٧/ ٥/ ٢٠٠٥م.

ويقدم رجل الدين الشيعي في لبنان هاني فحص تحليلاً نفسياً قوياً لهذا الشحن المتوقع انفجاره في مواجهة السُّنة، إذ يقول معلقاً على مظاهر الحزن ـ العاشورائية ـ المبالغ فيها لدى شيعة لبنان، أنها دائماً تجعل الناس يبحثون عن العدو القريب، فإذا لم يجدوا عدواً بحثوا عن مخالف لإفراغ طاقة الشحن «الحزين»(١).

٣ـ أخلاط سياسية:

هناك تماوجات سياسية داخل حزب الله، ترجع في معظمها إلى الانتماء القديم أو إلى اختلاف التوجهات والرؤى السياسية.

ويبرز الانتماء إلى حزب الدعوة القديم باعتباره عاملاً مثبطاً لصاحبه داخل بنية الحزب التنظيمية، وذلك لاعتبارات القرب من فضل الله واختلاف رؤية الحزب القديمة عن ولاية الفقيه، ومن هؤلاء: نعيم قاسم، الذي «حُشِر» في منصب نائب الأمين العام منذ عام ١٩٩١م، وهو منصب يغلب عليه الشكلية والإعلامية، ولا يمتلك صلاحيات محددة، خاصة وأن قربه من الأمين العام يجعله منطفئاً إدارياً بسبب مركزية القرار عند حسن نصر الله، رغم ادّعاءات الشورى والتشاور حتى «غدا صعباً الوقوع على مركز آخر في الحزب يملك سلطة قرار»(٢).

كما أن أصحاب المناصب الهامة يعينهم نصر الله ولا ينتخبون، ومما يزيد في مركزية نصر الله تمتعه برضى «الولي الفقيه» في طهران، ويكفي السماح له بكسر لوائح الحزب بتحديد مدة التجديد بولايتين، أي: ستة أعوام على الأكثر، بينما نصر له في الأمانة العامة أكثر من ١٥ عاماً.

وينتمي نصر الله في الأساس إلى التيار الذي قاده عباس الموسوي داخل الحزب، وهو أقرب ما يكون إلى إيران، ولكن لم يمنع ذلك من وجود خلافات داخل الحزب تتردد حول مشكلات الواقع اللبناني السياسي، فالبعض يشير إلى أهمية توفير غطاء لبناني بصورة كافية لتحركات الحزب، والبعض الآخر يميل إلى إهمال

(١) من مشاركة في برنامج وثائقي بعنوان «المجتمعات الدينية»، حلقة عن «المجتمعات الشيعية»، وبثته قناة الجزيرة الوثائقية، ١١/ ٢/ ٢٠٠٧م.
(٢) المرجع السابق، ح ٥.

الهدف الداخلي اكتفاء بالروابط الأصلية مع إيران(١).

ويقول محللون إسرائيليون: إن نصر الله يقف في موضع حرج بين تيار متشدد سياسياً وآخر معتدل، دون توضيح إلى أيهما ينتمي نصر الله(٢)، غير أن هذا التوصيف ليس دقيقاً باعتبار أن نصر الله معروف أصلاً بتاريخه الراديكالي، ولذلك يجب تجنب تمييز التطرف والاعتدال على أساس الموقف من قضية سياسية معينة، مثل: المشاركة البرلمانية، فلا يمكن اعتبار المؤيد معتدلاً والمعارض متطرفاً، إذ ربما يكون المعتدل هنا أكثر تطرفاً من الآخر في قضايا أخرى، ولأن الأزمات التي يثيرها حزب الله الآن كلها قضايا مصيرية، فإن استحضار التبعية لإيران هنا يلغي أثر معادلة الاعتدال والتطرف.

ولا يفوت الإشارة إلى مكون «اللعب على التناقضات» والذي يتميز به الخمينيون(٣)، وهو ما يجعل قدرتهم على الاستغناء عن تعدد الأوجه داخل بنيتهم الحزبية تساوي صفراً، ويستغل حسن نصر الله تباين التوجهات داخل الحزب في تسويق نفسه بصورة غير مباشرة على أنه الوجه الأكثر اعتدالاً، وهو ما صرَّح به بعض قادة الأغلبية النيابية في لبنان، وعندما تغيب نصر الله عن حضور إحدى جلسات الحوار الوطني وأرسل نيابة عنه وزير الطاقة المستقيل محمد فنيش ورئيس الكتلة النيابية محمد رعد، صرَّح النائب سعد الحريري تعليقاً على ذلك في قناة (إل بي سي) اللبنانية: «أنا أثق بالسيد حسن وأعرف أنه تعنيه مصلحة لبنان، وهو يعمل لها، ولكن أخاف عليه من الحزب»، وبالفعل وقعت مشادة كلامية بين الحريري ومحمد رعد الذي هدد بالنزول إلى الشارع(٤)، فهل يمكن القول الآن: أن نصر الله أجبره راديكاليو الحزب على النزول للشارع، أم أنه يبدو أكثر الناس إصراراً على حسم المشكلات بذراع القوة؟

أمر آخر يؤثر على الترابط الداخلي لحزب الله، وهو وجود فارق كبير بين كتلة

---

(١) هدئ الحسيني، الشرق الأوسط، ١٧/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٢) عوفر شيلح، يديعوت أحرونوت، مقال: لغز نصر الله، نقلاً عن موقع المقاومة.
(٣) راجع: الباب الثاني، الفصل الأول.
(٤) مجلة: العصر، ٩/ ١١/ ٢٠٠٦م.

الحزب التنظيمية الأمنية، والقطاع الشعبي داخل الحزب، فالأولى متماسكة وقوية، والثانية تبدو متراخية موزعة بين رؤى دينية مختلفة، ما يجعلها معزولة بعض الشيء عن كتلتها التنظيمية، ويجعل الأخيرة تتمتع بمزايا أكثر وأكبر من قاعدتها، وهو أمر يمكن أن يثير الضغائن، خاصة وأن تقارير إخبارية تحدثت عن وجود تذمر بسبب الاعتراض على طريقة توزيع التعويضات عن المنازل المهدمة، فهناك نسبة كبيرة لم تحصل على شيء بينما كانت الفئة «المميزة» أكثر حظاً من الآخرين(١).

ولكن يقابل ذلك أن الكتلة التنظيمية الأمنية داخل الحزب ممتدة وكبيرة العدد إلى الحد الذي يكفل للحزب استقراراً داخلياً طالما ظلت عوامل هذا الاستقرار قائمة، وأبرزها كما سبق ذكره، ثلاثية: المال والدين والسلاح.

ويتحدث أحد المنشقين عن حزب الله «حسن شاهين» عن تجاوزات منسوبة لهذه الفئة المميزة والذين وصفهم بـ«المتسلطين على حزب الله»، واتهمهم باتباع سياسات تهجير لبعض الناس من مناطقهم والتجسس على مخالفيهم وإجازة سرقة المسيحيين، وقال: إنهم يستفيدون من ذلك(٢).

---

(١) صحيفة السياسة الكويتية، ٣٠/ ١١/ ١٤٢٧هـ.

(٢) دولة حزب الله، ص ٣٧٧، وهو ينقل عن مجلة الشراع.

الفصل الثالث: إيران الصغرى

تصدير الثورة:

تصدير الثورة من الأهداف التي يتفق عليها المحافظون في إيران وفريق كبير من الإصلاحيين، وقد صنف الباحث الإيراني حجت مرتجي ستة تيارات سياسية رئيسة في إيران، أربعة منها تؤيد هدف تصدير الثورة، وهي: تيار الزعامة الدينية المحافظ، تيار رجال الدين الإصلاحي، تيار الدفاع عن القيم المحافظ، وتيار حزب الله المحافظ(١)، والتياران الآخران: رسالة الطالب، والعمال، لا ينفيان أهمية تصدير الثورة ولكنهما لا يجعلان له الأولوية دائماً(٢).

وهناك رموز إصلاحية معروفة تتبنى تصدير الثورة كهدف أساس للسياسة الخارجية الإيرانية، ومنهم: وزير الداخلية السابق علي أكبر محتشمي مؤسس حزب الله، ورئيس البرلمان السابق مهدي كروبي، ونائب رئيس البرلمان السابق حجة الإسلام خوئنيها(٣).

وأما هاشمي رفسنجاني فهو كعادته لديه قولان في كل مسألة، وهو أحياناً يدعو إلى التركيز على استكمال تنفيذ أهداف الثورة داخلياً مقابل تصديرها خارجياً، ولكن في مناسبة أخرى يخاطب رجال دين تجمعوا من ٧٠ دولة عبر العالم في طهران عام ١٩٩٢م، ويقول لهم: إن تصدير الثورة واجب إيران تجاه المستضعفين في العالم أجمع(٤).

ويتضمن القانون المنظم لوزارة الخارجية الإيرانية نصاً يدعو إلى تعاون الخارجية مع وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي والأجهزة المعنية لترويج الثقافة الإسلامية

---

(١) التيارات السياسية في إيران، ص ٢١٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٠ ـ ١٩٠.
(٣) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، ص ٢١٨.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٢٠.

ـ الشيعية ـ في البلدان الأجنبية، وجاء في نص القانون: يتعين على وزارة الخارجية حماية ودعم نضال المستضعفين العادل ولا سيما المسلمين منهم ضد المستكبرين في أنحاء العالم كافة(١).

وتصدير الثورة في السياسة الإيرانية يرد مرتبطاً بعدة أهداف، بعضها يأخذ طابعاً عقدياً، وبعضها يأخذ طابعاً مصلحياً سياسياً، وهذه الأهداف إجمالاً هي: إقامة الدولة الإسلامية العالمية، نقل الثورة الإسلامية إلى المستضعفين في كل مكان، نقل الثقافة الشيعية إلى العالم أجمع «التشيع»، وحماية الثورة الإيرانية.

وحقيقة الأمر أن هذه الأهداف مع الممارسة السياسية الإيرانية حدث بينها تداخل واختلاط، بحيث إن بعضها تحول إلى وسائل لتحقيق بقية الأهداف، ويذكر د. حسن آيات أحد رموز الحزب الجمهوري الإيراني ـ الذي تم حله في الثمانينيات ـ أن على إيران «نصرة المستضعفين في كل مكان حتى يتم ضمان استمرارية الثورة واتساع دائرة إشعاعها»(٢)، أي: أن تصدير الثورة تطور مع الوقت ليتماهى مع الحفاظ على المصالح الإيرانية، وتلاشى الفارق بين الهدفين، بحيث أن تصدير الثورة تحول بصورة كاملة إلى أداة لتحقيق المصالح السياسية الإيرانية، والتي تنطلق في مجملها من رؤية أيديولوجية عقدية.

واستناداً إلى الأهداف السابقة يكون لمبدأ تصدير الثورة خمسة مستويات:

ـ إقامة دولة إسلامية عالمية تقودها إيران(٣).

ـ إقامة تحالف إقليمي من خلال نفوذ الأقليات الشيعية.

ـ تثوير المجتمعات الشيعية ودفعها للانطلاق في سياق المشروع الشيعي العالمي، وقد وردت تصريحات عن عدد من المسؤولين الإيرانيين أن إيران لن تأمن من مؤامرات الدول الكبرى إلا إذا حدثت ثورات مماثلة في العالم الإسلامي(٤).

---

(١) صنع القرار في إيران، ص ١٠٣.

(٢) الخطاب الإعلامي، ص ٢١٧.

(٣) ويلاحظ هنا أن الدستور الإيراني حتى الآن، لا يشترط الجنسية الإيرانية في المرشد ولا في أعضاء مجلس الخبراء الذي يختار المرشد، في رغبة واضحة من واضعي الدستور للتأكيد على عالمية الدولة الإثني عشرية، انظر: صحيفة شرق الإيرانية، ٧/ ٦/ ٢٠٠٦م، مختارات إيرانية العدد ٧٢، يوليو ٢٠٠٦م.

(٤) الخطاب الإعلامي، ص ٢١٨.

ـ نشر التشيع في أوساط السُّنة لإيجاد نقاط تواصل وضغط مع عدد أكبر من الدول العربية.

ـ التشيع السياسي، والذي يمكن فهمه على ضوء محددات العلاقة بين إيران والتجمعات الشيعية الواردة في الباب الأول، وبدلاً من محددات: الطائفة، الولاية، المرجعية، يتم الاقتصار على محدد: الانتماء السياسي.

وبهذه الصورة يمكن القول: إن عملية تصدير الثورة تتم وفق مسار مزدوج، فإيران تقوم بتصدير أفكارها الثورية مباشرة أو عبر قنوات اتصال، وتستورد في المقابل من المتأثرين بأفكارها: التبعية والالتزام بالخط الإيراني.

أي: أنها ليست مجرد عملية دعم وتحريض لا تبتغي أجراً، خاصة أنه عند التأمل في تجارب تصدير الثورة نلاحظ أن الأولوية في أجندة كثير من الحركات الدينية الشيعية تكون للمصالح الإيرانية متقدمة على مصالح الطائفة نفسها، وكلما زاد مستوى ارتباط الحركة بإيران ـ وفق محددات العلاقة المذكورة سابقاً ـ كلما تماهت مصالحها مع المصالح الإيرانية وتقهقرت مصالح الطائفة، بل إن الحركة تسعى إلى تجنيد الطائفة كلها لتنفيذ الأجندة الإيرانية.

المشروع الشيعي الكبير:

بعد سقوط النظام العراقي عام ٢٠٠٣م، بدأت ملامح مشروع شيعي عالمي تتشكل في الأفق، وكثر الحديث في الدوريات والمواقع والإصدارات ووسائل الإعلام الشيعية عن نهضة شيعية قادمة، وتزايد مستوى التفاعل «التضامني» بين التجمعات الشيعية في قضايا الشيعة، وصارت أحداث العراق ولبنان بمثابة مرآة تعكس تكوّن رأي عام شيعي عابر للدول، وبدا في الأفق ملامح تُذكِّر بتداعيات ثورة الخميني عام ١٩٧٩م على تلك التجمعات، وإن كانت التجربة الثانية للانبعاث الشيعي المعاصر تحاول الاستفادة من التجارب الماضية لتبدو أكثر حكمة وتدرّجاً.

وترتكز أسس المشروع الشيعي العالمي على طروحات الخميني السياسية بالدرجة الأولى، والتي لا يمكن تجاوزها لأن ما سواها من نظريات سياسية لا تجيز للشيعة السعي إلى تكوين دولة قبل ظهور المهدي، في حين يعتبر الخميني أنه

يجب ألا يظهر المهدي إلا في ظل دولة عالمية يتسلّم زعامتها من الولي الفقيه(١).

ويعتبر بعض الباحثين أن الشيعة لا يثورون ولا يتمردون إلا عندما تتوفر دوافع خارجية(٢)، ولكن وفق ما سبق الإشارة إليه في الباب الثاني، فإن بواعث الثورة ودوافعها كامنة لدى أغلب التجمعات الشيعية، ولكنها تمتلك القدرة على الانتقال إلى حالة التقيّة لفترات طويلة قد تبلغ قروناً، وهنا تلعب العوامل الخارجية دور المنبِّه لهذه البواعث وليس المنشئ لها، وقد كانت حركة موسى الصدر، ثم حزب الله أبلغ دليل على جهوزية الشيعة في لبنان للانضواء في ظل مشروع يتجاوز نطاق لبنان نفسها.

والشاهد من هذه القضية أن أي حديث عن مشروع شيعي لا يمكن إلا أن يتجاوز حدود البلد الذي يعيش فيه الشيعة، والبلد الوحيد الذي يمكن أن تتكون لديه قناعة بالقبوع خلف حدود بلاده هو إيران، ولكنها لم تفعل، فمن باب أولى أن تسعى الأقليات الشيعية «المستنهضة» إلى تفعيل مقومات ثورتها التي تختزنها لسنوات طويلة قبل زمن البعث.

وليس أدل على تلك الحالة من التزام الشيعة بآليات تواصل لم تتوقف منذ مئات السنين وتحت أي ظرف، وفي مقدمة ذلك الارتباط بالمراجع والمراقد، وهو ارتباط عابر للقارات ولا تحده حدود، وقد زاد (تحرير العراق) من فعالية هذه الروابط إلى مدى بعيد، يقول الباحث الإيراني الشيعي في معهد بروكينجز الأمريكي والي نصر: «إن تحرير العراق قد ولّد روابط ثقافية واقتصادية وسياسية بين الطوائف الشيعية في الشرق الأوسط منذ عام ٢٠٠٣م، فقد زار مئات الآلاف من الحجاج الشيعة من لبنان وحتى باكستان النجف وبعض المدن المقدسة الشيعية في العراق، مما أوجد شبكة انتقالية تضم: المدارس الشيعية، والمساجد، والحسينيات، ورجال الدين الشيعة؛ الذين يربطون العراق بكل المجتمعات الشيعية الأخرى، بما في ذلك إيران وهي الأهم»، و «في البحرين تصدرت صور المرجع

(١) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، ص ٢١٦.
(٢) انظر: الطائفية والسياسة د. فرهاد إبراهيم.

الشيعي الإيراني آية الله خامنئي، والزعيم الشيعي محمد حسين فضل الله ـ الزعيم الروحي لحزب الله ـ وبدأت العروض الدينية الشيعية في الظهور»(١).

وفي غمرة الحماسة، لا ينسى البعض فضل الولايات المتحدة في تحقيق هذا الإنجاز العظيم، بل يحاول أن يؤصل له في التاريخ الشيعي، مستحضراً ثلاثية: السُّنة، الشيعة، الحليف، فيقول: «لم يعد شعار الموت لأمريكا عنواناً لعلاقة المستقبل... ولعل التاريخ يعيد مفارقة حين تقدم وهب المسيحي لنصرة الحسين (ع) فيما تآمرت العصبة الظالمة وتخاذلت الجموع الخانعة عن نصرته»(٢).

ويطرح الكاتب تصوراً لتمازج مستقبلي بين الشيعة والغرب يحدوه الأمل واعتراف الغرب بـ«الظاهرة الشيعية»: «يمر المشروع الشيعي بمرحلة قد لا تكون مسبوقة عبر التاريخ، حيث يبرز الشيعة والغرب كعنوان لمرحلة قادمة في تدافع على مستوى القيم والمصالح في إطار بناء النظام الجديد، مما دفع الغرب لبدء دراسة الظاهرة الشيعية ومكوناتها والانفتاح على مرجعياتها ومؤسساتها وفكرها»(٣).

وفي عام ٢٠٠٣م بعد احتلال أمريكا للعراق، وفي غمرة الحماسة سافر هادي المدرسي أحد الرموز الشيعية إلى أمريكا لحضور مؤتمر أقامته رابطة شيعية في واشنطن ليطالب بتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة، وكان هدف المؤتمر «التعريف بمذهب آل البيت عليهم السلام للشعب الأمريكي والإدارة الأمريكية، كالبديل الوحيد لمواجهة الوهابي العنيف»(٤).

وألف باحثان إيرانيان في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي ـ وهو مركز دراسات له تأثيره على الإدارة ـ هما: والي نصر، وراي تكيه؛ كتابين يدعوان فيه إلى

---

(١) والي نصر أستاذ في قسم الدراسات العليا بالكلية البحرية، زميل وأستاذ مشارك في مجلس العلاقات الخارجية، مقال: عندما ينهض الشيعة، مجلة الشؤون الخارجية، عدد يوليو ـ أغسطس ٢٠٠٦م.

(٢) حسن العطار، مقال: لكي لا يسرق النصر، موقع منتدئ القرآن.

(٣) المرجع السابق.

(٤) موقع إباء، الوكالة الشيعية للأنباء، ١٦/ ٦/ ٢٠٠٣م.

مقولة أساسية هي أن التطرف السُّني الوهابي هو العدو الأساسي للغرب، وأن إيران تحتل مكانة استراتيجية بالنسبة لأمريكا باعتبارها تحارب هذا العدو المشترك(١).

وكأن التاريخ يعيد نفسه، وكأن القوم لا يقرؤون تاريخهم، فقد انزلق الخميني في الخدعة نفسها حينما اعتقد أن أمريكا تؤيد مشروعه لتأسيس هلال شيعي في المنطقة، وكان مقتنعاً بذلك كما يقول رفيقه في باريس أبو الحسن بني صدر أول رئيس لإيران، الذي أكد في قناة الجزيرة أن الخميني لم يصدقه عندما قال له: إن الأمريكيين يخدعونه(٢).

ويدعو الكاتب «المتفائل» في مقال آخر بعنوان «الموج الشيعي» طائفته إلى إعادة التأمل في الخريطة ليوقنوا بمدى إمكاناتهم: «على أتباع أهل البيت أن يتأملوا في الخريطة جيداً.. تمثل خارطة التشيع ما هو أكبر من إقليم هنا أو قرية هناك، وتتجاوز صيغة سياسية ما أو مكتسبات حزبية ضيقة.. التمعن جيداً في الخريطة يكشف عن المدى الشيعي الذي تتشكل أمواجه(٣).

موقع حزب الله من المشروع الشيعي العالمي:

تبين أهداف تصدير الثورة الإيرانية أن حزب الله يُعدّ بمثابة نموذج مثالي للمشاركة في عملية التصدير؛ لقدرته على النيابة عن إيران في أغلب المهام، في مختلف المجالات: العسكري والسياسي والأمني والثقافي، وغيرها.

وقبل التعرف على مشروع حزب الله ينبغي إلقاء الضوء على حزب الله «النسخة الأصلية» الموجودة في إيران، والتي ربما لم تكن سابقة زمنياً بفترة طويلة على إنشاء الفرع اللبناني، إلا أن الأصل الإيراني يحتل مكانة مؤثرة في إيران اليوم وتمتد علاقاته خارج إيران إلى ما يمكن تسميته «شبكة حزب الله».

---

(١) الشرق الأوسط، ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

(٢) الجزيرة نت، ١/ ١٢/ ٢٠٠٠م، نقلاً عن مفكرة الإسلام، صباح الموسوي، ٢٦/٦/٢٠٠٦م.

(٣) حسن العطار، مقال: الموج الشيعي، موقع منتدى القرآن.

١ـ شبكة حزب الله الدولية:

يقسم بعض الأكاديميين التيارات السياسية في إيران إلى: اليمين والوسط واليسار وحزب الله[١]، ويرجع ظهور الحزب لأول مرة في بداية الثورة حيث نشأ كميليشيا تابعة للحزب الجمهوري الممثل للدولة[٢]، ونشط في مواجهة منظمة مجاهدي خلق اليسارية، ومعارضي الخميني، وتبلورت هوية الحزب السياسية بعد انتهاء الحرب مع العراق، حيث تكون جزء كبير منه من المحاربين العائدين، وتبنى الحزب مكافحة قضايا الفساد الاجتماعي[٣]، وهو نشط في محاربة معارضي ولاية الفقيه ومتعصب بقوة في هذا الإطار، وتعبر عن الحزب مجلة (يالثارات الحسين)، وصحيفة (شلمجة)، وصحيفة (كيهان) قريبة من أفكاره، ويعرف الحزب باسم «خدا».

ويؤيد الحزب أحمدي نجاد رئيس الجمهورية، وبعضهم يتشدد في تأييده، وسبق الإشارة إلى تأليف زوجة مدير مكتب الرئاسة فاطمة رجبي كتاب «أحمدي نجاد معجزة الألفية الثالثة»، والمؤلفة من أنصار حزب الله الإيراني وشديدة التعصب ضد الإصلاحيين[٤].

وأمين عام تنظيم الحزب هو باقر خرازي، وشقيقه صادق خرازي الإصلاحي سفير إيران السابق في فرنسا، وهو ابن شقيق وزير الخارجية الإصلاحي السابق كمال خرازي، والحزب له تأثير في السياسة الخارجية في إيران، كما أنه عنصر هام في ضبط الخلافات الداخلية، بالقوة طبعاً.

ويعتبر الحزب أن فروع «حزب الله» خارج إيران تعمل في إطاره وتابعة له، ويقول أحد أنصار الحزب: «نحن نفكر من أجل آفاق عالمية الإسلام، ونحن عندما نتواجد في لبنان والبوسنة نقول: إن مصالحنا هناك ولا يمكن أن تكون هذه مصالح قومية بل هي تعبير عن توجهاتنا الإسلامية»[٥]، ويؤيد د. مسعود إلهي حقيقة

---

(١) التيارات السياسية المعاصرة في إيران، ص ٤٥.

(٢) صنع القرار في إيران، ص ١٦٠.

(٣) السابق، ٧٢ـ ٧٣.

(٤) الجزيرة السعودية، ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٦م، مقال: أحمد مصطفى الخريف.

(٥) التيارات السياسية المعاصرة في إيران، ص ١٧٤.

ارتباط الفرع اللبناني للحزب بأصله الإيراني، فيقول: «حزب الله في لبنان يعمل كفرع من فروع حزب الله الواسعة الانتشار، وهو لا يُعد نفسه تنظيماً مغلقاً ومحدوداً، بل تنظيم أممي، يحمي جميع المسلمين المظلومين ويدافع عنهم، ويناضل متسلحاً بتوجيهات الإمام الخميني ضد الإمبريالية والاستكبار»[١].

ويسخر الحزب إمكانات الدولة من أجل دعم شبكة «حزب الله» في جميع أنحاء العالم انطلاقاً من اعتقاده بوجوب تصدير الثورة خارج إيران، وتنتشر فروع الحزب في كثير من الدول، منها: لبنان، العراق، الكويت، البحرين، اليمن.. إلخ، لكنها تتفاوت من حيث قوتها وتأثيرها في محيطها الداخلي والخارجي، ويأتي في مقدمة هذه الأفرع: حزب الله اللبناني.

٢ـ مشروع حزب الله اللبناني:

يقول نائب الأمين العام لحزب الله نعيم قاسم: «أميركا تريد السيطرة على إيران وتريد أن تمنعها من أن تخرج من نطاقها، وأن تكون دولة مقيّدة وغير قادرة على أن تتوسع في علاقاتها وصداقاتها وحدودها بين الدول المختلفة»[٢].

ومن هذا المنطلق فإن حزب الله اللبناني مهمته الرئيسة تجاوز الحصار المفروض على إيران، والذي تمثل بداية في حربها مع العراق، وتعثرها داخل حدودها، فكان لا بد من القفز على الحواجز وإنشاء رأس جسر متقدم للثورة الإيرانية، يتولى أعباء إعادة تصدير الثورة من جديد، أي: بمعنى أكثر تحديداً حزب الله يعمل باعتباره «إيران الصغرى»، يقول د. وضاح شرارة: «عملت إدارة الثورة الإيرانية على إعلان لبنان الشيعي أرضاً لها، وإقليماً مميزاً من أقاليمها، على غرار إيران نفسها»[٣].

ويعبِّر حسن نصر الله عن هذه الحقيقة بوضوح تام، فيقول: «لا تنتهي أهدافنا عند حدود لبنان مع فلسطين، ولا ينسجم مع طموحنا وبنائنا الفكري وحجمنا

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٢١.
(٢) حوار مع موقع المقاومة، حزب الله.
(٣) دولة حزب الله، ص ٢٦١.

ووهجنا والالتفاف الشعبي العظيم حولنا، أن نهجر السلاح غداً لنأخذ منصباً وزارياً، أو لتزيد حصتنا من النواب في البرلمان اللبناني، وأن ننحصر ونحاصر في إطار اللعبة السياسية المحلية»(١).

وإذا كان نصر الله يقول ذلك في عام ٢٠٠٠م، فإن الحديث عن تحولات و«تلبنن» في مسار الحزب يصبح خرافة لا مجال لتصديقها، وحتى الصحفي طلال سلمان رئيس تحرير السفير الموالي لحزب الله، قال في مقدمة حواره السابق: «.. وبعد إلحاحنا على محاولة تصور دور حزب الله مستقبلاً، وهو المحاصر والمحصور في بيئة طائفية محددة (الشيعة في لبنان)، بما يحدّ من إمكان تأثيره أو إشعاعه التغييري في المنطقة من حوله، بدءاً بلبنان ذاته، سمعنا كلاماً جديداً من السيد حسن...»(٢)، فهل حقيقة يعتبر هذا الكلام جديداً على حزب الله؟

كان ذلك عام ٢٠٠٠م، ولكن في عام ٢٠٠٦م أثبت نصر الله أن مشروع الحزب «موسمي» من حيث الإعلان عنه، فعندما تكون الأجواء «انتصارية» مثل عام ٢٠٠٠م، يمكن الحديث بأريحية عن المشروع، ولكن عندما تكون الأجواء خانقة والكلمات محسوبة والراصدون يراقبون، يمكن سحب ملف المشروع مؤقتاً، يقول نصر الله في حواره مع صحيفة السفير عقب حرب تموز ٢٠٠٦م: «نحن ليس لدينا مشروع خاص، نحن بشكل واضح نقول، وهذا الكلام ليس كلاماً سياسياً، هو كلام فكري يستند إلى أسس فكرية ودينية، نحن في الرؤية الإسلامية الدينية، وهذه رؤية إجماعية بين المسلمين أي: ليست شيعية أو سُنية، نحن نقول: إنه لا بد للناس من إمام، بحسب اصطلاح ذلك الزمان، الإمام يعني النظام، يعني الدولة»(٣)، فهل حقاً يعتبر نصر الله أن الدولة هي إمام ذلك الزمان، هل يتفق ذلك مع معتقداته، خاصة وهو يقول: إن كلامه يستند إلى الرؤية الدينية؟ ماذا يفعل إذاً الولي الفقيه القابع في طهران، هل هو نائب الإمام أي الدولة؟ أم نائب الإمام الثاني عشر أي المهدي حسب معتقداته؟!

---

(١) حوار صحيفة السفير، ٢٨/٦/٢٠٠٠م.

(٢) السابق.

(٣) يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، ص ٢٨١.

في عام ١٩٨٤م صرّح إبراهيم أمين السيد الذي يعتبر أول أمين عام ـ غير معلن ـ للحزب، لمجلة الشراع بقوله: «نحن نعمل في لبنان من خلال المسؤولية الشرعية، ومن خلال القناعة السياسية أيضاً حتى يصبح لبنان جزءاً من مشروع الأمة في منطقة الشرق الأوسط، ولا نعتقد أنه من الطبيعي أن يكون في لبنان دولة إسلامية خارج مشروع الأمة، وإنما نريد لبنان جزءاً من مشروع الأمة»، ويقول حسين الموسوي أحد قادة الحزب القدامى والحاليين: «تأسيس دولة إسلامية في لبنان ليس ما نطالب به.. وليس الهدف إقامة الإسلام في بلد واحد، بل تأسيس الدولة الإسلامية الشاملة الكبرى التي تستوعب لبنان»، ويقول صبحي الطفيلي الأمين العام الثاني للحزب في ١٠ / ٤ / ١٩٨٧م: «نحن لا نعمل أو نفكر في حدود لبنان، هذه العلبة الهندسية الصغيرة التي هي من مخلفات الاستعمار، بل ننطلق لندافع عن المسلمين في كل أرجاء العالم»(١).

هذه أقوال قديمة جديدة لثلاثة من زعماء الحزب، من يزعم أن الحزب تغير مرة، فلينظر إلى الأقوال الجديدة ليعلم أنه تغير مرة ثانية وعاد إلى أصله، ومن كان موقناً بثبات الحزب على مبادئه، فسوف تزيده هذه الأقوال يقيناً.

المشروع إذاً قديمٌ في تأسيسه جديدٌ في انبعاثه، والتغيير فقط في الأولويات، وفي القدر المعلن والسري من أجندة تصدير الثورة.

وفي سياق تباهي الحزب بتنامي دوره الإقليمي بعد الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠م، يتبنّى حسن نصر الله خطاب من يتحرك بناءً على رغبة الجماهير، حتى أنه يقول للناس مهلاً، لا نستطيع تلبية كل طلباتكم خارج لبنان، يقول في حواره مع غسان بن جدو في الجزيرة: «أنا أريد هنا أن لا يحمّل أحد حزب الله أكثر من طاقته، يعني البعض يريدنا أن نكون موجودين في لبنان وفلسطين وفي العراق وفي أفغانستان وفي الشيشان وفي..، هذا أمر فوق الطاقة، الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن نحن موقفنا المبدئي نقول يجب دعم أي شعب

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٢٧٥ـ٢٧٦.

مظلوم ونصرة أي شعب مظلوم»(١).

ويتبنى الحزب في سياق مشروعه العربي تحديد وتصنيف الولاءات حسب منطلقات عقدية وسياسية ملتزمة بالخط الشيعي الإيراني، ويصنف الحزب كل من يتهمونه بأنه الطرف الآخر من الهلال الشيعي، على أنهم أعداء، وفي مقدمة هؤلاء السعودية والأردن ومصر، وكتب صحفي محسوب على الحزب في صحيفة السفير التي تكاد أن تكون «المنار الورقية» منتقداً وجارحاً العرب كافة، في سياق يؤيد انخلاع الحزب من عروبته، فقال: «في ليلة غاب عنها قمر البادية تحوّل العربان من قبائل شعارها: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، إلى مجموعة من حملة السكاكين تطعن في ولاء الشيعة لأوطانهم ولا تلمح في الليالي سوى هلالات شيعية ولا تحذر إلا من سقوط العراق في أيدي الروافض.... يا لتلك الروابع الخوالي»(٢).

المرحلة الأولى من تصدير الثورة: إطلاق المدافع:

حزب الله مرَّ بمرحلتين أساسيتين في نشاطه لتصدير الثورة الإيرانية بحسب قوة الدولة اللبنانية، أثناء الحرب الأهلية لم يكن هناك إطار للدولة، فكان الحزب يقوم بدور تثوير الأقليات الشيعية عسكرياً في المقام الأول، ويشارك في تنفيذ عمليات مسلحة في بعض الدول، وعندما قوي إطار الدولة في ظل اتفاق الطائف، تراجع الدور العلني للحزب، وتراجعت العمليات المنفذة مباشرة من قِبَل عناصر الحزب في الخارج.

وكانت المشاركة المباشرة في الحرب العراقية الإيرانية هي أبسط صور التأييد للثورة الخمينية، ومن أوائل رجال الدين اللبنانيين الشيعة الذين قاتلوا مع إيران محمد رملاوي(٣).

(١) برنامج (لقاء خاص)، قناة الجزيرة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣م.
(٢) الكاتب محمد نور الدين، صحيفة السفير، ١٩/ ٨/ ٢٠٠٦م، عنوان المقال: الهولوكوست الشيعي، ويلاحظ من عنوان المقال توظيف الشيعة كل ما يتعلق بالانتقادات السياسية لهم في إطار «المظلومية التاريخية الممتدة»، وهو ما يؤكد على اعتبار التاريخ مدخلاً ثانياً في فهم واستيعاب تحركاتهم بعد العقيدة أولاً، ثم السياسة ثالثاً.
(٣) دولة حزب الله، ص ٢٨٨.

وقد لعب تواجد عماد مغنية في الصورة الخلفية دوراً كبيراً في نجاح الحزب بتنفيذ عدد كبير من العمليات خارج لبنان، وكان آخر العمليات المهمة تفجير مركز اجتماعي يهودي في الأرجنتين عام ١٩٩٤م رداً على اغتيال مروحية إسرائيلية للأمين العام عباس موسوي عام ١٩٩٢م، واستخدم الحزب منظمة وهمية تسمى «الجهاد الإسلامي» لنسبة العمليات إليها، وهي بمثابة تغطية على القسم الخاص بالعمليات داخل الحزب والذي كان يدار من قِبَل الحرس الثوري والاستخبارات الإيرانية.

واعتبرت جهات استخباراتية إسرائيلية أن حزب الله كان يعمل كـ«مقاول ثانوي» في عملية (بوينس آيرس)، وكانت المخابرات الإيرانية في الصورة، وقد استفاد الحزب كثيراً من الدعم اللوجستي الذي قدمته الجالية الشيعية الكبيرة في أمريكا اللاتينية، وكثير منها يؤيد حزب الله[١].

وقد أنعشت السلطات في الأرجنتين القضية مؤخراً، وأصدر المدعي العام قرار اتهام أورد فيه أسماء عدد من المسؤولين الإيرانيين البارزين، وهم: الرئيس السابق علي اكبر هاشمي رفسنجاني الذي تولى الحكم من عام ١٩٨٩ إلى عام ١٩٩٧، علي فلاحيان رئيس الاستخبارات الأسبق، علي أكبر ولايتي وزير الخارجية الأسبق، محسن رضائي القائد السابق للحرس الثوري، عماد فايز مغنية القائد العسكري لحزب الله، محسن رباني الملحق الثقافي السابق في السفارة الإيرانية في بيونس أيرس، أحمد رضا أشقري السكرتير الثالث السابق في السفارة الإيرانية في بيونس أيرس، وأحمد وكيلي قائد سرايا القدس[٢]، وصرّح المدعي العام (البرتو نيسمان) أن منفذ العملية هو إبراهيم حسين برو، من نشطاء حزب الله[٣].

وهذه أبرز العمليات التي نفذها حزب الله في تلك المرحلة خارج إيران، وقد كان نصيب الأسد من حظ الكويت:

(١) موقع مركز استخبارات الإرهاب، وهو موقع إسرائيلي شبه رسمي، ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٥م.
(٢) السياسة الكويتية، ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٦م.
(٣) وكالة رويترز، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٥م.

١ - تفجير السفارة العراقية في بيروت ٨١.

٢ - تفجير السفارتين الفرنسية والأمريكية في الكويت، ومهاجمة مصافي النفط ومراكز النقل الكويتية في العام ٨٣ احتجاجاً على دعم الكويت للعراق، وتم اعتقال ١٧ شيعياً لبنانياً على إثر ذلك.

٣ - خطف طائرة كويتية والتوجه بها إلى طهران في ديسمبر ٨٤، وكان الخاطفون أربعة من أعضاء حزب الدعوة المنضمّين إلى حزب الله، وكان هدف الخاطفين إجبار الحكومة الكويتية على إطلاق سراح ١٧ لبنانياً شيعياً، هاجمت القوات الإيرانية الطائرة - بشكل صوري كما يبدو - فاستسلم الخاطفون، ورفضت طهران محاكمتهم أو تسليمهم إلى أي جهة.

٤ - خطف طائرة (تي دبليو إيه) الأمريكية في يونيو ٨٥ وهي في الطريق من أثينا إلى روما، وطارت الطائرة عدة مرات بين الجزائر وبيروت، ثم هبطوا في بيروت ونُقِلَ المسافرون في عدة سيارات حيث تم إخفاؤهم في الضاحية الجنوبية، وعرضت مقابلات صحفية مع بعضهم، وتم الإفراج عنهم بعد ١٧ يوماً بعد الاستجابة لمطالبهم والإفراج عن ٧٦٦ أسيراً لبنانياً أغلبهم شيعة من السجون الإسرائيلية.

٥ - في الفترة بين ديسمبر ٨٥ وسبتمبر ٨٦ نفذت عدة تفجيرات في باريس أسفرت عن سقوط ١٠ قتلى و٢٧٥ مصاباً، وكان هدف التفجيرات حسب وسائل الإعلام الانتقام من قرار السلطات تسليم عضوين في حزب الدعوة إلى العراق، وإمداد فرنسا إلى العراق بالأسلحة، ولتلكّؤ فرنسا في تسديد قرض قيمته مليار دولار اقترضته من نظام الشاه ولم تسدده، وأيضاً محاولة لتحرير أنيس النقاش.

٦ - خطف طائرة كويتية في إبريل ١٩٨٨م وإجبارها على الهبوط في إيران ثم في الجزائر، وكانت المطالب الإفراج عن المعتقلين الشيعة في السجون الكويتية، لكن رفضت حكومة الكويت، فتم إطلاق سراحهم بعد مفاوضات مع السلطات الجزائرية، ومع عدم اعتقالهم وتأمين خروجهم من الجزائر.

٧ ـ بعد فتوى الخميني بارتداد سلمان رشدي وقتله، حاول شاب لبناني يدعى مصطفى مازح أن ينفذ الفتوى ولكنه قتل نفسه عندما انفجرت القنبلة التي كان يعدها في غرفته بالفندق فوق غرفة سلمان رشدي مباشرة، وقال مسؤول في حزب الله في حوار مع مجلة بيان الإيرانية ١٩٩٠م: «بالنسبة إلى فتوى الإمام الخميني قمنا ببعض الإجراءات، ومن أجل ذلك استشهد أحد عناصر المقاومة الثورية اللبنانية مصطفى مازح في لندن»[١].

المرحلة الثانية من تصدير الثورة: تعبئة المدافع:

بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية، بهت بريق الثورة، ولم يعد الانجذاب التلقائي من التجمعات الشيعية إلى الثورة بالوتيرة الأولى نفسها، فكان لا بد من الدخول في مرحلة «تعبئة المدافع» من جديد من أجل ضمان استجابة كاملة من تلك التجمعات التي دخل بعضها في مرحلة «الثورية النائمة»، وحاولوا الانتقال تدريجياً إلى المعارضة السياسية في بعض الدول.

ومع الوقت تراكمت لدى حزب الله في لبنان خبرات في ثلاثة مجالات مهمة يمكنه تصديرها إلى الأقليات الشيعية الموالية: المناورات السياسية، حرب العصابات، والمخابرات والأمن... بالإضافة إلى الجوانب المتعلقة بالأيديولوجية الثورية وتأسيس إعلام طائفي تعبوي، وقيامه بدور «غسيل الثورة» أي: اعتباره مكاناً وسيطاً لغسل الآثار الإيرانية في العلاقة مع بعض الجهات التي ربما تكون علاقتها المباشرة مع إيران مصدر حساسية، أو مثار شبهات.

المرحلة الثالثة من تصدير الثورة: إطلاق المدافع، الثورة الثانية:

ماذا يحدث بعد تذخير المدافع أي: تعبئتها بالذخيرة؟ لا بد من إطلاقها، ومن المعروف عسكرياً أن المدفع إذا تم وضع «الدانة» في داخله، لا يمكن إخراجها منه إلا بإطلاقها، والتعبئة «الثورية» حالياً للأقليات الشيعية في المحيط السُّني هي بمثابة ذخائر يتم تجهيزها ووضعها في مدافعها، ويبقى أن تنطلق، هذا ما يُتوقع في الفترة

(١) بتصرف عن: الإسلاميون في مجمع تعددي، ص ٢٥٢ وما بعدها.

القادمة، ولكن متى يتم إطلاقها؟ وهل انطلاقها سيكون عسكرياً أم سياسياً أم كليهما؟ وماذا سينتج عن ذلك؟ هذه كلها في علم الغيب، وهي تحتاج إلى دراسات معمقة من أجل تحديد خيارات الأمة حيالها.

وفي هذه الدراسة نحاول أن نسلط قليلاً من الضوء على دور حزب الله في تعبئة المدافع الشيعية في العالم العربي.

ويمكن بيان ملامح الدور الذي يقوم به حزب الله في تصدير الثورة خارج لبنان، من خلال المحاور التالية:

أولاً: اكتمال الهلال:

الهلال الشيعي ليس بدعاً من القول، ولم يخترعه أعداء الخمينية من تلقاء أنفسهم، بل من رسمه هو الخميني نفسه عندما صرح بأن الطريق إلى القدس يمر عبر العراق، وعندما أراد الحرس الثوري أن يمر إلى لبنان من أجل «منازلة» الاحتلال الإسرائيلي، شقّ طريقه عبر سوريا ثم لبنان، فهذا الهلال حدده الخميني بكلامه، ورسمه الحرس الثوري بفعاله، وقد كشف الرئيس الإيراني الأسبق أبو الحسن بني صدر أن الخميني كان يخطط لإقامة حزام شيعي يبدأ من إيران والعراق وسوريا ولبنان، ثم ينطلق إلى دول الخليج العربي(١).

وفي سؤال وجه إلى نعيم قاسم حول وجود محور شيعي يضم إيران وسوريا والعراق ولبنان، ردّ في غمرة حماسته للرفض فأدخل فلسطين في المحور، رغم أنها لم تكن في السؤال: «إذا بتقولي لي إنه إيران والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين مستهدفين من جهة وحدة وبالتالي عندهم مصائب وحدة عم يواجهوها، أقول لك نعم، بس إذا بتقولي إنه هدول مشكلين هم محور حتى يواجهوا، وين عم يواجه هذا المحور؟ وين عنده قدرة إنه يتشكل بشكل مترابط مع بعضه»(٢).

وقبل الاحتلال الأمريكي للعراق كان حزب الله في لبنان يمثل مركزاً متقدماً للثورة، ولكنه بعد فتح الطريق العراقي تغيرت الصورة، وبات الهلال على وشك

---

(١) الجزيرة نت، ١/ ١٢/ ٢٠٠٠م، نقلاً عن مفكرة الإسلام، صباح الموسوي، ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٦م.
(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.

الاكتمال، وكان لا بد للحزب أن يطور دوره الداخلي والخارجي من أجل المرحلة القادمة، مرحلة إعادة تثوير التجمعات الشيعية من جديد، فللمرة الأولى منذ قرون ينفتح الطريق أمام الشيعة الإيرانيين للعبور مباشرة إلى الطرف الآخر للهلال، يقول الصحفي الإيراني أمير طاهري: «إيران تمتلك طموحات كبرى في العراق، إذ إنه يوفر الممر للتواصل مع سوريا ولبنان، ما يمكنها من بسط نفوذها في المشرق، للمرة الأولى منذ مطلع القرن السابع»(١).

ومما يكسب حزب الله دوراً استراتيجياً متنامياً في تأسيس الهلال الشيعي، أنه يمثل نقطة التقاء إيران بسوريا، وهو حصيلة جهد إيراني دؤوب دام سنوات طويلة لبناء هذا المحور، هذا الجهد الذي همَّش حركة أمل والمنظمات الفلسطينية حتى لا يبقى خيار أمام سوريا سوى حزب الله.

وقد بدأت إيران منذ فترة في محاولة تدعيم المحور «الهلالي» عن طريق التأكيد على اتفاقات الدفاع المشترك التي عقدتها مع سوريا، وعندما زار أحمدي نجاد دمشق بداية العام ٢٠٠٦م في أول زيارة له خارج إيران، سافر إليه على الفور حسن نصر الله ونبيه بري وعقدوا اجتماعاً خاصاً معه، وهو ما اعتبره تيار ٤ آذار تفعيل للمحور الإقليمي الذي يشمل لبنان(٢).

وتنبع خطورة تكوّن الهلال الشيعي من عدة أمور، أبرزها: أن ذلك الهلال يضم كافة مراقد الشيعة المشهورة، ومنها: أن جميع المراجع المعتبرين ينتمون إلى إيران والعراق ولبنان، ومنها: أن النشاط العلمي الأكبر موجود في العراق وإيران وهناك نشاط حوزوي كبير في لبنان تابع لحزب الله، ومنها: أن الدول الثلاثة هي الأكثر قدرة على تصدير الثورة إلى بقية الدول العربية المحيطة، ما يعني: أن دول الهلال هي دول المصدر، وبقية الدول هي دول التلقي، ومنها: أنه للمرة الأولى في التاريخ الشيعي تسيطر إيران على المراكز الشيعية الثلاث: قم، النجف، وجبل عامل، ومنها: أن يكون الثلاثي الشيعي يعطي إيران قدرة أكبر على احتواء سوريا، خاصة وقد ضغطت في سبيل تحسين العلاقات السورية العراقية مؤخراً.

(١) مجلة الحوادث، العدد ٢٥٨١، ٢١/٤/٢٠٠٦م.
(٢) موقع سيريا نيوز، ٢١/١/٢٠٠٦م.

وهناك اجتهادات فقهية داخل نظرية «ولاية الفقيه» ظهرت في الآونة الأخيرة تجيز أن يكون هناك حكومتان إسلاميتان في وقت واحد، وهو ما يعيد إلى الأضواء من جديد هدف حزب الله، إقامة دولة إسلامية في لبنان، وفي خطبة جمعة في طهران قال مصباح يزدي ـ مرجع أحمدي نجاد ـ بخصوص اشتراط فقهاء الشيعة وجود حكومة إسلامية واحدة: «يمكن القول: إن ظروف الفقهاء كانت ناظرة إلى ظروف خاصة، ولا تنطوي بشكل عام على نفي المشروعية عن تعدد الحكومات، بل وربما يستشف من بعض أقوالهم في شروط الإمام ومن بعض تصريحاتهم أنهم لا ينفون الشرعية عن وجود حكومتين في منطقتين متمايزتين، عندما يكون المتصدون لزمام الأمور فيها حائزين على الشرائط»(١)، وهذا الكلام يعني أنه لا مانع من نشأة دولة إسلامية على الطرف الآخر من الهلال إذا كان «مرشدها» جامعاً للشرائط، وعلى شاكلة «تطويع» نظرية الولاية لتوافق خامنئي، يمكن أن يحدث «تطوير» آخر واجتهاد جديد ليناسب وضعية دينية سياسية مميزة لحسن نصر الله في لبنان، خاصة وأن زعيم حزب الله ـ وبخلاف قادة جميع الأحزاب ـ لم يشغل منصباً في الدولة، ولم يرشح نفسه لمنصب أو برلمان، ولم يطلب منصباً أياً كان، ويبقي نفسه دائماً فوق الجميع، ألا يمكن أن يشير ذلك إلى أن نصر الله يطمح إلى دور «مرشد لبنان» مع بعض التغييرات حتى يناسب الظروف اللبنانية، لا أظن ذلك مستبعداً لو سارت الأمور وفق ما هو مخطط لها.

وكتب حسن صبرا مقالاً بعنوان: «المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية في لبنان، آية الله سيد حسن نصر الله»، وقال في مقدمته: «عيّن حسن نصر الله الرئيس سليم الحص رئيساً للوزراء، وعيّن ميشيل عون رئيساً للجمهورية، وعيّن فتحي يكن مفتياً للجمهورية اللبنانية، وحيث إن جمهور سليمان فرنجية الصغير عيّنه بطركاً للموارنة، وحيث إن خطاب طلال أرسلان الخطير أهّله ليكون شيخ عقل الطائفة الدرزية.. أما رئيس مجلس النواب فسيظل على الأرجح نبيه بري، إنما بمباركة من نصر الله، بعد أن قال السيد حسن: إنه لا يريد مناصب لحزب الله،

(١) حدائق الأحزان، ص ١٣٣.

لا وزراء - وربما لا نواب.. ولماذا يحتاجهم وهو المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية في لبنان التي أعلن قيامها مساء الخميس في ٧ / ١٢ / ٢٠٠٦م»(١).

ثانياً: مركز دعم متقدم:

بعد هجمات ١١ سبتمبر تصاعدت الأحداث واتخذت إيران عدة قرارات احتياطية لتأمين رجالها في الخارج، حيث قامت بسحب العديد من رجال الحرس الثوري المنتشرين في عدد من الدول العربية وغيرها، واتخذ قرار السحب اللواء يحيى رحيم صفوي قائد الحرس بناء على قرار المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني، وقد علق صفوي على هذا الإجراء بأنه يلزم للعبور من ساحة الأزمة إطفاء أضواء سيارة الثورة(٢).

ولأن الثورة لن تتحمل إطفاء تلك الأضواء طويلاً، فقد تركزت الأحمال الجديدة على حزب الله اللبناني، واكتسب دوره في تصدير الثورة أهمية استراتيجية إضافية، وترسخ دوره كبديل لإيران في كثير من المهام.

وهذه بعض مجالات النشاط الذي يمارسه حزب الله في تصدير الثورة خارج لبنان:

١ - المجال السياسي:

تمثل لبنان باعتبارها بلداً مفتوحاً مركز تواصل هام بين الحركات الشيعية في العالم العربي، وبالأخص أفرع حزب الله في تلك الدول، ويحتفظ حزب الله اللبناني بعلاقة جيدة مع نظرائه في الكويت والبحرين، كما كانت جماعة حسين الحوثي في اليمن «الشباب المؤمن» تسمى سابقاً «حزب الله» قبل أن يتم تبديل أسمائها في فترة التسعينيات من باب صرف الأنظار عن الترابط الإقليمي(٣).

(١) رئيس تحرير مجلة الشراع، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٢) علي نوري زاده، الشرق الأوسط، ٢١/ ١٠/ ٢٠٠١م.
(٣) التقرير الاستراتيجي السنوي لمجلة البيان، الإصدار الثالث، تمرد الحوثي في اليمن، أنور قاسم الخضري.

ويقدم حزب الله خبراته في مجال السياسة للأحزاب التي تخوض هذا الغمار، ومن بينها: جمعية الوفاق في البحرين، والتي كانت تسمى سابقاً «حزب الله»، وتتحدث بعض التقارير عن زيارات مستمرة يقوم بها قيادات سياسية من هذه الجمعية وغيرها لتبادل الخبرات والنصائح مع حزب الله، وفي إحدى هذه الزيارات قام وفد من سبع جمعيات بحرينية هي: الوفاق ووعد وأمل والوسط العربي الإسلامي والتجمع القومي والمنبر التقدمي وجمعية مقاومة التطبيع مع الكيان الصهيوني؛ بزيارة دمشق قبل الانتخابات الأخيرة، حيث التقوا أولاً مع وفد من قيادات حزب الله من بينهم «الشيخ» عكرم بركات، وتم التباحث بخصوص سير الانتخابات وأساليب التصعيد السياسي وأدواته، وكيفية تفعيل الموقف الشعبي الشيعي المؤيد لحزب الله اللبناني.

بعد ذلك سافر الوفد إلى بيروت والتقى بمزيد من قيادات الحزب، ونقل إليهم رسالة من حسن نصر الله تطالبهم بتكثيف التنظيم السياسي في الفترة القادمة، وأكد الحزب وقوفه مع الشيعة في البحرين حتى يحصلوا على حقوق المواطنة كاملة! وقد قدم قادة حزب الله عدة نصائح سياسية للوفد البحريني، من بينها: تفعيل وسائل التعاون مع أعضاء البرلمان المتعاونين، وتشجيع الشيعة العاطلين عن العمل للاشتراك في البرامج الحكومية والمطالبة بإعادة رسم المناطق الانتخابية[١].

وفي بعض المناسبات يخاطب نصر الله تجمعات شيعية في البحرين، كما حدث في عام ٢٠٠٢م وبدعوى الاحتفال بالذكرى الثانية لانتفاضة الأقصى، وجَّه نصر الله كلمة عبر الهاتف إلى تجمع «الشباب المؤمن»[٢].

وتمثل علاقة حزب الله مع الصدر محوراً آخر للتواصل، وتعتمد إيران على حزب الله في تقوية الروابط مع تيار الصدر الذي يثني على مواقف الحزب اللبناني، ويجده مدخلاً لتغيير صورة التابع الذليل لإيران، والتي أصبحت ملتصقة بالتيار بعد أن كان يدعي العروبة، وذلك من خلال الاقتران المتكرر بينه وبين حزب الله.

---

(١) انظر: مجلة الوطن العربي، العدد ١٥٤٣، ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٦م.

(٢) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٣٣.

وقد نقل موقع الاتجاه الآخر الذي يملكه مشعان الجبوري الناشط العراقي أن مقتدى الصدر في زيارته الثانية إلى طهران اجتمع مع المرشد خامنئي، ونقل عن مرافقين للصدر أن خامنئي قال له: «أرى فيك حسن نصر الله العراق»(١).

وعندما اغتيل الشيخ أحمد ياسين في فلسطين، أعلن مقتدى الصدر أنه في خدمه إخوانه في حماس وحزب الله، وعادة ما يرفع أتباع الصدر رايات حزب الله وصور حسن نصر الله، وتذكر بعض التقارير أن نصر الله لعب دوراً في تغيير مسار مقتدى الصدر وساهم في تمكين طهران من السيطرة عليه، وأطلق نصر الله بعض التصريحات المؤيدة للصدر عندما تعرض لهجمات أمريكية، ورفعت صور الصدر في بعض التظاهرات المحتجة على القصف الأمريكي للنجف(٢).

وقد صرَّح مقتدى الصدر بأنه مع الوحدة التي قال: إن حسن نصر الله تبناها مع حركة حماس، وقال: إنه يعتبر نفسه القوة الضاربة لهما في العراق، وقال: إن هذا الموقف «مما يدخل السرور على قلوب العرب والمسلمين، حيث يوجد في كل بلد قوة ضاربة للعنجهية الأمريكية والصهيونية، وهذه القوة التي تمثل الحق هي قاعدة الإمام المهدي عليه السلام»(٣) وهذا يعني: أن حزب الله في لبنان بمثابة جيش المهدي اللبناني.

ويتشابه حزب الله في لبنان مع تيار الصدر في العراق في كراهيتهما المشتركة لـ«الوهابية» أي: التيارات السلفية في الأمة، ونقلنا في فصل سابق أن نصر الله لا يعتبر هذه التيارات من ضمن الإسلام أو الصحوة الإسلامية(٤)، ويقول عبد الهادي الدراجي من قياديي التيار الصدري في بعض دروسه: «الوهابي نجس كالكلب، بل هو أنجس من الكلب».. عليه من الله ما يستحق(٥).

---

(١) موقع الاتجاه الآخر: http://www.alitijahalakhar.com/archive/140/news140.htm.

(٢) انظر: مقال: هل يوجد محور اسمه حزب الله ـ الصدر؟ هيثم مزاحم، صحيفة ديلي ستار اللبنانية، ٢١/ ٧/ ٢٠٠٤م.

(٣) مقتدى الصدر، صدر العراق الثالث، ص ١٤.

(٤) الباب الثاني، الفصل الثالث.

(٥) من درس يلقيه لأتباعه، وبثته قناة الزوراء الفضائية، ٩/ ٢/ ٢٠٠٦م.

وقد أدت العلاقات القوية بين الفصيلين أن أصبح حسن نصر الله مصدراً لتلقي الشكاوى من رجال دين شيعة في العراق ضد مقتدى الصدر، فقد أرسل إليه بعض هؤلاء من النجف يطالبونه باتخاذ موقف حاسم من مقتدى الصدر وانتقاد تصرفات جيشه في خطابه الذي سيتناول فيه أحداث القصف الأمريكي في النجف، وقال هؤلاء لنصر الله: «إن دعوتكم بلبس الأكفان على نبل غايتها توهم بالدعم للسيد مقتدى وجماعته، حيث إنهم اتخذوا الأكفان شعاراً يرتدونه في خطاباتهم ومسيراتهم وفي ذلك ما فيه، لذا نرجوكم وقد دعوتكم لذلك أن يتميز مظهر الأكفان الخارجي لمناصري حزب الله عن مظهر أكفان جماعة السيد مقتدى في الفصيل وطريقة ارتداء الكفن كي لا يلتبس الأمر على المشاهد فيحسب هذه من هذه»، وقال علماء النجف في ختام رسالتهم وبعد شكاوى كثيرة: «أفلا ترون سيدنا الجليل بعد كل ما تقدم أن التأكيد على مواجهة الاحتلال فقط من دون فضح عصيان جماعة السيد مقتدى لحركة المرجعية العليا المتصدية في العراق يكفي في الدفاع عن العتبات المقدسة، أم أنه إغراء للسيد مقتدى وجماعته بمزيد من التجاوزات على المرجعية»(١)، وطبعاً لم يستنكر نصر الله تصرفات الصدر.

وتحرص قناة المنار على متابعة أخبار مقتدى الصدر خاصة عندما تتصاعد الأحداث، وقد أثنى الصدر في إحدى خطب الجمعة بمسجد الكوفة على قناة المنار بسبب موقفها من خبر لجوئه إلى إيران، فقال: «نشكر بعض القنوات وبالخصوص قناة المنار الفضائية لتعاونها معنا وعدم نقل الخبر بعد أن سمعت تكذيبه منا، أما الآخرين فقد تعاونوا مع المحتل ضد الشعب العراقي»(٢).

وكان حسن نصر الله قد دعا إلى تظاهرة حاشدة احتجاجاً على القصف الأمريكي للنجف، فخرج مئات الألوف في الضاحية يلبسون الأكفان ويهتفون ضد أمريكا تأييداً للعراق، وقال نصر الله خاطباً فيهم: «الموت لأميركا»، وهدد

---

(١) مقتدى الصدر، صدر العراق الثالث، ص ٢٥٤-٢٥٥، وتاريخ الخطاب ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٤م.
(٢) السابق، ص ١٤٥.

أمريكا أن تبتعد عن العتبات وإلا «لن نتخلى عن واجبنا وتكليفنا.. مسيرة اليوم هي الخطوة الأولى على طريق الدفاع عن المقدسات وأي أمر آخر سيقرره تكليفنا ومسؤوليتنا فسنقوم به من دون أي تردد»(١)، ولفظ «تكليفنا» عادة ما يعبر به نصر الله عن أوامر المرشد علي خامنئي، وكانت استجابة الجماهير لدعوة نصر الله إشارة إلى حجم التفاعل مع القضايا الشيعية التي نجح الحزب في حشد الناس من أجلها، خاصة وأنه لم تخرج مظاهرة مثل هذه عندما احتلت أمريكا العراق لأول مرة، ما يدل على الموقف الحقيقي للحزب من الاحتلال.

وقد استفزَّ اهتمام حسن نصر الله بالشأن العراقي الشيعي أعضاء تيار ١٤ آذار، واعتبروا أن نصر الله «الذي اشتهر بنداءات التهدئة إلى العراقيين، لماذا كان دائم الحضور على الساحة العراقية وهو دائم الغياب عن الساحة اللبنانية التي يتخوف الكثيرون من إمكان عرقنتها؟»(٢)، وكانت الحلوى تُوزع في الضاحية ابتهاجاً بإعدام صدام حسين(٣).

وليس من شك في أن نصر الله يمارس دور الزعامة البديلة، أو «كبير القوم» فهو زعيم الحزب صاحب الخبرات السياسية والقتالية والأمنية، وهو محرك الأزمات السياسية في لبنان ومطفئها، ولذلك يمارس دوره من هذا المنطلق، دور الزعامة والتوجيه، وتبادله أغلب الأحزاب الشيعية هذا الشعور، فهم يرفعون صوره ويتخذونه قدوة لهم، وحتى جماعة الحوثي في اليمن كانت ترفع رايات حزب الله وصور حسن نصر الله.

نحن إذاً أمام زعامتين: الحزب يبرز كزعيم للأحزاب الأخرى، وحسن نصر الله يبرز كزعيم للعمل الشيعي في النطاق العربي، ومن خلال موقع الزعامة المزدوجة يمارس دوره السياسي مع هذه الأحزاب.

---

(١) صحيفة السفير، ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٤م.

(٢) فارس خشان، صحيفة المستقبل، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٣) البصرة نت، ١/ ١/ ٢٠٠٧م.

٢ـ المجال العسكري:

تتولى قوات القدس أو جهاز القدس في الحرس الثوري مهمة إدارة العمل الاستخباراتي والأمني والعسكري خارج إيران، أو ما يمكن تسميته بـ «الجهاد الخارجي» لتصدير الثورة، وتتكون من تسعة فيالق، منها: فيلق بدر التابع للمجلس الأعلى العراقي، بالإضافة إلى الفيلق الأول الذي يخدم في العراق أيضاً[(١)]. ويقع تنسيق العمل العسكري الخارجي ضمن إطار عمل هذه القوات.

وإحدى المهام الموكولة إلى قوات القدس اتخاذ ردود الأفعال المقررة في حال تعرضت إيران لهجوم أمريكي مباشر، وقد صدرت تهديدات من عدة مسؤولين إيرانيين توحي بوجود تدبير ما في هذا السياق، وبعضها كان صريحاً جداً، يقول علي محتشمي بور مؤسس حزب الله: «إذا في يوم من الأيام بادر الأميركيون إلى القيام بعمل عسكري جنوني أو عملاً أحمق وبادروا إلى توجيه ضربة عسكرية لإيران، أميركا أينما كانت وأينما يكون لها حضور في الخارج سوف يكون هذا الحضور هدفاً لإيران... إيران لديها نقاط قوة رادعة عسكرية في مختلف أنحاء العالم ضد الولايات المتحدة الأميركية»[(٢)]، وطبعاً هذه النقاط الخارجية تشمل الوجود الشيعي ذا الطابع العسكري الموالي لإيران سواء في أفغانستان، أو في العراق أو في لبنان، كما يشمل القدرات الاستخباراتية والأمنية التي يمكن من خلالها أن تصل إيران لتنفيذ عمليات ضد مصالح أمريكية، على الأغلب في دول عربية قبل غيرها، كما أن كثافة الوجود الشيعي اللبناني في دول غير عربية يجعل من السهل تنظيم الدعم اللوجستي لأي عمليات يقرر القيام بها، وحزب الله يتميز بحضوره القوي في الجاليات اللبنانية الشيعية.

وقد سبق تصريح نصر الله بأن الحزب ينتظر التكليف الشرعي للتنفيذ على الفور، ولذلك إذا ما صدر هذا التكليف فمن المتوقع أن يقوم الحزب بالامتثال غالباً، يقول د. مسعود إلهي: «حزب الله اللبناني نظراً إلى أفكاره وأيديولوجيته أيّد إيران

(١) الشرق الأوسط، ٥/ ٧/ ٢٠٠٥م.
(٢) برنامج (بالعربي)، قناة العربية، ١١/ ٥/ ٢٠٠٦م.

وسعى قدر الإمكان إلى ضرب مصالح العراق والدول الداعمة له في العالم العربي وكذلك في الغرب، وهكذا كان حزب الله مستعداً لاستخدام أي نوع من أنواع العنف السياسي دعماً لإيران»(١)، وتوقع خبراء عسكريون أمريكيون أن تشمل ردود فعل حزب الله عمليات خارج لبنان(٢).

وتعلم طهران جيداً أن حرب التوازنات بينها وبين واشنطن لها أهمية كبرى في تحديد الخيارات الأمريكية نحوها، ويلعب حزب الله دوراً كبيراً في هذا المجال، وقد ذكرت تحليلات غربية أن الحرب الإسرائيلية ضد لبنان كانت مخططاً لها من قبل لشلِّ قدرة حزب الله، وحزب الله نفسه يردد ضمن تفسيراته العديدة لحرب يوليو الماضي أن الحرب كان مقرراً لها موعداً في أكتوبر ٢٠٠٦م، وأنه استبق الفعل لإفقاد إسرائيل عنصر المفاجأة، وقد أيّد هذا الرأي المحلل الأمريكي البارز (سيمور هيرش) في مجلة (ذا نيويوركر)، وقال: إنه إذا كان هناك خيار عسكري ضد إيران فإنه من الضروري القضاء على الأسلحة التي قد يستخدمها حزب الله للانتقام من إسرائيل(٣)، وربما من أجل ذلك كان نصر الله حريصاً على إبراز احتفاظ الحزب بقوته الصاروخية التي تضاعفت بعد الحرب - ٢٠ ألف صاروخ -، أو ربما كانت التقديرات المعلنة قبل الحرب - أكثر من ١٢ ألف صاروخ - أقل من الموجود بكثير، واضطر الحزب إلى كشفها بعد الحرب لتأكيد احتفاظه بقدرة الرد على إسرائيل إذا ما تعرضت إيران لهجوم.

ولا يستبعد أن يشمل التخطيط لردود الأفعال الخارجية كل شبكة حزب الله خارج إيران، خاصة أن الفترة الأخيرة أعطت مجالاً واسعاً للحركة والتواصل مع الحزب اللبناني، ويتحدث شهود عيان في لبنان عن توافد أعداد ملفتة من دول الخليج إلى المناطق التي ينتشر فيها تواجد حزب الله في لبنان، ومن المعروف أن الحزب لديه معسكرات تدريب سرية يستخدمها في تلك الأغراض، سواء لبعض

---

(١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، ص ٣٠٨.
(٢) الشرق الأوسط، ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٣) موقع إسلام أون لاين، ٢٣/ ٨/ ٢٠٠٦م.

الفصائل الفلسطينية المتعاونة معه أو لغيرها.

ويؤكد هذا التوجه لشبكة حزب الله أن الأصل الإيراني أسس منذ نوفمبر ٢٠٠٢م مركزاً لاستقبال المتطوعين للأعمال «الاستشهادية» بحسب تسمية الحزب، وتوعيتهم وتكريس مبادئ الثورة في أذهانهم وتعبئتهم دينياً ونفسياً، ويقود المركز فروز رجائي فر، الحاصلة على شهادة البكالوريوس في هندسة المشتقات النفطية وطالبة الدكتوراه في العلوم السياسية، وهي تزعم أنه استقبل ٥٠ ألف شخص حتى الآن، وتنتمي «فروز» إلى حزب الله وكانت من الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية في بداية الثورة، وتقول في حديث مع صحيفة الرأي العام الكويتية، مبينة مجالات استخدام الأشخاص الذين يؤهلهم المركز: «على دول المنطقة ألا تتوقع البقاء آمنة فيما إذا قدمت تسهيلات عسكرية من معسكرات وقواعد للقوات الأميركية لمهاجمة المنشآت النووية الإيرانية»، وأكدت على أن رجال المركز على استعداد لتنفيذ أي عمليات في مختلف أنحاء العالم إذا تعرضت إيران لهجوم، وأكدت أيضاً وجود تعاون ثقافي وسياسي مع حزب الله في لبنان، ولكنها نفت التعاون العسكري، وكانت المرأة تتحدث من مكتبها في طهران وقد علقت على جدرانه صوراً لحسن نصر الله(١).

وعموماً فإن حجم رد الفعل سيكون متناسباً مع مستوى الهجوم الأمريكي لو حدث؛ لأنه ليس من مصلحة طهران أن تدخل في دورة مستمرة من الفعل وردّة الفعل مع واشنطن، ولذلك يتوقع أن تُبدي قدراً من التوازن في ردود الأفعال إذا ما كانت الأمور والخسائر تحت السيطرة أو كانت الهجمات انتقائية ولم تتمدد لتشمل كافة المنشآت النووية والصاروخية، ومن ناحية أخرى: فإن المستوى الموسع للهجمات بما يتخطى المنشآت النووية ليصل إلى ضرب معسكرات الحرس الثوري ومحاولة إسقاط النظام، سيزيد من صعوبة اتخاذ حزب الله قراراً بتوسيع نطاق ردود الأفعال خارج لبنان؛ لأن المعركة بالنسبة له سوف تكون غامضة.

---

(١) نقلاً عن موقع إيلاف، ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٦م.

ولا يقتصر الدور العسكري لحزب الله على توازن الردع لصالح إيران فقط، بل هناك مجالات أخرى، من بينها:

١ - يستخدم الحرس الثوري عناصر حزب الله في مهام خارجية متعددة، وقد سبق أن أشرنا إلى تواجد هؤلاء في منطقة الأحواز لقمع النشاط الثوري هناك، كما ذكرت مصادر للمعارضة الإيرانية في الولايات المتحدة أن الحرس أرسل نحو ١٠٠ عنصر من حزب الله إلى العراق بعد سقوط صدام، مستفيداً من كونهم عرب وذلك لتجنيد مقاتلين، بل إنه ووفقاً للمتحدث باسم حزب الله في إيران محمد العلوي فإن عناصر الحزب عملت كقوة شرطة محلية في بعض مدن الجنوب، كما أن عناصر حزب الله قامت بتهريب عراقيين فروا إلى إيران منذ سنوات طويلة[١].

٢ - يأتي التعاون بين جيش المهدي وحزب الله في مقدمة الأنشطة العسكرية الخارجية للحزب، وتتعدد أوجه التعاون العسكري بين الطرفين تحت إشراف الإيرانيين، ومن المهم التذكير بأن جيش المهدي هو من يتولى الأعمال القذرة ضد السُّنة في العراق، وبذلك يتحمل حزب الله اللبناني مسؤولية أكيدة لا مجال لإنكارها عن هذه الدماء، فلا عمل لجيش المهدي في العراق سوى قتل السُّنة، ولهذا تسمى بهذا الاسم، وبحسب المعلومات الواردة في الغالب من مصادر استخباراتية غربية، فإنه يمكن تحديد أهم أوجه التعاون، فمنها: اتفاق الطرفان أثناء زيارة مقتدى الصدر إلى بيروت في عام ٢٠٠٤م أن يتم تكوين «فيلق الحسين» وقوامه ٥٠٠٠ آلاف من العراقيين واللبنانيين، وتكون مهمته التدخل لإنقاذ الطرف الذي يتعرض إلى هجوم أو تصفية، وكان مقرراً مشاركته في هجمات جيش المهدي على المناطق السُّنية في بغداد، ومنها: وجود مكاتب لحزب الله قرب مكاتب جيش المهدي في العراق، ومشاركة نحو ٣٠٠ عنصر من حزب الله في تدريب عناصر جيش المهدي[٢]، ومنها: تدريب ما بين ألف إلى ألفين مقاتل من جيش المهدي في لبنان

---

(١) منال لطفي، مقال: أمريكا إيران، المعلومات غير المعلومة، الشرق الأوسط، ٢٩/٩/٢٠٠٦م.

(٢) موقع صحيفة الأهالي العراقية، نقلاً عن صحيفة السياسة الكويتية، والمعلومات منسوبة إلى تقرير استخباراتي ألماني.

وذكرت بعض التقارير أن هناك تسهيلات سورية قدمت في هذا الشأن، ومنها: تصريح أحد قادة مجموعات جيش المهدي أن تياره أرسل نحو **٣٠٠** من أفضل المقاتلين لدعم حزب الله في حرب يوليو ٢٠٠٦م[١]، ومنها: سفر نحو **٣٥** قيادياً في جيش المهدي إلى لبنان بدعوة من حزب الله في **٢٥ / ١٠ / ٢٠٠٦م**، ومن بين المسافرين المدعو «أبو طالب النجفي» صاحب الإنجازات في قتل وتهجير السُّنة في مدينة الحرية[٢].

٣ ـ حزب الله اللبناني له علاقة غامضة بتمرد الحوثي في اليمن، ومن المعروف أن الحوثي ـ الابن والأب ـ قد زارا لبنان بعد إيران، قبل أن يعودا إلى اليمن ويتفاعل تنظيم الحوثي بقوة[٣]، وكون هذه العلاقة غامضة، لا يعني النفي ولكنه يعني قلة المعلومات حول مستوى التعاون والدعم، خاصة وأن الحوثي كان يبدو واضح الحماسة لحزب الله وزعيمه نصر الله، وهو حماس لن يأتي من فراغ.

٤ ـ التعاون بين أعضاء شبكة حزب الله عسكرياً هو من قبيل المعلوم بالضرورة؛ لأن هذا هو الغرض من إنشاء هذه الشبكة، خاصة وأن هذه الأحزاب تتبنّى نظرية ولاية الفقيه[٤]، وهي نظرية تجعل من هذه الأحزاب قنبلة موقوتة يضبط زمن تفجيرها من قِبَل طهران، وسعت بعض تلك الأحزاب إلى التطور ـ أو التكيف ـ مع الأحداث، وبدلت اسم الحركة أو أبقته للعمل العسكري، واختارت اسماً جديداً للجناح السياسي، كما أن حزب الله اللبناني قياساً بهذه الأحزاب يعتبر في المقدمة بما له من إنجازات سياسية وعسكرية، وهو ما يجعله في مقام الراعي لهذه الأفرع العربية.

---

(١) العربية نت ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٦م، نقلاً عن نيويورك تايمز.

(٢) موقع المختصر للأخبار.

(٣) تمرد الحوثي في اليمن، أنور قاسم الخضري، التقرير الاستراتيجي السنوي، مجلة البيان، الإصدار الثالث.

(٤) الجزيرة نت، مقال: الأحزاب المرتبطة بولاية الفقيه، ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٦م.

٣ـ التعاون الأمني والاستخباراتي:

تمكّن حزب الله من توظيف الجالية اللبنانية الشيعية الممتدة عبر أنحاء العالم في أداء عدد من المهام لصالحه، من أبرزها: تمويل الأنشطة الخاصة، والقيام ببعض عمليات التمويل، مثل: عمليات الاتجار بالمخدرات في أمريكا اللاتينية والتي كُشفت مؤخراً وأشرنا إليها في الباب الثاني.

ويستخدم الحزب هذه الجالية أيضاً في توفير دعم لوجستي لعملياته الأمنية والاستخباراتية، وقد كانت عملية اختطاف العقيد الإسرائيلي المتقاعد (إلحنان تيننباوم) نتيجة تعاون مع جهاز الاستخبارات الإيراني «واواك» في ثلاث دول أوروبية بالإضافة إلى لبنان حتى تم الإيقاع به(١)، وبما أن الجالية اللبنانية منتشرة في أغلب الدول العربية القريبة من إيران، فإن التواصل المعلوماتي على الأقل سيبقى متوفراً للحزب، يقول أمير موسوي الباحث السياسي الشيعي: «لحزب الله أيادي قوية في المنطقة وفي العالم، وله أنصار كثيرون بالآلاف في العالم منتشرون، وله يعني موارد مالية عميقة جداً وعلى مستوى عالٍ جداً في كل أنحاء العالم»(٢).

ويمثل عماد مغنية «رأس حربة» حزب الله خارج لبنان، وهو منسق ومدبّر أغلب العمليات التي تنفذ بالخارج، وترجح تقارير استخباراتية صلته بعمليات تفجيرية نفذت في الخليج منتصف التسعينيات(٣).

ويشير مركز استخبارات الإرهاب ـ وهو مركز إسرائيلي ـ إلى أن حزب الله مستمر لغاية اليوم في إقامة بنية تحتية تنفيذية في الخارج، تعتمد على شبكة من الناشطين الخاملين والوسائل القتالية المنتشرة في أنحاء متفرقة، وهذه البنية جاهزة للاستخدام حينما يطلب منها ذلك(٤).

---

(١) الشرق الأوسط، ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٠م.

(٢) برنامج (العين الثالثة)، قناة العربية، الحرب بين إسرائيل وحزب الله هل كانت مدبرة؟ ٣/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٣) جيمس ريزن، نيويورك تايمز، الشرق الأوسط، ١٨/ ١/ ٢٠٠٢م.

(٤) موقع مركز استخبارات الإرهاب، ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

ويلعب حزب الله دوراً محورياً في تنقلات المؤسسات الإيرانية وتحويلاتها وعلاقاتها، ومؤسسة الشهيد الإيرانية على سبيل المثال ـ ولها فرع كبير في لبنان ـ لها امتدادات في حوالي ١٢ دولة من بينها لبنان، ولها دور أمني أيضاً تقوم به من خلال عملائها المنتشرين في هذه الدول[١]، ويلعب المسؤولون الإيرانيون المتنقلون بين عدد من سفارات طهران دوراً كبيراً في نقل الخبرات والاتصالات، ومن هؤلاء: محمد تسخيري الذي كان مشرفاً على المنظمة الثقافية للاتصالات الإسلامية، وهي تابعة لوزارة المخابرات، وكان يتحكم في اختيار الملحقين الثقافيين في المراكز الإسلامية الإيرانية المنتشرة في الخارج، وقد عمل تسخيري في سفارة بلاده في لبنان عدة سنوات، وله علاقات وثيقة بحزب الدعوة العراقي وأنصار حزب الله في منطقة الخليج[٢].

ومن الشخصيات التي انطلقت من الواقع اللبناني لتمارس دوراً أمنياً في العالم العربي: أحمد كنعاني، وهو من رجال الحرس الذين شاركوا في تأسيس حزب الله في لبنان، ثم بعد تنامي خبرته السياسية والأمنية، انتقل لتمثيل بلاده في تونس في مرحلة الثمانينيات التي كان حزب النهضة متواجداً فيها على الصعيد الداخلي[٣]، وذلك في محاولة لاختراق الحركات الإسلامية السُنية، وقد استطاع بالفعل تجنيد بعض العناصر التي دفعها للمشاركة في عمليات التفجير التي نفذها الحزب في فرنسا منتصف الثمانينيات، وقد عين بعد تونس سفيراً في مدغشقر[٤].

ثالثاً: التشيع السياسي:

منذ بداية الثورة الخمينية وهي تتخذ من القضية الفلسطينية مدخلاً للنفاذ إلى الأمة وغطاء لتبرير التحركات السياسية والعسكرية لأنصارها وأحزابها، وكان عرفات هو أول من سمح للخمينية أن تخترقها، وفي حوار مع هاني الحسن ـ أول مدير لمكتب منظمة التحرير في طهران ـ أجرته مجلة الشهيد الإيرانية، قال

(١) صنع القرار في إيران، ص ١٥١.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) صنع القرار في إيران، ص ١٤٧.
(٤) دولة حزب الله، ص ٤٧٦.

الصحفي: بعد خروج مصر المؤقت من المواجهة؟ ما هو البديل الذي ترونه لمواجهة إسرائيل؟ فقال الحسن: «البديل هو جبهة تكون إيران طرفاً فيها، وأن الله سبحانه وتعالى وقد وجد مصر خرجت مؤقتاً، أعطانا إيران وإلى الأبد إن شاء الله»(١).

والتشيع السياسي له عدة مستويات، وليس كلها على الدرجة نفسها من الخطورة:

أولها: تأييد مطالب وحقوق الجهة الشيعية الداعمة.

وثانيها: تبنِّي المواقف السياسية للجهة الشيعية الداعمة.

وثالثها: تغيير المواقف السياسية لتناسب الجهة الشيعية الداعمة.

ورابعها: تبنِّي توجهات الجهة الداعمة في قضايا الطرف المتلقِّي للدعم.

وهكذا فالقضية الفلسطينية، ومن ثم الفصائل الفلسطينية، هي هدف تسعى إيران إلى اختراقه من أجل الاستحواذ على قرار المقاومة داخل فلسطين، ليكتمل الهلال بصورته التي عبَّر عنها نعيم قاسم في حواره الذي أشرنا إليه، وهنا ينبغي أن نفرق بين أمرين: بين حقيقة النجاح الذي تحقق على هذا الصعيد، وبين محاولات التدليس التي يمارسها الإيرانيون وأتباعهم في هذا المجال.

فالشيعة يخلطون كثيراً بين الهدف وبين الإنجاز، فيعتبرون أحدهما كليهما، وفي غمرة تأثره العاطفي بتعزية علي خامنئي له في وفاة ابنه هادي، كتب حسن نصر الله رداً حماسياً، قال فيه: «إنني أؤكد لسماحتكم أن دماء هادي الشهيد وسائر الشهداء من أبنائكم في لبنان وفلسطين ستؤجج نار المقاومة، وستقوي تنور الجهاد ليبقى مشتعلاً، وتوقظ الضمائر وتستنهض الهمم، وتتم الحجة الإلهية على كل المترددين والساكتين والمنتظرين»(٢)، وهذا دمج غريب بين لبنان وفلسطين، فلماذا يتحدث نصر الله باسم المقاومة الفلسطينية دون أن يكون مخولاً بذلك من أحد؟ هذا هو ما نعنيه بعدم التفرقة بين الهدف والإنجاز، هو يريد أن يكون متحدثاً منفرداً باسم المقاومة داخل لبنان وخارجها؛ لأنه «سيد» المقاومة، ولكن هذا الهدف

---

(١) إيران بين التاج والعمامة، ص ٤٩٣.
(٢) هكذا تكلم نصر الله، ص ٢٣١.

لم يتحقق بعد، إذاً لا بأس لنعتبره إنجازاً، وسيصدقه الناس.

وأبرز فصائل المقاومة ذات العلاقة القوية بحزب الله وإيران، حركتا: حماس والجهاد الإسلامي، وبعيداً عن الاستغراق الجدلي أو المعلوماتي في تحديد مستوى الاختراق الإيراني أو اللبناني للحركتين، فإنه يلزم مناقشة أمر مهم، وهو: هل لجوء الحركتين إلى الدعم الإيراني اضطراري أم اختياري؟ إن أكل الميتة يجوز خشية الهلاك، فهل كان قبول الدعم الصفوي على سبيل إنقاذ المقاومة من الزوال، أم على سبيل التخمة؟

يوفر حزب الله لقيادات في حماس ملاذاً آمناً في لبنان المفتوحة أمام جميع أجهزة المخابرات العالمية، كما يوفر لهم حرية في الحركة والأداء والانتقال، وهذه القيادات مهددة تهديداً جدّياً في كل وقت بالاغتيال، والسؤال: كم بلد عربي يستطيع أو يقبل أن يوفر لقادة حماس هذه المزايا؟ إن أهم وسائل كسر الحصار المفروض على حكومة حماس تأتي من إيران وسوريا وحزب الله، أي: دول الهلال، لا نريد أن نلقي بقادة المقاومة في الماء ثم نحذرهم من البلل، بل ينبغي أن يظل السؤال دوماً عن المجالات المفتوحة أمام المهدد بالدخول إلى النفق المظلم.

وهذا السياق ليس تبريرياً، بقدر ما هو مقدمة لنقد لا مفرَّ منه تجاه حركتي حماس والجهاد، وهو أن الارتباط مع دولة لها مصالحها وتطلعاتها شيء، والارتباط مع محور إقليمي شيء آخر، فالقدرة على المناورة والتفلّت واردة في الحالة الأولى، ولكن في الحالة الثانية تكون الاستقلالية صعبة المنال، وإذا كان مدخل الاستحواذ هو التفرد بتقديم الدعم، فإنه يصبح من مصلحة هذه الدول أن تظل حماس والجهاد مفتقرتين إلى أي دعم، وقد يتحمل المرء تشيعاً من النوع الأول ولكن لا ضمانات تكفل عدم الانزلاق إلى الثاني فالثالث فالرابع.

وما يقال للجهاد الإسلامي مضاعف، فالأخبار عن تشيع عدد من كوادر الحركة لم يعد بالإمكان تجاوزها أو إنكارها، وما ينقل عن بعض القادة في مناسبات لا يمكن تقبله في سياق المجاملات العادية، والرهان على تشييع الحركة من جهة إيران وحزب الله ليس بسيطاً، وتذكر تقارير قيام عماد مغنية بالحصول على الجنسية اللبنانية

لعدد من أبرز المتحمسين لإيران داخل الحركة، وتسهيل علاقات بعضهم مع الحرس الثوري الإيراني، وتحميلهم مهمات خاصة في الداخل الفلسطيني(١).

كما أن اعتماد الحركة على حزب الله في تلقي مختلف أنواع الدعم لا يتناسب مع حجم العمل العسكري للحركة في فلسطين، يعني هي تُحمِّل نفسها تبعات دعم تتلقاه ولا تنتفع به إلى مداه، وهذا أمر يجب إعادة النظر فيه قبل أن يتحول الدعم إلى وعد صادق آخر بتشييع فلسطين كلها.

وبعيداً عن حماس والجهاد فإن حركة فتح تعرضت لاختراق إيراني مباشر عن طريق حزب الله؛ لأن الساحة الفلسطينية بالنسبة لإيران ليست قضية أمة أو دين، بل هي ورقة سياسية تحاول تجميع أكثر أطرافها لتتمكن من تفعيلها سياسياً، وقد اعترف زكريا الزبيدي قائد كتائب شهداء الأقصى في جنين بأن تنظيمه يحصل على مساعدات تنفيذية من حزب الله اللبناني، وأدلى الزبيدي بحديث لصحيفة ألمانية اسمها (Welt am Sonntag) في ٦ / ٣ / ٢٠٠٦م ونقلت صحيفة الرأي العام الكويتية فقرات من الحوار، وجاء فيه اعتراف الزبيدي بأن حزب الله يقدم «لتنظيمه: المساعدة المالية، السلاح، والإرشاد» وقال الزبيدي: «لولا مساعدة إخوتنا في حزب الله لما كنا قادرين على الاستمرار في نضالنا... نحن ننسق معهم عملياتنا»، ويأتي اعتراف الزبيدي غير مألوف بالنسبة لأحد قادة الفصائل المسلحة التي شاركت في الانتفاضة، وكان الزبيدي ينفي علاقة فصيله بحزب الله من قبل، وفي حوار أدلى به في أغسطس عام ٢٠٠٤م، قال: «هذه الإشاعة ليست صحيحة وأنه على فرض حدوثها -أي: حصول كتائب الأقصى على مساعدات من حزب الله- فما المانع في ذلك، حزب الله حركة عربية وهي لم تهبط من القمر»(٢)، فما الدافع الذي جعل الزبيدي يبدل تصريحاته بهذه الصورة؟ وهل يُحتمل أن يكون الاعتراف بعد الإنكار من ضمن «الإرشاد» الذي يقدمه حزب الله لأهداف سياسية؟

---

(١) الحوادث، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٢) موقع مركز استخبارات الإرهاب، وهو موقع إسرائيلي شبه رسمي، ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٦م.

وفي فبراير ٢٠٠٤م اعتقلت سلطات العدو الصهيوني رعد منصور وابنه ضياء من الكوادر القيادية لفتح / التنظيم، وقدموا اعترافات بوجود صلة بينهم وبين حسين الشيخ أمين سر حركة فتح في الضفة الغربية، وأيضاً بارتباطهم مع عناصر من حزب الله لتنسيق أعمال الانتفاضة، كما اعتقلت أكثر من خلية قدمت اعترافات مماثلة(١).

والغريب أن حزب الله المحتكر للمقاومة من جنوب لبنان، والمشارك في منع تسلل الفلسطينيين عبر الحدود لتنفيذ عمليات فدائية، يعطي لنفسه حق التدخل في أعمال الانتفاضة وتوجيهها والتأثير في توجهها تصعيداً أو تهدئة عبر الخلايا التي يخترقها من حركة فتح.

ومما يثير الريبة في هذه القضايا أن العدو الصهيوني لم يتخذ بعد كشف هذه المعلومات أي إجراءات عقابية أو يهدد الحزب تهديداً جدياً، بخلاف ما كان يفعل عندما تنفذ عملية فدائية لحركة الجهاد تحديداً، فيوجه التهديدات المباشرة إلى سوريا، ولكن مع حزب الله كان السياق مختلفا؛ لماذا؟!!

وتُعدّ سفينة الأسلحة (كارين إيه) التي أفشل الصهاينة تهريبها إلى السلطة الفلسطينية في ٣/١/٢٠٠٢م مثالاً آخر على اختراق «فوقي» إيراني لحركة فتح، وبمساندة من حزب الله الفرع اللبناني، وقد نقلت المصادر الإسرائيلية اعترافات التحقيق التي أدلى بها فؤاد الشوبكي أمين سر ياسر عرفات وكبير رجال المالية، وكان من ضمن المعتقلين في سجن أريحا والذين أعادت إسرائيل اعتقالهم من جديد، وقال الشوبكي في التحقيق: إن الحرس الثوري الإيراني بالمشاركة مع حزب الله وجبهة أحمد جبريل كانوا يقفون من وراء صفقة السفينة (كارين A) وقد قاموا بتمويلها، وتذكر السلطات العبرية أن هذه الأسلحة كانت مخصصة للسلطة وأنها لو وصلت إلى كتائب شهداء الأقصى لأحدثت تطوراً ملحوظاً في الأداء(٢).

وبعيداً عن احتمالات توجيه عرفات هذه الأسلحة بالفعل إلى الانتفاضة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) موقع مركز استخبارات الإرهاب، وهو إسرائيلي، ٢٥/٥/٢٠٠٦م.

ـ وهو أمر مشكوك فيه ـ فإن إصرار إيران وحزب الله على اختراق فتح يعطي فكرة واضحة أن القضية ليست تأييد حركات جهادية إسلامية، أو التعاون مع قواعد المقاومة، فأساليب الاختراق تشمل الجميع، الإسلاميين وغيرهم، والاختراق من القاعدة أو من الرؤوس، المهم أن يصبح القرار الفلسطيني مرهوناً بنسبة كبيرة قدر الإمكان للدعم الإيراني وذراعه في لبنان حزب الله، وقد كشف الشوبكي أيضاً عرض إيران تقديم المساعدات المالية لسلطة عرفات بواسطة تحويل الأموال والتبرعات إلى الداخل، وإقامة المصانع لإنتاج الوسائل القتالية، وتدريب الأشخاص على تقنيات تصنيع الأسلحة المتطورة والتدريبات العسكرية، ولكن تخوف عرفات على حياته من الإيرانيين منعه من قبول تلك العروض[١].

ومن مظاهر التشيع السياسي كاستراتيجية صفوية يطبقها حزب الله، نجاحه في بسط نفوذه على منظمات فلسطينية أخرى ثم سرقة نضالاتها وتضحياتها، وكما يذكر محمد أسعد بيوض التميمي[٢] أن «معظم العمليات النوعية قبل انسحاب الكيان اليهودي من جنوب لبنان، قام بها شباب فلسطينيون من تنظيم الجبهة الشعبية القيادة العامة بزعامة أحمد جبريل، حيث قدم هذا التنظيم ٧٥٠ قتيلاً من مجموع ١٥٠٠ قتيل أعلن عنهم الحزب، دون أن يذكر دور هؤلاء المقاتلين الفلسطينيين ولو بالإشارة في يوم من الأيام، فالحزب قد استغل تعطش هؤلاء الشباب لقتال عدوهم ـ غلق الحدود العربية في وجوههم ـ حتى يبني أمجاداً على جماجمهم».

ويؤكد هذه المعلومات أن أحمد جبريل زعيم الجبهة الشعبية ـ الموالية لسوريا ـ ذكر في حوار مع صحيفة صدى البلد اللبنانية أن هناك تعاوناً تنفيذياً بينه وبين حزب الله، بل قال صراحة: «إننا شركاء حزب الله، وقد حاربنا لسنوات طويلة تحت رايته»، وقال: «توجد لدينا خطط مشتركة مع حزب الله في جميع المجالات

(١) المرجع السابق.
(٢) كاتب فلسطيني، مفكرة الإسلام، ٢٠/ ٩/ ٢٠٠٦م.

وخاصة المجال العسكري»، وقال جبريل: إنه توجد لجبهته في لبنان ١١ قاعدة، وهو موال لسوريا ويقيم في دمشق(١).

وفي مواجهة التجمعات السُّنية في لبنان، يحاول حزب الله أن يستغل إمكاناته المالية لاستمالة عدد من الرموز والدعاة والسياسيين، وقد ذكر الشيخ محمد الجوزو في فقرة سابقة الأئمة الذين يتلقون مرتبات من الحزب، واتهم مسؤولون في الجماعة الإسلامية في لبنان حزب الله بأنه «عمد ومن خلال وسائل إعلامه إلى تبنِّي بعض الشخصيات التي تركت الجماعة وتقوم بتحركات مستقلة، كما أن بعض هذه الجماعات تتلقى رعاية مميزة من الحزب على الصعيد العملي، وكل ذلك يترك بعض التساؤلات والإشكالات حول الأهداف الكامنة وراء هذه الرعاية، خصوصاً أن الأوساط الشعبية في الساحة الإسلامية بدأت تتحدث عن محاولات لاختراق الساحة السُّنية من حزب الله، وهذا ليس لمصلحة الحزب والمقاومة»(٢).

حاول نصر الله أن يخفف من وطأة الاتهامات، ويستر تحركاته بخطابه المثالي، ولكن العبارات خانته ـ كما يحدث كثيراً ـ فأعطى تفصيلاً أوضح عن تحركات حزبه لشق السُّنة في لبنان، فقال: «نحن طلبنا من عدد من مسؤولينا السياسيين وأطر العلاقات عندنا أن تقيم علاقات مباشرة حتى مع العائلات، أي: نذهب إلى بيوت العائلات ونجتمع مع وجهاء العائلات ونقدم لهم أنفسنا لنشرح لهم لنجيب على تساؤلاتهم لنقيم معهم علاقات مباشرة... للأسف وجدنا أن هذا النوع من التحرك قد يثير بعض الحساسيات وقد يسلط عليه الأضواء بطريقة غير مناسبة، ليقال إن حزب الله يريد أن يخترق الساحة السُّنية، وهذا أهون مما حاول البعض أن يروجه بأن لدى حزب الله مشروع تحويل السُّنة إلى شيعة ودعوة بعض السنة إلى التشيع، وهذه أكاذيب وافتراءات لا أساس لها من الصحة»(٣)، وهذا الإنكار الشديد لجهود نشر التشيع تبدو ساذجة جداً، فلا يمكن تخيل زعيم شيعي ديني متعصب لطائفته

(١) صحيفة صدى البلد، ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٦م.
(٢) مقال: سُنة لبنان بن سندان السذاجة ومطرقة المكر، موقع الساحات، ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) حوار مع صحيفة السفير، ٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.

ولمرجعه بهذه الصورة ولا يتبنى مشروعاً لتشييع السُّنة، وقد كان فضل الله في مراحله الأولى أكثر صراحة، فعندما سئل عن رئيس دولة عربية قال في مؤتمر صحفي: نحن مسلمون ولسنا شيعة؛ قال فضل الله: «نتمنى أن يكونوا مسلمين لأنه إذا كانوا مسلمين صاروا شيعة؛ لأن كلمة التشيع إنما هو الخط الإسلامي الأصيل الذي ينفتح على الإسلام من أوسع أبوابه»(١).

ويمكن أن نلحق بالتشيع السياسي نمطاً آخر ذا طابع جماهيري، وهو ناتج عن التأثر بأداء الحزب في حروبه - المضخمة - مع إسرائيل، حيث يُبدي كثيرون تعصباً للحزب ولزعيمه، وهو ما جعل نصر الله يشعر بالزهو من ذلك، قال: «حزب الله، أو أنا شخصياً صرنا نحظى باحترام كبير في العالمين العربي والإسلامي، وبثقة ومصداقية نتيجة السلوك والتضحيات والصمود والانتصار والإنجاز وكون المواجهة مع عدو هؤلاء جميعاً من العرب والمسلمين»(٢).

يقول رئيس مجلس الشورى الإيراني غلام علي حداد عادل: «حزب الله قد تحول إلى فكر وعقيدة في العالم الإسلامي... هذا الحزب أصبح لا يقتصر على بلد ما بل تحول إلي ثقافة ونمط، هذه الثقافة توسعت دائرتها إلي جميع أنحاء العالم الإسلامي، والدلالة على ذلك هي أن الشعوب الإسلامية بدءاً بأندونيسيا وحتى المغرب العربي أطلقت هتافات: حزب الله هو المنتصر، وحملت صور السيد حسن نصر الله في مسيراتها»(٣).

وفي أحد المساجد في الإسكندرية - مصر - ثار المصلون في وجه إمام المسجد وخطيب الجمعة؛ لأنه طلب منهم ألا يؤيدوا حزب الله بسبب طائفيته، فهاجموا عليه وسخطوا منه(٤)، يقول الكاتب محمد مورو: «حزب الله هو القوة الوحيدة العربية التي فعلت شيئاً من أجل الفلسطينيين، وهذا بالطبع يعيد إليها شيئاً من المشروعية الشعبية التي فقدتها بسبب مواقف شيعة العراق»(٥).

(١) فتاوىٰ فضل الله، فتوىٰ رقم ٢٥٦٧.
(٢) حوار مع صحيفة السفير، ٥/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٣) موقع وكالة أنباء إرنا الإيرانية الرسمية، ١٥/ ٨/ ٢٠٠٦م.
(٤) موقع بوابة العرب، ٦/ ٩/ ٢٠٠٦م.
(٥) د. محمد مورو، مقال: حزب الله، السم الذي لا يميتني لا يؤذيني، الجزيرة نت.

رابعاً: حزب الله.. نموذجاً:

في تقديمه لحواره مع حسن نصر الله، قال غسان بن جدو ـ مدير مكتب قناة الجزيرة في بيروت والمتحمس لحزب الله دوماً ـ: «السيد حسن نصر الله رمز أساس للمسلمين، واسمح لي بالقول: للشيعة بشكل كبير، وحزب الله أصبح نموذجاً في العالم العربي»(١).

أي: دعوة لكي تنجح يلزم لها «نموذج» تطبيقي يصور كيف تتحول هذه الدعوة إلى واقع فعال ومؤثر، وقد كان تصدير الثورة الخمينية في بدايتها سهلاً نسبياً، لكن مع الوقت لم تعد إيران تصلح نموذجاً للثورة تحفز الأقليات الشيعية من أجل الاقتداء به، ليس لأنها فقدت أهدافها أو مشروعها، بل لأنها أصبحت دولة كبيرة بكل ما يحمله ذلك من معاني ودلالات، ومع كونها المصدر الأهم للأيديولوجية والدعم والخبرات الفنية والبشرية، وهي صاحبة المشروع الشيعي بالأساس، إلا أن ذلك لا ينفي الحاجة إلى نموذج يصلح للاقتباس المباشر منه، فإيران لم تكن تتعامل مع دول شيعية تريد تصدير الثورة إليها، بل تتعامل مع أقليات شيعية في دول سُنية، وهذا واقع يحتاج إلى استراتيجية خاصة، ولا يكفيه عمليات الشحن الثوري والأيديولوجي أو حتى التدريب العسكري، الأمر أشبه بمقارنة بين عدة أجيال، حيث يكون التواصل بين الأجيال القريبة أكثر من الأبعد.

وهذا ما يفسر جزءاً من الاهتمام الإيراني المبكر بلبنان، يقول حجة الإسلام فخر روحاني، سفير إيران في بيروت عام ١٩٨٤م: «بسبب موقع لبنان، وهو قلب المنطقة وأحد أهم المراكز العالمية، فإنه عندما يأتي لبنان إلى أحضان الجمهورية الإسلامية، فسوف يتبعه الباقون»(٢).

ولذلك يُقدّم نموذج حزب الله باعتباره «المقاس» المناسب للأقليات الشيعية في المنطقة، فهو حزب، وليس دولة، ويمثل طائفة تبلغ نسبتها الثلث تقريباً،

(١) برنامج (لقاء خاص)، قناة الجزيرة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣م.

(٢) حوار مع صحيفة إطلاعات الإيرانية في ديسمبر ١٩٨٤م، مقال: انتصار حزب الله، ج ٢، محمد سرور زين العابدين، مجلة السنة.

وهو يوازن ما بين العمل السياسي والعسكري، ويحمل خطاباً للأمة كلها، ويبرز على أنه حركة نضالية تنافح عن القضية الفلسطينية في مواجهة العدو الأول للمسلمين إسرائيل ومن ورائها أمريكا.

فهناك نقاط تماس كثيرة يمكن التواصل من خلالها، وخبرات تفصيلية يومية يمكن الاستفادة منها، وكذلك هناك سهولة في التلاقي وتكوين العلاقات، بخلاف إيران التي تكون العلاقات المباشرة معها مثار جدل ومشكلات أحياناً، وتبقى التوجيهات والتكليفات والأوامر الهامة من حق إيران، وهي التي تخطط وتوزع الأدوار الاستراتيجية.

وتركز تأثير حزب الله بالأساس في شبكة «حزب الله» الإيرانية العالمية، وكانت أعلام الحزب ورايات وشعاراته ترفع في مرحلتين ثوريتين، الأولى: عند بداية الثورة الخمينية واستمرت لعدة سنوات بعد تأسيس الحزب عام ١٩٨٢م، والثانية: بدأت بعد الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠م، ولكنها تنامت بقوة في عام ٢٠٠٦م، بعد الحرب الإسرائيلية على لبنان.

وعندما يدخل حزب الله في إحدى مواجهاته فإنه تثور على الفور المظاهرات المؤيدة والمبالغة في إظهار التضامن، وهي في رأيي ليست ظاهرة عادية، بل لها بُعْد نفسي ينمُّ عن الرغبة في إظهار المكنون الذي راكمته قرون الانتظار بعد غيبة «المهدي»، وفي البحرين لقيت أعلام حزب الله أثناء فترة الحرب رواجاً كبيراً إلى «درجة أن بعض المحلات أرسلت طلبية لإحدى الدول المجاورة -إيران طبعاً- لاستيراد كمية من الأعلام بغية تزويد محله بها بعد نفاد الكميات الموجودة»، وطبع اسم نصر الله على الملابس والقبعات التي بيعت من أجل جمع التبرعات لحزب الله اللبناني (١).

لكن رفع الأعلام والرايات ليس إلا وسيلة للتعبير عن المشاعر، أما الخبرات والتجارب والاقتداء بالحزب، فهي عملية مستمرة منذ تأسيسه، وحتى أن تحولات الحزب السياسية رافقها أو لاحقها تحولات مماثلة لدى الأفرع الأخرى، وعلى سبيل

(١) انظر: موقع إنباء الإخباري الشيعي، ٧/ ٨/ ٢٠٠٦م.

المثال: فإن حزب الله الكويتي شارك أعضاؤه في الانتخابات النيابية بعد حرب الخليج الثانية(١)، وكذلك الحال مع حزب الله البحريني الذي تحول إلى العمل السياسي بعد تغيير اسمه، وقد تأخر هذا التحول؛ لأن السماح بالعمل السياسي نفسه هو الذي تأخر، ومع ذلك تحتفظ أغلب الأفرع بأجنحة عسكرية أو نشاطاً عسكرياً في مطابقة أخرى لأداء حزب الله من حيث المزاوجة بين القوتين السياسية والعسكرية.

كان للفرع اللبناني ـ النموذج ـ تأثيرات ثقافية وثورية في حركات شيعية أخرى، وكان الحوثي اليمني ـ كما ذكرنا ـ متأثراً بحزب الله جداً، وقد وجد في حوزة أتباعه المعتقلين بعض الكتب والمطبوعات الفاخرة لكتب الطائفة، طبعت في بيروت، كما وجد كتاب «عصر الظهور» لمؤلفه علي الكوراني ـ وهو لبناني قريب من حزب الله ـ الذي ربما أحدث خللاً فكرياً وتأثيراً واضحاً في حركة حسين الحوثي، ويتحدث الكتاب عن شخص يماني اسمه حسن أو حسين سيظهر قائداً لثورة هي أهدى ثورة في عهد ظهور المهدي، وأنه ينتمي إلى قرية في صعدة موطن الحوثي، وهذا الكتاب يوزع في مناطق الشيعة بيد أنصار حزب الله.

وفي داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، فإنه بدأ الحديث يدور حول انتشار شيعي وإن كان محدوداً للغاية، إلا أن التقارير تتحدث عن دعم وجهود مبذولة خاصة في أوساط بدو النقب، وفي إحدى المطبوعات الشيعية المتداولة هناك، عبارات تقول: «نحن الشيعة أتباع المذهب الصحيح، سنصحح لهذه الأمة عقولها وسنجعلها باهية مرضية، كما قال الذكر العزيز... يا غفار بارك في الشيخ حسن نصر الله وحامي اللواء الشيعي الإسلامي الرئيس أحمدي نجاد وسدّد خطاهم وامنع عنهم كل مكروه يا رب العالمين»(٢).

ولا يتوقف تأثير «نمذجة» حزب الله على العرب الشيعة أو السُّنة فقط، بل يتعداه إلى العدو الصهيوني أيضاً، حيث يعتبر عسكريون واستراتيجيون

(١) الجزيرة نت، ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٦م.
(٢) صحيفة السياسة الكويتية، ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

إسرائيليون أن حزب الله نموذج متميز ينبغي تكراره في فلسطين، ونقلت صحيفة القدس العربي عن مسؤول إسرائيلي سابق أنه «على إسرائيل إيجاد نصر الله في غزة للتعامل معه» (١).

حقاً لقد أصبح حسن نصر الله سلعة مطلوبة من الجميع، وطلبات التصدير لا تتوقف على أعتاب الضاحية الجنوبية، إلا أنه يبقى جهة واحدة لن يمكنها الاستفادة من سلعة طائفية كهذه، وهي: أهل السُّنة والجماعة.

(١) مقال: مسرحية حزب الله ومجازر السُّنة في بغداد، أحمد موفق زيدان، شبكة نور الإسلام.

الفصل الرابع: اختراق الشارع السُّني

عندما عزم الخميني على إصدار دستور دائم للجمهورية الإيرانية، نص في أحد بنوده على «إثني عشرية» الدولة، وحاول ياسر عرفات من خلال علاقته مع الخميني أن يقنعه برفع هذه المادة، حتى تكون إيران ـ حسب تعبيره ـ جمهورية لجميع المسلمين، لكن الخميني أصرَّ وخيَّب ظن الواثقين فيه من العرب(١).

ـ أزمة اليسار والقوميين:

لم يمنع هذا الإصرار رموز اليسار العربي من إبداء إعجابهم الشديد بالثورة الوليدة، وانطلق «الليبراليون واليساريون من الكُتّاب والمثقفين، ابتداء من أدونيس حتى عالم الاجتماع القبطي المصري اليساري سابقاً أنور عبد الملك، جميعهم شاركوا بعض الإسلاميين إعجابهم بالثورة الناجحة، وبأبعاد التغيير الثوري في العالم العربي الإسلامي»(٢).

وحالياً يبدي رموز اليسار والقوميين والناصريين إعجاباً واضحاً بحزب الله، يقول مصطفى بكري رئيس تحرير صحيفة الأسبوع: «هذه الأصوات المسمومة التي تنطلق ضد حزب الله على الساحة اللبنانية وخارجها يجب عليها أن تلتزم الصمت وأن تتوقف، فهؤلاء هم آخر من يتحدث عن لبنان وعن استقلاله وعن أمنه»، وهو لا يسمح بانتقاد الحزب، ويكرر مصطلحاته نفسها حول معارضيه ومنتقديه، فيقول: إن هؤلاء يجب أن «يتواروا خجلاً، وأن يطلبوا العفو من الجماهير وأن يراجعوا موقفهم من حزب الله ومن سيد المقاومة حسن نصر الله»، ويتبنّى بكري رؤية الحزب نفسها بخصوص سوريا، فيؤكد أن «سقوط سوريا أو نزع سلاح المقاومة حتماً سيفتح الطريق لتمرير المخطط ضد عواصم عربية أخرى»(٣).

---

(١) صالح القلاب، الشرق الأوسط، ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٢) الطائفية والسياسة، د. فرهاد إبراهيم، ص ٣٧١.

(٣) الأسبوع، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

ولعل الملاحظة في تكرار الاغترار «اليساري الليبرالي القومي» بهذه الثورات وفروعها، هو تجنيب هذه التيارات العلمانية ـ أو شبه العلمانية ـ للعقيدة الإسلامية في توجيه أفكارهم وتصوراتهم بنسبة مائة بالمائة، فنجدهم دوماً أسرع الناس تورطاً في التأييد، ولا يخفى طبعاً تميز الثقافة الشيعية بقدرة ذاتية على اجتذاب الفكر اليساري كما أشرت إلى ذلك في الفصل الأول.

الفائدة من تحليل هذا «التورط» اليساري، أن نتعرف على أهمية المنطلقات العقدية في تحديد الولاءات السياسية، فلا يمكن عند التعرض لحزب الله اللبناني تجاوز مكوناته الأيديولوجية أو تشعباته الخارجية الدينية، ثم النظر إليه نظرة مجردة من كل ذلك، مع الاقتصار على ترداد الصورة التي يريد هو أن ينقلها إلينا عن نفسه.

لذلك نجد في مقابل «التورط اليساري» المقترن باستبعاد تام للعقيدة، استيعاباً كبيراً لدى التيارات السلفية لخطورة حزب الله؛ لأنهم أكثر فئات المجتمع تقيداً بثوابت العقيدة في تحديد ولاءات السياسة.

وما بين هذا وذاك تقبع فئات من المجتمعات الإسلامية السُّنية متأثرة بآلة الإعلام الجبارة ومنقادة حسب تقديرات الرموز والساسة التي تتأثر في أحيان كثيرة باعتبارات ومصالح وتوازنات.

ـ وهم الاعتدال:

والقوم لا يخفون عقيدتهم ولا يتعبون أحداً في بيان حقيقة ولاءاتهم، ويبقى على الناقد البصير أن يحدد توجهاته تجاههم، ولا ينخدع بدعاوى الاعتدال والتوسط ومحترفي «التقريب بين المذاهب»، فإن التطرف الشيعي كثيراً ما يتسرب من الثقوب التي يصنعها المعتدل الشيعي في الوعي السُّني، وهي آلية مستمرة ومتواصلة بلا توقف، سواء أقنعنا أنفسنا بنظرية المؤامرة، أو أحسنا الظن، والرجوع إلى الأدبيات الشيعية، وخاصة من يُسمون بالمستبصرين ـ المتشيعين من السُّنة ـ يكشف بجلاء أن الاعتدال كان في محصلته عامل اختراق للجدار السُّني.

الأمر الملفت في هذا الصدد أن هذا الوصف بالاعتدال يكون وهمياً غالباً، وفي لبنان يبرز محمد حسين فضل الله كأبرز مدعي الاعتدال والتسامح بين السُّنة

والشيعة، ولكن تسامحه لم يمنعه من الإفتاء لأتباعه بأن أهم كتب الحديث عند السُّنة ليست صحيحة، يقول فضل الله عن البخاري ومسلم: «علماء الشيعة درسوا أسانيد البخاري ومسلم ولم يروها جديرة بالثقة إلا في حالات محدودة...»، وهذه الحالات المحدودة طبعاً هي التي تتحدث عن فضل آل البيت وما يتأوله الشيعة لدعم معتقدهم، وبعد أن نسف فضل الله أحاديث الكتابين، نسف رواتهم أيضاً، فقال: إن علماء طائفته «لايعتبرون الرواة الذين اعتمدهم البخاري أو مسلم في مستوى الثقة أو هكذا يرى الكثيرون منهم»، ثم يتدارك ويطمئن رفاقه في التقريب والتسامح ويؤكد «المسألة لا تنطلق من حالة عصبية»(١).

وعملت سفارة إيران في بيروت منذ تأسيس حزب الله بوصفها مركز اتصال متقدم على اختراق الرأي العام السُّني، ويقول السفير «حجة الإسلام» فخر روحاني: «لقد تمكنا عن طريق سفارتنا في بيروت من توحيد آراء السُّنة والشيعة حول الجمهورية الإسلامية والإمام الخميني، والآن غالبية خطباء السُّنة يمتدحون الإمام الخميني في خطبهم»(٢).

- لا للعقيدة:

من الأمور المحيرة رغم ذلك إصرار كثير من المثقفين السُّنة على استبعاد العقيدة والدين من القضية، يقول صالح القلاب: «لا مكان للعامل المذهبي في هذه المعادلة على الإطلاق... العامل المذهبي ليس هو الذي تحكم في معادلة العلاقات بين الدول العربية الخليجية وإيران، إنْ تباعداً وإن تقارباً، بل إن العامل السياسي هو الذي بقي يتحكم بهذه المعادلة منذ عام ١٩٧٩ وحتى الآن»(٣)، وكتب صحفي آخر يؤكد أن «إيران غير معنية ابتداءً بالتشيع الديني، ولا تريد فتح جبهات في هذا المجال»، رغم أنه يكتب عن انتشار التشيع في بلده(٤)، أي: أن المشكلة لم تعد استخدام الدين

---

(١) فتاوى فضل الله، الفتوى رقم ٢٦٦٠.

(٢) حوار مع صحيفة إطلاعات الإيرانية في العام ١٩٨٤م، نقلاً عن مقال: انتصار حزب الله ح ٢، الشيخ محمد سرور، مجلة السنة عدد ٩٧.

(٣) الشرق الأوسط، ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٤) محمد أبو رمان، صحيفة الغد، ٤/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

لفهم السياسة، بل إن الدين يتم إبعاده لتبقى السياسة، إذ لا يحمل التشيع في أصله سوى الدلالات الدينية، وما سواها تأتي لاحقاً وفرعاً على ذلك، أما أن يتحول التشيع إلى نشاط سياسي محض فلا يمكن قبول ذلك بإنصاف.

ـ قناة المنار:

والذين يستنكفون عن «إقحام» العقيدة، يغفلون عن تحول قناة المنار الناطقة باسم حزب الله إلى منبر لنشر العقيدة الجعفرية، وهذا بشهادة الشيعة أنفسهم وليس تجنياً عليهم، يقول أحد المثقفين الشيعة: «فكرة فضائية ومحطة المنار التي يتبنّاها حزب الله في لبنان مثالاً لمحطة أعطت فرصة للفكر الجعفري في الانتشار والوصول إلى المشاهد الإسلامي الذي لم يشهد محطة يبدي فيها نظر هذا المذهب الإسلامي بحرية»، ويقول أيضاً: «التجربة اللبنانية خير دليل على أن الدور الإعلامي يمكن أن تقوم به مؤسسة إعلامية فضائية في التأثير على المجتمعات ونشر الوعي الديني ومذهب أهل البيت إلى كل بيت في العالم الإسلامي»(١).

وتتبع المنار أسلوب «المظلومية» بسياق إعلامي، فتجعل حزب الله مستهدفاً بالمؤامرات والتآمرات من جهات عديدة داخلية وخارجية، وتستدعي خطاب النصرة باعتبار أن المظلوم المعرض للتآمر يجب تأييده ودعمه، وتقدم القناة هذا الخطاب من خلال برامج الصحافة الغربية والعربية، والتي يتم انتقاؤها بعناية شديدة لتأثيرها في تواصل التعبئة الجماهيرية داخل وخارج لبنان.

ولإكمال الصورة؛ تقدم المنار تغطية إعلامية حرفية لجانب آخر من المظلومية مضافاً إليه عنصر «الدماء»، وكانت تغطية مقتل أحد الشيعة في احتكاك مع بعض السُّنة في تظاهرات الشوارع مثالاً دقيقاً لذلك، فقد بدأ مذيع نشرة الأخبار في ذلك اليوم (٤ / ١٢ / ٢٠٠٦م) قائلاً للمراسل: «ضياء يبدو أن اليوم مميز خاصة بعد نقل جثمان الشهيد أحمد محمود»، ثم تنتقي القناة عبارات خاصة لأهالي «المظلومين» تطالب بالقصاص «بدنا كلمة السيد حسن»، «بدي السيد حسن ياخد لي بتاري»، وفي الفواصل بين فقرات النشرة الإخبارية النارية تأتي الأناشيد والأهازيج الممنتجة

(١) مقال: المشروع الفضائي الشيعي هل هو ضرورة؟ جمال حسين، موقع منتدى القرآن.

بعناية لتؤكد على باقة من الحتميات: نصر الله القائد.. النصر قادم لا محالة.. الحكومة العميلة.. إلخ، وتنتهي نشرة الأخبار وتوابعها الحوارية لتعطي المشاهد انطباعاً بأن العالم إما أنه يتآمر على حزب الله، أو يبدي إعجابه الشديد به، المهم أن الحزب هو محور الحدث.

- خدعة الهدوء والاستقرار:

وتمثل فترات الهدوء أو - فترات الكمون والبرجماتية - عنصر اختراق آخر للرأي العام السُّني، وفي لبنان أراد المفتي الشيخ محمد رشيد قباني التعبير عن تسامحه بالثناء على موسى الصدر، فقال في مناسبة ذكرى اختفائه: «ليت الإمام السيد موسى الصدر معنا اليوم وفي هذه اللحظة وفي مثل هذه الظروف لتروا ونرى كيف نصنع، إن أفكار السيد موسى الصدر هي دائمة بيننا»[١]، وهذه المجاملات تؤدي إلى نتائج عكسية لاحقاً، وتُغرق قطاعات من الجماهير في الفتنة أو التخبط وتشوّش على أفكارهم وتصوراتهم.

- الحركات الإسلامية:

منذ قيام الثورة تحرص إيران على تقوية علاقاتها بالحركات الإسلامية أو بعضها، وبذلت في سبيل ذلك جهوداً واضحة، وكان كمال خرازي وزير الخارجية الإيراني السابق مسؤول الاتصال مع التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين في فترة الثمانينيات[٢]، إلا أن إيران ظلت دائماً تحمل مواقف متناقضة من الجماعة حسب مصالحها السياسية، وبينما تحاول اكتساب تأييد بعض رموزها، تطعن بشدة في آخرين، فهي تعتبر الإخوان المسلمين في سوريا - مثلاً - عملاء للعراق والصهيونية؛ لأنهم يعارضون نظام الأسد النصيري[٣]، فالقضية إذاً ليست دعماً لنشاط دعوي أو سياسي إسلامي، بقدر ما هي محاولات اختراق حقيقية، وتبقى تحالفات وعلاقات إيران العقدية الباطنية هي الأكثر ثباتاً في نطاق العالم الإسلامي.

---

(١) ٣١/٨/٢٠٠١م، موقع حركة أمل:
http://www.amal-movement.com/kalofilimam10.htm.

(٢) صنع القرار في إيران، ص ١٠٥.

(٣) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، ص ٢٣١.

وكان هاشمي رفسنجاني يتحدث إبان رئاسته للبرلمان الإيراني عام ١٩٨٥م عن أوجه الشبه بين الحركات الإسلامية في مصر وبدايات الثورة في إيران، وفي الوقت نفسه تقريباً قدم الدكتور رفعت سيد أحمد رسالته لنيل الدكتوراه عن الحركات الإسلامية في مصر وإيران ـ دراسة مقارنة ـ وهو من أقوى المؤيدين لحزب الله حالياً، وفي تقديم لحوار أجراه مع حسن نصر الله عشية نزول «المقاومة» إلى شوارع بيروت، قال: «ما يربط كاتب هذه السطور بالسيد حسن نصر الله أكبر من علاقة صحفية، بل هي علاقة محبة وصداقة.. حملت أسئلة الأمة القلقة على المقاومة من مؤامرات السياسة وشوارعها.. أردت أن أطمئن عليه... أتت إجاباته لتمثل بلسماً شافياً من القلق والشكوك والمخاوف، أتت لتعيد الأمل.. ولترفع اللبس عن طبيعة المعركة الدائرة، وعما أراد البعض من الغلاة والسماسرة والمنافقين، أن يزرعوه في عقول العامة بحسبانه صراع بين سُنة وشيعة وما هو كذلك، إنه صراع سياسي وقومي بامتياز»[(١)].

ويكتب الصحفي الإسلامي محمد عبد القدوس عن نصر الله مقالاً بعنوان «لماذا نحب نصر الله؟» يقول فيه: «لاحظ أنني ذكرت كلمة الحب بصيغة الجمع؛ لأن حبي له يشاركني فيه ملايين من العرب في كل مكان، وأعتقد أن الأمين العام لحزب الله اللبناني يأتي في المرتبة الأولى بلا منازع في حب الناس له بين كل القادة العرب، وأخيراً أقول: إن حب السيد حسن نصر الله لا يمكن أن يكفيه مقال واحد»[(٢)].

وأطلقت إيران أسماء سيد قطب والشيخ عبد الحميد كشك على شوارع في طهران[(٣)] التي ليس بها مسجد واحد للسُّنة، بينما شوارع بأكملها تحمل أسماء سُنية، وأصدرت طوابع باسم سيد قطب والإسلامبولي[(٤)].

(١) حوار مع نصر الله، ٧/ ١٢/ ٢٠٠٦م، موقع منتدئ القرآن.
(٢) هكذا تكلم نصر الله، ص ١٨٩.
(٣) الخطاب الإعلامي للثورة، ص ٢٣١.
(٤) الشرق الأوسط، ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

وقد أشرنا إلى العلاقة بين الحزب والداعية الإسلامي فتحي يكن في فصل سابق.

ولحزب الله علاقات مع بعض الحركات الإسلامية اللبنانية وغيرها، ومنها: حركة التوحيد الإسلامية السُّنية في طرابلس، وكان زعيمها الأول الشيخ سعيد شعبان متعاطفاً مع الثورة الإيرانية، يقول إبراهيم الأمين أول أمين عام لحزب الله: «مولانا العزيز الشيخ سعيد شعبان... رمز كبير من رموز الحركة الإسلامية في لبنان والعالم»(١).

ـ الجزيرة أم المنار (٢)؟!

«أولاً يجب أن أتقدم من جنابك ومن قناة الجزيرة؛ الإدارة والعاملين صحفيين والإداريين وكل العاملين في هذه القناة على الدور الكبير الذي قمتم به أثناء ما سميتموه بالحرب السادسة»، هذه العبارات العاطفية نطق بها حسن نصر الله في لقائه مع غسان بن جدو مدير مكتب الجزيرة في بيروت ـ ومكتب طهران سابقاً ـ، وقد اضطرت هذه المجاملة بن جدو أن يقول لنصر الله: «نحن سماحة السيد قمنا بواجبنا المهني والإعلامي..لم نكن جزءاً من آلة تحريضية عليكم ولكن أيضاً لم نكن جزءاً من (Propaganda) لحسابكم، نقلنا الواقع كما هو»(٢).

ويحظى نصر الله بلقاءات مطولة ومنفردة في قناة الجزيرة يقدمها غالباً غسان بن جدو، الذي يحرص على إبراز مكانة زعيم حزب الله بوصفه زعيماً عابراً للحدود اللبنانية، وفي إحدى لقاءاتهما الكثيرة، قال غسان: «السيد حسن نصر الله إذا تحدث الآن حيّر، وإذا صمت أيضاً حيّر، لكنه آثر الكلام كي لا يحيرنا فنحتار، فنحن الرأي العام إذا احترنا حيّرنا»(٣).

أثناء حرب يوليو ٢٠٠٦م، بثت قناة الجزيرة تقريراً إخبارياً لمراسلها عباس ناصر قال فيه: إن القوات الإسرائيلية دخلت كل القرى السُّنية والمسيحية

(١) دولة حزب الله، ص ٣٤٦.

(٢) برنامج (لقاء خاص)، الجزيرة، ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م، الجزيرة نت.

(٣) برنامج (لقاء خاص)، الجزيرة، ٨/ ٥/ ٢٠٠٣م، الجزيرة نت.

ولم تتمكن من الدخول إلى القرى الشيعية[١]، وعباس ناصر شيعي قريب من حزب الله، وكان مراسلاً للجزيرة في طهران، وزوجته «فاطمة» تعمل في قناة العالم الإيرانية، وقد انتقل ناصر في حياته الإعلامية دوماً بين جهات ذات طابع شيعي من طهران إلى إذاعة البحرين، وهو لا يخفي مشاعره في تقاريره ولا ينكر وجودها في حديثه، فيقول: «الانفعالات والتحليل ووضع الخبر في سياق معين أعتقد أنها مساحة مشروعة للمراسل»[٢].

وبعد انتهاء الحرب العسكرية وبدء الحرب السياسية، استمرت تغطية الجزيرة للشأن اللبناني متعاطفة بصورة واضحة مع تيار حزب الله، ومحدثة خرقاً شيعياً في الرأي العام السُّني المتابع للقناة، حتى أن بعض المحللين وصفها بأنها «المنار ٢».

وقد أثارت تغطية القناة لحادثة اغتيال الوزير الماروني بيير الجميل ملاحظات كثيرة حول موالاتها الواضحة للحزب وحلفائه، والدلائل متعددة، ومنها:

- كان غسان بن جدو هو المعلّق الرئيس على الأحداث والضيف الدائم لعدة ساعات، وتولى «توليف» كلام الضيوف الآخرين بحسب توجه القناة.

- عقد رموز في كلا التيارين المعارضة والأكثرية مؤتمرات صحفية، وكانت مؤتمرات رموز المعارضة منقولة مباشرة بكاميرات الجزيرة حتى وإن كانت خارج بيروت، وأما مؤتمرات رموز الأكثرية فأغلبها نقل من قنوات أخرى ولفترات أقل وإن كانت من بيروت.

- حرصت الجزيرة في ذلك اليوم وبعده على استضافة رموز مسيحية من تيار الأكثرية بتركيز واضح لسحب «السِّمَة السُّنية» التي تميز التيار، بينما كان رموز حزب الله أغلب من يتكلم باسم المعارضة.

- وفي إحدى حلقات برنامج «حوار مفتوح» تقديم: بن جدو، وكان التوقيت في بداية الاعتصامات، حرص غسان على استضافة وزيرين محاصرين داخل سراي الحكومة، وشخصين يمثلان المعارضة من الخارج، ومع تنقل الكاميرا بينهما يصل

(١) مفكرة الإسلام، ١٣/ ٨/ ٢٠٠٦م.

(٢) حوار مع موقع إسلام أون لاين.

الانطباع إلى المشاهد بأن المعارضة تحاصر الحكومة الضعيفة.

ـ تمتلك قناة الجزيرة مستوى عالٍ من الحِرَفية والمهنية يجعلها قادرة على تمرير رسائل إعلامية كثيرة جداً دون أن يشعر المشاهد السُّني الذي لا يملك قدرة نقدية كافية، ولا شك أن مكانة حزب الله التي تعززت في أوساط الرأي العام السُّني منذ عملية اختطاف الجنديين ثم الحرب، للجزيرة فضل كبير في بلوغها، هذه المكانة جعلت طلال سلمان رئيس تحرير صحيفة السفير اللبنانية المؤيدة للحزب، يسأل حسن نصر الله بعد الحرب: «هل يمكن القول: إن حزب الله الشيعي صار زعيماً للعرب السُّنة في المعركة مع اسرائيل»[1].

---

(١) ١٥/ ٩/ ٢٠٠٦م، موقع وعد التابع لحزب الله.

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر

* الكتب:

(١) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي.

(٢) المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية، جواد علي، منشورات الجمل.

(٣) هكذا تكلم نصر الله، محمد حسين بزي، دار الأمير - بيروت لبنان.

(٤) حدائق الأحزان، إيران وولاية الفقيه، د. مصطفى اللباد، دار الشروق - القاهرة.

(٥) إيران بين التاج والعمامة، أحمد مهابة، كتاب الحرية، دار الحرية - القاهرة.

(٦) التحول العاصف في إيران، خالد محمد البسيوني، دار الأحمدي للنشر - القاهرة.

(٧) الفقه السياسي في إيران وأبعاده، د. محمد السعيد عبد المؤمن، هجر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة.

(٨) صنع القرار في إيران، والعلاقات العربية الإيرانية، د. نيفين عبد المنعم مسعد، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت لبنان.

(٩) تطور الفكر السياسي الشيعي، أحمد الكاتب.

(١٠) الطائفية والسياسة في العالم العربي، تأليف د. فرهاد إبراهيم، مكتبة مدبولي - القاهرة.

(١١) الإسلاميون في مجتمع تعددي، حزب الله نموذجاً، تأليف د. مسعود إلهي، الدار العربية للعلوم - بيروت لبنان.

(١٢) موسى الصدر، قدر ودور، حوارات مع حسين كنعان، دار النهار - بيروت لبنان.

(١٣) القضية الأحوازية، عباس عساكرة، دار الحكمة - لندن.

(١٤) رقعة الشطرنج الكبرى، زبجنيو بريجنسكي، الأهلية للنشر والتوزيع - عمان الأردن.

(١٥) العلاقات السياسية الدولية واستراتيجية إدارة الأزمات، د. ثامر كامل الخزرجي، مجدلاوي للنشر والتوزيع - عمان الأردن.

(١٦) الخطاب الإعلامي للثورة الإيرانية، وأثره على العلاقات الخارجية، د. عصام السيد عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة.

(١٧) هذا هو التشيع بلسان الخوئي، عبد الملك بن عبد الرحمن الشافعي، مكتبة الرضوان، البحيرة - مصر.

(١٨) قواعد جديدة للعبة: إسرائيل وحزب الله، دانييل سوبلمان، مركز جافي للدراسات، الدار العربية للعلوم - بيروت لبنان.

(١٩) دولة حزب الله، وضّاح شرارة، دار النهار - بيروت لبنان.

(٢٠) التقرير الاستراتيجي السنوي لمجلة البيان، الإصدار الثالث.

(٢١) إيران الحائرة بين الشمولية والديمقراطية، يوسف عزيزي، دار الكنوز الأدبية - بيروت لبنان.

(٢٢) السيد مقتدى الصدر، صدر العراق الثالث، أهدافه مواقفه مشروعه، محسن النوري الموسوي، مركز ولي الله للدراسات والتوجيه والإرشاد.

(٢٣) مذكرات بول بريمر «عام قضيته في العراق، النضال لبناء غدٍ مرجوّ» دار الكتاب العربي - بيروت لبنان.

(٢٤) التيارات السياسية في إيران، حجت مرتجي، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.

(٢٥) موسوعة أنواع الحروب، الفريق ركن الدكتور محمد فتحي أمين، دار الأوائل ـ دمشق سوريا.

(٢٦) حزب الله حقائق وأبعاد، فضيل أبو النصر، الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت لبنان.

(٢٧) يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان ٢٠٠٦م، النصر المخضب، إصدارات السفير ـ بيروت لبنان.

(٢٨) إسرائيل وحزب الله، الحرب النفسية، عبد الحليم حمود، دار الهلال ـ بيروت لبنان.

* الدوريات:

(١) صحيفة القبس الكويتية.

(٢) صحيفة الرأي العام الكويتية.

(٣) صحيفة الجزيرة السعودية.

(٤) صحيفة الشرق الأوسط.

(٥) صحيفة الدستور المصرية.

(٦) جريدة الجرائد العالمية.

(٧) صحيفة الحياة.

(٨) صحيفة الحدث.

(٩) صحيفة النهار.

(١٠) صحيفة السياسة الكويتية.

(١١) صحيفة الأهرام المصرية.

(١٢) صحيفة المستقبل.

(١٣) صحيفة روز اليوسف اليومية المصرية.

(١٤) صحيفة الوسط البحرينية.

(١٥) صحيفة الوطن السعودية.

(١٦) صحيفة الديار اللبنانية.

(١٧) صحيفة اليوم.

(١٨) صحيفة السفير.

(١٩) صحيفة ديلي ستار اللبنانية.

(٢٠) صحيفة المصري اليوم.

(٢١) مجلة المجلة.

(٢٢) مجلة المشاهد السياسي.

(٢٣) مجلة الشراع.

(٢٤) مختارات إيرانية.

(٢٥) مجلة الوطن العربي.

(٢٦) مجلة السُّنَّة.

(٢٧) مجلة الفكر الجديد.

(٢٨) مجلة الحوادث.

(٢٩) مجلة الشؤون الخارجية.

(٣٠) صحيفة الاتحاد الإماراتية.

(٣١) صحيفة القدس العربي.

(٣٢) صحيفة الأسبوع القاهرية.

(٣٣) صحيفة الأنوار اللبنانية.

(٣٤) صحيفة الجمهورية المصرية .

(٣٥) صحيفة الغد .

* **مواقع الإنترنت:**

(١) موقع قناة العالم الإيرانية .

(٢) العربية نت .

(٣) الجزيرة نت .

(٤) موقع مجلة الحوار المتمدن .

(٥) موقع مفكرة الإسلام .

(٦) موقع منتدى القرآن ـ شيعي .

(٧) موقع تبنين منارة جبل عامل : http://www..tibneen.com .

(٨) موقع الإمام الخميني وولاية الفقيه في المذهب الشيعي .

(٩) موقع الدعوة الشيعي : http://www.daawa.org/asaderbook/1.htm .

(١٠) موقع دار الإسلام ـ شيعي .

(١١) الموقع الشيعي بني حيان :

http://www.banihayan.com/MOUSSA%20AL%20SADER.htm .

(١٢) موقع الإمام موسى : http://www.imam-moussa.com/sirah.htm.

(١٣) موقع حركة أمل : http://www.amal-movement.com/kalofilimam1.htm.

(١٤) شبكة أقلام الثقافية الشيعي .

(١٥) موقع الجيش اللبناني الرسمي ، الرصد الإعلامي .

(١٦) موقع البرلمان الهولندي ـ شيعي .

(١٧) موقع المقاومة التابع لحزب الله : http://www.moqawama.org .

(١٨) موقع الوفاق الشيعي .

(١٩) شبكة الشيعة : http://www.shiaweb.org .

(٢٠) موقع حرمة : http://harmah.org .

(٢١) موقع اللجنة المركزية لمنظمة عربستان :

http://www.arabistan.org.76_2006/asaleeb_rakhesah.htm.

(٢٢) موقع حزب الكتائب اللبناني .

(٢٣) موقع مجلة المسيرة : www.almassira.com .

(٢٤) موقع أحرار سوريا .

(٢٥) الموقع الشخصي لياسر أبو هلالة مدير مكتب قناة الجزيرة في الأردن .

(٢٦) موقع سوريا نيوز .

(٢٧) موقع مركز استخبارات الإرهاب ، وهو موقع إسرائيلي شبه رسمي .

(٢٨) موقع وكالة رويترز .

(٢٩) البصرة نت .

(٣٠) إسلام أون لاين .

(٣١) موقع إيلاف .

(٣٢) موقع صحيفة الأهالي العراقية .

(٣٣) موقع المختصر للأخبار .

(٣٤) موقع الساحات .

(٣٥) فتاوى فضل الله .

(٣٦) موقع بوابة العرب .

(٣٧) موقع الإسلام اليوم .

(٣٨) موقع قناة الفيحاء الشيعية :

http://www.alfayhaa.tv/main/showart.php?artID=330&catID=2.

(٣٩) موقع بينات ، الموقع الشخصي لفضل الله .

(٤٠) موقع إباء ، الوكالة الشيعية للأنباء .

(٤١) موقع فيصل نور .

(٤٢) شبكة نور الإسلام .

(٤٣) موقع المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب .

(٤٤) الموقع الشخصي للشيخ محمد بن سرور .

(٤٥) موقع وعد :

http://www.wa3ad.org/index.php?show=news&action=article&id=1948.

(٤٦) موقع الاتجاه الآخر :

http://www.alitijahalakhar.com/archive/140/news140.htm.

(٤٧) موقع القناة .

(٤٨) موقع سوريا الحرة .

(٤٩) موقع وكالة سانا للأنباء .

(٥٠) موقع الحملة العالمية لمقاومة العدوان .

(٥١) موقع شفاف الشرق الأوسط ، موقع فرنسي .

(٥٢) موقع الحزب التقدمي الاشتراكي .

(٥٣) موقع صفحات سورية .

(٥٤) موقع مجلة جسور .

(٥٥) موقع مجلة ليلى اللبنانية .

(٥٦) موقع (BBC) .